الجمهورية العربية السورية
جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ



المدينة المنورة منذ المبعث حتى غزوة تبوك

(سياسياً - اقتصادياً - اجتماعياً - فكرياً)

(١٣ق.هـ- ٩هـ/ ٦١٠ - ٦٣٠م)

أطروحة أُعدّت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد

مها محمد البيطار

إشراف

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م

أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل
لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ ﴾

(الإسراء: ٨٠)

﴿بطاقة شكر﴾

إنه ليسعدني في نهاية المطاف أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى جامعة دمشق التي أوفدتني، والتي أتمنى لها مكاناً مرموقاً بين جامعات العالم، وأتوجه بعميق الشكر وعظيم التقدير للأستاذ الدكتور سهيل زكار المشرف على إنجاز هذا العمل، والذي كان له الفضل الكبير بعد الله عز وجل في إتمامه، وتجاوز في درجة عطائه أي مشرفٍ، فكان له الفضل في اقتراح هذا الموضوع، والإشراف عليه، وتقديم كل ما يلزم لإتمامه، فجزاه الله عني خير الجزاء.

فهرس المحتويات

الرموز المستخدمة

ت : توفي
تح: تحقيق
تر: ترجمة
ط: طبعة
مج: مجلد
ج: جزء
ص: صفحة
د.ت: دون تاريخ نشر
د.م: دون مكان نشر
د.ن: دون دار نشر
م: ميلادي
هـ: هجري

ملخص البحث

يشكل الموضوع محاولة جديدة للبحث في التاريخ الإسلامي في إلقاء الضوء على الانتقال الحاصل في يثرب الذي حولها من واحة نخيلٍ في قلب الصحراء إلى مدينة الإسلام، ومركز الدولة في هذه المدة القصيرة نسبياً.وقد تم تقسيم الأطروحة إلى فصولٍ خمسةٍ.

تناول الفصل الأول التعريف بالمدينة قبيل الإسلام، بدءاً من أصل تسميتها، مروراً بسكانها، والحديث عن الحروب التي أنهكت المدينة، ومن ثم المرور على الحالة السياسية والاقتصادية والدينية لها قبل الهجرة.

وتضمن الفصل الثاني التحول السياسي الحاصل في المدينة. بدءاً من تنظيم وضعها الداخلي، وبناء المسجدا لنبوي الذي تعددت وظائفه وأصبح مركزاً جامعاً لها، ومن ثم الصحيفة التي شكلت دستور هذه المرحلة. ثم التوجه خارج المدينة، والتعامل مع العنصر المعارض للوجود الإسلامي من منافقين ويهود. وبعد ذلك الحديث عن التوجه خارج المدينة، بالحديث عن استهداف المسلمين لقريش والضغط عليها لتغيير موقفها من الدعوة الإسلامية، والثاني اختص بسرايا وغزوات الشمال، وذكر أهم النقاط فيها.

أما الفصل الثالث فقد اختص بدراسة نتائج الهجرة على الوضع الاقتصادي وآثارها في المدينة، فبدأ بذكر الشدة الاقتصادية التي عانى منها كل من المهاجرين والأنصار. ثم أهم وأبرز التغيرات والتنظيمات في شؤون الحياة الاقتصادية بعد الهجرة، ثم الحديث عن الموارد المالية الجديدة.

ثم تناول الفصل الرابع نتائج الهجرة على الوضع الاجتماعي في المدينة، بالتطرق إلى نشأة الأمة، والتبدلات الحاصلة في مجتمع المدينة.

وتم في الفصل الخامس إبراز نتائج الهجرة على النواحي الفكرية في المدينة بالحديث عن المسجد النبوي كمركز فكري أول في المدينة. والاهتمام بالكتابة الوسيلة الأهم للتدوين، والمرور على نماذج من رواد هذا النشاط الفكري. وتأثير الإسلام في الشعر والخطابة خاصة من فروع الأدب.

تضمنت الخاتمة عرضاً لأهم نتائج الدراسة التي تم التوصل إليها، وبعد ذلك الملاحق، وقائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث.

المقدمة

بسم اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ، والحَمْدُ للهِ ربِّ العالمين، الرّحمنِ الرّحيمِ، مَالِكِ يَومِ الدّينِ، والصّلاةُ والسّلامُ على نبيّهِ وَحبيبهِ وصَفيّهِ مُحمّدٌ بنِ عبدِ اللهِ وَعَلى آلهِ وَصحْبِهِ أجمعينْ، أما بعد:

شكلت الدعوة إلى الإسلام في مكة ثورةً على كلّ المفاهيم التي كانت سائدةً في العصر الذي ظهرت فيه، فواجهتها مقاومةٌ عنيفةٌ، ومصاعبُ جمةٌ، وتعرّض المسلمون الأوائلُ للكثير من الشدائدِ، فكانت الهجرة هي الحل المتبقي للنجاة بعدما أُغلقت كلّ الأبواب، وانتهت كل الوسائل والسبل. فبدأت مرحلةٌ جديدةٌ في تاريخ الدعوة، وتاريخ المكان الذي انتقلت إليه، وبدأ تأثير ذلك ينتشر إلى ما حوله حتى عمّ مساحةً واسعةً، وشمل مناطق مترامية، وهدى إليه قلوباً وعقولاً كثيرةً. فظهر أثره في المدينة، وانتقل إلى الحجاز أولاً، والجزيرة ثانياً، وخرج أخيراً ليرث أكبر إمبراطوريتين آنذاك، بيزنطة وفارس.

لم تعرف شبه الجزيرة العربية عموماً حُكماً موحّداً حتى قيام الدولة العربية الإسلامية، حيث اختلفت كل منطقة عن الأخرى في ذلك، فخضعت بعضها لقوىً خارجية وكانت ميداناً للتنافس، وساحةً للصراع الدولي كاليمن، وشرقي الجزيرة العربية، وجلّها كانت تعيش وفق نمط الحياة البدوية ولا يعرف من سَكَنَها حُكماً ولا عُرفاً إلاّ حُكمَ وعُرفَ القبيلة، فقد ساعدت طبيعة البيئة الصحراوية المسيطرة عموماً على قلة التمازج، والتأثر بمؤثرات خارجية تخفّف من نمط البداوة والارتباط الشديد بالقبيلة، فظلت على قبليتها وعصبيتها وعشائريتها، وقد نقلت القبائل المستقرة منها إلى المناطق التي استقرت بها نُظُمها القبلية، وحاولت تطبيقها بها، فحصل اضطرابٌ وتخلخلٌ في كثيرٍ من شؤونها، لعدم ملاءمةِ هذه النّظم لنمط الحياة المستقرة عموماً، عملت بعضها على احتواء هذه الاضطرابات كي لا تتحول إلى خلافاتٍ فتؤدي إلى صراعاتٍ وحروبٍ تُخلّ بالأمن والسّلْم فيها، كقبيلة قريش في مكة، التي احتوى زعماء عشائرها من خلال " الملأ "كلّ خلافاتها ونزاعاتها، وأوجد صيغةً وسطاً تكون حلاً لذلك، وتصبح عُرفاً فيما بعد، الأمر الذي لم يتوفر في مناطق أخرى، وعند قبائل مختلفة، كالمدينة المنورة، التي كانت تسمى يثرب قبل الإسلام، والتي هي موضوع البحث والدراسة.

تعد المدينة المنورة– يثرب قبل الإسلام – من مدن الحجاز المهمة، تقع شمال مكة في أرضٍ بركانية ذات تربة خصبة، غزيرة المياه تكثر فيها الأودية، الأمر الذي ساهم بغلبة الطابع الزراعي عليها،

بالإضافة إلى وقوعها على طريق التجارة الواصل بين اليمن والشام الذي تمتع بأهميةٍ كبيرةٍ في القرن السادس الميلادي. وقد سكنتها قبائلُ يهوديةٌ وقبائلُ عربيةٌ، وكِلا المجموعتين كانتا تتألفان من عشائر عدة، وكان ارتباط أفراد هذه القبائل الشديد ليس بالقبيلة فقط، بل بالعشيرة أي بالدائرة الأضيق، مما أدى إلى قيام الصراعات والاقتتالات بينها، التي حدثت طيلة القرن السادس الميلادي، كما ذكرت المصادر، بين القبائل اليهودية وبين العربية أولاً، وأخيراً بين عشائر القبائل العربية أنفسها من الأوس والخزرج، واستمرت حتى قبيل قدوم رسول اللهﷺ. هذا الأمر أفقد المدينة زعامةً بارزةً تتولى شؤونها وترتقي بمكانتها، مما أبعدها أو جعلها تأتي بمرتبةٍ ثانية بعد مكة، على الرغم من امتلاكها ميزاتٍ وخصائصَ جغرافيةً واقتصاديةً تجعلها تتفوق عليها، فهي لم تعتمد على نشاطٍ اقتصاديٍّ واحدٍ كما في مكة، التي أصبحت التجارة عصب الحياة بالنسبة لها، فقد وجدت فيها الزراعة، والصناعة، والتجارة، إلاّ أنّ خلافاتها وانعدام التجانس بين فئاتها سواءً في الدين، أو في المصلحة أعاقا اتخاذها أي دور فاعل في شبه الجزيرة كالذي شغلته مكة.

ما لبثت المدينة أن احتضنت الدعوة الإسلامية، ونهضت بالإسلام وكان لها الدور المتميز في ترسيخ مكانته، وإظهار أمره بعد أن رفضته قريش في مكة ومعظم القبائل، وبدأت مكونات الدولة بالنشوء بعد هذا الاستقرار، وحصلت تغييراتٌ وتطوراتٌ في المدينة على مختلف الأصعدة، فامتلكت المدينة الزعامة الواحدة التي وحّدت بين سكانها، ونهضت بها، واستثمرت إمكانياتها وارتقت بمكانتها فأصبحت مركز الدولة.

بدأت ملامح التغيير والتحول والانتقال فيها بالظهور، من بلدةٍ زراعيةٍ صغيرةٍ إلى مدينةٍ هي مركزُ دولةٍ بل مركزُ أمّةٍ، وتأثرت جميع جوانب الحياة وتطورت فيها، فمن الناحية السياسية، بدأ طور الدولة بالنسبة للإسلام وللمدينة على حدٍّ سواء، حيث تكاملت العناصر المكونة للدولة، وانتظمت شؤونها، وما لبثت أن انضمت لها مناطق أخرى، وبدأت الدولة تتوسع، وخاضت في سبيل ذلك معارك وحروباً، واجهت فيها مختلف القبائل، مما حمّلها أعباءً أثّرت على إمكانياتها، وأدت إلى نتائج عديدة كان من أبرزها الاتساع الذي شمل مناطق شبه الجزيرة العربية، وأعدّ المدينة لتحمل أعباء الفتوحات لاحقاً.

يشكل الموضوع محاولة جديدة للبحث في التاريخ الإسلامي في إلقاء الضوء على الانتقال الحاصل من يثرب إلى المدينة عاصمة الدولة، لقد ركز المستشرقون سابقاً وغيرهم من الباحثين على

السيرة، وعلى أخبار رسول الله ﷺ التي لها من الأهمية الشيء الكثير، ونالت من البحث النصيب الوفير، لكن هذا التحول الحاصل في يثرب الذي حولها من واحة نخيل إلى مدينة الإسلام، ومقر الشرعية، ومركز الدولة في هذه المدة القصيرة نسبياً، حمّلها أعباءً عديدةً، ولم يكن لهذا التحول أن يتم دون امتلاكها مقومات وإمكانيات، عمل رسول الله ﷺ على استغلالها بشكل منتظم، مما ساهم في النهوض بها.

تكمن أهمية الدراسة من خلال التركيز على الخطة التي تمكن من خلالها رسول الله ﷺ النهوض بالمدينة، وإضعاف قريش في مكة في الوقت نفسه. وكذلك فرض رسول الله ﷺ هذا الكيان الجديد في الجزيرة العربية وحلوله مكان مكة وتفوقه عما كانت عليه، وإلزام القبائل بالخضوع له، والانقياد إليه، بعد أن ظهر رفضها ومقاومتها له، حتى ظهرت القبائل في نهاية مدة الدراسة كلها تابعة لدولة المدينة. وعن الزمن الذي تم تحديده كإطار زمني للدراسة، فيمكن القول بأن الاختيار وقع عليهما لأهميتهما الواضحة بالنسبة لكل من الدعوة الإسلامية، والمدينة المنورة، فالمبعث (١٣ق.هـ / ٦١٠م) هو تاريخ ولادة الإسلام، وهو ضمن المرحلة التي كانت فيها الصراعات في المدينة المنورة على أشدّها، أما تحديد نهايته بغزوة تبوك (٩هـ/ ٦٣٠م)، فقد حققت الدولة العربية الإسلامية في المدينة المنورة بغزوة تبوك انتصارها السياسي والعسكري على أقوى عدوٍّ في المنطقة، وأشد قوة يمكن أن تواجهها دولة صاعدة، كدولة المدينة، وقد أثبتت جدارتها وقوتها فيها، وانتصرت في تحديها لبيزنطة، الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في أنحاء الجزيرة العربية عموماً.

ومن غير شك أن المصادر التي أرخت لسيرة رسول الله ﷺ هي مصادر غزيرة وكثيرة، حيث شكلت سيرته عليه الصلاة والسلام الميدان الأول للتأليف في التاريخ الإسلامي عامةً، من بدء التأليف فيه وحتى الوقت الحاضر، كما توافرت كذلك المصادر التي اختصت بذكر المدينة وتاريخها من بدء الإسلام فيها وحتى الوقت الحاضر، وإن أراد المرء الإحاطة والاطلاع بجميع ما أُلّف في هذا الميدان لاحتاج أعواماً عديدة، لذلك تم الاقتصار على الأمهات من المصادر، والأكثر أهمية بالنسبة للدراسة.

إنّ مسألة توافر المصادر والمادة العلمية لم يشكل عائقاً أمام البحث، إلا أنّ كثرتها احتاج وقتاً وتطلّبَ جهداً للاطلاع على أكبر قدرٍ منها، وجاءت بعض الصعوبات عند التطرق للتغيرات والتبدلات الحاصلة في النواحي الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، نظراً لضيق المدة الزمنية، وعدم تجلي هذه النواحي ووضوحها بشكل نهائي، فالجوانب الحضارية تتطلب عادةً زمناً أطول حتى تتجلى وتظهر بشكل

واضح في المجتمع، كما أن هذه التغيرات والتبدلات كانت مستمرة طوال العصر النبوي، وأحياناً لا تُفصح عنها المصادر، وكانت أحياناً مقتضبة،الأمر الذي تطلب تحليل الأحداث، واستقراء الأخبار، ومن ثم التوصل إلى هذه التبدلات والتغيرات في مختلف النواحي الحاصلة. تبعاً لذلك جاءت فصول الأطروحة متفاوتة إلى حد ما في حجمها، نتيجة تلك الاعتبارات.

وقد تم الاعتماد على منهج البحث التاريخي القائم على دراسة الأحداث التي وردت في المصادر، ومقارنتها، والعمل على تحليلها، ومحاولة ربط الأحداث للاستنتاج والتوصل إلى رؤية توضح الخطة التي سار عليها رسول الله ﷺ لتهيئة المدينة والارتقاء بها من مركز تجمع بشري مضطرب، تدب الفوضى جميع جوانب حياته، إلى مركز أمّةٍ نهضت بالدولة التي نشأت في المركز نفسه لتنطلق من بقعة صغيرة إلى دولة مترامية الأطراف.

وقد تم تقسيم الأطروحة إلى فصولٍ تناولت النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في المدينة قبل الإسلام وبعد الهجرة. فبعد المقدمة، والتعريف بأهم المصادر والمراجع المستخدمة في الدراسة، جاء التمهيد ليبين الأهمية الجغرافية والاستراتيجية للحجاز، والدور التجاري المهم الذي شغلته مكة، والذي جعلها تتخذ هذا الموقف المتشدد والمعاند للدعوة، حتى وصلت الأمور إلى الهجرة.

ثم تناول الفصل الأول التعريف بالمدينة قبيل الإسلام، بدءاً من أصل تسميتها، مروراً بسكانها، مع محاولة الوصول إلى معرفة زمن استقرارهم فيها، وأبرز العشائر الموجودة، ومن ثم العلاقات بينها، والحديث عن الحروب التي أنهكت المدينة، ومن ثم المرور على الحالة السياسية والاقتصادية والدينية لها قبل الهجرة.

وفي الفصل الثاني بدأ الحديث عن التحول السياسي الحاصل في المدينة، بتناول كل من بيعتي العقبة الأولى والثانية، والتطرق إلى الهجرة التي نقلت المدينة من يثرب البلدة إلى المدينة مدينة رسول الله ﷺ حاضرة دار الإسلام، ليتم التفصيل في كيفية هذا الانتقال بدءاً من تنظيم وضعها الداخلي، وبناء المسجد النبوي الذي تعددت وظائفه وأصبح مركزاً جامعاً لها، ومن ثم الصحيفة التي شكلت دستور هذه المرحلة، والتعامل مع العنصر المعارض للوجود الإسلامي من منافقين ويهود. وبعد ذلك الحديث عن التوجه خارج المدينة، والتطرق إلى السياسة التي تعامل بها رسول الله ﷺ مع القبائل المحيطة، فجاء ذلك

وفق قسمين، الأول تناول الحديث عن استهداف المسلمين لقريش والضغط عليها لتغيير موقفها من الدعوة الإسلامية، والثاني اختص بسرايا وغزوات الشمال، وذكر أهم النقاط فيها.

أما الفصل الثالث فقد اختص بدراسة نتائج الهجرة على الوضع الاقتصادي وآثارها في المدينة، فبدأ بذكر الوضع الاقتصادي في المدينة والحالة المعيشية بعد قدوم المهاجرين، والشدة الاقتصادية التي عانى منها كل من المهاجرين والأنصار. ثم أهم وأبرز التغيرات والتنظيمات في شؤون الحياة الاقتصادية بعد الهجرة من تبدل في ملكيات الأرض، ثم تنظيم التجارة وفق مفهوم وتعاليم الإسلام. وكان لا بد من الحديث عن الموارد المالية الجديدة نتيجة هذا التحول السياسي والتفوق العسكري على أعدائها، كالغنائم والفيء والجزية، والزكاة.

ثم تناول الفصل الرابع نتائج الهجرة على الوضع الاجتماعي في المدينة، بالتطرق إلى نشأة الأمة، والتبدلات الحاصلة في مجتمع المدينة، من خلال عرض التبدلات في العناصر المكونة لسكانها، وما قام به رسول الله ﷺ من تنظيم لهذه العناصر الجديدة. وبعد ذلك تم الحديث عن تنظيمات جديدة وتشريعات لتنظيم العلاقات بين مختلف الفئات في المجتمع الجديد، بدءاً بعلاقة الحلف والجوار، مروراً بالزواج، ومعاملة الرقيق في ظل الإسلام، انتهاءاً بإلقاء ضوء على ضوابط ونواهٍ في مفاصل الحياة اليومية.

وتم في الفصل الخامس إبراز نتائج الهجرة على النواحي الفكرية في المدينة بالحديث عن المسجد النبوي كمركز فكري أول في المدينة. والاهتمام بالكتابة الوسيلة الأهم للتدوين، والمرور على عينات فقط من رواد هذا النشاط الفكري، والذين كان لهم أثرهم اللاحق، فجلّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا روّاداً في النشاط الفكري، ولأن الشعر والأدب عموماً من أهم النواحي الفكرية فقد تم تبيان وإظهار تأثير الإسلام في الشعر والخطابة من فروع الأدب.

أما الخاتمة فكانت تقتصر على عرض أهم نتائج الدراسة التي تم التوصل إليها، وبعد ذلك الملاحق، وقائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث.

تعريفٌ بأهم المصادر

تم الاعتماد لإنجاز هذا البحث على مصادر متعددة ومتنوعة، فالموضوع يخص الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في تاريخ المدينة المنورة، قبل الإسلام وبعده، والأثر الأول الذي ينبغي ذكره قبل أي مصدر، والإشارة إلى الفائدة العظيمة التي تمت الفائدة منه هو **القرآن الكريم**، حيث نزل ما يقرب ثلثي آياته في المدينة المنورة، فقد تضمنت سوره وآياته كل أحداث السيرة تقريباً، والأمور التشريعية والفقهية التي نزل فيها الوحي على رسول الله ﷺ، فكان المرجع الأساسي الذي دارت حوله جميع جوانب البحث بعد الإسلام بشكل خاص، غير أنه لا بد من توضيحه وتفصيله، وإكماله بما ذكره المعنيون بالسيرة والتاريخ.

وفيما يتعلق بالمصادر الأخرى التي تمت الاستعانة بها في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية. فكان لابد من العودة إلى مصادر تختص بتاريخ المدينة، وهو ما عُرف بالتأريخ المحلي فيما يخص فنون التاريخ، ومصادر تتعلق بتاريخ السيرة النبوية، وما تبع ذلك من مؤلفات في التفسير، والحديث، والطبقات، والتراجم، وكتب التاريخ العام، وصولاً إلى كتب الأموال، والكتب الجغرافية التي تحدثت عن الأماكن، ومعاجم اللغة التي ساعدت في تفسير كثير من الألفاظ. وسيتم إيراد هذه المصادر مرتبة حسب سنة وفاة مؤلفيها:

كتاب **المغازي النبوية** لمؤلفه **الزهري**، (محمد بن مسلم بن شهاب، ت ١٢٤هـ/ ٧٤٢م)، الذي هو عبارة عن مجموعة من النوازل أو الأسئلة التي وُجهت له، تغطي بعضاً من أحداث السيرة، إلا أنها على درجة من الأهمية، فالزهري كان أعلم أهل زمانه بسنة النبي ﷺ وأخباره، وطارت شهرته وأخذ الناس يثنون عليه، وهناك إجماع لدى المحدثين على توثيق الزهري واعتماد رواياته، وعدها أعلى ما روي عن رسول الله ﷺ صدقاً وأمانةً، على الرغم من العلاقات التي ربطته مع أفراد البيت الأموي، أيام الخليفة هشام بن عبد الملك خاصةً.

كتاب **السيرة الصحيحة** لسليمان بن طرخان البصري أبو المعتمر، التيمي، (ت ١٤٣هـ/ ٧٦٠م)، الذي لا يزال مخطوطاً، وقد تم الاطلاع عليه من المكتبة الخاصة للأستاذ الدكتور سهيل زكار مشكوراً. ويعد ابن طرخان من التابعين، والمحدّثين الثقات، كان أحد علماء البصرة الثلاثة في زمانه، إلى جانب عاصم الأحول وداود بن أبي هند، وهناك شبه إجماع على علمه وصدقه بين العلماء المعاصرين له

والمتأخرين، كان من عبّاد أهل البصرة وصالحيهم ثقةً وإتقاناً وحفظاً وسنةً. تكمن أهمية سيرته بأنها تسبق سيرة ابن إسحاق، زمنياً، وتظهر الأحداث عنده متحررة من السند، وتختص بذكر بعض حوادث السيرة في المرحلة المدنية مختلفة عما ورد في المصادر الأخرى، جاءت أحداث السيرة عنده أحداثاً موجزة، ومختصرة، منتظمة، ومنسّقة، لا يذكر فيها إلا الخبر الرئيسي دون أية أمور أخرى، مع عدم ذكر مصدر روايته، وكذلك لا يأتي على ذكر أية سند لروايته في كامل القطعة رغم كونه من رجال الحديث. اقتصر الحديث في هذه القطعة على الغزوات الكبرى التي حدث فيها قتال، باستثناء غزوة بدر لأن القطعة بدأت من غزوة بني النضير. وفي غزوة بني قريظة إشارة مهمة جداً إلى مصير الأسرى الذين تكاد تجمع الروايات بقتلهم جميعاً، حيث يذكر ابن طرخان أنهم بيعوا في نجد والشام مقابل جلب الخيل للمسلمين. ويذكر في غزوة خيبر أن غطفان قاتلت إلى جانب يهودها شهراً، ثم تسللوا من خيبر بعدها، وقاتل يهود خيبر شهراً بعده منفردين، وهذا يختلف عما هو موجود في المصادر الأخرى. وقد تمت الاستفادة من هذه الروايات بما يتفق مع السياق العام للأحداث، والترتيب الزمني لها متوافقاً مع المصادر الأخرى.

و**السيرة النبوية** لمؤلفها **محمد بن إسحاق، (تـ١٥١هـ/ ٧٦٨م)**،وتعدّ أشهر سيرة نبوية مدونة وصلت إلى هذه الأيام، وسّع ابن إسحاق حدود السيرة، ومدّها إلى مبدأ الخلق، وضمّن كتابه تاريخ النبوة عموماً، وليس تاريخ النبي ﷺ فحسب، وتم الاعتماد على سيرته التي هذبها ابن هشام بالشكل الأكبر من رواية يونس بن بكير، نظراً لتكاملها وتضمن كل أحداث السيرة، وكانت الفائدة منه في الفصل السياسي بالمرتبة الأولى، وبعدها في بقية الفصول بصورة أقل.يضعّف رجال الحديث ابن إسحاق في الأمور الفقهية والتشريعية، لأنه كان يجمع الأسانيد المختلفة، ويحدّث عنهم حديثاً واحداً، يعدونه ثقة ولكن ليس بحجة، لأنه يُحدّث عن جماعة بالحديث الواحد فلا يفصل كلام هذا من ذاك، ويبدو أن غايته في تأريخ الأحداث كانت هي سبب في هذا الأسلوب، فاهتمام المؤرخ ينصب على الحدث وتسلسله التاريخي، وهو يختلف عن اهتمام المحدّث الذي يكون حريصاً على دقة وصحة الحديث وصدق الراوي.

كتاب "**الخراج**" **لأبي يوسف،** (يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي، تـ ١٨٢هـ/ ٧٩٨م): الذي ألّفه مجيباً على أسئلة وجهها له الخليفة هارون الرشيد، وقد ذكر بعض هذه الأسئلة في مطلع الفصول، التي تضمنها الكتاب، لكنه لم يقتصر على الإجابة عليها بل بحث أيضاً عدداً من القضايا، بالإضافة إلى مقدمة تُظهِر واجبات الخليفة ومسؤولياته. ومن النقاط التي تناولها أبو يوسف، أحكام

الأراضي وملكياتها، والزكاة، والعشور، وأحكام المرتدين، وأحكام أهل الذمة والكنائس، والبيع، والجزية. وفصّل في قصة أهل نجران والحكم فيهم، كان أبو يوسف دقيقاً جداً في أحاديثه التي استخدمها، أسند معظمها إسناداً كاملاً وصولاً إلى رسول الله ﷺ، كان أبو يوسف يوضح رأيه، ويعرض معلوماته، مظهرةً شخصيته وعلمه. أفاد الكتاب الفصل الاقتصادي فائدةً كبيرة. أبرز ما تميز به أبو يوسف هو اهتمامه بالحديث النبوي وكثرة اعتماده عليه، وكان عالماً بالتفسير والمغازي وأيام العرب، كان تلميذ الإمام أبو حنيفة، عيّنه الخليفة هارون الرشيد قاضياً، ثم جعله قاضي القضاة، فأظهر من سعة الاطلاع ومرونة الفكر ما أكسبه ثقة الخليفة، والنظر في الكثير من القضايا الخاصة. أشارت المصادر إلى أسماء بضعة كتب ألّفها أبو يوسف في الفقه، ولكنها فُقدت، وأشهر كتبه على الإطلاق كان كتاب الخراج.

وتم الاعتماد بشكل أساسي وجوهري فيما يخص غزوات وسرايا رسول الله ﷺ على كتاب المغازي **للواقدي**، (محمد بن عمر، تـ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)،في كتابه الجليل "المغازي"، لقد ظهر الواقدي في مغازيه أكثر دقة من ابن إسحاق في تحديد التواريخ، وأكثر ارتباطاً بمنهج المحدثين من حيث استعماله الإسناد، وكذلك اهتمامه بالتفاصيل الجغرافية عن مواقع الغزوات والمعارك للتأكد من صحة المعلومة التي تصله، كما أن اهتمامه التاريخي جعله في أحيانٍ قليلة يتساهل ويلجأ إلى الإسناد الجمعي ليستطيع استيفاء كل الحوادث، فكان حجةً وثقة في الغزوات والتاريخ، أما الفرائض والسنن فلا يُحتج به، وهذا ما يؤكد ما ورد سابقاً عند ابن إسحاق، بأن اهتمام المؤرخ يختلف عن اهتمام المحدّث، وقد كان الاعتماد على رواياته في المغازي بشكل أساسي ورئيسي. إن جلّ مؤلفات الواقدي التي قُدّرت بحوالي ثمانيةٍ وعشرين هي بحكم المفقود، ما عدا المغازي والرّدة وفتوح الشام.

وكانت الفائدة من **كتاب الأموال** لأبي عبيد، (القاسم بن سلّام، تـ ٢٢٤هـ / ٨٣٨م)، كبيرة في الفصل الاقتصادي خاصة، حيث يعد من الكتب المهمة جداً في أسس النظام الاقتصادي في الإسلام، تضمن ثمانية أبواب، بدأها بكتاب الفيء، فبيّن وجوهه وأصنافه، وأحكام الأراضي التي فتحت صلحاً، وأحكامها وسننها، ثم وجوه صرف الفيء، وبعد ذلك إقطاع الأرض وإحيائها، وما جاء في الخمس من الغنائم، وتوزيعه، وأخيراً كتاب الصدقة أي الزكاة، وأحكامها وسننها. رتّب نصوصه فيها على منهج واحد، بإيراد الأحاديث النبوية أولاً، ثم أقوال الصحابة والتابعين، ويختم مضمناً رأيه حسب فهمه للمسألة. فأبو عبيد محدّثٌ، فقيهٌ، ونحوي، من علماء القراءات، رحل في طلب العلم، أخذ عن علماء في البصرة والكوفة، كأبي عبيدة معمر بن المثنى، والأصمعي، والكسائي وغيرهم. تفقه على

الشافعي، والقاضي أبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني. عمل على تأديب أولاد الولاة والأمراء، وولي قضاء طرسوس ثمانية عشر سنة.

وكتاب **الطبقات الكبرى** لابن سعد، (أبو عبد الله محمد، ت٢٣٠هـ/ ٨٤٤م): وهو ثاني مؤلف بعد ابن إسحق وصل كتابه كاملاً عن السيرة والطبقات، مادته غزيرة، تناول فيها ابن سعد سيرة رسول الله ﷺ، وسيرة الصحابة والتابعين إلى عصره، مراعياً عنصري الزمان أي بحسب أسبقية اعتناق الإسلام، والمكان من حيث تناول الأمكنة التي نزل فيها كلٌّ من الصحابة والتابعين. الفائدة منه كانت في كل ثنايا البحث على العموم.

كذلك كانت كتب الحديث مهمة جداً وأساسية في فصول الأطروحة، ولا سيما الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، وأول هذه الكتب كتاب **الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم،** لمؤلفه **البخاري،** (محمد بن إسماعيل الجعفي، ت٢٥٦هـ/ ٨٦٩م): أحد أئمة الحديث، اختار من الأحاديث صحيحها أي بما وثق برواته، وضمّنه في وهو أوثق كتب الحديث، وأفاد البحث في كافة الفصول، والفائدة الأكثر أهمية كانت في الفصل الاقتصادي والاجتماعي على وجه الخصوص.

يأتي مسلم بن الحجاج النيسابوري، (ت٢٦١هـ/ ٨٧٤م) بعد البخاري في كتابه **المسند الصحيح،** متضمناً مادة غنية ومتنوعة، الذي صنفه من ثلاثمائة ألف حديث مسموع فاشتمل على اثنتي عشر ألف حديث. كان مسلم من أشهر الحفاظ.

ويعد كتاب "**تاريخ المدينة**" لابن شبة أقدم تاريخ تم الوصول إليه وتحقيقه في تاريخ **المدينة،** فما كُتب قبله لا يزال بحكم المفقود، أو تم تجميع نقولها الموجودة في مصادر مختلفة، و**ابن شبة** هو (أبو زيد عمر النميري البصري، ت ٢٦٢هـ/ ٨٧٦م) محدّثٌ، مؤرّخٌ، أديبٌ، فقيهٌ، عالمٌ بالقراءات، بصيرٌ بالسير والمغازي، وأيام الناس، ثقةٌ في كل ما يروي، هكذا وصفته المصادر. سمع وروى وحدّث عن ثقات علماء عصره، ألّف ابن شبة في فنون شتى، في التاريخ، والأدب، والأخبار، واللغة، وعلوم الدين، لكن لم يعثر على جميع ما ألّفه ابن شبّة بعد، سوى تاريخ المدينة، والبقية بحكم المفقود، بقيت منه نقولٌ ذكرتها مصادر أخرى، كالأغاني، وصحيح البخاري. لا يقدر باحثٌ على الخوض في تاريخ المدينة دون الرجوع إليه، جمع ابن شبة في الكتاب بين التاريخ والفقه والحديث، وروى فيه عن مجموعة كبيرة من الشيوخ والمحدثين ممن يطول ذكرهم، فكان يورد الأخبار على طريقة المحدثين ومنهجهم، فيذكر سنده

كاملاً إلى أن يصل إلى شاهد الحادثة أو سامعها أو ناقلها. فذكر الروايات التاريخية من خلال روايات الحديث، ثم ذكر بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بما ذكره، كأن يذكر مسجد النبي ثم يردف بعض أحكام المساجد، وهلمّ جرا. شمل الكتاب ثلاثة أقسام أولها عن حياة رسول الله ﷺ في المدينة، يليه قسم عن حياة الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، والقسم الأخير عن حياة الخليفة عثمان بن عفّان، ويوجد نقص في الأقسام الثلاثة. وقد كانت الفائدة منه على مدار البحث، ولا سيما من القسم الأول حيث وردت فيه معلومات عن تاريخ المدينة قبل الإسلام، وكذلك معالمها، وخططها، منذ أن هاجر إليها رسول الله وحتى وفاته، وضمّ جزءاً من أحداثٍ في السيرة، تمت الاستفادة منها أثناء الكتابة.تكمن أهميته في كونه أقدم نص وصل عن تاريخ العمران في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

و كان كتاب **المناسك وأماكن طريق الحج** للحربي **وهو** الإمام أبو إسحق، تـ ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م، من الآثار المفيدة التي تضيف إلى المعرفة الجغرافية بالمواضع والأمكنة في شبه الجزيرة العربية معرفةً أخرى، يرجع إلى القرن الثالث الهجري، فهو من أصول الدراسات القديمة في تحديد المواضع، ومختلف النواحي الثقافية، وتكمن أهمية في المادة التي وردت فيه، فيه توضيح لنقول كثيرة وردت عند البكري، وياقوت، كذلك ضم نصوص مطولة من كتب مفقودة، لم تصل إلا عن طريق السمهودي، مؤرخ المدينة المتأخر، كما ضم نصوصاً أدبية شعرية، في وصف طريق الحج العراقي، وهو الوحيد الذي جمع أراجيز وصف الطريق العراقي. وهي ذات قيمة كبيرة جداً في تحديد الأمكنة، وقد تمت الإستفادة من كتابه في تحديد المواقع، والمعلومات الجغرافية. ومؤلفه الحربي من كبار أئمة المحدثين المصنفين في الحديث، كان من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل، لزمه حتى وفاته، من ٢٢١هـ/ ٨٣٥م وحتى ٢٤١هـ/ ٨٥٥م، فكان متأثراً به إلى درجة كبيرة، تلقى الحربي عن كثيرين من علماء عصره وأئمة اللغة، وأثناء رحلته إلى الحجاز تلقى عن علماء مكة والمدينة، يصفه البغدادي بأنه إمام في العلم.

ومن الكتب التي رافقت فصول الدراسة كان كتاب"**تاريخ الرسل والملوك**" للطبري، (محمد بن جرير، تـ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، وضعه في التاريخ العام، بدأه من بدء الخليقة حتى سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م، وهو من أبرز كتب التاريخ، وله مكانة كبيرة عند المؤرخين، وقد ذيّل عليه كثيرون، إلاّ أن الطبري في تاريخه وضع فيه كل ما وصله من روايات في الخبر الواحد، وترك مهمة التمحيص والاستقصاء في صحتها للراغب المهتم، والباحث المجد، وصرّح بذلك في مطلع كتابه. وكذلك تمت الاستعانة بتفسيره

للقرآن الكريم، وحصلت الفائدة منه. كما تم الاعتماد على تفسيره لآيات القرآن الكريم، في كثير من المواضع، ومختلفها.

ومن كتب التفسير التي تم الاعتماد عليها كتاب "**الكشف والبيان في تفسير القرآن**" **للثعلبي**، (أحمد بن محمد بن إبراهيم، تـ ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م)كان عالماً في العربية موثوقاً بعلمه، واشتهر في علم القرآن، جمع في تفسيره بين التفسير وبين مسائل لغوية نحوية وأحكام فقهية، وإيضاحات يقتضيها شرح الآيات للوصول إلى الفهم الصحيح لها، وقد أفاد الدراسة في أماكن مختلفة.

وكان كتاب **ابن عبد البر**، (يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي، تـ ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م): "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، الذي يعد من أفضل ما كُتب في تراجم الصحابة، ذا فائدة كبيرة، بدأه بذكر رسول الله ﷺ، ثم ذكر الصحابة بالترتيب الهجائي، وقبل ذلك كله وضّح ابن عبد البر من هو الصحابي، وما الفرق بين المهاجرين الأولين، وغيرهم من المسلمين، لينتقل إلى تسمية الأنصار، والفائدة من معرفة أصحاب رسول الله ﷺ، موضحاً بعد ذلك السبب في وضعه هذا الكتاب بعد أن رأى إطالة عند من سبقه في التأليف في هذا الميدان، من حيث ذكر الأنساب، وإسناد الروايات، وأن ذلك لا ينبغي الإطالة به كي لا يصعب على القارئ الوصول إلى ما يريد، فعمل على استدراك هذا الأمر، والإيجاز به، مرتباً تراجمه على حروف المعجم، مبتدئاً بذكر رسول الله ﷺ. يعد ابن عبد البر من كبار حفاظ الحديث، وكان يسمى حافظ المغرب، ألّف كتباً كثيرة.

وكان كتاب **المطري**، (جمال الدين محمد بن أحمد، تـ ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م):"التعريف بما أَنْسَتْ الهجرة من معالم دار الهجرة" ، من المصادر المهمة في تاريخ مدينة رسول الله ﷺ، وقد أفاد البحث عند الحديث في الفصل الأول عن معالم المدينة، وأهم آبارها وأنهارها. كان المطري من أئمة الحديث والتاريخ والفقه، عارفاً بأنساب العرب، وعلوم أخرى، تسلم رئاسة المؤذنين بالمسجد النبوي بعد وفاة والده، وكذلك في الخطابة.

والخزاعي، (علي بن محمد، تـ ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م): في كتابه "تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية" رداً على من ظنّ بأن الأعمال والوظائف السلطانية بدعة، وتجرّ على صاحبها الإثم، فهو ينتمي إلى أسرة أندلسية اعتنت بالفقه والعلم، ولد بتلمسان وتلقى دراسته فيها،فنشأ نشأة ثقافية أهّلته للكتابة في الديوان، كان حَسَنَ التحصيل في الأدب والنحو واللغة، مع الإلمام بفروع الفقه والحديث كما عرف بمهارته بالحساب،

فأصبح صاحب الأشغال السلطانية عند بني مرين، جمع مادة كتابه لإثبات أن هذه الوظائف وُجدت أيام الرسول ﷺ، وتولاّها الكثير من الصحابة،فكان الكتاب من الكتب المهمة جداً في هذا الميدان، ظهر من خلاله الحرف والصنائع والأعمال الكتابية والوظائف الجهادية والجبائية، بالإضافة إلى ذكر الحرف والصناعات ومن عمل بها من الصحابة، وسائر الأعمال. وقد أكمل عبد الحي الكتاني في كتاب الترتيب الإدارية ما بدأه الخزاعي، وأضاف إليه أضعاف فصوله، فكانت الفائدة من كلا الكتابين في النواحي الفكرية عامة، كبيرة.

الفيروز آبادي، (محمد بن يعقوب بن محمد، تـ ٨١٧هـ/ ١٤١٥م) في كتاب "**المغانم المُطابة في معالم طابة**"، من المؤلفات المفيدة في تاريخ المدينة، وهو بمثابة معجم مرتب على الترتيب الهجائي بأسماء الأماكن والمعالم في المدينة، يتضمن الكتاب كاملاً ستة أبواب، إلاّ أنّ ما حُقّق منه الباب الخامس فقط، ويخص أماكن المدينة، وهو أطول الأبواب، وقد وضح المحقق حمد الجاسر الكثير من هذه الأماكن أثناء التحقيق، فجاءت الفائدة منه مضاعفة. وله "القاموس" الذي هو من أسباب شهرته، لقد تلقى الفيروز أبادي العلم في شيراز، ثم رحل إلى بغداد، ودمشق، وبيت المقدس، ومصر، والحجاز، واليمن، فتلقى عن كثير من علماء هذه الأقطار، وتمكن في علم اللغة أكثر من غيره.

وضم كتاب "**إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**" للمقريزي، (أحمد بن علي، تقي الدين، تـ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) كل أحداث السيرة، قبل وبعد الهجرة، بالإضافة إلى اشتمال الكتاب على كل ما يخص رسول الله ﷺ في شؤون حياته، وكانت الفائدة منه كبيرة. يرجع أصل المقريزي إلى بعلبك، ونسبته إلى حارة المقارزة، ولد ونشأ ومات في القاهرة، وولي الحسبة والخطابة والإمامة، كان غزير الإنتاج، وله مؤلفات عديدة في التاريخ الإسلامي عامةً، وتاريخ مصر بمختلف المراحل التاريخية.

وابن حجر العسقلاني، (أحمد بن علي، تـ ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): في مؤلفه "*الإصابة في تمييز الصحابة*"، يعد من أوسع وأشمل ما كُتب عن الصحابة، ضمّ ذكر أخبارهم وسيرهم مرتباً بحسب الترتيب الهجائي، بدأ كتابه بمقدمة مهمة لمن أراد معرفة الصحابة وضوابط ذلك. وحرص على استدراك ما وجد من إغفال عند من سبقه، أو أخطاء، وتجنّب ما ذكر من زيادات وأوهام، فجاء كتابه متميزاً عمن سبقه، وشاملاً. يتضمن الكتاب من خلال هذه السير الكثير من جوانب الحياة الحضارية في المدينة في القرن الأول الهجري، بنواحيها المختلفة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى الجوانب

السياسية التي وردت أيضاً. وقد رتب ابن حجر مادته في كل حرف على أربعة أقسام، الأول خاص بترجمة الذين وردت صحبتهم لرسول الله ، والثاني خصصه لتراجم الصحابة من الأطفال الذين ولدوا في عهد النبي، والقسم الثالث يختص بذكر المخضرمين الذين أدركوا الإسلام، والرابع فقد ذكر فيه من ذكرته مصادر أخرى على سبيل الوهم والخلط، فأوضح الخطأ وأزال الغموض، وكان هذا على درجة عالية من الأهمية. كانت الفائدة كبيرة جداً في الفصول كافة وخاصةً الاجتماعية والاقتصادية والفكرية. فابن حجر هو العالم الفقيه، المحدث الأديب. أصله من عسقلان، بفلسطين، ومولده ووفاته في القاهرة، كانت له عناية بدراسة الحديث، فأقبل عليه وسمع الكثير من شيوخه، حيث رحل إلى الحجاز واليمن لسماع الشيوخ، واجتهد في طلب العلم، كما اهتم بالأدب والتاريخ، ودرس الفقه واللغة، فنال بذلك قسطاً وافياً من علوم عصره، وكان له تصانيف كثيرة جداً، كان الحديث ورجاله ميدان عمله الأساسي، فجاء كتاب الإصابة نتيجة هذه المعرفة الواسعة، والعلم المتنوع.

والمصدر الأكمل والأكثر أهمية في تاريخ المدينة هو كتاب" **وفاء الوفا بأخبار المصطفى**" للسمهودي، (علي بن عبد الله بن أحمد، ت ٩١١هـ/ ١٥٠٦م): جمع فيه كل ما يتصل بتاريخ المدينة من أحداثٍ تاريخية وحضارية متنوعة، اعتمد على عدد كبير من المصادر التي كتبت عن المدينة، فضم كتابه مادة وفيرة، وساعد المنهج الذي اتبعه السمهودي على العودة إلى المصادر التي أورد منها المعلومة إن كانت متوافرة وليست مفقودة، حيث أورد السمهودي في رواياته السند الذي أخذ الخبر منه، وأحياناً ينقله من كتب تحت يده، فينسب القول إلى قائله مباشرة دون ذكر السند، كأن ينقله عن الواقدي أو الطبري. والكتاب تضمن ثمانية أبواب شملت أسماء المدينة، وفضائلها، وتاريخها قبل الإسلام، وأخبار سكانها، ومن ثمّ قدوم رسول الله ﷺ وما كان في سني الهجرة، وبعد ذلك ما يتعلق بأمور مسجدها، وخططها، كالسوق، ومنازل المهاجرين، والمسجد النبوي والزيادات عليه، والتفصيل في مساجد المدينة، ومقابرها، وبعد ذلك الحديث عن آبارها وصدقات النبي ، وصولاً إلى أوديتها وأحمائها، والختام في ذكر الأحاديث الواردة نصاً في زيارة قبر النبي. أفاد البحث في الحديث عن بطون الأوس والخزرج على وجه التحديد، فقد فصّلها تفصيلاً لم يرد بالشكل الكامل الذي وضعه السمهودي، وفي معالم وخطط المدينة، ومختلف النواحي الأخرى، فكان وجوده على مدار البحث وفي كافة فصوله.

– تمهيد:

يتطلب فهم الحوادث التاريخية ومجرياتها سياسية كانت أو عسكرية، اجتماعية أو اقتصادية معرفةً بالبيئة الجغرافية التي حصلت فيها هذه الحوادث، فالعامل الجغرافي والبيئة الجغرافية بكل مكوناتها هي عاملٌ مؤثرٌ في سير الأحداث بل هي أحياناً توجهها. إنّ محور البحث الأساسي كبقعة جغرافية يقع في المدينة المنورة – يثرب– والمدينة كمنطقة تقع في إقليم الحجاز، والحجاز هو جزء من شبه الجزيرة العربية التي كانت مسرحاً لكل الغزوات والسرايا، ومنطقةً انتشر فيها الإسلام وتوسّع عليها نفوذ المدينة عاصمة الدولة الجديدة، فأصبحت تخضع لسلطةٍ واحدةٍ هي سلطة الدولة العربية الإسلامية.

يعد الحجاز أشهر أقاليم شبه الجزيرة العربية، وهو المنطقة الممتدة من اليمن جنوباً إلى الشام شمالاً، وبين هضاب نجد شرقاً وغور تهامة على البحر الأحمر غرباً ، سُمي الحجاز حجازاً لأنه حجز بين الغور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر، فمنع كلّ واحد منهما أن يختلط بالآخر، وعُرف أيضاً بمرتفعات السراة التي يجعلها المؤرخون العرب قاعدةً لتقسيماتهم، وهذه السلسة هي مجموعة جبال متصلة على نسقٍ واحدٍ من أقصى اليمن إلى الشام[1].

لقد قسّم البكري الحجاز إلى حجازين الحجاز الأسود وهو سراة عسير جنوباً، وحجاز المدينة وهو سراة الحجاز شمالاً[2]، وذلك لأن ارتفاع هذه الجبال متفاوتٌ ليس على الدرجة نفسها، فالحجاز الأسود يشكل المرتفعات الجنوبية وهي أكثر ارتفاعاً من المرتفعات الشمالية إذ يتراوح ارتفاعها بين ١٨٠٠ و ٣٠٠٠ م فوق سطح البحر وهي تضم قمة النبي شعيب التي ترتفع ٣٧٦٠م عن سطح

١– الحربي، (إبراهيم بن إسحق بن إبراهيم أبو إسحق، ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م): كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تح: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٦٩م، ص٥٣٢. ابن الفقيه، (أحمد بن محمد بن إسحق المعروف ب، ت ٥٠٩هـ/ ١١١٥م): البلدان، تح: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٨٤. ابن الحائك الهمذاني، (الحسن بن أحمد بن يعقوب، ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م): صفة جزيرة العرب، تح: محمد علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٣م، ص١١٦. الحموي، (ياقوت، ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ج٢، ص٢١٨. عكام، (محمود): الموسوعة الإسلامية الميسرة، دار صحارى، دمشق، مج٤، ١٩٩٨م، ص٨٣٣.

٢ – البكري، (عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي، ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م، ج١، ص١٣.

البحر. وحجاز المدينة هو سراة الحجاز فيمتد شمال سراة عسير وهو ما حجزته الحِرار[1] من مكة إلى المدينة فتبوك، هي أكثر امتداداً ولكنها أقل ارتفاعاً من سراة عسير يبلغ متوسط ارتفاعها ٩٠٠م فوق سطح البحر، حيث يتراوح ارتفاع جبال الطائف مابين ٦٠٠ و ٢٠٠م في جبل كرا بين مكة والطائف و٢٠٠م فقط عند جبل رضوى شمال غرب المدينة – يثرب– ، وتعود إلى الارتفاع شمالاً في جبال مدين فتصل إلى ٢٧٠٠م في جبل الشفا[2].

يختلف المناخ في هذا الإقليم من الجزيرة العربية تبعاً للامتداد الكبير من الجنوب إلى الشمال، ولكنه على العموم مناخ صحراوي جاف، أمطاره غير منتظمة، وإن كانت شتوية في الشمال لتأثرها بمناخ البحر المتوسط، وصيفية في الجنوب لتأثرها بالرياح الموسمية وتتفاوت مقاديرها بشدة بين عام وآخر. هذا وتتكون هذه الجبال من صخور رسوبية رملية في الشمال، وصخور صلبة استحالية متبلورة في الجنوب، تتصف بشدة انحدارها إلى الغرب في حين تكون انحداراتها لطيفة باتجاه الشرق، وتظهر الحرات أو اللاّبات البركانية[3].

تسيل في الحجاز أودية من الحرار تختلف باتجاهاتها صوب الشرق والغرب إلى نجد أو إلى تهامة والبحر الأحمر. حيث يسيل وادي إضم، ويسمى اليوم وادي الحمض، جنوب خيبر من الشرق إلى

---

[1] – الحرّة: هي أرض ذات حجارة نخرةٍ سود كأنها أحرقت بالنار، والحرة هي الأرض الصلبة الغليظة التي تغطيها حجارة سود، وأكثر الحرار حول المدينة المنورة. ابن عبد الحق، (عبد المؤمن البغدادي الحنبلي، ت٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م، ج١، ص٣٩٤. الزبيدي، (محمد بن محمد الملقب بالمرتضى، ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م): تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.م، د.ت، ج١٠، ص٥٧١.

[2] – الغنيم، (عبد الله يوسف): أقاليم الجزيرة العربية، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨١م، ص٣٦، ٣٧. بيضون، (إبراهيم): الحجاز والدولة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص٣٢، ٣٣. أبو خليل، (شوقي): في التاريخ الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٦م، ص١٠، ١١.

[3] – عكام: الموسوعة الميسرة، مج٤، ص٨٣٣، ٨٣٤.

الغرب ويمر بالمدينة ويسمى عند المرور فيها بوادي قناة، فتتصل به أودية فرعية منها وادي العقيق وبطحان وكذلك وادي القرى ويتجه غرباً حتى يصبّ في البحر الأحمر[١].

يتشكل وادي الرمة عند حرة فدك من التقاء عدد من الأودية يتجه شرقاً من تهامة والحجاز إلى نجد إلى القصيم وينتهي في الرمل رمل العيون[٢]. وبين تيماء وخيبر وادي القرى كان من أوله إلى آخره قرى منظومة[٣]، وهو وادٍ مهم يتشكل من مجموعة من الأودية التي تتصل مياهها بوادي إضم (الحمض)، كان يمر به طريق القوافل القديم ويقال له وادي الديدبان، وآثار هذه القرى تُشاهد إلى اليوم، وقد عثر الباحثون في هذا الوادي على كثيرٍ من الكتابات العربية الشمالية كالثمودية واللحيانية والنبطية[٤]. ومن أودية الحجاز وادي الصفراء لا يبعد عن بدر قرب المدينة المنورة كثيراً، وهو وادٍ كثير النخل والزرع يجري إلى ينبع ويصب في البحر الأحمر[٥].

ويمكن القول أن هذه الأودية قد سهّلت العبور بين هذه السفوح ولاسيما وأن الماء قلما يجري فيها حيث اختفت الأنهار الكبيرة وحلّ محلها أنهار صغيرة تتلقى مياه السيول الطارئة أو تتزود من الأمطار القليلة التي سرعان ما تنضب تحت تأثير المناخ الصحراوي وحددت هذه الأودية طرق القوافل أولاً والحج ثانياً، وتوزع سكن القبائل على مجاريها[٦].

---

١ – الحموي: معجم، ج١، ص٢١٤. علي، (جواد): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، بغداد، ط٢، ١٩٩٣م، ج١، ص١٦١. الشريف، (أحمد إبراهيم): مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢٥.

٢ – الحموي: معجم ، ج٣، ص٧٢.

٣ – الحموي: معجم ، ج٤، ص٣٣٨.

٤ – أبو الفضل، (أحمد): دراسات في العصر الجاهلي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، د.م، ١٩٦٧م، ص٨.

٥ – الحموي: معجم ، ج٣، ص٤١٢. ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع، ج٢، ص٨٤٤. الشريف، (أحمد): الحجاز قبيل الإسلام، ص٢٠.

٦ – علي: المفصل، ج١، ص١٥٧، ١٥٨. بيضون: الحجاز، ص٣٣. حتي، (فيليب وآخرون): تاريخ العرب، دار غندور، د.م، د.ت، ص٤٥.

لقد شكّل الحجاز جسراً يربط الشام وحوض البحر المتوسط، باليمن، والحبشة، والصومال والسواحل المطلة على المحيط الهندي(١)، واشتمل على عدد من القرى والمدن، كان من أهمها مكة، والمدينة، والطائف، وخيبر، ووادي القرى، كان أغلبها محطات على طريق التجارة الذي يمر عبره، ويبدأ جنوباً من موانئ اليمن ماراً بمكة وبالقرب من المدينة ليصل بعدها إلى المراكز المخصصة للتجارة، أيلة على خليج العقبة في البحر الأحمر، وغزة في فلسطين، وبصرى في بلاد الشام(٢)، وقد زادت أهمية هذا الطريق في القرن السادس الميلادي تبعاً لظروف دولية جعلت بيزنطة توجّه اهتمامها نحو الجزيرة العربية عامة والقسم الجنوبي والغربي منها خاصة أي الحجاز واليمن، وتعمل على فرض نفوذها، من أجل الحصول على سلعٍ كانت ضرورية وعلى درجة من الأهمية عالية بالنسبة لها في ذلك العصر. وتمثلت هذه السلع ببضائع الشرق الأقصى وأبرزها الحرير والتوابل من الصين والهند، والمرّ واللّبان أفضل أنواع البخور من جنوب شبه الجزيرة العربية وبضائع من الحبشة، وأفريقيا كالعاج والذهب وسلع أخرى(٣)، وكانت تحصل على منتجات الشرق ولاسيما الحرير والتوابل عن طريق فارس عبر مراكز محددة لهذه التجارة، كانت تأتي عن طريق موانئ الخليج العربي إلى الفرات فبادية الشام، وكانت تحت سيطرة فارس، لكن استحكام العداء بين فارس وبيزنطة والحروب بينهما كان له أثره السّيئ على هذه التجارة، التي كثيراً ما تعرضت للتوقف والانقطاع طوال أيام الحروب، فضلاً عن الأسعار الباهظة التي كانت تفرضها فارس على هذه المنتجات في أيام السلم. لذا عملت بيزنطة على التحرر من سيطرة الفرس وتحكمهم بهذه التجارة التي تجعلها تدفع أموالاً طائلة لفارس وتستخدمها الأخيرة في حربها، وذلك بالعمل على الوصول إلى الأسواق الرئيسية المصدرة لهذه المنتجات والسلع(٤). فعملت على تعزيز نفوذها في البحر الأحمر

[١] – سالم، (السيد عبد العزيز): تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت، ص٨، ٩.

[٢] – هذه المراكز حددتها بيزنطة وعدتها المراكز الرئيسية للقوافل، وذلك لضمان أخذ المكوس من أصحابها. أمين، (أحمد): فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٣٣م، ص١٥.

[٣] – سحاب، (فيكتور): إيلاف قريش، رحلة الشتاء والصيف، كومبيو نشر والمركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٤٠، ٤١.

[٤] – علي: المفصل، ج٤، ص١٦٩، ١٧٠.

بالسيطرة أولاً على جزيرة يوتابة (تيران حالياً) على مدخله الشمالي واتخاذها مركزاً لجمع الضرائب، فكانت مجلب أرباحٍ عظيمة لخزينة الإمبراطورية[١].

وكانت بيزنطة تدرك أهمية اليمن وترغب في فرض نفوذها عليه، لذا عملت على تهيئة الظروف لذلك، في الوقت الذي كان تجارها يتعرضون فيه للخطر وللنهب، وللمضايقات من حاكمها اليهودي ذي نواس وذلك حوالي ٥١٧م[٢]، كانت اليمن ميداناً للصراع بين المسيحية واليهودية يخفي وراءه صراعاً سياسياً اقتصادياً. فعقدت معاهدة سلام مع فارس إثر مؤتمر الرملة، جنوب شرق الحيرة، سنة ٥٢٤م، ضمنت سكون جبهتها في بلاد الشام، وحالت دون حصول اليمن على أي عون من قبل فارس[٣]، واستغلت حادثة الأخدود في نجران[٤]، التي أحرق فيها ذو نواس اليهودي نصارى نجران، وعن طريق حليفتها الحبشة تم التدخل العسكري بإرسال السفن لنقل الأحباش إلى اليمن على متنها، وتمت هزيمة ذي نواس[٥]، وتم احتلال الحبشة لليمن وهكذا وصل نفوذ بيزنطة إلى اليمن[٦]، لكن التجارة في هذه المرحلة كانت قد بدأت بالتحول إلى مكة التي كانت تشغل دور الزعامة الدينية في شبه الجزيرة العربية،

[١] – بيغوليفسكيا، (نينا فكتورفنا): العرب على حدود بيزنطة وإيران، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الخرطوم، ١٩٨٣م، ص١٦٧. سحاب: إيلاف، ص ٩٥.

[٢] – كوبيشانوف، (يوري ميخايلوفتش): الشمال الشرقي الإفريقي في العصور الوسيطة المبكرة وعلاقاته بالجزيرة العربية، تر:صلاح الدين عثمان هاشم، منشورات الجامعة الأردنية، عمّان، ١٩٨٨م، ص٣٤. هُيلند:، (رُبرت): تاريخ العرب في جزيرة العرب، تر: عدنان حسن، دار قدمس، دمشق، ط١، ٢٠١٠م، ص٧٨. جاسم، (حنان عيسى): السياسية الرومانية اتجاه الجزيرة العربية، مجلة آداب الفراهيدي، بغداد، ٢٠١٣م، العدد ١٦، ص٢٥٩.

[٣] – يعد مؤتمر الرملة من أهم الحوادث في الملف الدبلوماسي للعلاقات البيزنطية – العربية قبل ظهور الإسلام. سحاب: إيلاف، ص١٣٣.

[٤] – ورد ذكر هذه الحادثة في القرآن في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾. سورة البروج، الآيات ٤_٧. ولمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى الوثائق السريانية التي نشرها بطريرك أنطاكية وسائر المشرق أغناطيوس يعقوب الثالث: الشهداء الحميريون في الوثائق السريانية، دمشق، المجلة البطريركية، ١٩٦٦م، ص٢٤_ ٤٠.

[٥] – تذكر المصادر العربية أن شخصاً من أهالي نجران تمكّن من الهرب والوصول إلى ملك الحبشة وطلب العون، فوعده بالمساعدة وكان يمتلك الرجال ولا يملك السفن، فكتب إلى قيصر لإرسال السفن لنقل رجاله. الطبري، (محمد بن جرير، ت٣١٠هـ/ ٩٢٣م): تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م، ج٢، ص١٢٣، ١٢٤.

[٦] – لم يكن هذا أول تدخل للحبشة في شؤون اليمن، هذا الاحتلال الثاني لليمن من قبل الحبشة، لمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى سحاب: إيلاف، ص١٢٠، ١٢١. حساني، (خالد جمو): الاحتلال الحبشي لليمن –الدوافع الحقيقة، مجلة سر من رأى، مج٩، العدد ٣٣، د.م، ٢٠١٣م، ص١١٩_ ١٢٦.

وموقعها حتّم عليها العمل بالتجارة لتأمين موارد عيشها واستمرارها، فهي تقع في وادٍ مجدب لا زرع فيه[١]، فدأبت القبائل التي استوطنت فيها على العمل بالتجارة، وكان الدور الأبرز لها في عصر قريش التي استفادت من وجود الكعبة فيها وحرمتها وحج القبائل العربية إليها، وساعدتها خبرتها في التجارة[٢] على توسيع كسبها، فاقترن الحج بالتجارة وتصاعد النشاط التجاري، حتى مجيء هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب الذي أنشأ الإيلاف وعاد بأعظم الأرباح على مكة[٣].

فسُيّرت رحلة الشتاء جنوباً إلى اليمن ورحلة الصيف شمالاً إلى الشام، حملت هذه القوافل منتجاتِ الشرق من الهند والصين وخاصة الحرير والتوابل وغيرها التي تأتي إلى موانئ شبه الجزيرة العربية، ومنتجات شبه الجزيرة العربية ولاسيما اللبان والمرّ والأدم، ومنتجات الحبشة وإفريقيا كالعاج والذهب والفضة، وانطلقت بها في الصيف إلى الشام شمالاً لتصريفها في أسواق بيزنطة. قد قدّر أن الإيلاف حصل في بداية القرن السادس الميلادي[٤]. حيث اشتدّ الصراع بين فارس وبيزنطة في هذا القرن وأغلقت المنافذ التجارية في الشام التي كان يتم عبرها تبادل هذه المنتجات وكانت بيزنطة بالأساس راغبة بالتحرر من هذه السيطرة الفارسية وحاولت الوصول إلى البحر الأحمر والسيطرة على اليمن بشتى السبل سلمية وعسكرية، سلمية بإرسال سفارات لتدعيم علاقات بيزنطة مع كل من القبائل العربية الشمالية وبلاد العرب الجنوبية ودولة الحبشة[٥]، وعسكرية بمساعدة الحبشة في التدخل العسكري بتقديم السفن اللازمة

---

١ - ((ربَّنا إني أسكنتُ منْ ذريّتي بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عندَ بيتكَ المحَرَّمِ رَبَّنَا ليقيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً منَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

٢ - ظهر في نقش (عُقلة) الذي يقدر علماء الآثار تاريخه بين ٢٧٠م و ٢٧٨م ذِكرٌ لمن يدعوهم ((قرشتن)) بأنهم نزلوا ضيوفاً على ملك حضرمي ومعهم ممثلون لمن دعاهم النقش ((تدمر وكُشد وهند)) وأشار باحثون معاصرون بأن قرشتن ما هن إلا نساء من قريش والآخرون ما هم إلا تدمريون وكلدان وهنود ممن يتعاطون التجارة في ذلك الزمن، الأمر الذي يدل على أن قريشاً كانوا تجاراً منذ القرن الثالث الميلادي أي امتهانهم للتجارة لم يكن مرهوناً بمكة. سحاب: إيلاف قريش، ص١٩٠.

٣ - ابن هشام، (عبد الملك الحميري المعافري، ت ٢١٣هـ/ ٨٢٨م): السيرة النبوية، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٢، مج١، ٣٩. ابن حبيب، (محمد بن أمية بن عمر، ت ٢٤٥هـ/ ٨٦٠م): المنمق في أخبار قريش، تح: خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م،، ص٤٢، ٤٣.

٤ - بيضون: الحجاز، ص٧٦. سحاب: إيلاف، ص٢١١.

٥ - حول أخبار هذه السفارات ومختلف ما ورد عنها، يمكن العودة إلى بيغوليفيسكيا: العرب ، ص١٩٦_ ٢٠٧. علي: المفصل، ج٤، ص١٧١_ ١٧٣.

لنقل جنودها، ومستغلةً سوء الأوضاع في اليمن والصراع الديني الدائر فيها. ولكنها بعد كل هذه الوسائل لم تتحقق لها السيطرة المرجوة وبقيت الفوائد محدودة، كل هذا صبّ في صالح تجارة قريش التي ابتعدت كل الابتعاد عن زجّ نفسها في هذا الصراع واتبعت سياسة الحياد بين الطرفين، فلم تقف إلى أي جانب منهما بل نجحت في الإبقاء على استمرار خطوط التجارة تحت زعامتها، وجنت أرباحاً كبيرة وحققت مكانةً ونفوذاً. حاول أبرهة أن يسلبها إياه بحملة الفيل التي تذرع بأن سببها ديني[1]. لم تقبل مكة أي محاولة لسلبها هذه السيطرة وتجلى هذا بمحاولة فارس تسيير قوافل لها إلى اليمن عن طريق الطائف دون المرور بمكة أو دون أن تكون تحت حمايتها فأدى هذا إلى حروب الفجار[2]. وبالطبع ما كان هذا أن ينجح أيضاً في مجتمع تغيب عنه وحدة المصلحة، إنّ ما توافر في مكة في عهد قريش ساعد على ازدهار التجارة، فوجود الكعبة، والأصنام حولها[3] أضفى مكانة وقدسيةً وضمِن استمرارية قدوم الحجاج إليها، وما قام به قصي من تنظيمات في شؤونها أرسى نظاماً شبيهاً بالسياسي ولاسيما دار الندوة التي كانت بمثابة الأداة المنظمة لشؤون مكة ونواة السلطة فيها، كانت قريش تقضي بها كل

---

[1] – ابن سعد، (أبو عبد الله محمد، ت٢٣٠هـ/ ٨٤٤م): الطبقات الكبرى، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م، ج١، ص٩١. الأزرقي، (محمد بن عبد الله، ت٢٥٠هـ/ ٨٦٥م): أخبار مكة، تح: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، بيروت، د.ت، ج١، ص١٤١_ ١٤٨. البلاذري، (أحمد بن يحيى، ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): جمل من أنساب الأشراف، تح: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج١، ص٧٥. سحاب: إيلاف، ص١٦٥. واط، (مونتغمري): محمد في مكة، تر: عبد الرحمن الشيخ حسين عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٦٧.

[2] – حدثت حروب الفجار بين قريش ومعها كنانة وبين قيس عيلان، وسميت بالفجار لأن هذه القبائل استحلت القتال في الأشهر الحرم وكانت أربع فجارات. ابن هشام: السيرة، مج١، ص١٢٤، ١٢٥. الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص١٧٩. البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص١١٠_ ١١٤. السهيلي، (عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد، ت٥٨١هـ/ ١١٨٥م): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩١م، ج٢، ص٢٣٣، ٢٣٤. بيضون: الحجاز، ٧٦، ٧٧. واط: محمد في مكة، ص٦٨.

[3] – كان عمرو بن لحي هو أول من جلب الأصنام إلى جزيرة العرب وجعلها على الكعبة، فغيّر دين إسماعيل ودعا العرب إلى عبادة الأصنام والأوثان فأجابوه ، ابن الكلبي، (أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م): كتاب الأصنام، تح: أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٨. ابن حبيب: المنمق، ص٣٢٨. أبو الفداء، (إسماعيل بن علي، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، د.ت، مج١، ص٧٦.

أمورها[١]، وكان يجتمع فيها الملأ من قريش من شيوخ العشائر وزعمائها ذوي الرأي والحكمة للتداول في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية العامة، وعرض أي طارئ يستجد في حياتهم، وتأخذ قراراتهم طابع التنفيذ عندما تصدر بالإجماع[٢]. وهنا يكمن السر في قوة مكة وقدرة زعمائها وشيوخها على توحيد مواقفهم وإضعاف المنافسات التي قد تثور أحياناً بين فئات هذا المجتمع للصالح العام للقبيلة، كما حصل في الخلاف الذي نشأ بين حلفي المطيبين والأحلاف، فقد وصل الأمر إلى حد التعبئة للقتال ولكن انتهى بالتسوية وإرضاء الطرفين، فحافظ الملأ في قريش إذاً على التوازن بين العشائر للحفاظ على العنصر الأهم والأبرز لرواج التجارة واستقرارها وهو الأمن كما وحرصت على الحياد الذي تجلى في رفضها محاولة عثمان بن حويرث[٣] تنصيب نفسه ملكاً تابعاً لبيزنطة فيها رغم أنه هدّدهم بأن الأخيرة ستمنعهم من التجارة في أسواقها[٤]، ولم يكن لهذا الرفض أي نتائج على صعيد التجارة[٥].

فكانت الدعوة إلى الإسلام في هذا الوسط القبلي التجاري الذي تحكمه التوازنات والمصالح وتحميه قداسة وحرمة الكعبة والأصنام من حولها، هي في الواقع ثورة دينية اجتماعية فهي تدعو إلى عبادة إله واحد والتخلي عن كل الأصنام في مركز الوثنية في شبه الجزيرة العربية، رأت قريش فيها تهديداً لمركزها وأمنها ووحدتها، فمركزها الديني بوجود الكعبة وحرمتها ووجود الأصنام فيها أعطاها حرمة ومكانة، بحيث

---

١ – الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص١١٠. الطبري: تاريخ، ج٢، ص٢٥٩. سبط ابن الجوزي، (يوسف قز أوغلي، ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تح: محمد بركات، عمار ريحاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠١٣م، ج٣، ص٢٦. ابن منظور، (محمد بن مكرم، ت٧١١هـ/ ١٣١١م): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م، ج١٥، ص٣١٥، مادة (ندي). ابن كثير، (إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤هـ/ ١٢٧٢م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الرياض، ٢٠٠٣م، ج٣، ص٢٣٧، ٢٣٨. ابن خلدون، (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، تح: خليل شحادة،، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ج٢، ص٤٠٠.

٢ – الشريف: مكة والمدينة، ص١٢٩، ١٣٩، ١٤٠. واط: محمد في مكة، ص٥٩. سلامة، (عواطف أديب) : قريش قبل الإسلام، دار المريخ، الرياض، ١٩٩٤م، ص١٦٩.

٣ – هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، من جملة الحنفاء الذين اعتزلوا الأصنام ثم تنصر شاعر من شعراء مكة قبل الإسلام، قدم على قيصر ليملكه على أهل مكة، ويقال له البطريق. ابن هشام: السيرة، مج١، ص١٥٢. ابن عساكر، (علي بن الحسن بن هبة الله، ت٥٧١هـ/ ١١٧٦م) تاريخ دمشق، تح: عمرو غرامة العمروي، دار الفكر، د.م، ١٩٩٥م، ج٣٨، ص٣٣٢.

٤ – السهيلي: الروض الأنف، ج٢، ٣٥٨، ٣٥٩. بيضون: الحجاز، ص٧٩، ٨٠. سلامة: قريش، ص١٦٢، ١٦٣.

٥ – واط: محمد في مكة، ص٦٩.

لم يجرؤ أحد على التعدي على أراضيها ولاسيما بعد فشل حملة أبرهة الحبشي الذي عزز هذه المكانة، كما أنها سعت للحفاظ على وحدة صفّها واحتواء أي خلاف وصراع بحله دون قتال للحفاظ على الأمن والاستقرار، والتوازن بين عشائرها لضمان استمرار التجارة.

رأت قريش في الدعوة إلى الإسلام حرماناً لمكة من أسباب معاشها وضياع مكانة حرمها، والتخلي عن أمنها وسبباً في فرط وحدتها واجتراء القبائل عليها والحطّ من مكانتها[١]، وأشار القرآن إلى هذه النظرة بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[٢]، وظهر الخلاف واضحاً في الموقف من الدعوة في العشيرة بل العائلة الواحدة، ولم تدع قريش سبيلاً إلاّ وسلكته للوقوف في وجه الدعوة. فاتجهت في البداية إلى أبي طالب عمّ رسول الله ﷺ وطلبت منه عدّة مرات أن يمنع ابن أخيه من ذكر آلهتهم بسوء، وحاولوا أن يُغرُوا رسول الله ﷺ بالمال والجاه والسلطة، ولكنهم لم يفلحوا بهذه الوسائل، فاتجهت كل عشيرة إلى من آمن من أفرادها وعذبتهم للرجوع عن دينهم[٣]، ولما اشتدت قريش في تعذيب من آمن، أشار عليهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة[٤]، فوصلت الأمور هنا إلى الذروة، ولأن محمد ﷺ كان تحت حماية عمه أبي طالب لم تتجرأ قريش على إيذائه، فقد كان الإمساك برجلٍ دون إذنِ عشيرته سيؤدي بلا شك إلى نزاع، وقريش كانت لا ترغب أبداً بحدوث أي نزاع بين بطونها وعشائرها[٥]، لذلك قررت مقاطعة بني هاشم ومنع الميرة، أي الطعام، عنهم فلا تبيعهم أو تبتاع منهم شيئاً، ولا تزوجهم، أو تتزوج منهم، كانت هذه المقاطعة أشبه بالعقوبة الجماعية، لجأت إليها قريش عندما عدمت

---

١ - الطبري، (محمد بن جرير، ت٣١٠هـ/ ٩٢٣م): جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ج١٩، ص١٠٦. دروزة، (محمد عزة): عصر النبي وبيئته قبل البعثة، دار اليقظة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٦٤م، ص٢٠.

٢ - سورة القصص، الآية ٥٧.

٣ - ابن إسحق، (محمد المطلبي، ت ١٥١هـ/ ٧٦٨م): السير والمغازي، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧٨م، ص١٤٨، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥.

٤ - كانت الهجرة إلى الحبشة مرتين مخافة الفتنة وفراراً إلى الله عز وجل. الطبري: تاريخ، ج٢، ص٣٢٨_ ٣٣١. السهيلي: الروض الأنف، ج٣، ص٢٠٣، ٢٢٣. ابن سيد الناس، (محمد بن محمد اليعمري، ت٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص١٣٥.

٥ - واط: محمد في مكة، ص٧٢.

كل الوسائل، دخل بنو هاشم شِعْبَهُم وانضمّ لهم بنو المطلب، ولم يفارقهم إلاّ أبو لهب عمّ رسول الله ﷺ، وحصلت المقاطعة واستمرت ثلاث سنوات، قُطعت الميرة عنهم وتصايح صبيانهم من الجوع وهلك نفرٌ منهم، لكنهم استمروا بحماية رسول الله رغم عدم دخولهم بالإسلام، أرادت قريش أن يتخلى بنو هاشم عن محمد وتضعف دعوته ويقل أنصاره لكن لم يحدث من هذا الأمر شيء، فأدركت عدم جدوى المقاطعة، وقام نفرٌ منهم آلمهم ما حلّ بإخوانهم من محنة وضيق، فاتفقوا ونقضوا الصحيفة[١].

بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الدعوة بعد الخروج من المقاطعة، تغيرت معها الظروف المحيطة برسول الله ﷺ فلم تمض شهور عديدة حتى توفي أبو طالب ولحقته السيدة خديجة زوجة رسول الله ﷺ ففقد بهما السند والعون والملجأ، وتجرأت قريش عليه بالأذى بما لم تتجرأ عليه بوجود أبي طالب[٢]، أدرك رسول الله ﷺ استحالة انتشار الدعوة في هذه الظروف والمعارضة. فبدأت الدعوة بمرحلة المخاض للخروج من مكة والانتقال إلى مكان آخر حتى تكتمل، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يطلب النصرة والحماية حتى يبلغ رسالات ربه، فلم يكن موقفها أفضل من موقف مكة بل لم يمر عليه يوم أشد من هذا اليوم، حيث ردّ أهلها عليه شرّ جوابٍ، وأغروا به صبيانهم وسفهاءهم يسبّونه ويصيحون به، ويقذفونه بالحجارة حتى دُميت قدماه، فعندما سُئل : هل مرّ عليك يوم أشدّ من يوم أُحُدٍ، أجاب " أنّ يومَ خروجه إلى الطّائف كان أمرّ وأشدّ[٣]، وعاد إلى مكة ولم يدخلها إلا بجوارٍ[٤]، وهذا يفضي إلى القول بأن محمّداً الآن افتقد لأية قوة أو منعة تخشاها قريش، وتخشى إنْ هي تعرضت له أن تؤدي إلى حرب. أخذ بعد ذلك يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج يدعوهم إلى الله عزّ وجل ويسألهم أن يصدّقوه، ويتلو عليهم القرآن ويطلب منهم أن يمنعوه حتى يبين الله ما بعثه به، لكنّ أبا لهب عمه كان يتبعه ويحذر القبائل منه

---

[١] – هؤلاء النفر هم هشام بن عمرو بن ربيعة، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة، ومطعم بن عدي، وأبو البختري العاص ابن هاشم بن الحارث، وزمعة بن الأسود. ابن إسحق: السير، ص١٥٦_ ١٦٧؛ البلاذري : أنساب الأشراف، ج١، ص٢٧٠_ ٢٧٢.

[٢] – ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١، ص١٥١.

[٣] – البخاري، (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، ت٢٥٦هـ/ ٨٦٩م): الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله ﷺ ، تح: محمد الناصر، دار طوق النجاة، د.م، ٢٠٠١م ج٤، ص١١٥، رقم ٣٢٣١.

[٤] – دخل بجوار المطعم بن عدي. البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٢٣٧؛ الطبري: تاريخ، ج٢، ص٣٤٤_ ٣٤٧. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٣٣٧_ ٣٤٢.

ويحرض الناس على عدم الاستماع إليه[١]. ومضى في ذلك دون يأس، حتى كان اللقاء مع أفرادٍ من الخزرج جاؤوا للحج والعمرة، فعرض عليهم الإسلام ودعاهم إلى عبادة الله عزّ وجلّ، وترك عبادة الأوثان وتلا عليهم آياتٍ من القرآن الكريم، فلاقت الدعوة صدىً عندهم وقبولاً لا سيما وأن فكرة النبي المبعوث كانت حاضرة في أذهانهم فكثيراً ما هددهم بها جيرانهم اليهود، فصدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وقد وعدوه بدعوة قومهم إلى الإسلام لعلهم يجتمعون إليه بعد تفرقهم وتناحرهم. ورجعوا إلى المدينة وحدّثوا قومهم عن رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، وانتشرت الدعوة بينهم، ولم يبق دار من دورهم إلاّ وفيها ذكرٌ من رسول الله ﷺ[٢]. كان الأوس والخزرج قد عانوا من الحروب والصراعات التي امتدت قرابة قرن من الزمن، وافتقدوا الوحدة، فكانت دعوة النبي (ص) لهم إلى الإسلام من الأمور الضرورية للمدينة لبعث الأمل في السلام[٣].

هكذا بدأ الإعداد للمرحلة الجديدة القادمة التي ستنقُل الإسلام من الدعوة إلى الدولة، وستنقل يثرب من واحة في قلب الصحراء إلى عاصمة للدولة الناشئة، وستغير الصورة العامة للمنطقة. والوقوف على هذه المرحلة يقتضي التعرف على الظروف والخصائص الجغرافية والطبيعية للمدينة التي أثرت في نمطها الإنتاجي الاقتصادي، والتطرق إلى أحوال المجتمع والسكان فيها، والعلاقات السائدة بينهم الأمر الذي سيؤدي إلى معرفة الأسباب والدوافع التي جعلت المدينة تخالف قريشاً في الموقف من الدعوة بل وتخالف القبائل كلها. ومن ثمّ الوقوف على أبرز وأهم نتائج هذا الانتقال، الذي ظهر خلال العصر النبوي.

---

[١] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٢٨٥، ٢٨٦.

[٢] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٢٩٠، ٢٩١.

[٣] – واط: محمد في مكة، ص٢٨٢.

الفصل الأول

المدينة المنورة قبيل الهجرة

١- الموقع والمظاهر الجغرافية الطبيعية.

٢- التسمية والنشأة.

٣- سكان المدينة

٤- الحالة السياسية.

٥- الحالة الاقتصادية.

٦- الحالة الدينية.

لا يتم الوصول إلى معرفة التحولات التي حصلت في المدينة المنورة بعد هجرة المسلمين إليها واستقرار الإسلام وانتشاره دون المرور والتعرف على أوضاعها قبيل الهجرة، بدءاً من موقعها، وأبرز مظاهرها الجغرافية، ومن ثم التعرف على نشأتها، بدءاً من الاسم الذي كان شائعاً لها منذ القدم، مروراً بالقبائل التي سكنت فيها، وتوزعها في نواحيها، وبعد ذلك أصل هذه القبائل والوصول إلى العلاقات التي سادت بينها، ولا بد من إلقاء ضوء على نوع النشاط الاقتصادي الذي كان سائداً ومؤثراً في مجرى الحياة أيضاً.

١- الموقع والمظاهر الجغرافية الطبيعية:

تقع المدينة – يثرب – في القسم الشمالي من الحجاز، وعلى بعد ٣٠٠ ميل شمالي مكة أي حوالي ٥٠٠كم، في سهل ينحدر من الجنوب الشرقي، يسمى عالية المدينة أو العوالي، نحو الشمال الغربي، ويسمى بسافلة المدينة، وهي أرض حرة سبخة[١] ووصفت بأنها أقل من نصف مكة[٢]، وللمدينة موضعها الفريد فهي واحةٌ صحراويةٌ تحيطها الجبال في إطارات متتابعة وأحياناً متقطعةً وتتداخل معها الحرّات واللّابات والجمّاوات[٣]، وهي غزيرة المياه[٤]. يحدها من الشمال جبل أُحُد[٥] الذي يبلغ ارتفاعه

[١] – السبخة: هي الأرض التي تعلوها الملوحة، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر. وهي ما يعلو الماء من طول الترك كالطحلب ونحو ذلك. الزبيدي: تاج العروس، ج٧، ص٢٦٩.

[٢] – الاصطخري، (إبراهيم بن محمد الفارسي، ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): المسالك والممالك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٢٣؛ ابن حوقل، (أبو القاسم النصيبي، ت٣٦٧هـ/ ٩٧٧م): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، ص٣٠. الحموي: معجم ، ج٥، ص٨٢.

[٣] – الجمّاء: أي الملساء وهي جبل بالمدينة على ثلاثة أميال غرباً من ناحية العقيق، إلى الجرف.، وشاة جمّاء أي لا قرن لها، الجمّاوات ثلاثة بالمدينة، جمّاء تضارع وجمّاء أم خالد وجمّاء العاقر. الفيروز أبادي، (محمد بن يعقوب، ت٨١٧هـ/ ١٤١٥م): المغانم المطابة في معالم طابة، تح: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ط١، ١٩٦٩م، ص٩٠_ ٩٢.

[٤] – رجب، (عمر الفاروق السيد): المدينة المنورة اقتصاديات المكان. السكان. المورفولوجية، دار الشروق، جدة، ط١، ١٩٧٩م، ص٥١.

[٥] – جبل أحُد سمي بهذا الاسم لتوحده وانقطاعه، هو جبل صخري من الجرانيت وفيه رؤوس كثيرة، وهضبات شتى من كثرتها يكاد الناظر إليها يظنها جبالا مستقلة، وصخوره ذات لون أحمر، سبب تسميته بأحد لتوحده عن الجبال وانقطاعه عنها. الفيروز أبادي: المغانم، ص١٠. الأنصاري، (عبد القدوس): آثار المدينة المنورة، المكتبة السلفية بالمدينة، المدينة المنورة، ط٣، ١٩٧٣م، ص١٩٧.

حوالي ٣٥٠م، وشماله جبل ثور، ومن الجنوب جبل عير ويصل ارتفاعه إلى ٣٠٠م[١]، ومن الغرب حرة الوبرة، ومن الشرق حرة واقم، وهي من أشهر حرّات بلاد العرب، وتربتها من أخصب بقاع يثرب وهي تشتمل على مساحات من الأراضي الخصبة وفي هذه الحرة كان استقرار أهم قبائل اليهود بني قريظة وبني النضير، وأهم البطون الأوسية، وتختلف حرة الوبرة عنها فهي أقرب من واقم إلى المدينة وتتميز عنها بكثرة الهضاب والمستنقعات، ولهذه الحرار تأثيرها الواضح على الحياة في المدينة فهي تسهم في حمايتها من العواصف الترابية فضلاً عن حجبها عن المسطحات الرملية المحيطة بها[٢].

كما تتخلل المدينة وتدور معها وتنتهي إليها الوديان والسيول، وتتوزع في منطقتها مساحات مزروعة وأخرى قابلة للزراعة تبعاً لطبيعة التربة وكفاية المياه، وأهم الأودية فيها وادي بطحان ويعرف اليوم "بأبي جيدة" الذي ينبع من ناحية قبُاء جنوباً[٣]. ووادي رانوناء في الناحية الجنوبية الغربية للمدينة الذي يأتي من نواحي جبل عير فيتجه إلى غربي مسجد قباء في العُصبة منازل للأوس، ثم يجري حتى يلتقي بوادي بطحان ويدخلان المدينة باتجاه الشمال[٤]. وكذلك يلتقي كل من واديي مهزور الذي يصدر من حرة واقم، ومذينيب الذي يصدر من شرقي حصن كعب بن الأشرف في الجنوب الشرقي[٥]، ويصبان معاً في وادي بطحان، فتتجه هذه الأودية الأربعة مجتمعةً مخترقةً المدينة إلى سفح جبل سلع ثم إلى زغابة، وهي مجمع الأسيال، لتلتقي بوادي قناة[٦]، وهو وادٍ يأتي من وجّ أي الطائف[٧]، يجري جنوب جبل أُحُد

١ - رجب: المدينة، ص٥٧.

٢ - الشريف: مكة والمدينة، ص٣١١، ٣١٢؛ الحازمي، (عبير نايف): مجتمع مدينة يثرب قبل الإسلام، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير بإشراف: رحمة عواد السناني، جامعة طيبة، المدينة المنورة، ٢٠١٥، ص٧، ١٠.

٣ - ذو جدْر: على ستة أميال من المدينة بناحية قباء، كانت فيها لقاح رسول الله ﷺ. الحموي: معجم، ج٢، ص١١٤. ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع، ج١، ص٣١٧.

٤ - ابن شبة، (أبو زيد عمر النميري البصر، ت٢٦٢هـ/ ٨٨٥م): تاريخ المدينة المنورة، تح: فهيم شلتوت، طبع على نفقة السيد حبيب محمود أحمد، جدة، ١٩٧٩م، ج١، ص١٦٥؛ المطري، (محمد بن أحمد، ت٧٤١هـ/ ١٣٤٠م): التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، تح: سليمان الرحيلي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ٢٠٠٦م، ص١٦٧. الأنصاري: آثار المدينة، ص٢٣٢.

٥ - المطري: التعريف، ص١٦٨. الأنصاري: آثار المدينة، ص٢٣٤.

٦ - وادي قناة هو جزء من وادي إضم الذي يسمى عند مروره بالمدينة بقناة، وقيل أن تبعاً أطلق هذه التسمية عليه عندما أراد إخراب المدينة وإضم لأشجع وجهينة. الحموي: معجم ، ج١، ص٢١٤، ٢١٥.

وينحدر غرباً بينه وبين جبل سلع شمالاً حتى يتصل بوادي بطحان، بالعموم هذه الأودية تصدر من الجنوب والجنوب الشرقي للمدينة، وتتجه نحو الشمال الغربي حتى تنتهي إلى مجمع الأسيال الذي يصب فيه كذلك الأمر وادي العقيق[٢] الذي تفصل حرة الوبرة بينه وبين المدينة، وهو وادٍ خصب وفير المياه[٣]، يأتي من قبل الطائف ثم يمر بالمدينة[٤]، تخرج هذه الأودية مجتمعةً في وادي سُمي إضم لانضمامها واجتماعها به، فيتجه صوب البحر مع استمرار تلقيه روافد حتى مصبه في البحر الأحمر، وذكر أن وادي إضم لأشجع وجهينة[٥].

والحقيقة أن مصطلح العالية والسافلة متعلقان باتجاه السهل عموماً، وهو للتعبير عن توزع السكن بها في مواضع مرتفعة وأخرى منخفضة، فمنطقة التقاء الأودية أي مجمع الأسيال تمثل أقل أجزاء المدينة منسوباً ومن تجمعها يبدأ مجرى السيول في إضم، وهذا يعني أن أسفل المدينة في كامل منطقتها هو من الناحية الشمالية والشمالية الغربية هي أسفل السافلة، ولكن امتلاء هذه الوديان بالمياه في هذه المنطقة من المدينة ومرورها بين مواضع السكن كان من أشد مشكلاتها وضوحاً مما تسبب في تعذر سير الناس أو خروجهم لأعمالهم، ولاسيما بوجود تعرجات في الأرض تسببت بوجود مستنقعات تركد المياه فيها كانت بمثابة مباءات للبعوض والحشرات وسببت الأمراض[٦]، وحمى يثرب كانت معروفة يوم قدوم

---

١ – ابن شبة: تاريخ المدينة، ج١، ص١٧٢؛ السمهودي، (علي بن عبد الله، ت٩١١هـ/ ١٥٠٦م): وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تح: قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة، ط١، ٢٠٠١م، ج٤، ص٥٨.

٢ – سمي العقيق عقيقاً لأنه عقّ في الحرة أي شق وقطع فيها، وقيل أن تبعاً سماه العقيق فقال هذا عقيق الأرض، لحمرة موضعه وهو عقيقان أصغر وأكبر. الفيروز أبادي: المغانم، ص٢٥٣، ٢٦٧. السمهودي: وفاء الوفا، ج٤، ص١٢، ١٣.

٣ – السمهودي: وفاء الوفا، ج٤، ص٤٩.

٤ – الشريف: مكة والمدينة، ص٣١٢، ٣١٣.

٥ – ابن شبة: تاريخ المدينة، ج١، ص١٧٢، ١٧٣؛ اليعقوبي، (أحمد بن إسحق بن جعفر، ت بعد ٢٩٢هـ/ بعد ٩٠٥م): البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص١٥١؛ ياقوت: معجم، ج١، ص٢١٤، ٢١٥. وعن أودية المدينة يمكن العودة إلى العياشي، (إبراهيم بن علي): المدينة بين الماضي والحاضر، المكتبة العلمية ل محمد النمنكاني، المدينة المنورة، ١٩٧٢م، ص٤٤٢ــ ٤٤٦.

٦ – رجب: المدينة، ص٥٦، ٥٧؛ الخطراوي، (محمد العيد): المدينة في العصر الجاهلي، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط١، ١٩٨٢م، ص١١١؛ سالم، (السيد عبد العزيز): تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ٣٣٧.

المهاجرين إليها، بل وأصيب فيها عددٌ منهم[١].كان لتوافر الموارد المائية أثره الكبير في نشأة المدينة واستقرار السكان فيها، فهذه الأودية التي تخترقها وتحيط بها شكلت شرايين الحياة فيها، ويأتي ماؤها في وقت الأمطار، فكانت الأرض تختزن في جوفها من مسيل هذه الأودية عقب سقوط الأمطار، كما أن تطويق الجبال والحرار البركانية للمدينة بشكل يشبه الحوض الجبلي ساعد على حجز المياه الجوفية العذبة، مما جعل في الاستطاعة الوصول إليها في أي بقعة من ذلك الحوض عند حفر الآبار[٢]، وعددت المصادر الكثير من الآبار التي توزعت فيها مختلف المناطق. بئر أريس تقع في قباء كان ماؤها غزيراً وعذباً شهياً، سميت باسم صاحبها وكان يهودياً، وهي البئر التي سقط فيها خاتم النبي ﷺ في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان فعرفت ببئر الخاتم[٣]. وبئر غرس في قباء كذلك[٤]. وبئر بُضَاعة في دار بني ساعدة، عميقة غزيرة المياه ماؤها عذبٌ صافٍ[٥]. وفي العقيق عدد من الآبار أشهرها بئر رومة بقرب مجمع الأسيال في زغابة شمال غرب المدينة غزيرة المياه ماؤها عذب شديد الصفاء[٦]. وبئر عروة كذلك في العقيق. ومنها أيضاً بئر البُضّة وقيل البُصّة قريبة من البقيع يسار السالك إلى قباء[٧]، وبئر "حا " شمال

[١] – ابن هشام: السيرة، ج١، ص٤٢٦. الحموي: معجم، ج٥، ص٨٣.

[٢] – إدريس، (عبد الله عبد العزيز): مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ، جامعة الملك سعود، الرياض، ط٢، ١٩٩٢م، ص٢٠٣.

[٣] – الحربي: المناسك، ص٤١١؛ ابن النجار، (الحافظ محب الدين محمد بن محمود، ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م): الدرة الثمينة في تاريخ المدينة، تح: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١٠٢، ١٠٣؛ المطري: التعريف، ص١٥١، ١٥١؛ الفيروز أبادي: المغانم، ص٢٥.

[٤] – ابن زبالة، (محمد بن الحسن، ت ١٩٩هـ/ ٨١٤م): أخبار المدينة، جمع وتوثيق: صلاح عبد العزيز سلامة، مركز بحوث ودراسات المدينة، المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢١٧؛ المطري: التعريف، ص١٥٣؛ يذكر ابن النجار أن فيه ملوحة. الدرة الثمينة، ص١٠٦.

[٥] – هي البئر التي قال فيها رسول الله ﷺ أن الماء طهور، لا ينجّسه شيء، ذلك أنه عليه السلام أتى هذه البئر وتوضأ من مائها، فقيل له أن كان يلقى فيها فيها لحوم الكلاب وعذر الناس، فأصبحت من الآبار التي يستسقى منها بل حتى كان يقصدها المريض فيغتسل من مائها ثلاثة أيام فيعافى؛ ابن حنبل، (أحمد بن محمد بن حنبل، ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م): مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م، ج١٧، ص٣٥٩، رقم ١١٢٥٧، صحيح؛ الفيروز أبادي: المغانم، ص٣١ _٣٥؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٣٥٨_ ٣٦١.

[٦] – المطري: التعريف، ص ١٥٨، ١٥٩؛ الفيروز أبادي: المغانم، ص٤٠ _ ٤٣.

[٧] – الفيروز أبادي: المغانم، ص٣٠؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٣٥٥.

المدينة من الشرق، وبئر "غدق"، بئر السقيا، بئر الدّريك، وبئر خطمة، بئر ذروان، وبئر جمل، وجاسم وآبار أخرى ذكرتها المصادر، أغلبها لم يعد ظاهراً [١].

ومناخ يثرب عموماً يتصف بارتفاع درجة الحرارة صيفاً وانخفاضها شتاءاً، والأمطار تتساقط في فترات متقطعة في فصلي الشتاء والربيع، وهو أفضل من مناخ مكة التي عانى أهلها من قحط في الماء وشدة في الحصول عليه حتى بعد حفر بئر زمزم. فالماء في المدينة متوفر لتعدد الأودية التي تجري فيها وتوافر المياه الجوفية وقربها مما ساعد على حفر الآبار فيها، فكان هذا عاملاً أساسياً إلى جانب خصب تربتها لجذب السكان والاستقرار فيها وغلبة النشاط الزراعي[٢].

٢- التسمية والنشأة:

شاع استخدام اسم المدينة للدلالة على مدينة رسول الله ﷺ بعد الهجرة، وأوردت المصادر لها أسماء عديدة، قيل أن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة وطيبة وطابة والمسكينة وجابرة والمجبورة والمرحومة والعذراء والمحبة والقاصمة[٣]، وعدّد لها السمهودي أكثر من تسعين اسماً وقال أنّ كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وهذا مؤشر بأن هذه الأسماء ذُكرت بعد انتشار الإسلام[٤]، لكنها قبل الإسلام ورد ذكرها باسم يثرب في كتب الإخباريين والجغرافيين القدامى، وقيل أنها كانت تدعى غلبة[٥]، لكن تسمية يثرب كانت المشهورة فظهرت حتى في بعض النقوش والآثار المادية على اختلاف في اللفظ. وتعددت الآراء في تحديد مدلول هذا الاسم، فأرجع بعضهم أصل التسمية إلى الشخص الذي سكنها

١ – الفيروز أبادي: المغانم، ذكر مجمل الآبار في ص٢٥___ ٤٨؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٣٣٩ _ ٣٩٦؛ ابن النجار: الدرة الثمينة، ص١٠١_ ١٠٩.

٢ – علي: المفصل، ج٤، ص١٣٢؛ الخطراوي، (محمد العيد): شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٠م، ص٦٥.

٣ – ابن زبالة: أخبار المدينة، ص١٨٦؛ ابن الفقيه: البلدان، يعدد أسماءها مع بعض الاختلاف، ص٨٠؛ ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٣٣؛ الحلبي، (نور الدين علي بن إبراهيم بن برهان، ت١٠٤٤هـ/ ١٦٣٥م): إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٣٥م، ج٢، ص٦٢، ٦٣.

٤ – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٦١_ ٩٢.

٥ – قيل سميت غلبة لتغلب اليهود على العماليق سكانها الأوائل، وتغلب كل قوم على من نزل قبلهم؛ ابن رسته، (أبو علي أحمد بن عمر، ت أوائل القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي): الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩٣م، ص٦٣، ٦٤.

وعمّرها، وذلك ما درج عليه المؤرخون الأوائل من ربط أسماء الأمكنة باسم مؤسسيها أو باسم يدل على صفتها، في حين أشار البعض الآخر بأن يثرب ما كانت إلا جزءاً أو قريةً من المدينة المنورة التي ضمت عدة قرى، وأصبحت لاحقاً مقراً للدعوة الإسلامية وعاصمةً للدولة.

وردت في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[1]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2]. في الآية الأولى إشارة إلى اسمها، وفي الآية الثانية إشارة إلى المعنى، فالتثريب كالتأنيب والتعيير والاستقصاء في اللّوم، وثرّب عليه وأثربه إذا وبّخه ولامه وعيّره بذنبه[3].

والتثريب هو الفساد والتخليط، وروي عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يقال للمدينة يثرب، كراهية التثريب وهو من اللوم والتعيير وسماها طيبة وطابة[4].

يثرب هي ناحية أو جزء من مدينة رسول الله ﷺ، أي أنها قرية من قرى المدينة، تمتد على طرف وادي قناة شرقاً إلى طرف الجرف غرباً، وما بين المال الذي يقال له البرني[5] إلى زبالة شمالاً أي شمال جبل سلع تقريباً، أي في الشمال الغربي من المدينة [6].

---

[1] – سورة الأحزاب، الآية ١٣.

[2] – سورة يوسف، الآية ٩٢.

[3] – الزبيدي: تاج العروس، ج٢، ص٨٣.

[4] – ابن حنبل: مسند، ج٣٠، ص٤٨٣، رقم ١٨٥١٩؛ ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٢٣٥، مادة (ثرب)؛ ابن كثير، (إسماعيل بن عمر، ت٧٧٤هـ/ ١٢٧٢م): تفسير القرآن العظيم، تح: سامي محمد سلامة، دار طيبة، د.م، ١٩٩٩م، ج٦، ص٣٨٩.

[5] – البرني: نوعٌ من التمر، أصفر مدوّر، وهو أجود التمر، ابن منظور: لسان العرب، ج١٣، ص٤٩، مادة (برن).

[6] – هذا الوصف حسب مسميات الأماكن عند المؤرخين الأوائل، وقد بيّن باحثون معاصرون أماكن هذه الأماكن في هذه الأيام، فتوضح أنها تقع في الشمال الغربي. ابن زبالة: أخبار المدينة، ص١٨٤، ٢٣٨؛ ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٣٥؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٦٢؛ الأنصاري،: آثار المدينة، ص١٧٧؛ العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص٥١١.

أما تسمية يثرب فهو اسم أول من نزل في هذه المنطقة، وهو أحد أحفاد نوح عليه السلام من ابنه سام، هو يثرب بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام[١]، وذكروا بعد ذلك أن عبيل هم أول من سكن يثرب لكن العماليق أخرجوهم منها، فنزلوا في موضع بين المدينة ومكة، فجاءهم سيل أجحفهم فيه فسميت الجحفة[٢]. وعبيل من العرب البائدة وكذلك العماليق[٣]. وقيل أن يثرب هو من بني عملاق بن أرفخشد بن سام بن نوح[٤]، وأن العمالقة هم أوّل من زرع فيثرب واتخذ بها النخل وعمّر الدور والآطام والضياع، وكانوا قد انتشروا في أرجاء الجزيرة العربية فأخذوا ما بين البحرين وعمان والحجاز كله إلى الشام، ومنهم جاسم بالبحرين وعُمان، وساكنو المدينة بنو هف وسعد بن هفان وبنو مطرويل[٥]. وتذكر الأخبار بأن هؤلاء العماليق عتوا عتواً كبيراً وأن النبي موسى عليه السلام أرسل لقتالهم اليهود وأمرهم أن لا يستبقوا أحداً منهم[٦].

كما ورد اسم يثرب في كتابات وآثار ترجع إلى عهد الدولة المعينية، ورد اسمها بين أسماء المدن التي سكنتها جاليات من معين، أي أن المدينة كانت موجودة قبل أكثر من ألف وخمسمائة سنة من هجرة رسول الله ﷺ إليها، فالدولة المعينية من أقدم الحضارات التي وصل خبرها وكانت مزدهرة ما بين ١٣٠٠ و ٦٣٠ قبل الميلاد، حكمت الحجاز وفلسطين في أوائل عصر ازدهارها ولما ضعف سلطانها في أواخر عهدها كونت مجموعة مستوطنات لحماية طريق التجارة[٧].

---

[١] - ابن دريد، (محمد بن الحسن الأزدي، ت٣٢١هـ/ ٩٣٣م): الاشتقاق، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص٨٣؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩١، ٢٩٢.

[٢] - الطبري: تاريخ، ج ١، ص٢٠٨.

[٣] - علي: المفصل، ج١، ص٣٤٣، ٣٤٥.

[٤] - الحموي: معجم، ج٥، ص٤٣٠.

[٥] - الحموي: معجم ، ج٥، ص٨٤؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٣.

[٦] - السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٦. هنا يشير جواد علي إلى أن هذه المرويات في كتب الإخباريين عن العمالقة مأخوذة من منابع يهودية، فقد ذكر العمالقة في التوراة وكانوا أول شعب صدم بالعبرانيين حينما خرجوا من مصر متجهين إلى فلسطين، وظلوا يحاربونهم ويكبدونهم خسائر فادحة وأوقعوا الرعب في نفوسهم ولهذا ثار الحقد بينهم على العماليق، ولا يمكن الوثوق بهذه الراويات أو التسليم بها. المفصل، ج١، ص٣٤٦، ٣٤٧.

[٧] - علي: المفصل، ج٤، ص١٢٨؛ بدر، (عبد الباسط): التاريخ الشامل للمدينة المنورة، د.ن، المدينة المنورة، ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص٢٤.

كما ورد ذكر يثرب كذلك في نقش حرّان أيام الملك البابلي نابونيد الذي تحدث فيه عن حملة عسكرية شنها شمال غرب شبه الجزيرة العربية حوالي سنة ٥٥٢ قبل الميلاد، وذلك بوصفها إحدى المناطق التي وصل إليها وربما ضمها إلى المناطق الخاضعة لسيطرته[١]. ونابونيد هذا هو آخر ملوك الدولة البابلية الكلدانية حكم ست عشرة سنة (٥٥٦_ ٥٣٩ ق.م) قضى عشر سنوات في تيماء شمال شبه الجزيرة تاركاً عاصمته بابل تحت حكم ابنه، ثم عاد إلى بابل ليدهمه قوروش الفارسي وينهي دولته ويجعلها ولاية تابعة لحكمه[٢].

كما ذكرت يثرب أثناء حملة إليوسغالوس سنة ٢٤ ق.م التي توجهت جنوباً إلى اليمن وقيل بأن الحملة مرت بيثرب، وذكر مؤرخ الحملة استرابون أن ملك تلك المنطقة يدعى الحارث رحّب بالرومان وساعدهم على اجتياز الطريق، كما وصف المنطقة بأنها كثيرة العيون[٣].

كما ورد ذكرها عند بطليموس (٨٣ _ ١٦١م) في جغرافيته باسم Lathrippa[٤].

وبعد هذا العرض لتسمية يثرب وأصلها، وقِدَم الآثار التي دلت على وجودها، وذكرها في التاريخ، يمكن القول أن تأسيس يثرب يرجع إلى عصور موغلة في القدم، فإذا تم الأخذ بما ورد من أن عبيل التي ينتسب لها يثرب، أول من أسسها، فالمصادر ذكرت بأن عبيل كانت تتكلم اللغة العربية [٥]، وقد قدر بعض الباحثين أن عمر اللغة العربية يقدر بحوالي ١٦٠٠ سنة قبل الهجرة على سبيل الاحتمال[٦]. في حين ذكر آخرون أيضاً أن العماليق، الذين سكنوها، كانوا قوماً عرباً ولسانهم كان لساناً عربياً[٧]. كما أن ما أُشير إليه من نقوش معينية وبابلية يشيران بضرورة الحال إلى أن يثرب في تلك الآونة قائمة وعامرة. هذا وقد أجريت بعثات استكشافية ورحلات وتنقيبات أثرية علمية في المدينة المنورة أثبتت

---

[١] – علي: المفصل، ج٤، ص١٣٠.

[٢] – علي: المفصل، ج١، ص٦١٠ _ ٦١٣؛ الحازمي: مجتمع المدينة، ١٨.

[٣] – بدر: التاريخ الشامل، ج١، ص٤٩.

[٤] – علي: المفصل، ج٤، ص١٣٠.

[٥] – ابن حبيب، (محمد، ت ٢٤٥هـ/ ٨٦٠م): المحبر، تح: إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت، ص٣٨٤. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩١.

[٦] – بدر: التاريخ الشامل، ج١، ٢٤.

[٧] – الطبري: تاريخ، ج١، ص٢٠٤.

هذه دراساتها وجود مواقع أثرية تعود إلى ما قبل التاريخ، كما ظهرت رسوم ونقوش صخرية في محيط المدينة تركزت في مناطق الحرات والواحات وممرات الأودية عكست نشاطات الإنسان والبيئة التي كان يعيش فيها منذ العصور الحجرية مروراً بالبرونزية حتى العصور التاريخية[1].

٣- سكان المدينة:

عندما قدم المسلمون إلى المدينة كانت قبائل الأوس والخزرج تسكنها إلى جانب جماعات من اليهود، وكانوا متوزعين في أرجاء المدينة وتكاد تجمع الروايات على أسبقية نزول اليهود في المدينة على الأوس والخزرج.

أولاً: اليهود:

لم يقتصر وجود اليهود في شبه الجزيرة العربية على المدينة المنورة – يثرب- بل وجدت لهم أماكن أخرى في خيبر، ووادي القرى، وفدك، إلاّ أن تجمّعهم الأكبر كان في المدينة. وتكاد المصادر تجمع أنهم يرجعون بأصولهم إلى فلسطين، يختلف عنهم اليعقوبي الذي يُرجع بني النضير وبني قريظة إلى أصول عربية فيجعلهم من فرع من قبيلة جذام العربية، تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير وكذلك قريظة[2]. وتورد المصادر التي تقول بأصولهم الشمالية روايات عديدة حول بداية قدومهم، يمكن وضعها ضمن مجموعاتٍ ثلاث:

- **المجموعة الأولى** تذكر عدة روايات تخص النبي موسى عليه السلام ورواية تخص النبي داود عليه السلام، منها أن طائفةً من بني إسرائيل كانت قد أتت مع النبي موسى عندما حجّ وحجّت معه، فلما كان انصرافهم مرّوا على المدينة، فرأت هذه الطائفة في موضعها أي المدينة صفة بلدِ نبيٍّ يجدون وصفه في التوراة بأنه خاتم النبيين، فتخلفت ونزلت سوق بني قينقاع[3]. ورواية مشابهة تذكر أن موسى وهارون

---

[1] – الحازمي: مجتمع يثرب، ص٢٣، ٢٤.

[2] – اليعقوبي، (أحمد بن إسحق بن جعفر، ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م): تاريخ اليعقوبي، تح: عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، بيروت، ٢٠١٠م، ج١، ص٣٦٧. ويوافق مرغوليوث رأي اليعقوبي بأن أصل اليهود في المدينة يرجع إلى العرب:

-Margoliouth; The Relations between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam, London, 1924, p.61.

[3] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٣، ٣٠٠.

عليهما السلام أقبلا حاجين فمرا بالمدينة، فخافا من يهود، فخرجا مستخفيين فنزلا أحداً، فغشي هارون الموت، فقام موسى فحفر له ولحده، ثم قال له: يا أخي إنك تموت، فقام هارون فدخل في لحده فقُبض فحثا عليه موسى التراب[1].

ورواية أخرى تقول أن النبي موسى بعد أن أظهره الله على فرعون وطئ الشام وأهلك من فيها وأرسل إلى الحجاز بعثاً من بني إسرائيل للقضاء على العماليق الذين عتوا عتواً كبيراً وأمَرَهم أن لا يستبقوا منهم أحداً بلغ الحُلُم، فقدِموا عليهم وكان لهم ما أرادوا، ووصلوا إلى ملكهم الأرقم بن الأرقم فقتلوه كذلك، وأصابوا له ابناً، كان شاباً من أحسن الناس، استحسنوه فلم يقتلوه، وقرروا أخذه إلى النبي موسى ليرى فيه رأيه، وعادوا وهو معهم، وكان النبي موسى قد توفي قبل قدومهم، فلما قدموا خرج الناس للقائهم وسألوهم، فأخبروهم بنصرهم على العماليق وذكروا لهم أمر الصبي. فقالت لهم بنو إسرائيل خالفتم أمر نبيكم وإنها لمعصية منكم، ولم يسمحوا لهم بدخول الشام والبقاء، فرأوا الرجوع إلى الحجاز الذي هزموا سكانه، فكان هذا أول سكن اليهود بعد العماليق[2].

ورواية ثالثة تذكر أن العماليق كانوا يغيرون على بني إسرائيل من أرض الحجاز وكانوا ينزلون يثرب والجحفة إلى مكة، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى النبي موسى الذي وجّه إليهم جيشاً، وكان ما تم بالرواية السالفة[3].

ورواية تخص النبي داود غزا قوماً سموا صعل، وفالج كانوا في المدينة وأخذ منهم مائة ألف عذراء، وسلّط الله عليهم بعد ذلك الدود في أعناقهم فهلكوا، وقبورهم بناحية الجرف[4]. ورواية أخرى تخص ذكر خلع بني إسرائيل الطاعة عن النبي داود وأنهم تبعوا ابنه، وهرب داود مع أتباع له إلى خيبر وأقام فيها سبع

---

[1] – ابن شبة: تاريخ المدينة، ج١، ص٨٥. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٠٠.

[2] – ابن رسته: الأعلاق، ص٦٠، ٦١. المقدسي، (المطهر بن طاهر، تبعد ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م): البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، د.ت، ج٤، ص١٣٠. ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٣٦، ٣٧. الحميري، (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص١٤٧. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٦.

-Margoliouth; The Relations between Arabs and Israelites, P. 60.

[3] – السهيلي: الروض الأنف، ج٤، ص٢٩٠. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٧.

[4] – ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٣٥.

سنوات حتى قُتل ابنه، فعاد إلى مُلكه، فأقام بالحجاز من أقام وكان بعضهم قد نزل بيثرب واتخذوا البيوت والأطم وملكوا أمر نفسهم[١].

- **المجموعة الثانية** تذكر أن نزول بني إسرائيل في الحجاز كان حين وطئ بختنصر بلادهم في الشام وخرّب بيت المقدس، سبى قسماً منهم وأجلى قسماً آخرين فتفرقوا ونزلوا وادي القرى وتيماء ويثرب في الحجاز[٢]. وذهب بعض الباحثين إلى أن حملة نابونيد على بلاد العرب قد ضمت بين رجالها بعضاً من اليهود وأن هذا النفر من يهود إنما أقاموا في شمال الحجاز إقامة دائمة استمرت حتى ظهور الإسلام، إلاّ أن الملك البابلي لم يشر إلى عناصر يهودية في جيوشه أو أنه قد أسكن يهود في تلك المنطقة[٣]، وحتى الآن لا توجد أدلة تؤكد هذه النقطة أو تنفيها بشكل مطلق، فنقش حران أشار إلى يثرب لكن لم يذكر اليهود البتة.
- **المجموعة الثالثة** تخص الروم وهي عدة روايات أولها عن علماء الحجاز من اليهود تذكر أن سبب نزولهم الحجاز أن ملك الروم حين ظهر على بني إسرائيل وملك الشام، خطب إليهم، وكانوا لا يزوجون النصارى، فخافوه ولكنهم أنعموا له وسألوه أن يشرّفهم بإتيانه إليهم، فأتاهم فقتلوه ومن معه ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز فأقاموا بها[٤].

ورواية عن بني قريظة أن الروم عندما غلبوا على الشام خرج بنو قريظة والنضير وهدل هاربين من الشام يريدون من كان بالحجاز من بني إسرائيل، فوجّه ملك الروم في طلبهم، فأعجزوا رسله وانتهى الرسل إلى ثَمْدٍ بين الحجاز والشام فماتوا عنده عطشاً، فسمي الموضع ثمد الروم[٥].

وتذكر بعض المصادر العربية أنه لما ظهرت الروم على بني إسرائيل جميعاً بالشام، فوطئوهم ونكحوا نساءهم، خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو هدل هاربين إلى من بالحجاز من يهود، فلما فصلوا

---

[١] – بدر: التاريخ الشامل، ج١، ص٥١.

[٢] – البلاذري، (أحمد بن يحيى، ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): فتوح البلدان، دار ومكتبة هلال، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢٥؛ الطبري: تاريخ، ج١، ص٥٣٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٣٧٤؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٧.

[٣] – علي: المفصل، ج٦، ص٥١٣؛ مهران، (محمد بيومي): تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ت، ص٤٤٨.

[٤] – الحموي: معجم، ج٥، ص٨٤؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٨.

[٥] – المقدسي: البدء والتاريخ، ج٤، ص١٢٩؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٨.

بأهليهم تبعهم الروم فأعجزوهم، وهلك جند الروم في المفاوز والصحاري الخالية من الماء، ثم أخذت جموع اليهود في الجزيرة العربية تزداد وتكثر بعد اضطهاد الروم لهم، ثم قصد بنو النضير وقريظة منطقة يثرب، وارتادوا حتى تخيروا أخصب بقاعها فسكنوها[1].

بعد هذا العرض لمجمل الروايات حول قدوم اليهود واستقرارهم في المدينة يبدو واضحاً الخلط والغرابة بينها والتداخل في بعضها ولا سيما في روايات المجموعة الأولى مما يخص الأنبياء موسى وهارون وداود عليهم السلام حيث يظهر الطابع الأسطوري والمبالغة بشكل واضح، ولا يمكن التوثق منها. أما ما يخص رواية العماليق، والخروج من الشام بعد الانتصار على فرعون، فرواية لا يمكن الوثوق بها، إلا أنها تعطي إشارة إلى أن القبائل البارزة من اليهود، بني النضير وقريظة وقينقاع، هي قبائل طارئة على المدينة وليست من سكانها الأصليين[2].

ورواية حج موسى وهارون وتخلف قوم من اليهود ونزولهم في يثرب تبعث أيضاً على الشك، فالأجدر وهم يعيشون في ظل نبي أرسله الله عز وجل البقاء معه، والبقاء لو تم بعد وفاة موسى وهارون لكان ممكناً.

وأما النبي داود والتمرد الذي حصل ضده، فالمصادر العربية لا تذكره، والأسفار اليهودية تذكر أن النبي داود خرج إلى جلعاد شرق الأردن بإجماع الدارسين[3].

وفيما يخص غزو صعل وفالج فهل من الممكن أن يوجد مئة ألف عذراء في منطقة كالمدينة في ذلك العهد، وفي حال الافتراض وجود مثل هذا العدد، فكم سيكون عدد هؤلاء القوم إذاً، وما الذي فعله النبي داود بكل هذا العدد، أو حتى ما الذي فعلوه من أمر منكر حتى يستحقوا هذا الانتقام من داود وحتى يسلط الله تعالى هذا العذاب عليهم.

هذا ما كان يتعلق بروايات المجموعة الأولى، أما روايات المجموعة الثانية فيمكن القول أنه إن تم وحصل بسببها قدوم لليهود إلى بلاد العرب فهي على الأرجح قليلة جداً لأن بختنصر لاحق من هرب منهم وغزا مصر وسار في أرض المغرب، وهو في زمن لاحق – ذكرت المصادر – أنه قام بحملةٍ إلى بلاد

---

[1] – ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج٢، ص٣٤٣؛ غضبان، (ياسين): مدينة يثرب قبل الإسلام، دار البشير، عمان– الأردن، ط١، ١٩٨٣، ص٥٩_ ٦٤.

[2]-Margoliouth; The Relations between Arabs and Israelites, P. 60.

[3] – سفر الملوك الأول الأصحاح العاشر نقلا عن: بدر: التاريخ الشامل، ج١، ص٥٥، الحاشية رقم ٣.

العرب وتصدى له عدنان[١]، فلو كان في بلاد العرب عدد ظاهر من اليهود لكان استكمل ما قام به في بلاد الشام ومصر بالقضاء عليهم أو تابعه نابونيد الذي خلفه وأقام بالحجاز قرابة عشر سنوات.

يمكن من روايات المجموعة الثالثة التي تذكر العلاقة بين الروم واليهود استخلاص أن الهجرات الأكبر كانت في هذه المرحلة أي في القرنين الأول والثاني الميلاديين، وهي هجرة قبائل، فقد ثار اليهود ضد الرومان وأثاروا شغباً كبيراً ما بين عامي ٦٦- ٧٠م، هاجمهم القائد الروماني تيتوس ودمّر بيت المقدس وأحرق الكنيس اليهودي إحراقاً تاماً[٢]، ففرّ الناجون من بطشه إلى الحجاز ووصلوا يثرب[٣]. وفي عام ١٣٢م تجددت الثورة ضد الروم فقام اليهود بثورة أيام الإمبراطور الروماني هادريان الذي قضى عليها قضاءاً تاماً، فأرسل جيشاً أعمل السيف فيهم سبى نساءهم، وغيّر اسم المدينة المقدسة إلى (إيليا كابتولينا) وجعل معبد الإله جوبيتير مكان المعبد اليهودي، ومنعهم من دخولها نهائياً، وفرّ من حالفه الحظ من الناجين إلى شمال الحجاز عامة [٤].

مما سبق يمكن القول أنه لا يمكن الاعتماد على روايات المجموعة الأولى لعدم التمكن من التحقق منها بل هي أقرب إلى النفي منها إلى التصديق، وفيما يخص روايات المجموعة الثانية يمكن القول أن اليهود إن وصلوا في هذه المرحلة إلى بلاد العرب فهم أفراد قلائل جداً، وتظهر روايات المجموعة الثالثة أن هجرة اليهود بدأت تتزايد بحوالي القرن الأول ق.م بعد أن أخضعت الدولة الرومانية اليهود لسلطانها، فقامت الفتن والثورات العنيفة من حين لآخر وكان الرومان يقمعون تلك الثورات بشدة وقسوة، فاضطر من لم يكن يستطيع البقاء في البلاد في ظل هذه الأحوال القاسية أن يلجأ إلى أرض الجزيرة العربية التي كانت أقرب إليهم من غيرها وأحب نظراً لأنظمتها البدوية الحرة ونظراً لوجودها في أقاليم رملية بعيدة تعوق سير القوات الرومانية وتمنع توغلها[٥]. وتبعتها موجة أكبر هي قبائل بني قريظة والنضير وهدل كما تذكرهم المصادر.

[١] – الطبري: تاريخ، ج١، ص٥٥٨.

[٢] – يوسيفوس: تاريخ سوسيفوس اليهودي: المكتبة العمومية، بيروت، د.ت، ص٣٠٤ _٣٠٨.

[٣] – ولفنسون، (إسرائيل): تاريخ اليهود في بلاد العرب، لجنة التأليف والنشر والترجمة مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٧م، ص٩.

[٤] – مهران: تاريخ العرب القديم، ص٤٤٩، ٤٥٠؛ بدر: التاريخ الشامل، ج١، ص٥٢.

[٥] – ولفنسون: تاريخ اليهود، ص٩.

وهكذا نزل اليهود واستقروا في الحجاز عامة والمدينة خاصة، وكان بدء نزولهم في المدينة في زُهرة وهي من قرى المدينة، وكذلك في يثرب بمجمع السيول مما يلي زغابة أي في الشمال الغربي من المدينة(١). وما لبثوا أن انتشروا بعد ذلك وسكنوا الجهات الخصبة الغنية فيها، فنزل **بنو قريظة** وبنو هدل وعمرو أبناء الخزرج بن الصريح بن القرم بن السبط بن اليسع بن سعد بن لاوق بن خير بن النحام بن مسحور بن عازر بن عوراء بن هارون بن عمران عليه السلام على وادي مهزور، و**بنو النضير** بن النحام بن الخزرج بن الصريح على وادي مذينيب، فكانوا أول من احتفر بها الآبار وغرس الأموال(٢). وأقام **بنو قينقاع** عند منتهى جسر وادي بطحان، وانتشرت بطون أخرى صغيرة في بقية أنحاء المدينة فتعددها المصادر وتذكر أماكن تواجدهم فقد كان **بنو القصيص** و**ناغصة** في قباء، و**بنو هدل وبنو عمرو** مع بني قريظة، **وبنو معاوية وبنو مزيد وبنو ماسكة** شمال وادي مهزور، **وبنو** محمّم في جهة البقيع في المدينة، **وبنو زعورا** في العوالي بين مذينيب ومهزور عند مشربة أم إبراهيم، وكذلك **بنو حجر**، **وبنو ثعلبة** في زُهرة التي كانت أعظم قرى المدينة، وبنو **عكوة وبنو مرانة** على طرف حرة واقم من ناحية الشمال، ونزلت جماعات قرب أحد شمالاً، وكذلك في راتج ومعهم بنو الجذماء — حي من اليمن — الذين كانوا بين مقبرة بني عبد الأشهل وقصر ابن عراك، وفي الشوط والعنابس والواج وزبالة نزلت جماعات من اليهود كذلك الأمر فكانوا قرابة عشرين قبيلة(٣)، وكانت هذه القبائل والمجموعات اليهودية ممن بقي في المدينة حين نزل عليهم الأوس والخزرج(٤).

ولم يكن اليهود هم العنصر الوحيد في المدينة فقد وجدت قبائل من العرب جاورتهم وتعايشت معهم قبل الأوس والخزرج، وهم بنو أنيف – حي من بلي– ويقال أنهم من بقايا العماليق كانوا بقباء، وبنو مزيد حي من بلي، وبنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم، وبنو الجذماء حي من اليمن(٥).

١ – ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٣٧؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٩، ج٤، ص٦٠.
- Wellhausen, (Julius): Muhammad and The Jews of Medina, translated by: Wolfgang H.Behn, Berlin, 1982, p.24.-

٢ – ابن زبالة: أخبار المدينة، ص١٦٨. ابن رسته: الإعلاق، ص٦١.

٣ – يعتبر فلهوزن أن بني قينقاع من هذه القبائل فقط من بني إسرائيل، وأنها ترجع بأصولها إلى فلسطين، ويميل إلى القول ببقية القبائل أنها عربية. Wellhausen: Muhammad and the Jews, p. 31,32. -

٤ – ابن رسته: الإعلاق، ص٦٢؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٩_ ٣٠٨.

٥ – ابن زبالة: أخبار المدينة، ص١٦٩؛ ابن رسته: الأعلاق، ص٦٢.

ثانياً: الأوس والخزرج:

١- نزول الأوس والخزرج في المدينة – يثرب– :

كما جذبت هذه الواحة في قلب الصحراء قبائل من يهود، وأقواماً آخرين، فقد جذبت كذلك مجموعة لاحقة، استقرت فيها، وبقي وجودها مستمراً. وهي قبيلة الأوس والخزرج، من فروع قبيلة الأزد[١] اليمنية، ونزلت هذه الموجة بهدوء في بادئ الأمر وتعايش أفرادها بانسجام ردحاً من الزمن مع اليهود. من المرجح أن أعدادهم لم تكن ضخمة. إلاّ أن الأمور لم تبق تسير على نفس الوتيرة فحصل الصدام وتبدلت العلاقات. ولابد من التعرف عن سبب مجيء هذه الموجة، ونزولها في المدينة ومن ثم المرور على مجريات الأحداث وبعدها الوقوف على أسباب تبدل العلاقات والتوزع الجديد الذي حصل تبعاً لذلك.

ذكرت المصادر أن قدوم هذه الموجة من اليمن كان بسبب حادثة سيل العرم وتصدّع سدّ مأرب نتيجة هذا الفيضان أو السيل[٢]، وأرجعت نسب الأوس والخرج إلى قبيلة الأزد اليمنية التي خرجت بسبب الحادثة المذكورة، فهما الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد. وأمهما هي قيلة بنت كاهل بن عذرة من قضاعة وقضاعة من حمير[٣]، وقيل هي قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء[٤]. ونزلت فروع الأزد في مناطق عدة، نزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، والأوس والخزرج المدينة،

---

[١]- ويقال الأَسْد، وهو الأفصح، إلاّ أنّ الأزْد أكثر استخداماً. ابن الوزير المغربي، (الحسين بن علي، ت ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م): الإيناس في علم الأنساب، إعداد: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ط١، ١٩٨٠م، ص٥٧.

[٢] – عقاب نزل بأهل سبأ لكفرهم وتكذيبهم بأنعم الله عليهم، وذكر أنهم كذبوا ثلاثة عشر نبياً بعثهم الله عز وجل، فاستحقوا العذاب وزوال النعمة، فسلط الله عليهم سيل العرم وقيل العَرِم هو المطر الشديد، وقيل هو جرذٌ أعمى نقب عليهم السد وكانت تجتمع إليه ماء اليمن ثم تتفرق بحسب الحاجة. الطبري: جامع البيان، ج٢٠، ص٣٨٠. ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ٣٩٦، مادة (عرم)؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٠٩، ٣١٠.

[٣] – ابن الكلبي، (هشام بن محمد بن السائب، ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م): نسب معد واليمن الكبير، تح: ناجي حسن، عالم الكتب، د.م، ط١، ١٩٨٨م، ج١، ص٣٦٣، ٣٦٤؛ ابن رسته: الأعلاق، ص٦٢، ٦٣؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ٣٢٥.

[٤] – البلاذري: فتوح، ص٢٦؛ ابن حزم: (علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م): جمهرة أنساب العرب، تح: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص٣٣٢؛ القلقشندي، (أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م): قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ص٩٣.

ونزلت خزاعة مرّاً أي مر الظهران قرب مكة، ونزلت أزد السراة في السراة وأزد عُمان في عُمان، وتذكر المصادر أنباء هذه التوزع الذي حصل وفق نبوءةٍ من أخو عامر ماء السماء وكان كاهناً[١]، أو من طريفة الكاهنة التي قيل أنها زوجته[٢].

عندما نزل الأوس والخزرج في المدينة – يثرب – وجدوا أرضاً خصبةً وماءً وفيراً، وكان اليهود قد استقروا وزرعوا الأراضي فأصبح لهم الأموال والآطام والنخل وعندهم العدد والقوة، فنزلوا إلى جوارهم وتفرقوا، فمنهم من نزل مع اليهود في قراهم ومنهم نزل في أرض لا ساكن فيها، وسألوا اليهود بعد حين أن يعقدوا حلفاً فيما بينهم ليأمن بعضهم بعضاً ويكونوا سنداً، فتعاقدوا، وتعاهدوا، وتحالفوا، واشتركوا، وتعاملوا، ومكثوا على ذلك زمناً طويلاً، فبدأ الأوس والخزرج يتكاثرون وصار لهم عدد ومال، فخشيت اليهود أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم، فعادوهم، حتى قطعوا الحلف الذي كان بينهم، ولكن الكفة كانت في صالح اليهود، فخشيتهم الأوس والخزرج حتى ظهر منهم مالك بن العجلان الذي نجح بمساعدة قوة من خارج المدينة أن يضعف اليهود ويجليهم عن بعض أماكن تواجدهم[٣].

وهنا وردت روايات عدة فيما يخص مالك بن العجلان، وقد سوّده الحيان أي الأوس والخزرج، الذي تمكن بمساعدة خارجية من هزيمة اليهود، فرواية تورد خبر مالك بن العجلان هذا وقتله ملك اليهود الفطيون لمحاولته إذلال الأوس والخزرج[٤]، وفراره إلى أبو جبيلة الغساني[٥] وجلب المساعدة، وخبر آخر أن الأوس والخزرج لم يكونوا أهل نِعَمْ ولم يكن لهم إلاّ الأعذاق اليسيرة، والأموال لليهود، فلبثوا زمناً على هذه الحال حتى وفد مالك بن عجلان إلى أبي جبيلة المذكور وشكا له ضيق الحال وسوء جوار اليهود،

---

١ – ابن رسته: الأعلاق، ص٦٣.

٢ – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص١١٤. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣١١_ ٣١٦.

٣ – ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٤١. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٢٧.

٤ – ذكر الفطيون الذي شرط ألا تدخل امرأة على زوجها حتى تدخل عليه . المقدسي: البدء والتاريخ، ج٤، ص١٣٠. ابن الأثير، (علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م): الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٥٨٤، ٥٨٥؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٢٨ _ ٣٣١.

٥ – ذكرت بعض المصادر أنه من الخزرج وأرجعت نسبه إلى بني جشم بن الخزرج الأكبر، فيكون أبا جبيلة بن عبد الله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الأكبر. ابن الكلبي: نسب معد، ج١، ص٤١٩. ابن حزم: جمهرة، ص٣٥٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٨٥. ومن المرجح أنه شخص مقرب من الأمراء الغساسنة الذين حكموا لأن تاريخ الغساسنة لا يعرف ملكاً باسم أبي جبيلة.

فقدم أبو جبيلة وقتل بالحيلة من اليهود أعيانهم ثم رجع إلى الشام، وكذلك فعل مالك بعد عودته بأن دعاهم إلى وليمة بنية الاعتذار عما فعله أبا جبيلة، فقتل ما تجاوز الثمانين رجلاً وهكذا ضعف أمر اليهود في المدينة[١].

ورواية مختلفة ذكرت حصول مشادة كلامية بين رجل يهودي ورجل وصفه بالغساني من الأوس والخزرج ثم تطورت الأمور، وحصلت معارك ومواجهات متعددة بين اليهود من جهة، والأوس والخزرج من جهة أخرى، تم فيها استعانة يهود المدينة بيهود خيبر وتيماء، واستعانة الأوس والخزرج بأبي جبيلة، وبعده بقبيلة طيء وسُفكت الدماء وذهب الضحايا من كلا الطرفين[٢]. كما ذكرت رواية أخرى أن المساعدة كانت من قبل تُبّع الأصغر الذي قصده مالك بن العجلان بعد قتل الفطيون فقدم تبع وقتل من اليهود ثلاثمئة وخمسين رجل[٣]. وحاول السمهودي التوفيق بين الروايات فقال: لعلّ مالكاً توجه إلى ملك غسان وبها تبّع المذكور فوقع من كل منهما نصره[٤].

تابعت المصادر فيما يخص تُبّع أنه خلّف ابنا له في المدينة، اغتيل بعد مدةٍ في أراضي الأوس والخزرج فرجع تُبّع وحاصر المدينة، وأراد تخريبها، وقطع نخلها، واستئصال أهلها وسبي الذريّة، فنزل بسفح جبل أُحد، وغَدَرَ بأشرافهم، ونشبت الحرب بعد ذلك بين تُبّع وسكان المدينة من الأوس والخزرج واليهود وتحصنوا بالآطام، وبرز في هذه المواجهات اسما أُحَيحة بن الجُلاح من الأوس وعمرو بن طلة من بني النجار من الخزرج، كان لهما الدور الأبرز في مقاومة تُبّع[٥].

١ – ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج٢، ص٣٤٤؛ ابن ثابت، (حسان، ت ٥٤هـ/ ٦٧٤م): ديوان حسان بن ثابت، تح: وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦م، ج١، ص١٤، ١٥.

٢ – ابن سعيد الأندلسي، (علي بن موسى، ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م): نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تح: نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمّان، ١٩٨٢م، ج١، ص١٨٨؛ المقريزي، (أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م): إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تح: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ج٩، ص١٧٣، ١٧٤.

٣ – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٣٢. في حين يذكر الطبري أن تبع كان في طسم بعد القضاء على جديس لارتكابهم السوء بقصة مشابهة لقصة الفطيون، عندها قدم قوم من الأوس والخزرج وطلبوا منه المساعدة ضد اليهود، ج١، ص٦٣١؛ ابن قتيبة، (عبد الله بن مسلم الدينوري، ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م): المعارف، تح: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م، ص٦٣٤.

٤ – وفاء الوفا، ج١، ص٣٣٣.

٥– الأصفهاني، (أبو الفرج علي بن الحسين القرشي، ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م): كتاب الأغاني، تح: إحسان عباس وآخران، دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م، مج١٥، ص٢٩_ ٣٤. المطري: التعريف، ص١٧٧.

بالطبع إنّ نتيجة كل هذه الروايات على اختلافها كانت واحدة وهي أن الأوس والخزرج تبدلت حالهم بعد مدةٍ من المكوث إلى جوار اليهود، وأصبحوا بموقع يوازي لهم، ذكر السمهودي أن الأوس والخزرج توزعوا وتفرّقوا في عالية المدينة وسافلتها واتخذوا الأموال والآطام[١].

ولابد من التوقف قليلا لمناقشة ما تم إيراده بدءاً من قدوم الأوس والخزرج بسبب انهيار سد مأرب، وانتهاءً بالصدام الذي اختلفت آراء المؤرخين وفصل بين اليهود والأوس والخزرج.

فيما يتعلق بانهيار سد مأرب، اختلفت آراء المؤرخين حول تحديد زمن حدوث هذا الانهيار، فأرجعه بعضهم إلى أربعمائة سنة قبل الإسلام[٢]. ومنهم رجّح أنه تمّ في زمن سيطرة الأحباش على اليمن[٣]، في حين جعله آخرون في عهد تُبّع حسان بن تبان أسعد[٤]. ولقد أشارت مكتشفات ودراسات حديثة إلى أن السّدّ خلال المدة الطويلة التي وجد خلالها، ما يقارب الألف عام، تعرّض لعدة انهيارات وتصدعات، وأصلح مرة بعد مرة، فظهرت نقوش بخط المسند ذكرت بعضاً من هذه الإصلاحات، بدءاً من القرن الثاني مروراً بالرابع وصولاً للخامس الميلادي[٥]، وكان آخرها في القرن السادس الميلادي عام ٥٤٣م على أيام أبرهة الحبشي [٦].

إذاً إنّ السّدّ لم ينهدم مرةً واحدة، فقد تعرض للضعف وأضر بالمناطق المحيطة به، وكان ذلك نتيجة عوامل الزمن وكوارث الطبيعة من سيول وفيضانات وزلازل، وهذا جلب إليه تدريجياً التراب والحجارة فضلاً عن ترسبات سببت الضغط في بطن الوادي على السّدّ مما كان يؤدي إلى انكسار جداره، ونتيجة ما شهدته اليمن من نزاعات واضطرابات وصراعات على السلطة ،وقد كان للأزْد صلةٌ بهذه الأحداث ولاسيما في عهد عمرو ميزيقياء الذي ذكرته المصادر من الذين حكموا من الملوك وأنّ

---

١ - وفاء الوفا، ج١، ص٣٤٣.

٢ - الأصفهاني، (حمزة بن الحسن، ت٣٦٠هـ/ ٩٧٠م): تاريخ سني ملوك الأرض، ص١٠٠.

٣ - الحموي: معجم، ج، ص٣٥. جدير بالذكر أن الحبشة احتلت اليمن مرتين، مرة بين عامي ٣٤٠ – ٣٧٨م ومرة ثانية ٥٢٥ – ٥٧٥م، والمرجح أن الحموي قصد الاحتلال الثاني.

٤ - ابن قتيبة: المعارف، ص٦٣٤.

٥ - علي: المفصل، ج٢، ص٥٢٢، ٥٢٦، ٥٧٩_ ٥٨١. هُيلند، (رُبرت): تاريخ العرب في جزيرة العرب، تر: عدنان حسين، دار قدمس، دمشق، ط١، ٢٠١٠م، ص١١٨.

- Wellhausen: Muhammad and the Jews, p. 30.

٦ - مهران: تاريخ العرب، ص٤٥٦.

الخروج من اليمن كان برغبةٍ منه[١]، وتحوّل العاصمة من مأرب إلى ظفار عاصمة الدولة الحميرية، كان له دور في إهمال شؤون السد وصيانته فازدادت مرّات الانكسار[٢]، وانتهى أخيراً بانهياره الذي دوّنه القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾[٣].

ففي أي وقتٍ من أوقات هذه التصدعات حصلت هذه الهجرة التي أشير إليها في المصادر وكان من نتيجتها وصول الأوس والخزرج إلى يثرب ؟ وهل كان السيل وتهدّم السَّدّ هو السبب الوحيد فيها أم أنه كان أحد العوامل التي تسببت فيها؟ لا سيما وأن عمرو بن ميزيقياء قد ذُكر من بين الأشخاص الذين حكموا[٤]، حيث عصفت الصراعات والاضطرابات الداخلية فيها وتراجعت التجارة جراء ذلك. لابد أن تهدم السد لم يكن السبب الوحيد في خروج هذه الموجة، ولا سيما بعد معرفة الارتباط السياسي لرئيس هذه الموجة، ويمكن الترجيح بأن الخروج كان في بداية القرن الرابع الميلادي ذلك أن تغييراً سياسياً ظهر في اليمن وهو ظهور حمير وزوال سبأ أو تبعيتها لحمير[٥].

وفيما يخص أمر انقلاب الموقف بين اليهود والأوس والخزرج، فيمكن القول أن رغبة الأوس والخزرج في تحسين وضعهم كانت واضحة، وأنّ هذا لم يخفَ عن اليهود، وهو أمر يحصل في أي مجتمع يقوم على طبقتين ذات مستويين اقتصاديين أحدهما أغنى من الآخر، إلا أن ما يخص وجود ملك لليهود فهو أمر في الواقع مستبعد فهو إن وجد فلا يعدو أن يكون زعيم أو رئيس قبيلة لليهود ولو أن البعض أرجع الكلمة إلى اشتقاق لغوي بأنها الفطيون تعني ملك وأنها تقابل النجاشي عند الأحباش وخاقان عند الأتراك فهو أمر غير مؤكد[٦]، وفيما يخص العون الخارجي إن كان من الشمال أو من التبابعة فهو أمر

---

١ – ابن سعيد الأندلسي: نشوة الطرب، ج١، ص١٤٠.

٢ – الحازمي: مجتمع يثرب، ص٤١، ٤٢.

٣ – سورة سبأ: الآيات ١٥، ١٦.

٤ – ابن سعيد الأندلسي: نشوة الطرب، ص١٣٩، ١٤٠.

٥ – ظهر نقش يرجع تاريخه إلى ٢٩٩م يذكر فيه اسم الملك الحميري شمر يهرعش سمى نفسه: "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت" وهذا يعكس حقيقة أن جنوبي جزيرة العرب كان قد أصبح دولة موحدة للمرة الأولى. هُيلند: تاريخ العرب، ص٧٣، ٧٤.

٦ – ابن دريد: الاشتقاق، ص٤٣٦. مهران: تاريخ العرب، ص٤٦٩.

غير مستبعد بل ومحتمل، أرجع بعض الباحثين هذا الصراع إلى صراع ديني بين النصرانية واليهودية، ذلك بأن الغساسنة كانوا نصارى وكانوا يمقتون اليهود أشد المقت لاعتقادهم أنهم هم الذين صلبوا المسيح، فاستعانوا بالأوس والخزرج لاستدراجهم وقتلوا منهم عدداً غير قليل[1]، وربط آخرون أحداث المدينة بدائرة أوسع من دائرة صراع داخلي محلي بدائرة الصراع الدولي، فربط هذه المساعدة ببيزنطة وبسياستها التي كانت تقوم على اضطهاد اليهود، فبطون الأوس والخزرج ظلت على ولائها دون أن تُظهر أي شيء يدل على نية سيئة، وأن الغساسنة ظلت تحرض زعماء الأوس والخزرج ضد اليهود للفتك بهم، وأن هذه الحادثة لم تحدث إلا بعد القضاء على اليهودية في اليمن ووصول الحبشة بمساعدة بيزنطة إلى حكمها[2].

في حين هناك من يعارض هذا الاتجاه ويرى أنه صراع محلي ذو دوافع اقتصادية والدليل استمرار النزاع بين الأوس والخزرج نفسهم بعد تغلبهم على اليهود، وأنه لا يمكن الجزم بشكل نهائي بتاريخ هذا الصراع هل هو قبل أم بعد أحداث اليمن، وما كان موقف التبابعة لو كان قبل، وأن أبو جبيلة لم يكن ملكاً من ملوك الغساسنة بل كان ذا منزلة عند ملوك غسان ونسبه بعض المؤرخين إلى أحد بطون الخزرج، فجعله ابن حزم الأندلسي (ابن عبد الله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن الخزرج)[3]، فاستنصروا به تبعاً لرابطة القرابة فكان موقفه استجابة لنداء وليس تحريضاً[4]. من كل ما سبق ذكره عن الأسباب وتحليلاتها يمكن القول أن أساس الصراع كان محلياً اقتصادياً بالدرجة الأولى وربما حاولت أطراف تقديم المساعدة تمهيداً لاستغلال المدينة في السياسة الدولية لاحقاً ولا سيما فيما يخص السياسة المتعلقة بالسيطرة على مدن قوافل التجارة الدولية، ويعزز هذا القول ما ورد أن بني قريظة والنضير كانا يأخذان أتاوة من الأوس والخزرج لمرزبان الفرس[5]، فهذا بلا شك إن كان حاصلاً قبل الاصطدام وإضعافهم وربما كان سبباً في الاصطدام، فقد ورد أيضاً عن الأوس والخزرج أنهم من أعز الناس نفساً لم يؤدوا إتاوةً قط إلى أحد من الملوك[6]، إلا أن موقع المدينة –يثرب– لم يكن موقعاً يوازي أهمية ومكانة

---

[1] – هيكل، (محمد حسين): حياة محمد، دار المعارف، القاهرة، ط١٤، د.ت، ص٢١٢.

[2] – ولفنسون: تاريخ اليهود، ص٦١.

[3] – ابن حزم: جمهرة، ص٣٥٦.

[4] – الشريف: مكة والمدينة، ص٣٥٢- ٣٥٤؛ سالم: تاريخ شبه الجزيرة، ص٣٤٩.

[5] – الحموي: معجم، ج٥، ص٨٣.

[6] – ابن عبد ربه، (أحمد بن محمد الأندلسي، ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م): العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ج٢، ص٦٥.

مكة على طريق التجارة الدولي ولم يكن لها ما لمكة من زعامة فيه، بالإضافة إلى أن الصراعات الداخلية واستمرارها بين الأوس والخزرج أنفسهم بعد اليهود، لم يكن في صالح أي طرف التورط فيه فلكل طرف سواء بيزنطة أو الغساسنة أو فارس أو اليمن مشاغله ومشاكله، فلم تورد الأخبار حدوث المساعدة أكثر من مرة. وتجدر الإشارة إلى أن الأوس والخزرج بعد تلقيهم هذه المساعدة وإضعافهم اليهود لم يقوموا بأعمال انتقامية أو بطرد اليهود من المدينة بل اكتفوا بهذا القدر، وتوزعوا واستمروا متجاورين.

يظهر الطابع الأسطوري، في هذه الروايات المتعددة، كما ظهرت من قبل في نزول قبائل من اليهود، إلا أنه يمكن القول بوجود صراع بين كل من اليهود والأوس والخزرج، كذلك بحصول محاولات لتدخل سواء من الشمال غسان، أو من الجنوب أيام التبابعة.

٢- بطون الأوس والخزرج:

تفرّق الأوس والخزرج بعد إضعاف اليهود بين عالية المدينة وسافلتها، وإلى مالك بن أوس ترجع بطون الأوس كلها ولـمالك خمسة أبناء هم مُرّة وعوف وجشم وعمرو وامرؤ القيس ، أما الخزرج فله خمسة أبناءٍ هم الحارث، كعب، عمرو، عوف وجشم.

- **بطون الأوس**: ولد الأوس مالك. فولد مالك عوف بن مالك بن الأوس وهم أهل قبُاء. وعمرو بن مالك بن الأوس وهم النبيت. ومُرّة بن مالك بن الأوس وهم الجعادرة[1]. وجشم بن مالك بن الأوس. وامرؤ القيس بن مالك بن الأوس[2]، وأمهم كلهم هند بنت الخزرج أخي الأوس[3].

- **بنو عبد الأشهل** بن جشم بن الحارث بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس، نزلوا قبلي دار بني ظفر مع طرف الحرّة الشرقية — واقم -، ولهم بها أطم واقم وبه سميت الحرة واقماً،

---

[1] - سموا جعادرة لقصر فيهم، أو لأنهم كانوا يقولون إذا أجاروا جاراً جعدر حيث شئت أي اذهب حيث شئت فلا بأس عليك، فأنت آمن. يجعل ابن زبالة والمقريزي هذا اللقب لجميع بطون الأوس. ابن زبالة: أخبار المدينة، ص١٧٤. ابن دريد: الاشتقاق، ص٤٣٧. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٩، ص١٧٦. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ٣٥٤.

[2] - ابن الكلبي: نسب معد، ج١، ص٣٦٥؛ ابن قدامة المقدسي، (موفق الدين عبد الله، ت٦٢٠هـ/ ١٢٣٣م): الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، تح: علي نويهض، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١م، ص٢٠٤.

[3] - ابن حزم: جمهرة، ٣٣٢.

ولهم أطل الرّعل، وأطم المسيّر الذي كان بنو حارثة قد بنوه فصار لبني عبد الأشهل بعد خروجهم من دارهم[1].

- **بنو حارثة** بن الحارث بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس، نزلوا غربي مشهد سيدنا حمزة، المعروف في يثرب، أي في الشمال الغربي، وابتنوا أطم الريان.
- **بنو ظفر**، وهو كعب بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس، نزلوا شرقي البقيع.
- **بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس**، نزلوا قباء جنوب المدينة على ثلاثة أميال[2]، ابتنوا أطم الشنيف، وأطم كلثوم بن الهدم من بني عبيد بن زيد بن أظلم أخي بني عبيد بن زيد بن مالك.، وأطم اسمه واقمٌ أيضاً، وكذلك أربعة عشر أطماً في رحبة يزيد بن مالك بن عوف يقال لها الصياصي، وأطم بالمسكبة شرقي مسجد قباء، وأطم المستظل عند بئر غرس[3].
- **بنو جحجبابن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف** سكنوا العصبة غربي مسجد قباء بعد أن خرجوا من قباء. وابتنى أحيحة بن الجلاح أطماً وسماه أطم الضحيان.
- **بنو معاوية بن مالك بن عوف** نزلوا وراء بقيع الغرقد.
- **بنو السمّيعة وهم بنو لوذان بن عمرو بن عوف** كانوا يسمون بنو الصمّاء قبل الإسلام فسماهم رسول الله ﷺ بنو السمّيعة: سكنوا زقاق ركيح وابتنوا أطم السعدان.
- **بنو واقف والسلّم ابنا امرئ القيس** بن مالك بن الأوس نزلوا عند مسجد الفضيخ[4]، ابتنى واقف أطمان يقال لأحدهما الريدان. وكان لبني السلم حصنٌ شرقي قباء. وانقرض بنو السلم وكان قد بلغ عددهم في الجاهلية ألف مقاتل.
- **الجعادرة** وهم بنو زيد بن قيس بن عامر بن مالك بن الأوس:
- بنو وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس ، بنوا أطم المَوْجا.

---

[1] - الفيروزأبادي: المغانم المطابة، ص٣٨١؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٤٤.

[2] - المطري: التعريف، ص١٣٢.

[3] - كان هذا الأطم لأحيحة بن الجلاح، ثم صار لبني عبد المنذر من بني عمرو بن عوف، مقابل دية جدهم رفاعة بن زبير. الفيروزأبادي: المغانم المطابة، ص٣٨٠.

[4] - يعرف بمسجد الشمس، يقع شرقي مسجد قباء في شمال شرق العوالي على شفير الوادي، والفضيخ هو نوع من الخمر أُهريق في ذلك الموضع قبل أن يتخذ مسجداً عندما نزل تحريم الخمر. المطري: التعريف، ص١٣٤. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٥١، الحاشية رقم ٧.

- بنو أمية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس نزلوا الكبّا وكان وادي مذينيب يمر بين بيوتهم ثم يلتقي هو ووادي بني قريظة (مهزور) بفضاء بني خطمة. وكانت منازل بني النضير بالنواعم قرب منزل بني أمية بن زيد منهم. ابتنوا أطم العذق. وأطم في دار آل رويفع.
- بنو عطية بن زيد نزلوا فوق بني الحبلى بصفنة، بين قباء ودار بني الحارث شرقي بطحان. وبنوا أطم شاس، كان لشاس بن قيس أخي بني عطية بن زيد.
- **بنو خطمة** وهم بنو عبد الله بن جشم بن مالك بن الأوس لاتعرف ديارهم بالضبط إلا أنهم كانوا بالعوالي. وابتنوا أطم سموه ضع ذرع[١].

● **بطون الخزرج**: ولد الخزرج خمسة أبناء هم الحارث، وعوف وجشم، وكعب، وعمرو[٢].

١- **بنو الحارث بن الخزرج الأكبر** وهم بلحارث، نزلوا بالعوالي أي شرقي بطحان وتربة صُعَيب. ابتنوا أطماً كان لبني امرؤ القيس بن مالك.

أ. خرج منهم جشم وزيد ابنا الحارث فسكنا السُّنَح، على بعد ميل من مسجد رسول الله ﷺ. وابتنوا أطماً يقال له السنح، وقيل اسمه الرّيان.

ب. خرج عتبة بن عمرو بن خديج بن عامر بن جشم بن الحارث بن الخزرج وسكن الشوط بين المدينة وأحد. ثم رجع إلى السنح.

ج. بنو خُدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج، سكنوا جرار سعد[٣]، شرقي المدينة مما يلي الشام عند بئر بضاعة.

د. بنو الأبجر وهم بنو خُدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج أخوة بني خُدارة بن عوف بن الحارث، سكنوا قرب البقيع في الطريق إلى قباء، ابتنوا أطماً يقال له الأجرد وبه بئر هي بئر البصّة.

---

[١] - المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٩، ص١٧٥، ١٧٦. لايذكر المقريزي بني جحجبا. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٤٣_ ٣٥٥.

[٢] - يجعل ابن الكلبي أم عمرو والحارث بنت عامر الغطريف الأزدي وهما الخرطومان، فيكون الحارث بن معاوية الكِندي أخاهما لأمهما. وعوف وجشم وكعب أمهم بنت علي بن قيس الغسّاني. نسب معد، ج١، ص٣٩٠.

[٣] - هو سعد بن عبادة كان ينصب في هذا المكان جراراً يبرد الماء لأضيافه، وبه أطم دليمودليم جد سعد. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٥٧، حاشية رقم ٦.

٢- **بنو عوف بن الحارث بن الخزرج:**

أ. سالم وغنْم ابنا عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر على طرف الحرة الغربية في الدار التي يقال لها دار بني سالم، غربي وادي رانوناء، وابتنوا آطاماً منها المُزدَلَف الذي قيل أنه كان أطم مالك بن العجلان السالمي وهو عند مسجد الجمعة[١]. ومنها الشمّاخ خارج بيوت بني سالم من جهة القبلة. وأطم القواقل[٢] بطرف بيوتهم مما يلي ناحية العصبة.

ب. بنو الحبلى مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر نزلوا بين قباء وبين دار بني الحارث بن الخزرج شرقي وادي بطحان وتربة صُعيب، ابتنوا بين بيوتهم أطم مزاحم وهو لعبد الله بن أبي بن سلول. وأطمان آخران.

٣- بنو جشم بن الخزرج الأكبر، ومنهم:

أ. **بنو سَلِمة** بن سعد بن علي بن أسد بن تزيد بن جشم بن الخزرج الأكبر، نزلوا ما بين مسجد القبلتين في وادي العقيق إلى أطم المذاد، وكانت هذه الدار تسمى خرُبى، فسماها رسول الله ﷺصلُحة.

ب. نزل بنو سواد بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد القبلتين، وابتنوا أطماً يقال له الأغلب، وكان على المهد الذي يرتاح عليه السقاؤون حين ينتهي من زقاق رومة إلى بطحان[٣]. وابتنوا كذلك أطماً يقال له خيط، شرقي مسجد القبلتين، على شرف الحرّة. وأطم منيع يماني مسجد القبلتين على ظهر الحرة.

ت. بنو عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد الخربة، وابتنوا أطم الأشنف، وكان للبراء بن معرور، وابتنوا أطم الأطول، عند قبلة مسجد الخربة أو يسارها.

---

[١] - المطري: التعريف، ص١٣٤؛ الفيروزأبادي: المغانم المطابة، ص٣٨١؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٥٨.

[٢] - القوقلة هو التغلغل في الشيء والدخول فيه، يقال قوقل يقوقل قوقلةً. والقواقل: سموا بذلك لأنهم كانوا إذا أجاروا جاراً قالوا له: قوقل حيث شئت أي انزل حيث شئت. وغنم بن عوف هو قوقل. ومنهم عبادة بن الصامت. ابن الكلبي: نسب معد، ج١، ص٤١٤؛ ابن دريد: الاشتقاق، ص٤٥٦؛ ابن عبد ربه: العقد، ج٣، ص٣٣٠؛ ابن حزم: جمهرة، ص٤٧١ .المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٩، ص١٧٦.

[٣] - وفاء الوفا، ج١، ص٣٦٢.

ث. بنو حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة نزلوا بالقاع، غربي مساجد الفتح، وابتنوا أطم يقال له جاعس، وابتنى حلفاؤهم بنو مري بن كعب بن سلمة أطم يقال له أخنس، وتحولوا لاحقاً إلى سفح جبل سلع لأن السيل كان يحول بينهم وبين مسجد رسول الله ﷺ.

ج. بنو بياضة وزريق ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الأكبر، و**بنو حبيب** بن عبد حارثة بن مالك بن غضب، و**بنو عذارة**وهم بنو كعب بن مالك بن غضب، و**بنو اللين** وهم بنو عامر بن مالك بن غضب، و**بنو أجدع** وهم بنو معاوية بن مالك بن غضب، نزلوا ما بين دار بني سالم بن عوف بن الخزرج وبني مازن بن النجار، ويرجح السمهودي دورهم في ممتدة في الحرة الغربية[١]. ابتنوا تسعة عشر أطماً منها أطم أسود وعقرب وسويد واللواء وأطم كان في السرّارة، وأطماً ابتناه بنو حبيب كذلك الأمر.

يُرجع البعض نسب أبا جبيلة الغساني الذي قدم به مالك بن العجلان إلى المدينة للقضاء على اليهود إلى عبد الله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الأكبر[٢].

٤- بنو كعب بن الخزرج:

أ. بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج، افترقوا على أربع منازل:

- بنو عمرو وبنو ثعلبة ابنا الخزرج بن ساعدة نزلوا دارهم بين السوق وبين بني ضمرة، شرقي سوق المدينة مما يلي الشام. عند بئر بضاعة، وابتنوا أطماً يقال له مُعرِض، وهو آخر أطم بني في المدينة، قَدِم رسول اللهﷺ وهم يبنونه، فاستأذنوه بإتمام البنيان، فأذِن لهم[٣]. وأطم في دار أبي دجانة الصغرى عند بئر بضاعة.
- بنو قشبة واسم قشبة عامر، وهو ابن الخزرج بن ساعدة، ابتنوا أطماً عند خوخة عمرو بن أمية الضمري.، فمنزلهم شرقي بني ضمرة، والله أعلم.
- بنو أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة / رهط سعد بن عبادة/ نزلوا الدار التي يقال لها جرار سعد[٤] مما يلي سوق المدبنة شرقاً. وابتنوا أطماً يقال له واسط.

[١] - وفاء الوفا، ج١، ص٣٦٨.
[٢] - ابن الكلبي: نسب معد، ج١، ٤١٩؛ ابن حزم: جمهرة، ص٣٥٦.
[٣] - ابن زبالة: أخبار المدينة، ص١٨١؛ الفيروز أبادي: المغانم، ص٣٨٦.
[٤] - وهي جرار كان سعد يسقي الناس بها الماء بعد وفاة أمه. ابن زبالة: أخبار المدينة، ص١٨١.

- بنو وقش وبنو عنان ابنا ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة، نزلوا بين الحماضة وجرار سعد.

٥- **بنو عمرو بن الخزرج الأكبر**: وهم بنو النجار وهو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج الأكبر:

أ. بنو مالك بن النجار، منهم:

- بنو غَنْم بن مالك[1]، ولهم أطم يقال له فويرع.
- وبنو مغالة[2] وهم بنو عَدِيّ بن عمرو بن مالك، منهم المنذر بن حرام، وابتنوا أطم فارع، وقيل كان لثابت بن حرام والد حسان بن ثابت.
- بنو حُديلة[3] وهو معاوية بن عمرو بن مالك، ابتنوا أطماً يقال له مشعط.
- بنو مبذول، عامر بن عامر بن مالك بن النجار، ابتنوا أطماً يقال له الفلج، وأطم كان في دار آل حيي بن أخطب كان لبني مالك بن مبذول، وأطم في بقيع الزبير.

ب. بنو عدي بن النجار: نزلوا غربي المسجد النبوي، وابتنوا أطماً يقال له أطم الزاهرية.

ت. بنو مازن بن النجار نزلوا في قبلة المدينة شرقي منازل بني زريق، وابتنوا أطمين أحدهما واسط.

ث. بنو دينار بن النجار نزلوا خلف بطحان، وابتنوا أطم المنيف.

كانت هذه أبرز البطون التي ذكرتها المصادر والتي انتشرت وتوزعت في أنحاء المدينة بعد إضعاف اليهود[4].

لم تكن مساكن أهل المدينة متقاربة متماسكة، وإنما كانت مكونة من عدة مجموعات سكنية أو قرى، تضم كلاً منها عشيرة أو عدة عشائر، ولم تكن العلاقة بين هذه العشائر سليمة أخوية دائماً، إنما

---

[1] – منهم أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك، وعليه نزل رسول الله ﷺ حين هاجر. ابن الكلبي: نسب معد، ج١، ص٣٩٢.

[2] – مغالة هي أم عدي وهي مغالة بنت فُهيرة بن عامر بن بياضة بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج. ابن الكلبي: نسب معد، ج١، ص٣٩١.

[3] – حُديلة هي أم معاوية بن عمرو، وهي بنت مالك بن زيد بن زيد بن مناة ... بن جشم بن الخزرج، ومن بني حديلة أُبي بن كعب بن قيس بن زيد بن معاوية. ابن الكلبي: نسب معد، ج١، ص٣٩٢؛ ابن عبد ربه: العقد، ج٣، ٣٢٨؛ ابن الوزير المغربي: الإيناس، ص١٢٥.

[4] – ابن زبالة: أخبار المدينة، ص١٧٤ـ ١٨٣؛ ابن حزم: جمهرة، ص٣٣٢ ـ ٣٦٦؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٩، ص١٧٦، ١٧٧؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٤٣ـ ٣٨٣.

كانت تنشب أحياناً بينها الخصومات والمعارك، فيتسبب ذلك باضطراب الأمن[1]، الأمر الذي فسّر وجود ما سيتم الحديث عنه وهو الأُطُم.

٣- الأُطُمْ:

اقترن ذكر إنشاء وبناء الأطم مع كل مجموعة نزلت واستقرت في المدينة منذ العصور القديمة حتى أضحى وجود هذه الأطم صفةً مُلازمةً ومميزةً لها عن غيرها من مراكز الاستقرار في شبه الجزيرة العربية، فقد ذكر أن سكانها الأوائل العماليق قبل اليهود، لما نزلوا فيها زرعوا النخيل وعمّروا الدور والآطام[2]، وكذلك ورد ذكر أُطُم اليهود وقبائل العرب الذين وجدوا قبل الأوس والخزرج، فكان لليهود تسعة وخمسين أطماً، وللعرب النازلين عليهم قبل الأوس والخزرج ثلاثة عشر أطماً[3]. وبعد أن توزع الأوس والخزرج في المدينة بعد إضعاف اليهود كذلك الأمر اتخذوا الأطم،فكانت الآطام عزّ أهل يثرب ومنعتهم،التي يتحصنون فيها من عدوهم، ومنها ما يعرف اسمه ومنها ما لايعرف، ومنها ما يعرف باسم سيده ومنها ما لا يدرى لمن كان، مما يدل على كثرتها[4]. وقد أورد السمهودي عند ذكر منازل الأوس والخزرج ما بناه كل بطن من الأطم، فذكر ما يزيد عن ثلاثين أطماً للأوس، وعن خمسة وأربعين أطماً للخزرج، هذا عدا عن أطم اليهود[5].

الأطُم لغوياً هو حصنٌ مبني بحجارة، وقيل هو كل بيت مربع مسطّح، وجمعه القليل آطام، وجمعه الكثير أطوم، وهي حصون لأهل المدينة[6]. وقيل أن الأطم اسمٌ مأخوذٌ من ائتطم إذا ارتفع وعلا، ويقال ائتطم عليّ فلان إذا غضب[7]. وعن أصلها فالبعض يرجّح أن اليهود جاؤوا بها من وطنهم الأصلي، وقد أنشؤوها ليتحصنوا بها في أوقات الحروب حين يغزوهم الأعراب الطامعون بحاصلاتهم أو حين يغزون من عدو آخر[8]، في حين رأى البعض الآخر أن الأوس والخزرج نقلوها معهم من اليمن فقد

---

[1]- العلي، صالح: الإدارة في العهود الإسلامية الأولى، ص٧٧.

[2] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٢.

[3] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٠٨.

[4] – ابن زبالة: أخبار المدينة، ص١٦٩. ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٣٩.

[5] – وفاء الوفا، ج١، ص٣٤٣_ ٣٨٣.

[6] – ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص١٩، مادة (أطم).

[7] – السهيلي: الروض الأنف، ج٥، ص٤٢.

[8] – ولفنسون: تاريخ اليهود، ص١٦.

كان باليمن، موطنهم الأصلي، منشآت مماثلة للآطام، بعد أن طوروا فيها ووسعوا أغراضها، كما أن مثل هذه الآطام وجدت في الحيرة عند اللخميين وهم قوم من اليمن أيضاً[1].

كان بناء الآطام مربعاً غالباً ومستطيلاً أحياناً، ويتألف من طابقين أو ثلاثة، ويضم عدداً من الغرف في جهاته الأربعة تتوجه إلى ساحة داخلية تطل عليها النوافذ. كانت خالية من النقوش أو الزخرفة تستخدم للتحصين والدفاع عن النفس[2]. وبين الآطام والحصون يمكن القول أن الآطام كانت تبنى بالحجارة المختلفة الأحجام يوضع فيما بينهما حشو الطين، ولها مصاطب عالية تشرف على ما حولها ويتنزه من فوقها. أما الحصون فبناؤها بالحجارة الضخمة الهائلة المربعة ولا حشو بينها وقد تكون الآبار بداخلها، وإن بقايا من هذه الآطام والحصون هو ما أدى إلى هذا الاستنتاج حيث أبقت الأيام على أطلالٍ من حصن كعب بن الأشرف، وأطم الضحيان، وأطم أبي دجانة.

في الواقع يبدو وجود هذا النمط من البناء، أي الأطم كما ورد اسمها، كان ضرورة في المدينة، فقد ورد عن كل قوم سكنوها واستقروا فيها اتخاذهم الأطم، وهذا دليل على ضرورة ذلك، فالمدينة لم تكن محميةً لا بسور ولا بخندق، وكانت أراضيها الزراعية وأشجار النخيل لابد مثار لأطماع من جاورها من القبائل، فكانت هذه الأطم بمثابة حصون للمراقبة ولتخزين الغلال والثمار وكذلك الأسلحة، كما كان لها دور في حماية النساء والأطفال والشيوخ عند التعرض للخطر[3]. ومن هنا يمكن القول أن كل قوم نزلوا في المدينة أضافوا، وطوروا على هذه الأبنية وزادوا في تحصينها، حتى تكون ذات منعة أكثر. إلاّ أنّ وجودَها مؤشرٌ على تخلخل بنيانها القبلي، وافتقارها إلى الوحدة، وبالتالي غياب الأمن، والدليل على ذلك أنه بعد الهجرة إلى المدينة، لم تعد الأطم الكثيرة التي كانت موجودة سابقاً تُذكر، لأن الحاجة التي وجدت من أجلها لم تعد موجودة، حيث حلت الوحدة محل الفرقة، والسلام والأمن بعد انعدامهما، إلا أن رسول الله ﷺ نهى الأنصار أن يهدموا آطامهم وقال أنها زينة المدينة[4]، ومنها انتقلت إلى الطائف[5].

---

[1] – الخطراوي: المدينة في العصر الجاهلي، ص٩٠، ٩١.

[2] – الأنصاري: آثار المدينة، ص٦٤، ٦٥ . بدر: التاريخ الشامل، ج١، ص١١٨.

[3] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٩٦. ولفنسون: تاريخ اليهود، ص١٦.

[4] – ابن رسته: الأعلاق، ص٦٤.

[5] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٦٠٦. بدر: التاريخ الشامل، ج١، ١١٨.

- **أهم القبائل التي جاورت المدينة:**

ورد في المصادر ذكر بعض القبائل المجاورة للمدينة من جهاتها المختلفة، التي ارتبطت مع الأوس والخزرج بروابط هي أقرب إلى الحلف والمجاورة مع أحد منهما وترتبت العلاقة مع الآخر وفق علاقة حليفه معه، كانت أبرز هذه القبائل جُهينة وغطفان وسُليم، وتخللتها وجاورتها قبائل وبطون أصغر منها.

جهينة من القبائل القحطانية من بني زيد بن ليث بن سُود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة[١]، ونزلت في الحجاز وقرب المدينة[٢]، إلى الغرب منها، وتوزّعت في جبال الأشعر والأجرد وقُدُس وأراة ورضوى وصنديد وفي وادي أضم وأعراضه ونزلت ذا خُشُب وبواط وبدران وودّان وينبع والحوراء والساحل كما نزلت طوائف منها بذي المروة، وجاورتها قبيلة أشجع، من فروع غطفان، ونزلت معها كذلك قبيلة مُزَيْنة[٣]، وتنفرد جهينة من حدود رضوى والأشعر إلى وادٍ ما بين نجد والبحر وتليها قبيلة بلي شمالاً[٤]. وقبيلة مُزَينة التي جاورت جهينة هم بنو عثمان وأوس ابني عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ومُزَينة أمهما، انحازت مزينة إلى جبال رضوى وقدس وآرة وما والاها من أرض الحجاز[٥]. وقبيلة أشجع هي فرع من قبيلة غطفان أحد فروعها الثلاثة فهم من بني ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان، وكانوا هم عرب المدينة أي سكنوا ضواحيها القريبة[٦]. وكانت جهينة وأشجع حلفاء الخزرج، ومُزينة حليفة الأوس[٧]. وكان بنو ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، بين ودّان وبدر إلى الجار من الساحل

---

[١] – القلقشندي: قلائد الجمان، ص٤٣.

[٢] – السهيلي: الروض الأنف، ج٢، ص١٩.

[٣] – البكري: معجم ما استعجم، ج١، ص٣٧، ٣٨.

[٤] – ابن الحائك الهمذاني: صفة، ص٢٤٤.

[٥] – ابن حزم: جمهرة، ص٢٠١. السهيلي: الروض الأنف، ج١، ص٤٢٠. القلقشندي، (أحمد بن علي، ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج١، ص٤٠٢. البكري: معجم ما استعجم، ج١، ص٨٨.

[٦] – البلاذري: أنساب، ج١٣، ص٢١٥. ابن حزم: جمهرة، ص٢٤٩. القلقشندي، (أحمد بن علي، ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م): نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص٤٠.

[٧] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٦٠٢.

إلى الأبواء أي في الجنوب الغربي من المدينة[١]. وكانت ديار غفار جنوبي ديار ضمرة، وتشمل بدر والصفراء، وتمتد إلى قرب عسفان.

أما غطفان فهم بنو غطفان بن سعد بن قيس عيلان وهو بطن عظيم متسع كثير الشعوب والبطون ومنازلهم في نجد مما يلي وادي القرى وجبلي طيء، أي شمال وشرق المدينة، وبنو غطفان ثلاثة بطون أو قبائل: أشجع بن ريث بن غطفان، وعبس بن بغيض بن ريث بن غطفان، وذبيان بن بغيض، ومن ذبيان مُرة وثعلبة وفزارة[٢]. وكان لفزارة رئاسة غطفان كلها في الجاهلية قبل الإسلام[٣].

أما قبيلة بني سُليم هم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، وهم أكبر قبائل قيس، كانت منازلهم في عالية نجد، في حرة بني سليم وحرة النار بين وادي القرى وتيماء، وجوار خيبر[٤]، لها فروع وبطون كثيرة، فكان منها بنو ذكوان، وبنو عصية وبنو بهثة وبنو عوف وبنو زغب أو زغبة[٥]. ويطلق على أرض بني سليم مَعْدِنْ بني سليم[٦]، فهي أرضٌ خصبة غنية بثروات معدنية ولا الذهب، فقيل كان يُستخرج منها ذهبٌ كثيرٌ، وأن التراب كان مخلوطاً بالذهب[٧]، لذلك ارتبطت مصالحها مع القبائل اليهودية المجاورة لها، ومع تجارة الشام، حيث سوّقوا منتجاتهم الزراعية والمعدنية، فضلاً عن إمداد صناعة الأسلحة في المدينة بالمواد الأولية لاسيما الحديد[٨].

٤- العلاقات بين الأوس والخزرج:

غلبت أنباء ما قام بين بطون الأوس والخزرج من حروبٍ ومعارك أو أيامٍ كما كانت تسمى قبيل الإسلام على أخبار العلاقات بينهما، لكن يمكن القول أن العلاقة بين هذين الطرفين لم تقتصر فقط

[١] – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٨. القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ٤٠٥. الحازمي: مجتمع يثرب، ص٧٨.

[٢] – ابن حزم: جمهرة، ص٤٨١؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج٢، ص٣٦٤، ٣٦٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص٣٩٨.

[٣] – القلقشندي: نهاية الأرب، ص١٧٤.

[٤] – ابن الحائك الهمذاني: صفة، ص٢٤٥؛ القلقشندي: نهاية الأرب، ص٢٩٥.

[٥] – ابن حزم: جمهرة، ص٢٦١_ ٢٦٤؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج٢، ص٣٦٧_٣٦٩.

[٦] – المعدن هو مكان كل شيء يكون فيه أصله ومبدؤه نحو معدن الذهب والفضة والأشياء. المعادن: هي المواضع التي يُستخرج منها جواهر الأرض. ابن منظور: لسان العرب، ج١٣، ص٢٧٩، مادة (عدن).

[٧] – الحربي: المناسك، ص٣٣٤، ٣٣٥.

[٨] – علي: المفصل، ج٤، ص٥١٩؛ بيضون: الحجاز، ص٤٩.

على حروب وصراعات بين الأوس والخزرج بل كذلك حصلت ضمن البطن الواحد نزاعات وقامت أحلاف بين بطون من الأوس و بطون من الخزرج.

ومن هذه النزاعات بين بعض بطون الأوس: حالف بنو ظفر بني عبد الأشهل ضد بني حارثة، وحدث صدام خرج على إثره بنو عبد الأشهل إلى أرض بني سُليم خارج المدينة، ومالبث حضير بن سماك زعيمهم أن عاد برفقة بني سُليم وقاتلوا بني حارثة وأجلوهم إلى خيبر وكانوا بها قرابة عام، لكن لم يعودوا إلى مكانهم بجوار بني عبد الأشهل، وكل البطون المذكورة من الأوس[١].

كان واقف وسلْم ابنا امرؤ القيس بن مالك بن الأوس، لطم واقف عين السلم، فحلف السلْم ألاّ يساكن واقفاً، وترك المنزل ونزل على بني عمرو بن عوف وحالفهم[٢].

وذهب بنو جحجبا بن كلفة من بني عمرو بن عوف من قباء إلى غربها في العُصبة، لقتلهم رفاعة بن زنبر وغنْم من بني عمرو بن عوف[٣].

وكذلك الخزرج أوردت المصادر ذكراً لخلافات بين بطونها ومنها ما حصل في بني سلمة، وبين بني بياضة وبني زريق.

جعلت بنو سلمة أمّة بن حرام رئيساً عليها، وأراد أمّة بعد وفاة رجلٍ له مالٌ كثيرٌ من بني عبيد من بني سلمة أن يأخذ من أمواله قسماً ويوزّعها على بني سلمة وكان له ولدٌ وحيدٌ اسمه صخر، فعظُم ذلك على صخر وهدد بقتل أمّة إن أخذ شيئاً وطلب من بني عبيد وبني سواد من بني سلمة أن يمنعوه أي يحموه، فنذر أمّة ألاّ يؤويه ظل بيت ما عاش حتى يقتل بنو سلمة صخراً أو يأتوه به فيرى رأيه[٤].

هذا وقد حالف بنو بياضة بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بني حبيب بن عبد حارثة على بني زريق بن عامر بن زريق بن عبد حارثة، وكانوا كلهم في ديار بني بياضة، فخرج بنو زريق من ديار بني بياضة[٥].

---

[١] – ابن زبالة، أخبار المدينة، ص١٧٤. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٤٦.

[٢] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٥٢.

[٣] – وقد ورد سابقاً عند الحديث عن بطون الأوس أن أحيحة بن الجلاح تخلى عن أطم المستظل مقابل دية رفاعة المذكور. الفيروز أبادي: المغانم، ص٣٨٠؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٤٨.

[٤] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ٣٦٥.

[٥] – ابن زبالة: أخبار المدينة، ص١٧٨؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ٣٧٠.

وقتل بنو عذارة بن مالك بن غضب بن جشم من الخزرج، وكانوا قوماً ذوي شراسة وشدة، رجلاً من بني مالك بن غضب بن جشم. وخرجوا إثر ذلك لامتناعهم تسليم القاتل لأهل القتيل وحاول بنو بياضة أن يثنوا بني عذارة ويأخذوا القاتل عنوةً، فخرج بنو عذارة ونزلوا قباء على بني عمرو بن عوف من الأوس وحالفوهم وصاهروهم[1].

ومن الملاحظ أن بين هذه النزاعات وجدت محالفات فسلْم بن امرؤ القيس لما اختلف مع أخيه واقف، نزل على بني عمرو بن عوف وحالفهم، وكلاهما أوس كما ذكر سابقاً. وبنو بياضة كذلك الأمر حالفت بني حبيب وكلاهما خزرج. وكذلك بنو عذارة من الخزرج حالفوا بني عمرو بن عوف من الأوس وصاهروهم. وذكر أن بني كعب بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج كانوا حلفاء بني عمرو بن عوف من الأوس[2].

أما أخبار الأيام التي كانت بين الأوس والخزرج فقد امتدت بحسب ما تذكره المصادر ما يزيد عن قرن من الزمن، وكان الحيان يثوران وغالباً لا يرضيان بالصلح إلا بعد قتال يكون عنيفاً وطويل الأمد. كان عنصر إثبات التفوق في الزعامة والشرف فيها عاملاً مساهماً، والروح القبلية هي المحركة والمأججة لنارها، إلا أن عامل التنافس الاقتصادي لم يكن خافياً بل محركاً، وقد خلّدها الأوس والخزرج بأشعارهم.

- البداية كانت مع **حرب سُمير** التي تضمنت أكثر من يوم ولقاء، وكانت فاتحة للأيام التي تلتها، وانطلقت شرارتها من سوق بني قينقاع، عندما نادى رجلٌ من غطفان، بيده فرسٌ: ليأخذ هذه الفرس أعزّ أهل يثرب، فكثر الكلام وكل يعطيه اسم، فأعطاها لرجلٍ من ذبيان نادى باسم مالك بن العجلان الخزرجي وكان حليفه، الأمر الذي أوغر صدر سُمير بن زيد الأوسي وكان قد نادى باسم أحيحة بن الجلاح بأنه أعز أهل يثرب. ومالبث سُمير أن تمكن من حليف مالك في سوق العُصبة بقباء وقَتلَه، لتبدأ من بعد ذلك سلسلة من المواجهات، حيث رفض بنو عمرو بن عوف تسليم سُمير، وعرضوا أن يؤدوا دية الحليف، في الوقت الذي أصر مالك أن يثأر لشرفه، فلم يقبل إلا بدية الصريح، ولم يقبل

[1] - ابن زبالة: أخبار المدينة، ص١٨٠؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٧٢.

[2] - ابن حزم: جمهرة، ص٣٥٦.

بالتحكيم، واستمرت المواجهات عشرين سنة، لتنتهي بدفع الدية كاملة لمالك بن العجلان، في هذه المرة فقط، وألاّ يصبح ذلك سنة متبعة[1].

حرب كعب بن عمرو المازني:

كانت بين بني جحجبا قوم أحيحة بن الجلاح من الأوس، وبين بني مازن بن النجار من الخزرج، وسببها أنّ جماعةً من بني جحجبا قتلوا كعباً بن عمرو النجاري، وكان كعب يمرّ قريباً من منازلهم قاصداً زوجته في بني سالم، ومنازل بني سالم كانت تقع قريباً من منازل بني جحجبا، فخرج بنو النجار جميعاً وكانوا سبعة فروع لحرب بني جحجبا، وتلاقوا وحدث بينهم قتالٌ شديد ثم انهزم بنو جحجبا ومعهم أحيحة بن الجلاح وولوا هاربين، وكان عاصم بن عمرو أخو كعب قد أراد قتل أحيحة بكعب، وتبعه إلى حصنه فرماه بسهم فقتل أخاً لأحيحة[2]، حاول عاصم قتل أحيحة مرة أخرى ولم ينجح[3].

قرّر أحيحة أن يباغت بني النجار ويأخذهم على حين غرة، ولكن زوجته سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية، أم عبد المطلب، جد النبي ﷺ، لما علمت بنية أحيحة، انطلقت إلى أهلها بعد أن نام بحيلةٍ منها، وحذّرتهم من نية أحيحة فاستعدوا، ولما أصبح أحيحة سار بقومه إلى بني النجار فلقيهم في السلاح مستعدّين، فتراموا بالنبل، وانحاز أحيحة، وأدرك أن سلمى أخبرتهم فضربها حتى كسر يدها وأطلقها فرجعت إلى أهلها، وتزوجها هاشم بعد ذلك فولدت له عبد المطلب[4].

يوم السرّارة:

قامت بين بني عمرو بن عوف من الأوس وبني الحارث من الخزرج، وذلك لقيام رجل من بني الحارث بقتل رجلٍ من بني عمرو بن عوف، فعمد بنو عمرو بن عوف إلى القاتل وقتلوه غيلةً، ولما علم بنو الحارث قومه بذلك عزموا على الحرب وأرسلوا يؤذنونهم بالحرب، فالتقوا بالسرّارة بين قباء والعوالي،

---

[1] - الأصفهاني: الأغاني، مج٣، ص١٧، ٢٠، ٢١؛ ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٨٦، ٥٨٧؛ ابن قدامة المقدسي:الاستبصار، ص٣٠٨.

[2] - ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٨٧.

[3] - الأصفهاني: الأغاني، مج١٥،ص٣٥؛ الخطراوي: شعر الحرب، ص٥٨٨.

[4] - ابن قدامة المقدسي: الاستبصار، ص٣٠٩، ٣١٠؛ ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٨٨.

وعلى الأوس حضير بن سماك، وعلى الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول، فاقتتلوا قتالاً شديداً أربعة أيامٍ متواليةً، هُزمتْ الأوس وانصرفت إلى منازلها، ففخر الخزرج عليهم، وقال حسان بن ثابت فيها شعراً[١] يفخر فيه على قيس بن الخطيم ومنه

فِدًى لِبَنِي النَّجَّارِ أُمي وخالتي ... غداةَ لَقُوهُمْ بِالْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ

وَصِرْمٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ عَمْرُو بْنُ مَالِكٍ ... إِذَا مَا دَعَوْا كَانَتْ لَهُمْ دَعْوَةُ النَّصْرِ

فَوَ اللَّهِ لَا أَنْسَى حَيَاتي بَلَاءَهُمْ ... غَدَاةَ رَمَوا عَمْرًا بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ

حرب الحصين بن الأسلت:

لم يتخلف أحدٌ من الأوس والخزرج عن هذه الحرب التي كان سببها قتل الحصين بن الأسلت من قبل بني مازن بن النجار، أخذاً بالثأر، وكان الحصين قد قتل رجلاً منهم قد نازعه، فجمع قيس بن الأسلت الأوس كلهم وأرسل إلى بني مازن يعلمهم بالحرب، فتهيؤوا واستعدوا، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى بين الطرفين، وقتل أبو قيس الذين قتلوا أخاه ثم انهزمت الأوس[٢]،

– حرب ربيع الظفري:

كانت بين بني ظفر من الأوس وبين مالك بن النجار من الخزرج، قتل ربيع الظفري رجلاً من بني النجار لأنه أراد منعه أن يمر بأرضه، فجمع قومهما واقتتلوا قتالاً شديداً كان أشد قتالٍ بينهم، وكلا الطرفين أثخن بالآخر[٣].

– حرب فارع:

ثارت هذه الحرب أيضاً لأجل حق الجوار كحرب سُمير، وذلك أن رجلاً من قضاعة ثم من بليّ كان جاراً لمعاذ بن النعمان بن امرؤ القيس الأوسي، أتاه ابن أخٍ له يزوره، فقتله بعض بني النجار. فأرسل معاذٌ إلى بني النجار أن يدفعوا ديّة جاره أو أن يرسلوا بقاتله إليه. وأبوا أن يفعلوا ما طلب، فهدّد رجل من بني عبد الأشهل إن لم يفعلوا بقتل عمرو بن الإطنابة وكان شريفاً من الأشراف له مكانة.

وعندما رأى معاذ بن النعمان امتناع بني النجار، تهيأ للحرب وتجهز هو وقومه واقتتلوا عند فارع، واشتد القتال[١]، ولم ينته إلاّ بعد أن تدخل عمرو بن الإطنابة وحقن الدماء بحكمته، فتحمل دية

[١] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٨٩؛ ديوان حسان بن ثابت، ج١، ص٤٢٤؛ بدر: التاريخ الشامل، ج١، ص٧٦؛ الخطراوي: شعر الحرب، ص١٢٦ــ ١٣١.

[٢] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٩١.

[٣] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٩٢.

القتيل، وأصلح بين الحيين، ويرجح الخطراوي أنّ اتخاذه التاج ومناداة الناس له بلقب ملك الحجاز كانت بعد موقفه هذا[٢].

حرب حاطب:

قيل أن بينها وبين حرب سُمير مائة عام وأن ما قام من أيام بين الأوس والخزرج كان أكثر مما ذكر، ولكن ما تم ذكره كان الأشهر، ويعدها ابن الأثير آخر وقعة قبل بعاث، وأن الأيام التي تلتها، كيوم الربيع والبقيع والفجار الأول ومعبّس ومضرّس ويوم الفجار الثاني، هي جولات تابعة ومتصلة بها.

أما **حرب حاطب**: على الأوس حضير بن سماك الأشهلي، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، وتسميتها نسبةً إلى حاطب بن قيس بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسي، وكان رجلاً شريفاً سيداً، الذي نزل عليه رجلٌ من ذبيان من بني ثعلبة بن سعد، وذهب هذا الضيف يوماً إلى سوق بني قينقاع، فأهانه يهودي وكسعه بتحريض من يزيد بن الحارث المعروف بابن فُسحم، وهي والدته، وهو من بني الحارث بن الخزرج الذي وعده أن يعطيه رداءه مقابل ذلك، فنادى الضيف: يا آل حاطب كُسِعَ ضيفك وفُضِح! ووصل الخبر إلى حاطب الذي جاء إلى السوق وضرب اليهودي بالسيف فقتله. ولما وصل الخبر لابن فسُحم أسرع خلف حاطب فأدركه وقد دخل بيوت أهله، فلقي رجلاً من بني معاوية فقتله. فثارت الحرب بين الأوس والخزرج واحتشدوا واجتمعوا، وهنا قَدِم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر وخيار بن مالك بن حمّاد الفزاريان وحاولا إحلال الصلح بين الطرفين وضمنا أن يتحملا كل ما يدّعي بعضهم على بعض، لكن الطرفين أبوا وأصرّوا على المواجهة فشهدا من قتالهم وشدتها ما أيسا معه من الإصلاح بينهم، ووقعت الحرب عند الجسر وكان الظفر يومها للخزرج[٣].

وكان هذا اليوم من أشهر أيامهم، وكان بعده عدة وقائع كلها من حرب حاطب فمنها:

يوم الرّبيع: الرّبيع هو حائطٌ — بستان أو مزرعة أو أرض نخيل- في ناحية سفح جبل سلع، اقتتلوا قتالاً شديداً حتى كاد يفني بعضهم بعضاً، فانهزم الأوس ودخلوا منازلهم وطلبوا الصلح، و كان الخزرج قد تبعوهم حتى دورهم، وكانوا قبل ذلك إذا انهزم انهزمت إحدى الطائفتين دخلت دورها، كفّتْ

---

[١] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٩٣، ٥٩٤.

[٢] – الخطراوي: شعر الحرب، ص١٤٣.

[٣] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٩٥، ٥٩٦.سمى البعض هذا اليوم بيوم الغُرس ويوم الدريك، لأن القتال وقع في الحدائق أو الحديقة، وهي من ضواحي المدينة وظواهرها، وهي غير بعيدة من الفضاء في قباء، وليست بعيدة عن بئر الغُرس شرقي مسجد قباء وبئر الدّريك. الخطراوي: شعر الحرب، ص١٤٩.

الأخرى عن اتبّاعها. لكنّ الخزرج تبعوا الأوس ولم تقبل كل البطون بالصلح حيث امتنع بنو النجار من الخزرج عن إجابتهم إلى الصلح، فحصنت الأوس النساء والذراري في الآطام[1]، مما يعزز فكرة أنّ وجودها كان لانعدام الأمن، ثم كفّت عنهم الخزرج.

يوم البقيع ويوم الغرس: وما لبثوا أن التقوا في بقيع الغرقد واقتتلوا قتالاً شديداً، فكان للأوس على الخزرج. والتقى الأوس والخزرج بمكان يقال له الغرس، فكان الظفر للأوس، ثم تراسلوا في الصلح، تصالح الحيان على أن يحسبوا القتلى، فمن كان عليه الفضل أعطي الدية، حسبوا فزاد عدد قتلى الأوس ثلاثة أنفار، فدفعت الخزرج ثلاثة غلمان رهناً لجلب الدية.

يوم الفجار الأول:

التقوا وعلى الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول، وعلى الأوس أبو قيس بن الأسلت، اقتتلوا قتالاً شديداً حتى كاد يفني بعضهم بعضاً. وسمي بالفجار لغدرهم بالرهن. وتبع هذا اليوم:

يوم معبّس ومضرّس:

معبّس ومضرّس هما جداران أو حائطان، كانا قريبان من آطام بني عدي بن النجار، كان الخزرج وراء مضرّس والأوس وراء معبّس، أقاموا أياماً يقتتلون قتالاً شديداً، وانهزمت الأوس هزيمةً منكرةً لم ينهزموا مثلها، حتى أن بني عمرو بن عوف وبني أوس مناة من الأوس صالحوا الخزرج، لكن هذا الصلح لم تقبل به جميع البطون فقد امتنع بنو عبد الأشهل وبنو ظفر وغيرهم وأرادوا أن يأخذوا بالثأر، فاشتدت غارة وأذى الخزرج لهم، حتى أنهم فكروا الانتقال من المدينة، وأغارت بنو سلمة على مالٍ لبني عبد الأشهل يقال له الرعل، فقاتلوهم وجرح يومها سعد بن معاذ الأشهلي جراحاً شديدةً، فاحتمله بنو سلمة إلى عمرو بن الجموح الخزرجي، فأجاره وأجار الرعل من الحريق وقطع الأشجار[2].

أرادت بطون الأوس التي امتنعت عن الصلح حليفاً، فاتجهت إلى مكة، وأظهروا أنهم يريدون العمرة، حتى لا يتعرض أحد لمالهم أو بيوتهم فالعادة أنه إن أراد أحد الحج أو العمرة يعلق على بيته كرانيف النخل، فلا يتعرض أحد له بسوء، أو لماله، وذهبوا إلى مكة، وحالفوا قريشاً وكان أبو جهل غائباً عن مكة، فلما رجع وعلم بالحلف أنكره ولام قومه عليه، فقد أدرك خطر التورط بالحلف والحرب،

---

[1] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨.

[2] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٩٩.

فهم أهل عَدَدٍ وجَلَدٍ وهذا يعارض سياسة مكة، فأعمل الحيلة حتى ردّ الأوس الحلف لمكة، ورجعوا إلى المدينة، وذهبت النبيت إلى خيبر[1].

يوم الفجار الثاني:

طلب الأوس من يهود بني قريظة والنضير أن يحالفوهم على الخزرج، وبلغ ذلك الخزرج، فأرسلوا يهددون اليهود بالحرب إن حالفوا الأوس ويتوعدونهم، فأجابت اليهود بنفي الرغبة في حلف الأوس، فطالبتهم الخزرج برهائن دليل صدق على الكلام والموقف، فأرسلت اليهود أربعين غلاماً من النضير وقريظة، وزعوهم في دورهم.

وقيل إنّ عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي بعد ذلك قال لقومه بني بياضة: إن أباكم أنزلكم منزلة سوء، بين سبخةٍ ومفازة، والله لا يمسّ رأسي ماء حتى أنزلكم منازل قريظة والنضير أو أقتل رهنهم! وكانت منازل قريظة والنضير خير البقاع، وكان لهم غزار المياه وكِرام النخل، فأرسل إلى قريظة والنضير: إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم، وإما أن نقتل الرهن. فتطورت الأمور وأصبح الآن اليهود عنصراً مشتركاً بشكل فعلي ومهددٌ، وكلا الموقفين فيه مخاطرة، لكنهم اختاروا البقاء في دورهم وأعلنوا حلفهم للأوس فالقتال أصبح أمراً واقعاً لا مفرّ منه، وأرسلوا إلى النعمان أنهم لن ينتقلوا من ديارهم، فقتلت الخزرج الرهائن إلاّ عبد الله بن أبي بن سلول عدّ هذا التصرف عقوقاً وإثماً وبغياً، وكان هذا سبب تسميه هذه الواقعة بالفجار، وأطلق هو ومن وافقه الغلمان، وكان قد نصح قومه بعدم الغدر بالرهن ونهاهم عن قتال الأوس لكنهم لم يأخذوا برأيه. واجتمعت الآن الأوس وقريظة والنضير على حرب الخزرج ولم يتخلف منهم أحد، أما الخزرج فقد امتنع عبد الله بن أبي بن سلول عن القتال واعتزلهم، وجرى قتالٌ سمي ذلك اليوم بيوم الفجار الثاني[2]. وبدأ الإعداد بعده ليوم أعظم فكان بعاث.

يوم بعاث:

توحّد موقف الأوس ويهود بني قريظة والنضير، ودخلت معهم قبائلٌ من اليهود أخرى، وراسلت الأوس حلفاءها من مزينة، وجمعت الخزرج وحشدت وراسلت حلفاءها من أشجع وجهينة، ومكثوا أربعين ليلةً يتجهزون للحرب، وتخلّف عبد الله بن أبي ومن تبعه عن الخزرج، وتخلف بنو حارثة بن

[1] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٩٩. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٨٥. وقيل أن الوليد بن المغيرة من كان له هذا الموقف.

[2] – الأصفهاني: الأغاني، مج١٧، ص ٨٨_ ٩١. ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٦٠٠، ٦٠١.

الحارث عن الأوس. وكان على الأوس حضير الكتائب بن سماك، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، والتقوا ببعاث وهي من أعمال قريظة، واقتتلوا قتالاً شديداً وعنيفاً، وكاد أن ينهزم الأوس لولا أن طعَنَ حضير بن سماك رجله برمحه وصاح بالأوس: واعقراه... والله لا أبرح مكاني حتى أقتل، فإن شئتم أن تسلّموني فافعلوا! فعطفوا عليه وعادوا، وثبتوا[١]. وأصاب سهمٌ لا يُعرف مصدره عمرو بن النعمان البياضي زعيم الخزرج، فأرداه قتيلاً، وما لبثت الخزرج أن انهزمت ووضع الأوس فيهم السلاح، وكثر القتل، فصاح صائح: يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب! فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم. وإنما سلبهم قريظة والنضير، وحملت الأوس حُضيراً مجروحاً فمات متأثراً بجراحه. وأحرقت الأوس دور الخزرج ونخيلهم، فأجار سعد بن معاذ الأشهلي أموال بني سلمة ونخيلهم ودورهم جزاءً بما فعلوا له يوم الرّعْل، وكان هذا اليوم قبل الهجرة بخمس سنوات[٢]. وانتهت حرب بعاث بهزيمة الخزرج شر هزيمة، لكنها كانت خاتمةً موجعةً لكلا الطرفين ذهب فيها الكثير من أشرافهم وسادتهم، وتنبهوا للضرر الذي أوقعوه بصفّهم عندما رأوا ما قامت به اليهود من سلب وتدمير.

كانت هذه صورة العلاقات بين الأوس والخزرج في المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها، فكان الخلاف ظاهراً فيها، والتنافس واضحاً، في البطن الواحد، وبين البطون المختلفة، والذي فاقم كل هذا غياب سلطة تفرض حُكْماً، أو تجمع البطون أو توحّد المصالح. وما يخص الأيام التي ورد ذكرها، فيمكن القول أنها ما قبل حرب حاطب كانت بين بطون متفرقة من الحيين، ولكنها بعد حرب حاطب أصبحت تجمع كل البطون في حرب بعضها، أي أن المدينة انقسمت إلى معسكرين متعاديين، وغاب عنصر الحكمة والصلح بينهم. وبرزت أصوات ومواقف تدعو لحقن الدماء لكنها كانت ذات تأثير ضعيف، كموقف عبد الله بن أبي بن سلول، فالشر كان قد استحكم في النفوس، والصدام كان وقع. أما عن موقف اليهود فهو غير خافٍ، فلا شك أن كل ما جرى كان في مصلحتهم فإضعاف الطرفين أو طرف منهما هو مكسب لهم ولا سيما الخزرج، والشرارة الأولى في حرب سُمير بدأت من سوق بني قينقاع، وكذلك في حرب حاطب، أما يوم بعاث فقد أظهر حقد اليهود الضغين على الخزرج، وأدرك الأوس هذا من خلال النداء الأخير الذي أطلقوه أن يكفّوا عن الخزرج فجوارهم خيرٌ من جوار اليهود ووصفوهم بالثعالب، مع العلم أنهم كانوا لا يزالون حلفاء وبنفس الصف.

---

[١] - الأصفهاني: الأغاني، مج١٧، ص٩٢، ٩٣.

[٢] - ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٦٠١، ٦٠٢. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٨٧، ٣٨٨.

إن رابطة الدم التي دلّت عليها معظم الروايات لم تكن سبباً كافياً لفض أصغر نزاع قد حصل، كما بدت فيها صفات الروح الأعرابية، التي تظهر عادة عند القتال مع الأغراب، واضحة لدى الطرفين، والتي كانت أبرز صفاتها هي النزعة إلى التخاصم والتقاتل، وسرعة الغضب، والبعد عن الروية والحكمة، والثأر الذي له دورٌ كبيرٌ في استمرار هذه الصراعات، ولم تقرب هذه الرابطة بين الفئات، مما يجعل أمر الشك في صحتها وارداً، أو على الأقل درجة صفائها، أي أن ليس كل من وُجِدَ كان من الأوس أو من الخزرج فقط، فمن المحتمل وجود أفرادٍ أو مجموعاتٍ كانت لا تنتمي لأيٍّ منهما، فالمدينة كانت دوماً مكاناً للجذب، بحكم ميزاتها ضمن الصحراء، وبحكم الجوار لابد أن تقوم علاقات مصاهرة مع إحداهما، ومع الأيام غلب نسب المصاهرة على النسب الأساسي، فنُسب لها. ويبقى ذلك مجرد محاولة لفهم أسباب كل هذه الصراعات، والفرقة، وانعدام الوحدة، وبدا ذلك ظاهراً وواضحاً في أخبار هذه الأيام، حيث تطور الأمر من مجرد مشادة كلامية ونزاع إلى حادثة قتل، واجتمعت العشيرة مع القاتل حتى لو كان معتدياً، وكان لذلك أثره البعيد على الحياة الاقتصادية بشكل مؤكد، فكل أرض كانت تقوم فيها هذه الصراعات كانت تتعرض للخراب والحرق، بالإضافة إلى الخسارة في الأرواح.

٤- الحالة السياسية:

إن مجتمع المدينة قبل الإسلام، ومنذ نشوئه كان مجتمعاً حضرياً مستقراً، ارتبط بالأرض ومارس الزراعة، لكنه ظل في جوهره مجتمعاً قبلياً لم تختلف الحياة فيه أو تتميز بشيء عن حياة القبائل البدوية في الجزيرة العربية من حيث الأعراف والنظم التي تحكم حياتها وتوجهها، فكان أفراد كل عشيرة يسكنون معاً في منطقة واحدة حيث لهم مزارع نخيل وفيها أطمهم التي كان لها دور في حمايتها[١]. ولم تختلف البطون اليهودية التي وجدت في المدينة وتعايشت مع الأوس والخزرج عنهم، فقد تخلقوا بأخلاق العرب وتأثروا بعاداتهم، واتبعوا سبيلهم في النظم والتقاليد الاجتماعية فدخلوا في أحلافٍ معهم وتحملوا ما يترتب على الحلف من العون والنصرة حتى أصبحوا كأنهم منهم[٢].

فالقبيلة هي الوحدة الأساسية في المجتمع ككيان اجتماعي وسياسي في آن واحد، لكن مفهوم أو رابطة هذه القبلية كان يضيق ويفرّق بين البطون من القبيلة نفسها، كما حصل في موقف الأوس والخزرج حيث كانوا على اليهود صفاً واحداً، ولكنهم بعد أن أضعفوهم وتفرقوا في أنحاء المدينة أصبحوا

---

[١] – العلي، (صالح): دولة الرسول في المدينة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص٢٥.

[٢] – ولفنسون: اليهود، ص٢٢.

At Medina, Oxford, 1956, p. 195.Watt, (Montgomery): Muhammad-

صفين متواجهين، يتنافسان على الزعامة والنفوذ والمكاسب الاقتصادية. وكانت النزعة الفردية واضحة لديهم عززها امتلاك أفراد لأراضٍ وممتلكات.

لم يجتمع الأوس والخزرج على زعامة رجل واحد، حتى مالك بن العجلان الذي أجمعت المصادر أنه كان له الدور الأبرز في إضعاف اليهود، لم يكن له نفوذ أو مكانة تتفوق على مكانة معاصريه، وعمرو بن الطلة الذي كان له دور في تنظيم المقاومة ضد تبع. وكذلك عمرو بن الإطنابة الذي تصفه المصادر بملك الحجاز لم يكن له هذا النفوذ حتى أنه تعرض للتهديد بالقتل، وأمّة بن حرام الذي لم يستطع فرض رأيه على شخص امتلك ثروة طائلة في نفس عشيرته بني سلمة، مما يوحي بأن هذه الشخصيات التي ذكرتها المصادر قد اختارتها العشائر في المدينة لأمر طارئ أو مهمة محددة وبعد إنجازها رجعت إلى مكانتها الاعتيادية، فسلطاتهم لم تكن نابعة من مؤسسة قانونية ضمن عشائرهم، إضافة إلى افتقاد المدينة عموماً مؤسسات سياسية موحدة تجمع الناس، وتؤمن تنظيمهم وتعمل على حل مشاكلهم، كما توافر في مكة، على سبيل المثال.

لقد أدت المصالح التجارية في مكة إلى ربط الجماعات المختلفة معاً ودعمت معنى وحدة قريش، رغم أن شعور الظلم أحس به الفقراء نتيجة التفاوت الطبقي والاقتصادي، لم يكن في المدينة مثل هذا العامل الداعي لتوثيق الروابط، لأن سكانها أقل تجانساً من سكان مكة، فالأسرة الصغيرة كانت هي الوحدة الكافية لأنها تتواءم مع العمل الزراعي[1]. وهذا أمر يبعث على الشك في صحة إرجاع نسب كل العشائر الموجودة في المدينة، أو جلها، إلى قبيلتي الأوس والخزرج، فالمدينة شكلت دائماً مركز جذب في قلب الصحراء، وربما أنها جذبت مجموعات صغيرة، دخلت في هذا المجتمع، انضمت إلى جماعات أخرى موجودة بدافع الحماية، فقد كان للظروف الجغرافية والمادية تأثيرها القوي، جعل وجود الأطم ضرورة لأسباب دفاعية[2]، وتمازجت بشكل أو بآخر بقبيلة منهما بولاء، أو حلف، أو علاقات مصاهرة، فأصبح مع مرور الأيام النسب مختلطاً مع هذه العشيرة، وكثيرة هي الأسماء التي وردت في تاريخ المدينة تذكر نسبة الشخص إلى الأم وليس الأب، ابن فُسحم الشاعر الذي ذُكر في حرب حاطب، فُسحم هي اسم أمه، وعبد الله بن أُبي بن سلول، سلول اسم أم أُبي، وهذا ربما يفسر وجود هذا التكاتف والالتحام ضمن العشيرة الصغيرة، وليس ضمن القبيلة التي هي أساس هذه العشيرة، والتي شكلت ضمن

[1] – واط: محمد في مكة، ص٢٨١.

[2]– Watt: Muhammad - At Medina, p.173.

أراضيها كيان يضمن لأفراده الأمن، أما خارجها فالأمن كان ضعيفاً، بل إن تعرض أفرادها للاعتداء أمر كثير الاحتمال، كما مر في السبب الذي قُتل من أجله كعب بن عمرو المازني، لمجرد مروره بأراضي بني جحجبا – كما ورد سابقاً – .

لم يتوافر في المدينة قبيل الإسلام ما توافر في مكة من سلطة تجمع العناصر المتعايشة مع بعضها وتوحد مصالحها في سبيل البقاء، ولا زعيم كان لها بمثابة المشرع والمنظم لأمورها، ولا مجلساً عاماً ينظر في الشؤون الطارئة كدار الندوة وسلطة الملأ، فانفرد كل حي عن الآخر، وتباعدت الأهواء وتضاربت المصالح، ونشأت الخصومات واضطرب الأمن، فاستحكمت الروح القبلية ووجهت الحياة فيها[١]. وبما أن حياتهم كانت تقوم على تملك الأرض واستغلالها فقد كانت القوة الذاتية هي الضمان الوحيد لحفظ الحقوق في ظل غياب سلطة تمنع الاعتداء أو تعاقب عليه[٢].

ينطبق على اليهود ما تم الحديث عنه لدى الأوس والخزرج، فمن خلال مجريات الأحداث التي تم ذكرها لم يظهر عليهم أي موقف كانوا فيه صفاً واحداً، فلم يستطيعوا أن يوحّدوا قواهم بعد أن أضعفهم الأوس والخزرج، رغم وحدتهم من الناحية الدينية لأنها لم تكن موجبة لاجتماعهم، إثر ما ذكر من حادثة الاستعانة بطرف خارجي بغض النظر إن كانت من الغساسنة أو التبابعة، ولم يستردوا ما خسروه من أراضٍ أو نفوذ، بل على العكس تفرّقوا بأحلاف مع الأوس والخزرج، وكانوا متفرقين، وظلت هذه الأحلاف إلى ما بعد الهجرة[٣]، فكانت كل جماعة من اليهود تقاتل مع حليفتها من الأوس أو الخزرج الجماعة العدوّة التي كان يقاتل معها حلفاؤها من اليهود فيقتل بعضهم بعضاً[٤]. مما يعزز فكرة أن هذه المجموعات بصورة عامة كانت مختلفة، جذبتها الأرض وخصوبتها، استقرت فيها وحاولت دائماً الحفاظ على ما امتلكته، وزيادته إن أمكنها، مما تسبب في حصول الصراعات والحروب.

هذه الصراعات الداخلية والنزاعات شغلت مكونات المدينة عموماً عن خارجها، فلم يذكر أن كانت لهم علاقات سيئة أو متوترة مع أي قبيلة أو طرف خارجي، بل على العكس كانت علاقاتهم بمن حولهم علاقات جيدة، فقد كانت لهم صلات جيدة بالغساسنة تجلت بالحديث عن مساعدتهم ضد

[١] – العلي: دولة الرسول، ص٢٧.

[٢] – الشريف: مكة والمدينة، ص٣٤٢.

[٣] – الأصفهاني: الأغاني، مج٢٢، ص٨٢. ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج٢، ص٣٤٤. دروزة: عصر النبي، ص١٨٣،١٨٢.

[٤] – دروزة: عصر النبي، ص١٩١، ١٩٢.

اليهود، وكذلك ظهرت في مرحلة لاحقة بالتردد إلى بلاطهم كحسان بن ثابت ووالده قبله، وقيس بن الخطيم[١].

كذلك ربطتهم مع المناذرة في الحيرة صلة جيدة، وظهرت أيام النعمان بن المنذر الذي لقّب عمرو بن الإطنابة بملك الحجاز[٢].

ومع قريش كان لهم علاقات حلف وجوار ومصاهرة كذلك، فعبد المطلب بن هاشم كانت والدته سلمى النجارية[٣]. وكان سعد بن عبادة يجير تجارة لجبير بن المطعم بن عدي وللحارث بن حرب بن أمية ويمنع من أراد ظلمهم ببلاده[٤].

كذلك كانت علاقات المدينة مع القبائل المجاورة لها، علاقة حلف وجوار، وتجلى هذا خلال بعاث، فقد كانت مزينة حليفة الأوس وفزارة وأشجع حليفة الخزرج. أي أن علاقات المدينة خارج نطاقها الداخلي كانت علاقات سلمية تقوم على الحلف والجوار، لكن دون أن يكون لها أي نظام أشبه بالنظام السياسي ككيان.

٥- الحالة الاقتصادية:

إن طبيعة كل منطقة تفرض على سكانها نمطاً اقتصادياً يؤمّن لها احتياجاتها ويضمن لها الاستمرار في الحياة، فكما أن طبيعة مكة الصحراوية الجافة فرضت على أهلها الاشتغال بالتجارة، فقد أثرت أيضاً طبيعة المدينة، ذات الحِرار البركانية والأرض الخصبة والمياه المتوفرة، على قيام الزراعة فيها وجعلها واحةً في وسط الصحراء. كانت أشجار النخيل هي الظاهرة المرافقة لصفتها، فمن بدء ورود أخبارها على لسان الكاهنة طريفة ، ذكرتْ أنّ "من أراد الراسيات في الوحل والمطعمات في المحل فليذهب إلى يثرب ذات النخل"[٥]، أيضاً عند بدء ذكر الأقوام التي سكنتها، فقد كان أول ما قاموا به بعد الاستقرار هو زراعة النخل، وحفر الآبار واتخاذ الآطام[٦]، فالزراعة كانت عماد الحياة في المدينة، وشجرة النخيل كانت الأكثر ملاءمةً لظروفها، وكانت الجهات الشرقية والجنوبية الشرقية هي المناطق

[١] – بدر: التاريخ الشامل، ج١، ٩٨.
[٢] – ابن سعيد الأندلسي: نشوة الطرب، ج١، ص١٩٦.
[٣] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص١١٤.
[٤] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٠٧. الحلبي السيرة الحلبية ، ج٢، ص٢٠.
[٥] – ابن هشام: السيرة، ج١، ص. المقدسي: البدء والتاريخ، ج٤، ص١٢٢. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣١٦.
[٦] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٢.

الأكثر خصوبة من غيرها في المدينة، واعتمد سكانها على ري الأرض من مسيل الأودية التي تجري في المدينة، وكانوا في أيام الجفاف أو انخفاض المنسوب يعتمدون على الآبار والجمال النواضح التي تحمل المياه إلى هذه الأراضي لترويها[١]، وذُكر أنه كان لأحيحة بن الجلاح تسعةٌ وتسعون بعيراً كلها ينضح عليها[٢].

وعمل أهل المدينة على حماية أراضيهم من الاعتداء بأن أقاموا فيها الأطم، وأحاطوها كذلك بحائط يمنع دخول الحيوان والإنسان إليها، فأطلُق على هذه الأراضي تسمية الحوائط[٣]. فأحاطت بالمدينة هالة من الحوائط المغروسة بالنخيل، غرسها سكانها فصارت أهم موارد رزقهم وأساس أموالهم، فكانت تدفع منه الأجور وتسدد به الديون، يأكلون ويبتاعون به ويبيعون منه، وكان يستفاد من كل أجزائها، يأكلون ثمرتها وجمّارها، ويطعمون النوى منها للأبل بعد أن يرضخوها، كما يسقفون منازلهم بجريدها، وسوقها يقيمونها كأعمدة لمنازلهم، والمكاتل والقفف تصنع من خوصها، فكانت فوائد النخلة فوائدَ جمة[٤]. وقامت في مرتبة لاحقة زراعات أخرى تحت أشجار النخيل كان أبرزها زراعة الشعير[٥]، لسد حاجتهم إلا أنها لم تكن بوفرة النخيل.

وقامت في المدينة صناعة لتلبية احتياجات الحياة الضرورية واعتمد بعضها على ما قام فيها من الزراعات مثل صناعة الخمر من التمر والبسر وكانوا يسمونها الفضيخ[٦]. وكذلك صناعة ما تحتاج إليه الزراعة من أدوات ومستلزمات ضرورية مما توفر من البيئة عندهم، فصنعوا القفف والمكاتل (المقاطف) من سعف النخل، وصناعات خشبية استفادت من أشجار الغابة فيها[٧]، وكانت صناعة الأسلحة والدروع

---

[١] – اليعقوبي: البلدان، ص١٥١.

[٢] – الأصفهاني: الأغاني، مج١٥، ص٣٤.خربوطلي، (شكران): الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان ٥٥، ٥٦، ١٩٩٦م، ص٣٦، ٣٧.

[٣] – ابن منظور: لسان العرب، ج٧، ص٢٨٠، مادة (حوط). علي: المفصل، ج٧، ص٣١٤.

[٤] – الشريف: مكة والمدينة، ص٣٨٠.

[٥] – المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص١٩١.

[٦] – هو عصير العنب، وهو أيضاً شراب يتخذ من البُسر المشدوخ وحده من دون أن تمسه النار، والبسر هو التمر الأخضر قبل أن ينضج ويصبح رُطباً، وهو يسكر شاربه. ابن منظور: لسان، ج٣، ص٤٥، مادة (فضخ)؛ ج٤، ص٥٨، مادة (بسر).

[٧] – الشريف: مكة والمدينة، ص٣٩٩.

رائجة في المدينة، ومعظم صناعها من اليهود الذين اشتهروا بالصياغة[١]، وبصناعة الدروع المسرودة وقالوا أنهم ورثوا صناعتها عن النبي داود[٢]. كما كان للسهام اليثربية شهرة معروفة[٣].

واستلزم قيام الزراعة والصناعة في المدينة قيام التجارة فيها لتبادل هذه السلع والمنتجات، وقد ذكرت المصادر أسماء عدة أسواقٍ فيها مما يدل على قيام حركة تجارية فيها. سوق بزبالة من الناحية التي تدعى يثرب في الشمال الغربي من المدينة، وسوق بالجسر في بني قينقاع، وسوق العصبة في الصفائف بقباء وكذلك سوق مزاحم عند مساكن بني الحبلى عشيرة عبد الله بن أبي بن سلول[٤] . وسوق النبط الذي ذكر عند مرور هاشم بن عبد مناف بالمدينة[٥]. وكانت سوق بني قينقاع على ما يبدو هي الأكبر ويكثر فيها التعامل وكان له جلبة كبيرة لدرجة أن ناقة النابغة الذبياني عندما قدم إلى السوق كادت توقعه فقد هالها ما سمعته من أصوات[٦]، وقد اشتهروا بالصياغة وصناعة الحلي.

وكانت تقوم في هذه الأسواق ضروب وأنواع من البيوع يبدو أن لا رقابة تقوم عليها، والدليل على ذلك أن الإسلام نهى عن كثير منها لما فيه من أصناف غش وخداع، وسترد بالتفصيل لاحقاً.

كانت المدينة مقصداً لمن حولها من القبائل تأتي إليها للامتيار من تمرها وتصريف ما تنتجه أموالهم من إبل وغنم وخيل وصوف ووبر وسمن وأقط – أي جبنٍ – وغير ذلك[٧]. وورد ذكر عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله ﷺ عندما قدم إلى المدينة يمتار فيها تمراً فتوفي فيها[٨]. فالحركة التجارية داخل المدينة كانت نشطة.

---

[١] – الخزاعي، (علي بن محمد بن أحمد، ت٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م): تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م، ص٧١٤.

[٢] – ذكر أنه وجد في قرية زُهرة وحدها بين حرة واقم والسافلة وحدها ثلاثمائة صائغ كانت أعظم قرى المدينة، ابن زبالة: أخبار المدينة، ص٢٣٥. ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٣٥. ولفنسون: تاريخ اليهود، ص١٩. دراركة، (صالح موسى): العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين، الأهلية للنشر، عمّان، ط١، ١٩٩٢م، ص١٧٥.

[٣] – دراركة: العلاقات العربية، ص١٧٥.

[٤] – السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٢.

[٥] – ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٧٨، ٧٩. سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٣، ص٥٨. شراب، (محمد بن محمد حسن): المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠م، ص١٤٥. الأفغاني، (سعيد محمد): أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٠م، ص١٠٥.

[٦] – الأصفهاني: الأغاني، مج٢٢، ص٩١.

[٧] – إدريس: مجتمع المدينة، ص٢١٢، ٢١٣.

[٨] – سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٣، ص٤٢.

فيما يخص النشاط التجاري للمدينة خارج أسواقها، إن موقعها على طريق القوافل التجارية المكية ووجود اليهود ومنهم من يملك ثروة كبيرة، يجعل أمر مشاركتها بالرحلات التجارية و بالأسواق المحلية والموسمية التي كانت تقام أمراً غير مستبعدٍ بل ومرجحاً سواء بمنتجاتها المحلية أو بما يرد إلى ميناء الجار[١]، إلا أن دورها في التجارة الخارجية لم يكن بمستوى تجارة مكة ودورها، فاهتمام سكان المدينة بالزراعة وعملهم فيها، والانشغال بالاقتتال فيما بينهم أضعف أو قلل الاهتمام بشؤون التجارة على أهميتها.

وكان الرِّبا من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية في تلك الآونة، كان أهل الحجاز عموماً يتعاطون فيه بما فيهم سكان المدينة، وكان وسيلة من وسائل زيادة الثروات[٢]. فاليهود اختصوا بالربا ليس في المدينة فقط بل في كل المناطق التي وجدوا فيها[٣]، وكذلك العرب تعاملوا به فقد كان أحيحة بن الجلاح يبيع بيع الربا في المدينة حتى كاد يحيط بأموال قومه[٤].

إن النشاط الزراعي وطبيعة اقتصاد المجتمع في المدينة جعل مفهوم المال عند سكانها يختلف عنه في مجتمع آخر كمكة، فقد كانت أشجار النخيل والأراضي والآبار عند سكان المدينة هي أموالهم وبها تقدّر ثرواتهم[٥]، وبها يتم التعامل عن طريق المقايضة أكثر من التعامل بالنقد الذي يكثر التعامل به في مجتمع تجاري كمكة.

ومن خلال ما تم استعراضه يتبين أن المدينة لم ترتبط بمصدر واحد يهدد الاكتفاء الذاتي لديها كمكة، بل تراوح اقتصادها بين الزراعة في المقام الأول والتجارة في المقام الثاني، فضلاً عن بعض الصناعات اليدوية.

٦- الحالة الدينية لأهل المدينة:

كما انقسمت المدينة من الناحية السكانية بين عرب ويهود كذلك انقسمت من الناحية الدينية بين يهودية ومسيحية ووثنية وربما عناصر أخرى كالمجوس. يستدل على ذلك من الآية الآتية: ﴿ إن الذين

---

[١] - دروزة: عصر النبي، ص٨٣. الشريف: مكة والمدينة، ص٣٩٤. بيضون: الحجاز، ص٧٥.

[٢] - الشريف: مكة والمدينة، ص٣٩١.

[٣] - دروزة: عصر النبي، ص١٩٦.

[٤] - الأصفهاني: الأغاني، مج١٥، ص٣٤.

[٥] - السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٤.

آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾[١].

فالقبائل اليهودية حملت معها دينها واستقرت واستمرت عليه، وكان للنصارى جالية تسكن في مكان يقال له سوق النبط، لكن تأثير كل من اليهودية والمسيحية كان محدوداً. حيث كانت قبائل الأوس والخزرج مثل غالبية قبائل شبه جزيرة العرب وثنية، واختصت بتقديس وعبادة مناة، وتعظيم الكعبة وتقديسها والحج إليها، وتأثرها باليهودية لم يصل بها لدرجة الابتعاد عن عبادة الأصنام والتهود، فالقبائل اليهودية لم تعمل على نشر عقيدتها بين قبائل الأوس والخزرج، كما أن طبيعة العلاقة التي سادت بين الطرفين لم تشجع على وجود انحياز وميل إلى اليهودية، رغم إدراكهم أن اليهود أهل كتاب، فالتضارب الحاصل والخلافات جعلت أمر التأثير محدوداً في نقاط محددة، ولعل أبرزها كان بث فكرة نبي مبعوث كثيراً ما هددّ اليهود به العرب عند خلافاتهم معهم بأنهم سيقتلونه بقدومه قتل إرم وعاد[٢]. ورغم ما ربطتها من صلة مع الغساسنة، وقربها من الشام، فإنها لم تتأثر بالمسيحية كذلك الأمر لدرجة اعتناقها، فما شهدته تبعات اعتناقها من تبعات سياسية، ربما لم تشجع على اعتناقها.

تدرجت الحركة الدينية عند العرب قبل الإسلام وفي بيئة النبي ﷺ من بيئة وثنية مادية وقوى طبيعية، إلى وثنية غير مادية روحية خفية، إلى فكرة الله والاعتراف به إلهاً أعظم خالق الكون ومدبره مع إشراك آلهة أخرى معه مادية وغير مادية[٣]، لكنّ هذه المعتقدات كانت واهية الأساس، تغلب عليها البساطة، كانت تصدر عن تمسك بالعادة وبتقليد ما وجدوا أنفسهم عليه، واقتفاء بمن سبق، فهي عاطفة لا تستند إلى أساس عقلي ولا تقوم على مبدأ مقنع[٤]. اختص الأوس والخزرج بعبادة مناة[٥]،

---

١ – سورة الحج، الآية ١٧.

٢ – ابن هشام: السيرة، مج١، ص١٤٣. الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٦.

٣ – دروزة: عصر النبي قبل البعثة، ص٧١٧_ ٧١٩.

٤ – شامي، يحيى: الشرك الجاهلي، وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، ص٤٧، ٤٨.

٥ – مناة لفظة مشتقة من المنا والمنية وهو الموت أو القدر، ومنها منى، وهو موضع بمكة كان يمنى فيه أي يرق الدم فيه، وجاء بأنها من مناءة من النوء، وكأنهم كانوا يستمطرون بها، أي يدعون عندها من أجل نزول المطر إن أمسكت السماء. وكانت مناة من آلهة الموت والقدر عند البابليين وتعرف باسم ما مناتو، وكذلك من الأصنام المعروفة عند النبط. الزمخشري، (محمود بن عمرو بن أحمد، ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م، ج٤، ص٤٢٣؛ دروزة: عصر النبي، ص٥٥٦. سالم: تاريخ شبه الجزيرة، ص٤١٩.

وعظمت حرمته لديهم، ومناة هو أقدم الأصنام، كان منصوباً على ساحل البحر بين مكة والمدينة من ناحية المشلّل بقُديد[١]، تعظّمه العرب جميعاً وتذبح حوله. وكان الأوس والخزرج يذهبون إلى مكة للحج ويقومون بجميع طقوسه مع الناس، إلا أنهم لا يحلقون رؤوسهم إلاّ بعد خروجهم من مكة، فكانوا يأتونه ويقيمون عنده ويذبحون، لا يرون أن حجهم قد تم إلا بالمرور عليه بعد مكة[٢].

لم تشر المصادر بشكل صريح إلى وجود بيت لهذا الصنم، سواء في موقعه المحدد بالمشلل أو في المدينة، لكن يرجح البعض أنه كان له بيت بالمشلل، ولاسيما أنه ذكر له سدنة فمن غير المعقول وجود سدنة له دون بيت[٣]، فقد ذكر أن الغطاريف من الأزد كانوا يقومون على سدانته[٤].، إلا أنه بالمدينة فلا وجود إلى أي إشارة عن وجود أي بيت للعبادة، لكنّ أهل المدينة من الأوس والخزرج كانوا يتخذون في بيوتهم أصناماً[٥] يعظمونها ويطهّرونها، يصنعونها من الخشب[٦].

وكان للحج والعمرة مكانتهما لدى الأوس والخزرج كسائر قبائل العرب، فقد ورد أن من أراد العمرة وضع على باب بيته كرانف النخيل كي لا يتعرض أحد له حتى إن كان من أعدائه، هذا مؤشر على حرمة هذه الطقوس ومكانتها لديهم[٧].

وكما وجد في مكة فئة نبذت عبادة الأصنام والأوثان فقد وجد في المدينة أيضاً فئة تركت عبادة الأصنام واتجهت اتجاهاً آخر هو بين الحنفية والنصرانية، هي إلى التوحيد أقرب من أي فئة أخرى، فتشوا عن الدّين الصحيح وسألوا اليهود في مِدْراسهم، لم يتهودوا بل اعتزلوا ما كان شائعاً من عبادات، منهم

---

[١] – ذكر اليعقوبي أن مناة كان بفدك مما يلي ساحل البحر. تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٣٠٨. المفصل ج٦، ص٢٤٦. والغالب بين الروايات أنه بالمشلل.

[٢] – ابن الكلبي: كتاب الأصنام، ص١٣_ ١٥. الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص١٢٥. البكري: معجم ما استعجم، ج٣، ص١٠٥٥. شامي: الشرك الجاهلي، ص١٧٥_ ١٧٧.

[٣] – علي: المفصل، ج٦، ص٢٤٧.

[٤] – ابن حبيب: المحبر، ص٣١٦.

[٥] – الصنم ما كان معمولاً من خشب أو ذهب أو من فضةٍ على صورة إنسان، والوثن ما كان معمولاً من حجارة. ابن الكلبي: الأصنام، ص٥٣.

[٦] – ورد ذكر صنم عمرو بن جموح الذي اتخذه من الخشب وسماه مناة كما كانت الأشراف يصنعون. وكذلك سهل بن حُنيف الذي كان يكسر أصنام قومه ليلاً ويأخذ خشبها ويعطيها لامرأة مسلمة لتجعلها حطباً في موقدها. ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٠٨. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٤١٣، ٤٨٩.

[٧] – ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٩٩.

من أسلم بعد قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة ومنهم من تأخر إسلامه ومنهم من لم يسلم أبداً بل كابر ونافق وعادى، فذكرت المصادر: منهم سويد بن الصامت، الذي لقب بالكامل، وكان معه مجلة لقمان، وقابل رسول الله ﷺ في مكة ودعاه إلى الإسلام، وقيل أنه عندما قتل قبل بعاث في المدينة كان يسبح، والله أعلم[١].

ومنهم أبو قيس صرمة بن أبي أنس من بني عدي بن النجار[٢]، وكان رجلاً قد ترهّب قبل الإسلام، وفارق عبادة الأوثان، واغتسل من الجنابة، واعتزل الحائض من النساء، وهمّ بالنصرانية ثم أمسك عنها، وعَبَدَ اللهَ عز وجل على دينِ إبراهيم عليه السلام، ودخل بيتاً له اتخذه مسجداً، لا يدخل عليه فيه طامثٌ ولا جُنُبٌ، حتى قَدِمَ رسول الله ﷺ مهاجراً، فأسلم وهو شيخٌ كبيرٌ[٣].

ومنهم أبو قيس صيفي بن الأسلت عامر بن جشم بن وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة ابن مالك بن الأوس الشاعر الفارس، لم يكن أحدٌ من الأوس والخزرج أكثر وصفاً لدين الحنيفية ولا مساءلةً عنها منه، سأل اليهود عن دينهم، وسافر إلى الشام فنزل على الغساسنة فأكرموه ووصلوه، وسأل الرهبان والأحبار فدعوه إلى دينهم فامتنع، فقال أحدهم: إن كنت تريد دين الحنيفية فهو من حيث خرجت، ثم خرج إلى مكة معتمراً فبلغ زيد ين عمرو بن نفيل فكلّمه، فكان يقول: ليس أحد على دين إبراهيم إلاّ أنا وزيد بن عمرو بن نفيل، لكنّ إسلامه تأخر ثبّطه عبد الله بن أبي بن سلول، وتأخر إسلام قومه بنو واقف، وقيل أنه هرب إلى مكة وكان فيها مع قريش إلى عام الفتح [٤].

---

١ – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٢٨٧، ٢٨٨. ابن قدامة المقدسي: الاستبصار، ص٣٢٧. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٣٦٦. الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٧.

٢ – ابن الكلبي: نسب معد، ج١، ص٣٩٨. ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٥٨.

٣ – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٥٩. ابن قتيبة: المعارف، ص٦١. ابن عبد البر، (أبو عمر يوسف بن عبد الله، ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج٢، ص٧٣٧. ابن قدامة المقدسي: الاستبصار، ص٤٥. ابن الأثير، (علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م): أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ج٣، ص١٨.

٤ – ابن الأثير: أسد الغابة، ج٦، ص٢٥٠. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٣٨٨، ٣٨٩. العسقلاني، (أحمد بن علي بن حجر، ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): الإصابة في تمييز الصحابة، تح: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م، ج٧، ص٢٧٨. الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ١٥.

أبو عامر هو عبد عمرو بن صيفي بن النعمان ولقب بالراهب، كان يسأل اليهود عن الدّين، ثم ذهب إلى الشام فسأل النصارى فأخبروه بصفة رسولٍ سيُبعث، فرجع أبو عامر وادعى أنه على دين الحنيفية، وأقام مترهباً ولبس المسوح، وزعم أنه ينتظر خروج النبي، وقيل أنه كان وصّافاً لرسول الله قبل مبعثه، وعرف بأبي عامر الراهب. لكن لما قدم رسول الله ﷺ لم يؤمن به، وخرج من المدينة إلى مكة وانضم إلى المشركين ولقبه رسول الله ﷺ بالفاسق، وكان معه أفراد يتبعونه[1].

وذكر أن أبا الهيثم بن التيهان وأسعد بن زرارة، كانا يقولان بالتوحيد، ويتأففان من عبادة الأصنام قبل الإسلام، وهما من أول من أسلم في مكة قبل الهجرة من قومهم[2].

إن وجود مثل هذه الفئة مؤشر على تهيؤ الأذهان وتقبلها لفكرة الدين الصحيح، فكان رفضها لعبادة هذه الأصنام والأوثان تعبيراً عن ذلك، ولا شك أن لليهودية أثر في ذلك.

ومما سبق الحديث عنه تبين أن المدينة امتلكت مقومات طبيعية كان من الممكن أن تجعلها في مكانة وأهمية توازي مكة إن لم تتفوق عليها، سواء من حيث الموقع، والمناخ، ونشاطها الاقتصادي الذي اعتمد على الزراعة، وأمّن لسكانها مورد رزقهم بشكل متكاملٍ بين الزراعة، والصناعة، والتجارة، إلاّ أن عدم التجانس بين سكانها من يهودٍ وعربٍ، والروح الأعرابية التي ظلت مسيطرة على سكانها، وظهرت بين الأوس والخزرج في أيامهم التي اقتتلوا فيها، وافتقادهم لنظام يفرض سلطته عليهم ويجمع بينهم، كل ذلك حال دون أن يكون للمدينة أي دور خارج نطاقها. وعندما ظهرت الدعوة إلى الإسلام في مكة وانتشر أمرها بين القبائل، لم تكن المدينة غافلة عن ذلك، إلاّ أنّ حروبها في هذه المرحلة كانت قد اتخذت طابعاً عنيفاً وازدادت حدة، حيث تمت الإشارة إلى أن هذه الأيام بعد حرب حاطب كانت تدخل في نطاقها كل البطون، الأمر الذي لم يجعل رسول الله ﷺ يفكر بالخروج إليها كما فكر بالخروج إلى الطائف، والأمر الذي منع أوسها وخزرجها أيضاً من الخوض في شأنها مع العلم أنّ مثل هذه الأمور الدينية لم تكن خافية عنهم بحكم جوارهم لليهود. وفي الوقت نفسه هذه الأيام وما عانته المدينة من ويلاتها وخاصة في يوم بعاث جعلت الأوس والخزرج يدركون مساوئها وأثرها السيء على جميع الأصعدة، ويدركون افتقادهم إلى سلطة أعلى تجمع أمرهم وتوحدهم، وما كان اتجاههم إلى تتويج عبد الله بن أبي بن سلول إلا تعبيراً عن ذلك.

---

[1] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٤٢٣. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص١٣٢، وَ ج٣، ص٣٥٦.

[2] – ابن سعد: الطبقات، ج٣، ص٤٤٨.

الفصل الثاني
الدور الجديد للمدينة والتحول السياسي الحاصل فيها

أولاً: **التمهيد للدور الجديد:**

ثانياً: **الانتقال من يثرب البلدة إلى المدينة مدينة رسول الله ﷺ حاضرة دار الإسلام:**

١- التنظيم الداخلي في المدينة:

أ. بناء المسجد

ب. الصحيفة (دستور المدينة).

ج. التعامل مع العنصر المعارض من منافقين ويهود.

٢- التوجه خارج المدينة:

أ. استهداف قريش والضغط عليها لتغيير موقفها من الدعوة الإسلامية.

ب. سرايا الشمال

أولاً: التمهيد للدور الجديد:

تتضمن هذه المرحلة ما حصل في مكة من لقاءات بين رسول الله ﷺ وبين أفراد من الأوس والخزرج، ثم بينهﷺ وبين وفود وممثلين منهم عن سكان يثرب، حتى تمت الخطوة العملية التي انتقلت فيها يثرب من بلدة هامشية إلى مدينة رسول الله ﷺ وحاضرة الدولة الجديدة الناشئة، الأمر الذي لم يحصل لولا المعاناة والشدائد والصعاب التي قاسى منها المسلمون الأوائل في مكة، وعانى من ضغوطها الأوس والخزرج في يثرب قبيل الإسلام وأثرت سلباً على حياتهم وأنهكتهم.

١- بيعتا العقبة الأولى والثانية:

يرى بعض المفكرين السياسيين بأن المجتمع هو ترابط عقلي بين الأفراد قبل أن يكون جواراً محلياً أو تعاقداً اجتماعياً فحسب، وهذا الترابط العقلي هو الذي يوحّد هؤلاء الأفراد ويجعل منهم كتلة واحدة، الأمر الذي توافر عند المسلمين الأوائل في مكة وجعلهم قوة منشقة عن مجتمع مكة قبيل الإسلام[١]، الأمر نفسه افتقدته يثرب بين المجموع العام لأفرادها في هذه المرحلة، وربما وُجد في التجمعات الصغيرة ضمن العشيرة الواحدة لكنه لم يتوافر بين القبيلة بمختلف عشائرها ككل أي الأوس ككل أو الخزرج ككل، وهذا الذي جعلها دائمة الصراعات والخلافات، التي وصلت قبيل الإسلام إلى حدٍّ متطرف كادوا يقتلون بعضهم كلياً ويفنون يوم بعاث، مما جعلهم يدركون الحاجة الملحة إلى إنهاء هذه الحال، وإيجاد مخرجٍ لما كانوا يعيشونه، فتهيأت الأذهان من رحم معاناتهم إلى ضرورة تبديل هذا الوضع، وكان اليهود قد مهّدوا لفكرة نبيٍّ سيبعث عن قريب.

وتحدثت المصادر عن اللقاء الأول مع رسول الله ﷺ والذي لم ينتج عنه أي أثر، وذلك لأن الخلافات كانت في ذروتها آنذاك بين الأوس والخزرج وكان التحضير للمعركة الحاسمة جارياً[٢]، وحصلت بعدها بعاث، وأُنهك الطرفان بشرياً واقتصادياً، واستمرت العداوة وتحكمت الأحقاد والثارات في النفوس، وتجلى ذلك عندما التقى نفرٌ ستةٌ من الخزرج برسول الله ﷺ واستمعوا إلى دعوته لهم إلى الإسلام وقد لاقت الدعوة صدىً في نفوسهم وطمأنينةً في قلوبهم، فأسلموا لله، ووعدوا رسول الله ﷺأن

[١] – العربي، (محمد ممدوح): دولة الرسول في المدينة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ص١٤٨.

[٢] – تذكر المصادر قدوم هذا الوفد إلى مكة لطلب العون من قريش ضد الخزرج، قبيل بعاث. ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥٩٩. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ٣٨٥.

يبلّغوا قومهم ويدعوهم إلى الإسلام عسى الله أن يجمعهم عليه، فلم يكن بين قومٍ من العداوة والبغضاء مثل ما كان بين الأوس والخزرج في حينها، وانصرفوا عائدين إلى قومهم، حدّثوهم عن الإسلام ودعوهم إليه، فلم تبقَ دارٌ من دورهم إلاّ وفيها ذكر رسول الله ﷺ والإسلام[١].

لم تكن قضايا الوحي والنبوة والبعث والجنة والنار غريبة عن الأوس والخزرج بحكم جوارهم لليهود، الذين كثيراً ما كانوا يهددونهم عندما تقوم بينهم خلافات بنبيٍّ سيُبعث منهم، ويقتلونهم معه قتل إرم وعاد، وكان لهذا تأثيره على أذهانهم وتهيئتها لتقبل هذه الأفكار والقضايا أكثر من سواهم[٢].

بدأت الدعوة في يثرب تأخذ حيزاً بين سكانها، حتى كان العام التالي للقاء الأول، فخرج الحجاج إلى مكة، وخرج من كان قاصداً لقاء رسول الله ﷺ والاستماع إليه للدخول بالإسلام، وكانوا اثنا عشر رجلاً، عشرة من الخزرج واثنان من الأوس[٣]، التقوا برسول الله ﷺ وأسلموا وبايعوه عند العقبة، حسب قول عبادة بن الصامت على أن " لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف" [٤]. فالالتزام في هذه البيعة كان على التوحيد، وتنفيذ أحكام أخلاقية محددة ذات فائدة لاستقرار المجتمع، ولا تنافي المبادئ العامة المتعارف عليها[٥]. بالإضافة إلى بدء اشتراك الحيين أوس، وخزرج برابط جديد غير رابط النسب، وهو رابط العقيدة، الذي بدأ تأثيره يظهر لاحقاً وبشكل تدريجي في إخماد الخلافات ونسيان رواسب الماضي، وتقديم الصالح العام على المصالح الفردية.

تحدثت المصادر عن إرسال مصعب بن عمير إلى المدينة حتى يفقههم في دينهم ويقرئهم القرآن ويعلمهم مبادئ الإسلام، بغض النظر أكان هذا بمبادرة من رسول الله ﷺ أو بطلب من الأوس والخزرج

---

[١] – ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢١٧، ٢١٨. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٩٥.

[٢] – ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص١٤٢_ ١٤٤.

[٣] – من الخزرج كان أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا عفراء، وذكوان بن عبد قيس ورافع بن مالك، وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة، وعباس بن عبادة بن نضلة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر. ومن الأوس أبو الهيثم بن التيهان من بلي حليف بني عبد الأشهل، وعويم بن ساعدة. ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢١٩. البلاذري: أنساب، ج١، ص٢٧٦.

[٤] – ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٢٩٢؛ البخاري: صحيح، ج١، ص١٢، رقم ١٨..

[٥] – العلي: دولة الرسول في المدينة، ص١٨.

لأنهم كرهوا أن يؤمّ بعضهم بعضاً، وكان لشخصية مصعب وأسلوبه أثر كبير في نشر الدعوة والإقناع بها، ويظهر هذا من قصة إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير اللذين قدما يتهددان ويتوعدان مصعباً فرجعا إلى قومهما مسلمين، وأسلم إثر إسلام سعد بن معاذ كل بني عبد الأشهل(١).

وهكذا بدأت الدعوة تشق طريقها في المدينة، وقد لاقت مكاناً رحباً فضفاضاً، وأناساً آمنوا وصدقوا بها، ولم تتعرض لمحنٍ وأخطارٍ، أو مقاومةٍ كما تعرضت له في مكة في بداياتها، على الرغم من استمرار وجود الشرك بين فئة كبيرة من سكانها، إلى جانب اليهود.

كثُر عدد الذين أسلموا من الأوس والخزرج وأرادوا لقاء رسول الله ﷺ، فخرجوا كمن سبقهم في موسم الحج وكانوا هذه المرة سبعين رجلاً يزيدون رجلاً أو اثنين(٢)، وهذا العدد في هذه المرحلة المبكرة من دخول الدعوة إلى المدينة يعد كبيراً نسبياً، مقارنةً بعدد المهاجرين إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وكانوا حوالي ثمانين مهاجراً، ويزيدون قليلاً(٣).

كان مصعب بن عمير قد سبقهم في الخروج إلى مكة، فعلى ما يبدو أن مهمته قد انتهت، وأن سبب إرساله قد تم وانتهى، ومن المرجح أنه نقل إلى رسول الله ﷺ كل ما حدث معه وشاهده، وأخبره بحقيقة الوضع في يثرب وتطور الاستجابة للدعوة، فكان رسول الله ﷺ عند وصول الوفد الجديد من الأوس والخزرج في هذا الموسم على علم واطلاع بأوضاعهم وأحوالهم، ومدركاً تماماً لمدى جديتهم في قبول الدعوة و كذلك قبول المسلمين.

واعدهم رسول الله ﷺ عند العقبة في نفس مكان البيعة السابقة، في منى، أواسط أيام التشريق ليلة النفر الأول، وأوصاهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً، فخرجوا يتسللون حتى وصلوا المكان المحدد وكان رسول الله ﷺ قد خرج يرافقه أبو بكر، وعلي بن أبي طالب(٤)، وتضيف المصادر خروج عمه

١ – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص ٣٧٦_ ٣٨١.

٢ – ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢٢١.

٣ – السهيلي: الروض الأنف، ج٣، ص٢١٣. ابن الجوزي، (عبد الرحمن بن علي بن محمد، ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج٢، ص٣٧٧.

٤ – المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٤٥.

العباس بن عبد المطلب للاستيثاق له[1]. تم اللقاء وتحدث كل طرف منهم واستوثق لنفسه من الآخر، فبايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يخافون في الله لومة لائم، وأن يمنعوا رسول الله ﷺ إذا قدم عليهم مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، ولهم الجنة في ذلك. وكان الأوس والخزرج مدركين تماماً ما تعنيه البيعة من مفارقة العرب كافة ومحاربتهم، فاستوثقوا من رسول الله ﷺ إن أظفره الله بالبقاء بينهم ومعهم، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: "بل الدم الدّم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم". فبايعوه وطلب منهم أن يخرجوا منهم اثني عشر نقيباً يكونون كفلاء على قومهم، فأخرجوا منهم اثني عشر: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وبعدها طلب منهم الانصراف لئلا ينكشف أمرهم[2].

وهكذا اشترك كل من الأوس والخزرج في البيعة، وتحمل المسؤولية فجعلتهم الطرف المستقبل للدعوة وللمسلمين، أي في صف واحد فبدأت ملامح تطور في يثرب سيرتقي بها إلى مستوى حضاري أرفع مما كان لأحد أن يتصوره. لقد ضمنت البيعة للرسول ﷺ قاعدة جديدة يتكون سكانها من عشائر متعددة غير موحدة، وهي تفتقد إلى سلطة مركزية وتنظيم سياسي عام وزعيم يجمع شملها وينظم أمورها، وهذه القاعدة كانت بعيدة عن النفوذ الاقتصادي والاجتماعي القرشي، لم يكن لها مع مكة خصومات

[1] – جل المصادر التي تورد خبر مرافقة العباس لرسول الله ﷺ هي مصادر عباسية، دونت بعد استلام العباسيين للخلافة، وفي مقدمتهم ابن إسحاق، الذي دوّن السيرة بعد طلب الخليفة العباسي المنصور منه ذلك لابنه المهدي، وأجرى تعديلاً عليها، وافق ما أراد المنصور إظهاره من أحداث في السيرة تبرز وتظهر دور العباس فيما يتعلق بنصرة الإسلام لتثبيت شرعية حكم العباسيين، وتمهيداً لإحلال فكرة الوصي عندهم. وهنا يمكن القول بأن لو أراد رسول الله ﷺ أن يصحب معه أحداً سوى أبو بكر وعمر وعلي، فالأجدر أن يصحب معه مصعب بن عمير الذي كان قد أرسله إلى المدينة، مقرئاً لأهلها ومعلماً لهم مبادئ الإسلام، فمعرفته بهم أصبحت ولا شك أوثق من معرفة العباس لهم. وقد وصلت بردية من مغازي وهب بن منبّه تذكر أن العباس انضم للمجتمعين انضمام، أي أنه لم يخرج مرافقاً لرسول الله كما ذُكر في بقية المصادر، وهذه البردية هي من الموارد القليلة جداً التي كُتبت عن السيرة في العصر الأموي ووصلت، وهي على درجة كبيرة من الأهمية. وقد وردت كاملة عند: زكار، (سهيل): التأريخ عند العرب، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص٣٠_ ٣٧.

[2] – ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٣٠٠_ ٣٠٢. البستي، (محمد بن حبان، ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م): السيرة النبوية، دار الكتب الثقافية، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م،ص٦٥. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٥٣_ ٥٥.

أو اشتباكات، وهذا كان سبباً في عدم محاولة أهل مكة إجبار أهل يثرب على إبطال بيعة العقبة أو عدم قبول المسلمين فيها[١].

وعاد الوفد دون شخص مُرسل من قبل رسول الله ﷺ معهم مكلف بأمور الدعوة فهم أصبحوا أهلها ولم يعودوا بحاجة إلى شخص معهم، وخاصة بوجود النقباء من الأوس والخزرج الذين ولاشك شغلوا دوراً معيناً وكان لهم تأثير في انتشار الدعوة بين من تبقى من قومهم حتى قدوم رسول الله ﷺ والمهاجرين.

كانت هذه البيعة مع سابقتها بمثابة حجر الزاوية في بناء الدولة العربية الإسلامية، فقد وضعت الأسس لإقامة دولة أمة جديدة في يثرب، تحدد فيها ما هو مطلوب من أهالي يثرب من الدفاع عن الرسول ﷺ واستقبال المهاجرين، وتضمنتا العهود المتبادلة بين طرفي البيعة[٢].

٢- الهجرة إلى المدينة:

أذِن بعد ذلك رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة والانتقال إلى يثرب[٣]، وأوصاهم بالخروج خفية وعلى مراحل و دفعات حتى لا يثيروا قريشاً فتمنعهم وتحول بينهم وبين الخروج، وبدأ المسلمون يخرجون فرادى ومجموعات ليست بالكبيرة، لما تنبهت قريش لذلك حاولت منعهم بطرق مختلفة لكنها لم تحل دونها أو توقفها، فمنعت بعضهم من الخروج بأمواله كما فعلت مع صهيب بحجة أن ماله أصابه في مكة وقبله لم يكن معه مال[٤]، وبعضهم منعته من الخروج بعائلتهم كما فعلت مع أبي سلمة الأسدي وزوجته

---

١ - العلي: دولة الرسول ﷺ، ص٧٨.

٢ - طالب، (محمد سعيد): الدولة العربية الإسلامية، الدولة والدين،د.ن، دمشق، ط١، ١٩٩٧م، ص١٤٢.

٣ - تشير نصوص الحديث إلى أن اختيار المدينة كان بوحي إلهي، كما في الحديث "رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب"، وكذلك الحديث " إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين". وكأن النبي أري دار الهجرة بصفة تجمع المدينة وغيرها، ثم أري الصفة المختصة بها فتعينت. البخاري: صحيح، ج٥، ص٥٦، رقم ٣٨٩٧. صحيح مسلم، ج٤، ص١٧٧٩، رقم ٢٢٧٢. العمري، (أكرم ضياء): السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٦، ١٩٩٤م، ص٢٠١.

٤ - ابن سعد: الطبقات، ج٣، ص٢٢٧. ابن شبة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٤٧٩. العمري: السيرة الصحيحة، ص٢٣٥.

أم سلمة وابنهما[١]، واحتالت وفتنت بعضاً منهم كما حدث مع عياش بن أبي ربيعة المخزومي، الذي احتالوا عليه واستطاعوا إقناعه بالرجوع إلى مكة بعد وصوله إلى يثرب[٢]. وتتابع الناس حتى لم يبق في مكة غير رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ومن أُكره ومُنع من الخروج[٣].

كان رسول الله ﷺ في وقت مضى قد سمح للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة وبقي هو في مكة واستمر بأمر الدعوة[٤]، لذا لم يكن أمر انتقاله إلى يثرب محتوماً بالنسبة لقريش، التي ما إن تنبهت إلى حقيقة الوضع، وهجرة غالبية من أسلم إلى يثرب، وبقاء رسول الله ﷺ بمعزل عن أصحابه لا حامي له، حتى قرروا الغدر به وقتله. فاجتمعوا في دار الندوة، واتفقوا على أن تشترك عشائر قريش في ذلك حتى يضيع دمه بينها، ولا يقدر بنو هاشم على محاربتهم مجتمعين. فأوحى الله إلى نبيه بالخروج إلى يثرب، فكان خروجه ﷺ برفقة أبي بكر الصديق، وعامر بن فهيرة غلام أبي بكر، وكذلك دليلٍ كان لا يزال مشركاً استأجراه هو عبد الله بن أُريقط الديلي الليثي، تاركاً خلفه علي بن أبي طالب حتى يؤدي الأمانات إلى أهلها[٥].

وعندما علمت قريش بنبأ خروج رسول الله ﷺ لم تدخر جهداً بالبحث عنه وترغيب الناس بالإمساك به وتسليمه لهم فجعلت لمن يأتي برسول الله ﷺ وأبي بكر أو يقتلهما مائة ناقة[٦] ، وحاولت

---

[١] – البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٠٤. العسقلاني: الإصابة، ج٨، ص٤٠٤.

[٢] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٢٧. الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢،ص٢٤، ٢٥.

[٣] – ورد ذكر أسماء المهاجرين إلى المدينة في المصادر، ويمكن القول بأنهم لم يتجاوزا مئة شخص، ورد اسم تسع وخمسين رجل، وتسعة نسوة، بالإضافة إلى عشرين راكب مع عمر بن الخطاب، وعدد من المهاجرين مع عبد الرحمن بن عوف. ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٢٢_ ٣٣١؛ ؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١، ص٢٠١_ ٢٠٤.

[٤] – قد يتبادر إلى الذهن تساؤلٌ عن سبب عدم انتقال رسول الله ﷺ أو هجرته إلى الحبشة مع المسلمين آنذاك؟ فالحبشة آنذاك كانت بعيدة إلى حد ما عن مكة ونفوذ قريش التجاري مقارنة مع بقية مناطق شبه الجزيرة العربية، إلاّ أنها كانت تدين بالمسيحية، صحيح أن لذلك كان أثرٌ إيجابي في استقبال النجاشي للمهاجرين ومنع قريش من الوصول لهم وإيذائهم، إلا أنّ قضية انتقال رسول الله ﷺ في تلك الآونة من الدعوة إلى الإسلام كان سيسبب لغطاً واختلاطاً وسيتم الحديث حينها عن مرحلة إسلامية ظل الكنيسة القبطية، والإسلام دين الحنيفية ودين الفطرة الخالصة التي جاءت لتنفض كل ما علق بالديانات الأخرى من شوائب ودخل إليها من مغالطات.

[٥] – السهيلي: الروض الأنف، ج٤، ص١٧٥_ ١٨٣، ١٨٥.

[٦] – البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٣١٠.

تتبع أثرهما ولم تنجح محاولاتها، وتروي مصادر السيرة أخبار ذلك بالتفصيل[1]، إلا أنها لا تعطي أية إشارة تبين حدوث اتصال بينها وبين أفراد من يثرب للحيلولة دون استقباله مثلاً أو للقيام بأي عمل يمنع استقراره والمهاجرين في يثرب، وهذا يشير إلى أن مكة لم يكن لها نفوذ أو سلطة في يثرب كما كان لها في الطائف مثلاً وعند قبائل أخرى.

انتظر المسلمون قدوم رسول الله ﷺ، وكانوا قد نزلوا بالعُصْبة وهو موضع بقباء جنوب المدينة، وكانوا يخرجون لانتظاره كل يوم بعد وصولهم نبأ خروجه إلى المدينة، حتى كان اليوم الموعود، أطل عليهم برفقته أبي بكر، ودخل المدينة من جهة قباء في الجنوب، مكث في قباء بضعة أيام[2]، وخرج بعدها على ظهر ناقته حتى استقر به المقام في جوف المدينة، في بني النجار.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الهجرة إلى المدينة لم تتوقف بوصول رسول الله ﷺ إليها بل بقي شرط الهجرة واجباً على كل من يدخل في الإسلام في هذه المرحلة من تاريخ الدعوة الإسلامية وبناء الأمة، يقول تعالى في كتابه العزيز ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[3] وقد نزلت هذه الآيات في أناس دخلوا في الإسلام ولم يهاجروا وقد كان في قلوب بعضهم شك ونفاق، وغيرهم كانوا مستضعفين لم يستطيعوا الخروج، فاستحق بقاؤهم وعدم هجرتهم مغفرة من الله وتوبة عليهم[4]،واستمرت الهجرة شرط في الدخول بالإسلام حتى فتح مكة، مع وجود بعض الاستثناءات التي أعطاها ﷺ لبعض من كانت لهم ظروفهم التي تحول دون ذلك. لقد كان عدد المسلمين قليلاً نسبياً ومقصوراً على المدينة وما يجاورها، كما كان المسلمون مهددين بكثير من الأخطار،

---

[1] – ابن هشام: السيرة النبوية، ص٣٣٢_ ٣٤٢. الظاهري، (أبو تراب): الأثر المقتفى لقصة هجرة المصطفى، دار القبلة، د.م، ط١، ١٩٨٤م، يتضمن مادة مهمة عن الهجرة النبوية.

[2] – قيل مكث رسول الله ﷺ ثلاثة أيام عندهم وخرج بعدها. ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٣٤٤. الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٥٩. الفيروز أبادي: المغانم، ص٣٢٧. وقيل بل مكث بضع عشر ليلة. ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٥٤.السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ٤٤١.

[3] – سورة النساء، الآيات ٩٧_ ٩٩.

[4] – الثعلبي، (أحمد بن محمد بن إبراهيم، ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م): الكشف والبيان عن تفسير القرآن،تح: أبو محمد عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ج٣، ص٣٧١، ٣٧٢.

فكان لابد من طلب الاستقرار من المسلمين في المدينة ليكونوا أقرب إلى رسول الله ﷺ ويستطيعوا الاستجابة بسرعة لما تقتضيه الظروف من قتال للدفاع عن الإسلام أو خدمته، كما أن السكنى في المدينة مع الرسول ﷺ والمسلمين تساعد على تفهيم المسلمين الجدد مبادئ الإسلام ومتطلباته، ويساعد على سرعة وعمق توجيههم الفكري الذي هو أساسي في الإسلام[1].

وهكذا انتهت المرحلة المكية من مراحل الدعوة الإسلامية وبدأت المرحلة المدنية التي كانت مرحلة تأسيس وبناء الدولة، وتنظيم أمور الحياة على كافة الأصعدة. وشكّلت سنوات اللقاء بين رسول الله ﷺ وبين الأوس والخزرج قبيل الهجرة، وعقد البيعتين مرحلة الانتقال بالإسلام من الدعوة إلى بناء دولة وأمة، وكذلك بالنسبة ليثرب انتقال من نمط حياةٍ مليءٍ بالصراعات والخلافات نتيجة الأطماع والأهواء إلى نمطٍ ذابت فيه هذه الصراعات وانتظمت القواعد وسادت فيها روح واحدة لا مطامع ولا أحقاد تبدد طاقاتها. فبدأ يتشكل بين مختلف عناصر المجتمع في يثرب ترابطٌ لم يكن موجوداً بينهم، وكان قد وُجِدَ وجَمَعَ بين المسلمين الأوائل في مكة، وجعل منهم كتلة منفصلة عن جسم مكة ومجتمعها، هذا الترابط جمع الأوس والخزرج مع المهاجرين، وجعل منهم كتلة واحدة متجانسة أدت إلى قيام مجتمع متماسك ومنسجم، فتحولت المدينة نتيجة لذلك من بلد زراعي بسيط إلى مدينة بدأت فيها مقومات المركز الحضاري بالتجمع فيها حيث بدأت أمورها تنتظم وتتشابك لتكون البديل الحضاري والاقتصادي عن مكة.

كانت هذه اللقاءات المتعددة من قبل رسول الله ﷺ مع أفراد الأوس والخزرج، والتمهل في الخروج إلى ما بعد التأكد من سلامة الوضع في المدينة –يثرب–، ووجود مسلمين قادرين على تحمل تبعات هذه القضية كانت ضرورية جداً، فأي إخفاق في هذا الصدد هذه المرة كانت نتائجه ستكون كارثية على الإسلام والمسلمين، وكانت تجربة الطائف ولا شك ماثلة في ذهن رسول الله ﷺ، ولم يشأ تكرارها، فبدأ الدعوة لأفراد قلائل، ثم أرسل موفداً من قبله يوضح لسكان المدينة – يثرب– مبادئ الإسلام، ويقرئهم القرآن، ويضمن وجود أنصار للإسلام والمسلمين، ثم من خلال بيعة العقبة الثانية ضمِن مساعدتهم له واستقبالهم ودفاعهم عن الإسلام، فتهيأت أرضية مناسبة لاستقبال الإسلام والمسلمين وحمايتهم والدفاع عنهم.

[1] – العلي: دولة الرسول، ص٨٢.

ثانياً: الانتقال من يثرب الحاضرة إلى المدينة مدينة رسول الله ﷺ ومركز الإسلام:

بدأت يثرب عصراً جديداً بوصول رسول الله ﷺ إليها واستقرار المسلمين فيها، لقد أصبحت مقصداً لكل راغبٍ في الإسلام، الأمر الذي أضاف إلى سكانها تنوعاً، كان من المحتمل أن يُحدِث فيها شيئاً من الفوضى أو الاضطراب، إلاّ أنّ وجود رسول الله ﷺ والدور الذي شغله في جمع الناس حوله، وما قام به من خطواتٍ وإجراءاتٍ فيها أدى إلى تكوين شخصية مختلفة كل الاختلاف عما عُرفت به يثرب، أصبحت يثرب مدينة رسول الله ﷺ ومدينة الإسلام والمسلمين وملتقى لهم، جمعتهم إرادةٌ واحدةٌ هي عبادة الله عز وجل، ونشر الدعوة بحرية وأمان، فكانوا في سبيل هذا الأمر رهن إشارة رسول الله ﷺ، سواء من المهاجرين أو من الأوس والخزرج دون فرق، طائعين لأوامره التي تعبر عن إرادة الله سبحانه وتعالى.

تحولت يثرب في حياة رسول الله ﷺ من البلدة الهامشية ذات الصراعات المستمرة إلى مدينة هي عاصمة الدولة الناشئة، والتي لم يعد لهذه الصراعات وجود بها، بل وانتظمت الحياة فيها حتى تفوقت على مكة وغيرها من الحواضر الموجودة آنذاك كالطائف واليمامة، وامتلكت سلطةً ونفوذاً على مختلف القبائل المجاورة منها والبعيدة، لكن هذا لم يحصل دون أعمالٍ وإجراءاتٍ قام بها رسول اللهﷺ داخل المدينة وخارجها.

وبداية العهد الجديد كانت مع اسم جديد ألغى الاسم القديم، بل وعدّ النطق به ذنباً يستوجب الاستغفار، وفق قوله ﷺ "من سمّى المدينة يثرب فليستغفر الله هي طابة، هي طابة"، وكذلك قوله ﷺ"من سمّى المدينة يثرب كُتبت عليه خطيئة"[1]، فهي مدينة رسول الله ﷺ طيبة وطابة، سميت بذلك لطيب أمورها كلها وطيب رائحتها[2]. وللأمر دلالته التي تشير إلى بدء عهد جديد يختلف عما سبق،

[1] – ابن شبة: تاريخ المدينة، ج١، ص١٦٥؛ المطري: التعريف، ص١٦؛ العسقلاني، (أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٩م، ج٤، رقم ١٨٧١، ص ٨٧.

[2] – الثعالبي، (عبد الملك بن محمد أبو منصور، ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م): ثمار القلوب في المضاف والمنصوب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص٥٤٩؛ ابن الحسين المنجم، (إسحاق، توفي في القرن ٤هـ/ ١٠م): أكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، باعتناء فهمي سعيد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٢٩؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٦٥. و ص٧٧.

وعن مرحلةٍ انتقلت بيثرب من الحاضرة النائية إلى حاضرة الدولة الجديدة وعاصمتها التي أصبحت مستقراً ومقصداً لكل المسلمين، وكذلك اسماً جديداً جمع بين الأوس والخزرج وعدّهم أنصاراً لله ورسوله.

١ – التنظيم الداخلي في المدينة:

على الصعيد الداخلي أدرك رسول الله ﷺ خصائص المدينة وما عانته من مشاكل، فقام بإجراءات قرّبت الفئات التي سكنتها، وزادت من ترابطها بموجب الإسلام، كما نظّم العلاقة بينها، حيث استطاع وضع لبنات التكافل الاجتماعي فيها، على أساس المبادئ الإسلامية ومن واقع تفهمه للبنية القبلية للمجتمع العربي بصورة عامة، فعزّز وحدتها الداخلية، وزاد من تماسكها، وعمل بعدها على حمايتها من أي اعتداء، والضرب على أيدي المعتدين، مما مكنه من فرض سلطته على القبائل خارج المدينة، وأبرز هذه الإجراءات كانت اتخاذ مكان يكون مركزاً في المدينة، كدار الندوة في مكة، فكانت الخطوة الأولى في البناء الداخلي هو بناء النواة التي تصدر منها جميع الأوامر والقرارات، وتعرض فيها كافة الأمور، وشكّل المسجد النبوي الشريف هذه النواة، وبخطوة موازية تم دمج فئات السكان ضمن إطار المسلمين بصورة عامة في أمة واحدة، وتنظيم العلاقة بين المسلمين داخل المدينة وخارجها بالصحيفة التي أصدرها فكانت بمثابة العقد الذي شرّع سلطته ﷺ ونظّم الوجود اليهودي في المدينة وعلاقته بالمسلمين، وكذلك العلاقة مع قريش وكل من يحالفها. فاجتمعت العناصر التي جعلت من المدينة نواة دولة ما لبثت أن توسعت فيما بعد وشملت أرجاء شبه الجزيرة العربية وانطلقت بعدها لتواجه أقوى إمبراطوريتين آنذاك.

أ – بناء المسجد:

خرج رسول الله ﷺ من قباء بعد عدة أيام من المكوث فيها واستقبال الناس بها[1]، وكان قد نزل على كلثوم بن الهدم، وحدّث الناس في منزل سعد بن خيثمة، واستقبل من أتاه من الوفود، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار أخواله[2]، فجاؤوه متقلدين السيوف، وخرج وهم محيطون به ومعهم المهاجرون، على ظهر ناقته ماراً بأحياء الأوس والخزرج، حتى استقر به المطاف في جوف المدينة في بني النجار، فبركت

---

[1] – بعض المصادر ذكرت بقاءه بضع عشرة ليلة. ابن النجار، ص٥٤. والبعض ذكر إقامته ثلاثة أيام فقط. ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٣٤٤.

[2] – لأن هاشم بن عبد مناف كان قد تزوج سلمى من بني مازن بن النجار، وأنجبت له عبد المطلب، جد رسول الله ﷺ. السهيلي: الروض الأنف، ج١، ص٢٦٦.

ناقته القصواء وأرخت جِرانها، وكل من مرّ بهم من أحياء الأوس والخزرج دعوه للمقام عندهم ووعدوه المنعة والنصرة، فيعلل عدم المقام، بأنه أُمِرَ بقرية تأكل القرى[١]، وإذا ما أمسكوا بزمام الناقة يقول لهم: خلّوا زِمامها فإنها مأمورة[٢]، وهكذا أكمل رسول الله ﷺ سيره حتى مرّ ببني عدي بن النجار، أخواله، حتى وصل إلى بني مالك بن النجار، عندها بركت الناقة، فنزل عنها رسول الله ﷺ وقرر المقام عندهم وقال: "هذا المنزل إن شاء الله"[٣].

وهكذا نزل رسول الله ﷺ في جوف المدينة التي أصبحت الآن هي المركز الذي تدور حوله مختلف الأحياء، وإليها تنتهي جميع الطرق. إن اختيار رسول الله لموقع المسجد بعد مروره على منازل الأوس والخزرج، وبعد مكوثه عدة أيام في قباء، التي تميزت بكثافة في السكان تفوق الموقع الذي وقع عليه اختيار رسول الله ﷺ، وبعد اطلاعه على طبيعة وخصائص هذه المنازل عموماً، لم يكن سببه فقط بروك الناقة، بل إنه عليه الصلاة والسلام، أراد من المكان المختار أن يكون النواة التي ستتوسع أحياء المدينة حولها، وتنتهي إليها كل الطرق، وتكون في منطقة مناسبة ذات خصائص موائمة وملائمة للمهمة المعدة لها، بأن تكون المركز الذي يحقق توازناً في النمو المرتقب، وكذلك يكون مؤهلاً لتحمل الوظائف المتعددة التي سيتولى زمامها، وذلك دون وجود عوائق طبيعية، أو اجتماعية، تمنع ذلك.

لم يكن ممكناً البقاء في الجنوب عموماً من المدينة، وفي قباء خصوصاً، فقباء كانت من أكثر جهات المدينة اكتظاظاً بالسكان، مما يعني أنها لا تحتمل زيادة كبيرة، بالإضافة إلى أن مجاورة اليهود جنوباً، لم يكن عاملاً مشجعاً لذلك، كما أن العوامل الجغرافية، وطبيعة تكوين الأرض كانت غير مناسبة للتوسع السكاني المرتقب. بينما كانت مثل هذه العوائق غير موجودة أو ذات تأثير قليل جداً في جوف المدينة، وكانت أكثر قدرة على استيعاب توسع سكاني جديد، مما جعلها أكثر ملاءمة[٤].

---

[١] – أي يغلب أهلها بالإسلام على غيرها من القرى، وينصر الله دينه بأهلها ويفتح القرى عليهم ويغنّمهم إياها فيأكلونها. ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٢٣، مادة (أكل). وقد يكون المقصود بذلك تكاثر سكانها وتوسع خططها على ما حولها. إدريس: مجتمع المدينة، ص١٦٧، الحاشية رقم (٥).

[٢] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص ٤٤٤.

[٣] – ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٣٤٤، ٣٤٥؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٤٤٣_ ٤٥٠.

[٤] – إدريس: مجتمع المدينة، ص١٦٧، ١٦٨.

كانت الأرض لغلامين يتيمين، وكانت مربداً لتجفيف التمر قيل أنّ أسعد بن زرارة كان يصلي بأصحابه في هذا المكان قبل مجيء رسول الله ﷺ[١]. ولما تم اختيار المكان، تمت تهيئة الأرض، وتسويتها. ثم بدأ أمر بنائه، وقد خطط الرسول ﷺ المسجد بنفسه فقد كان عبارة عن فناء مكشوف، مستطيل الشكل تقريباً، بنيت أساسات جدرانه من الحجارة، وأتمت بلبن مضروب من بقيع الغرقد.

وهنا ذكرت المصادر الفتى الحنفي طلْق بن علي، صاحب الطين، الذي كان متقناً عمله في ضرب الطين، لدرجة أن رسول الله أُعجب بعمله وإتقانه له، بقوله " قربوا له الطين، فإنه أعرف"[٢]. وفُرشت أرض المسجد رملاً، وكانت له ثلاثةُ أبوابٍ: بابٌ في مؤخره وباب عاتكة وهو باب الرحمة والباب الذي يدخل منه وهو باب عثمان، وحصلت تغييرات بعد تغيير القبلة حيث سدّ رسول الله ﷺ الباب الذي خلفه وفتح الباب الآخر حذاءه، فكان المسجد له ثلاث أبواب: باب خلفه وباب عن يمين المصلي[٣]، وسقفه جريد النخل وجذوعها لإتمام العمل بأسرع ما يمكن، وأسهم في العمل جنباً إلى جنب مع المسلمين ليرغّبهم، فنشط المسلمون في العمل عندما رأوا رسول الله ﷺ يجهد كما يجهدون[٤].

جعل المسجد مربع الشكل كان طوله سبعين ذراعاً أو يزيد[٥]، مما يلي القبلة وعرضه كذلك، وزيد بعد عدة سنوات لكل دورٍ مثله، وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع أقيم اللبن فوقها، وجعل قبلته

١ - هما سهل وسهيل ابنا عمرو، قيل أنهما كانا في حجر معاذ بن عفراء وأن رسول الله أخذ الأرض دون مقابل، وأن معاذ أرضاهما. ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٣٤٥. الطبري: تاريخ، ج٢، ص٨. وقيل أن الغلامين كانا في حجر أسعد بن زرارة وأن رسول الله أبى إلا بالثمن، فابتاعها بعشرة دنانير. الزهري، (محمد بن مسلم، ت١٢٤هـ/ ٧٤١م): المغازي النبوية، تح: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١م، ص١٠٤. ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢٣٩.

٢- العسقلاني: الإصابة، ج٣، ص٤٣٧.

٣ - ابن النجار: الدرة الثمينة، ص١٤٦، ١٤٧.

٤ - ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢٣٩، ٢٤٠.

٥ - يساوي الذراع ٤٨ سم تقريباً. محمد، (علي جمعة): المكاييل والموازين الشرعية، القدس لإعلان والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م، ص٥٠.

نحو بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب، وأنجز البناء بعد سبعة أشهر[١]. إلى جانبه بنى عليه الصلاة والسلام حجرتين لعائشة وسودة زوجتيه آنذاك، مجاورتين للمسجد وملاصقتين له من الجهة الشرقية على طراز بناء المسجد باللبن، وسقفها أيضاً بجذوع النخل وجريدها ولما تزوج رسول الله نساءه بنى لهنّ حجراً وهي تسعة أبيات[٢]. بالإضافة إلى حجرة فاطمة بنت رسول الله ﷺ شمال حجرة السيدة عائشة[٣].

أراد رسول الله ﷺ من بناء المسجد أن يكون مكاناً يجتمع فيه بالمسلمين، يعلمهم شؤون دينهم، تنتظم فيه وتُناقش مستجدات الأمور، أما عن اختيار موقعه، فجاء بأسلوب يرضي الجميع، ولا يجعل لأحدٍ فضلاً على أحد، ولقد حمل معانياً عدة، فهو لم يقتصر على حي من الأحياء أو عشيرة واحدة دون غيرها، بل كان عاماً جامعاً لمن يقصده، فكانت هذه نقطة جديدة في المدينة التي افتقدت هكذا مكان، بل كان أفراد حيٍّ لا يأمنون على حياتهم إذا خرجوا من حيهم، فكانت الخزرج تخاف أن تدخل دار الأوس وكانت الأوس تخاف أن تدخل دار الخزرج وأدرك رسول الله ﷺ هذه النقطة ولمسها منذ أن كان في قباء وسأل عن سبب عدم رؤية أسعد بن زرارة وكان نقيباً وبعض المصادر تذكر أنه نقيب النقباء، ومع ذلك لم يستطع القدوم إلا متخفياً وفي جنح الظلام[٤]، فإنشاء مكان يجمع سكان المدينة كلهم لا يقتصر على فئة دون أخرى شكّل بداية معالجة مشاكل المدينة[٥]، فلقد أصبح المسجد مكاناً لاجتماع المسلمين جميعهم مع رسول الله ﷺ في أوقات الصلاة وفيه تتآلف العناصر القبلية المختلفة التي طالما باعدت بينها النزاعات والصراعات، كما أن الصلاة أيضاً ساهمت في تقريبهم والحد من الشعور بالفرقة والتباعد لما تحمله من معنى المساواة بين المسلم وأخيه المسلم فزادت بينهم المودة

[١] – البلاذري: أنساب، ج١، ص٣١٤؛ ابن النجار: الدرة الثمينة، ص١٤٥. من ربيع الأول إلى صفر؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٤٥٥؛ الشمري (حصة بنت عبيد بن صويان): تخطيط المدينة المنورة في العهد النبوي والخلافة الراشدة، رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في جامعة الملك سعود بإشراف: خليل المعيقيل، ٢٠٠٤م، ص٤٧.

[٢] – ابن النجار: الدرة الثمينة، ص١٥٢؛ السخاوي، (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م): التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عُني بنشره أسعد طرابزوني الحسيني، د.م، ١٩٧٩م، ج١، ص٤٥.

[٣] – السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٢٠٧.

[٤] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٤٣٣.

[٥] – لم تذكر المصادر وجود مكان محدد للعبادة فيما يخص سكان يثرب من الأوس والخزرج قبل الإسلام، والمرجح أنه لم يكن يوجد مثل هذا المكان لهم، إلا أنها بالمقابل تذكر بيت المدراس الخاص باليهود الذين كانوا يجتمعون فيه بأشرافهم وعلمائهم، ولكن دون معرفة أن هذه اللقاءات كانت في أوقات منتظمة أو متفرقة، وللغرض الديني فقط أم لأغراض أخرى. وكأن وجود هذا المركز الذي جمعهم جعلهم مثل اليهود كتلة تجمعهم عقيدة وتوحدهم وتميزهم عنهم.

والرحمة والترابط، أيضاً كان المسجد مكاناً لتعلم شؤون دينهم فحمل وظيفة تعليمية أكثر من مثّلها أهل الصّفّة الذين لازموا رسول الله ﷺ وأخذوا وحفظوا عنه كثيراً من شؤون دينهم، ومع مرور الوقت أصبح المسجد قاعدة أيضاً لإدارة ما يطرأ من أمور في شؤون المدينة والدولة ككل، ومركزاً لانطلاق البعوث والسرايا، فغدا المسجد مزدحماً بالمهام والوظائف بل يمكن القول بأنه أصبح مركزاً لكل أمور الدولة.

ب – الصحيفة (دستور المدينة):

عندما دخل رسول الله ﷺ إلى المدينة دخلها دخول الزعماء، لم يدخلها دخول لاجئ أو طريد، حاشاه صلى الله عليه وسلم، وأصبح مدركاً لمشاكلها وعلى علمٍ بها، من خلال الصورة التي نقلها أهلها إليه، وكذلك بعدما أرسل مصعب بن عمير بين العقبتين، ومن خلال ما شاهده ولمسه إثر وصوله إلى قباء. فكان رسول الله ﷺ في هذه المرحلة هو من تحمل عبء ترتيب كل أمور يثرب وأحيائها وسكانها، وإنشاء نظام يحدد شكلها وهويتها الجديدة، ويمكن تشبيه الحالة هنا بوصول قصي بن كلاب إلى مكة حيث جمّع سكانها، ونظّم أمورهم، وجعل لهم مركزاً لتباحث مستجدات الأمور، وهيئةً تتولى إدارة المصلحة العامة هي الملأ من قريش، فنهضت مكة وأصبح لها الدور الأول في الحجاز، إلاّ أنّه في مكة وُجدتْ الكعبة والمسجد الحرام، الأمر الذي لم يتوافر في المدينة، فكان إنشاء المسجد الجامع، هو الخطوة الأولى في هذا الميدان، ليأتي بعدها إعلان الصحيفة الخطوة الثانية التي نظّمت وضع المدينة، وجعلت لأمنها أهمية ومكانة كبيرة، فكانت في هذه المرحلة من أبرز المعالم التي نهضت بالمدينة لمرحلة سياسية أعلى وأرقى مما كانت عليه، وتدرجت في تهيئة الأذهان وقبولها لقضايا التشريع التي ستكتمل على طول العصر النبوي في المدينة.

وورد في المصادر أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار[١]، وادع[٢] فيه اليهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم[٣]. أي أن هذا الكتاب تضمن

---

[١] – ابن حنبل: مسند، ج٤، ص٢٥٨، رقم ٢٤٤٣.

[٢] – وادع من الموادعة وهي: العهود والمواثيق، وحقيقتها أن يدع كل واحد منهما ما هو فيه. مادة (ودع). ابن منظور: لسان، ج٨، ص٣٨٦. وهذا يعني أن الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والدينية والتعبدية ظلت تمايز اليهود عن محيطهم.

[٣] – ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٣٥١. ووردت كاملة من ص٣٥١_ ٣٥٤؛ الشيباني، (الإمام محمد بن الحسن، ت ١٨٩هـ/ ٨٠٤م): شرح كتاب السير الكبير، إملاء: الإمام محمد بن أحمد السرخسي، تح: محمد الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج٥، ص٣؛ الأنصاري، (محمد بن علي بن أحمد، ت ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م): المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي، تح: محمد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ج٢، ص٥_ ١٠.

قسمين، قسماً تضمّن القانون الداخلي للأمة الجديدة، نظّم العلاقة بين المهاجرين والأنصار، وبين المسلمين واليهود، وقسم خصّ العلاقات الخارجية للمدينة وما حولها.

بدأه رسول الله بإظهار مكونات الجماعة الجديدة "*هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس*"[١]. وإنّ ذكر الجهاد هنا يعطي إشارة إلى أن الصحيفة كانت بعد نزول آيات الجهاد والسماح للمسلمين برد أي اعتداء عليهم، وإعطاء صفة محددة جديدة للمسلمين، جمعت هذه الصفة بين المسلمين عامة فصهرت المهاجرين والأوس والخزرج ومن أسلم وهاجر إلى المدينة في أمة جديدة قامت على رابطة الدين والعقيدة متجاوزة القبلية والعشائرية، وحتى الإقليمية أي أبناء الإقليم الواحد، *وعبارة "من تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم"* عبارة فَصَلت وميزت المسلمين من مهاجرين وأنصار عن غيرهم ممن لم يسلم بعد من سكان المدينة ومن اليهود، دون أن يجبرهم على اعتناق الإسلام.

وصرّحت الصحيفة بأن قريش هي العدو الأول والأساسي، وأي تعاطي معها غير مسموح به لأي طرف يسكن في المدينة، لتبين بعدها الأمور الواجبة في هذه الأمة.

وعدد رسول الله ﷺ في الصحيفة أبرز العشائر الموجودة في المدينة والتي دخلت في الإسلام، فذكر بطون الخزرج الكبرى وهي بنو عوف والحارث وساعدة وبنو جشم والنجار، ومن الأوس ذكر بني عمرو بن عوف وبني النبيت، وذكر باقي البطون الأوسية الأخرى تحت مسمى واحد هو بنو الأوس، فأبقى زعامات هذه العشائر على حالها وكذلك ما اعتادوا عليه من نفقات كدفع الديات وفداء الأسرى وبقائهم في أماكنهم "فكل طائفة على ربعتهم يتعاقلون بينهم، يفِدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين"[٢].

ولم يغفل ذكر اليهود وهم عنصر موجود وله أثره في المدينة، فعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم، " *فمن تبعنا من يهود فله النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم*"، وهنا يعود ويذكر لفظ "**تبعنا**" فيما يخص غير المسلمين وهنا اليهود بالتحديد، أي ميزهم عن

[١] – ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ٣٥١. ابن زنجويه، (أبو أحمد حميد بن مخلد، ت ٢٥١هـ/ ٨٦٥م): الأموال، تح: شاكر ديب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، السعودية، ط١، ١٩٨٦م، ج٢، ص٤٦٦.

[٢] – ابن سلاّم، (أبو عبيد القاسم الهروي البغدادي، ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٧م): الأموال، تح: خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص٢٦٠.

المسلمين مهاجرين وأنصار، والتبعية تجعلهم لاحقين بالأمة الجديدة ملتزمين بأمور السياسة العامة والحفاظ على الأمن العام في المدينة، وهنا تتجلى مكانة رسول الله ﷺ السياسية في وسط المدينة من خلال هذا الطرح والإلزام، وترك لهم الحرية في البقاء على دينهم " لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"، وينفقون على أنفسهم إذا ما اشتركوا مع المسلمين في قتال، وأنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وبينهم كذلك النصح والنصيحة. وأي فرد منهم أساء فإنه لا يوتغ[١] إلاّ نفسه وأهل بيته، فتبعات تصرف أي فرد لا تورط أحداً غيره ومن وافقه واشترك معه. وذكر أيضاً عدم خروج أحد منهم إلا بإذن رسول الله ﷺ، فهو عليه الصلاة والسلام كان يدرك أن اليهود لن يكونوا في صف المسلمين قلباً وقالباً وأنّ لبعضهم ارتباطاً، وعلاقات تجارية، وأحلافاً مع قريش، فذكر أن لا يجير مشركٌ مالاً لقريش ولا نفساً، فخصّ ﷺ بهذا البند اليهود الذين كان وادعهم فليس من موادعتهم أن يجيروا أموال أعدائه ولا يعينونهم عليه[٢].

وذكرهم بالصحيفة بحسب ولائهم لعشائر الأوس والخزرج كيهود بني عوف، ويهود بني النجار. ولكن ما هو جدير بالملاحظة أن القبائل اليهودية الكبرى كبني قينقاع والنضير وقريظة، لم يرد ذكرها في نسخ الصحيفة التي ذكرتها المصادر، لكن وجدت إشارات بوجود كتب بين هذه القبائل وبين المسلمين[٣] بين هذه القبائل وبين المسلمين، وعلى أساسها تمت معاقبة بني قريظة بعد غدرهم بالمسلمين يوم الخندق، فهل ذُكرت أسماء هذه القبائل وحُذفت في مرحلةٍ متأخرةٍ، أم تمّ ذكرها ضمن مواليها من العرب كبني النضير ضمن يهود الأوس، أو أن رسول الله ﷺ عقد أكثر من معاهدة لليهود على اعتبار أنهم لم يكونوا مجتمعين بل متفرقين كلٌّ على حِدة ، وليس لأنه ﷺ أراد تفرقتهم وعدم جمعهم في معاهدة واحدة حتى لا تجتمع قواهم إذا ما دهمهم أي طارئ كما يرجح البعض[٤].

---

١ – يوتغ: من الوتَغ وهو الهلاك في الدين والدنيا، وكذلك الملامة. الزبيدي: تاج العروس، مادة الوتَغ، ج٢٢، ص٥٨٩.

٢ – ابن زنجويه: الأموال، ص٤٧١، ٤٧٢. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٦٩.

٣ – في غزوة الخندق تذكر المصادر أن كعب بن أسد زعيم بني قريظة مزق الكتاب بينه وبين المسلمين وغدر وانضم إلى صف المشركين. الواقدي، (محمد بن عمر، ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م): المغازي، تح: مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٩٨٩م، ج٢، ص٤٥٦.

٤ – ولفنسون: تاريخ اليهود، ص١٢١.

كما جعل ﷺ للمدينة حرمة كحرمة مكة، فعدّها أرض سلم وسلام، وهذا الأمر كان خاصاً في مكة فقط من شبه جزيرة العرب، فضمن الأمن والسلامة حيث لا يعتدي فيها أحدٌ على أحد، وكذلك حرّم الصيد وقطع الشجر فأعطى السلم فيها طابعاً دينياً[1]. ولا يخفى أهمية هذا الأمر في وسط كوسط المدينة حيث كان الفرد لا يأمن على الخروج من حيّه خشية ألا يرجع إلى أهله، وأضاف عليه الصلاة والسلام أموراً أخرى عززت هذا الأمر وأكدته:

- بأن يتعاون المسلمون على من ظلم أو ابتغى الفساد من ظلم أو عدوان ولو كان ابنهم.
- وأوصى بتكافل المؤمنين ومساعدة من أثقله الدَّين أو كثر عياله[2].
- كما أرجع كل الخلافات إلى حكم الله وإلى رسوله " ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله". كما أوجب العقوبة على من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيّنةٍ فإنه قودٌ[3]، إلاّ أن يرضي ولي المقتول بالعَقْل أي الدية، وأنّ المؤمنين عليه كافةً. وفي هذا البند تشريع القضاء برد النزاعات التي تؤدي إلى الفساد والضرر في المصلحة العامة إلى حكم الله تعالى ورسوله، وإلزام ليس المسلمين فقط بحكمه بل من تبعهم، وربما كان المقصود هنا من لم يكن قد أسلم بعد من طوائف الأوس والخزرج ومن اليهود باعتبارهم عناصر موجودة في المدينة، وبالتالي تحقيق السلم الداخلي ومنع النزاعات والصراعات التي كانت تفضي من قبل إلى قتل الأفراد والثارات. وإن أبرز ما افتقدته المدينة قبل الإسلام هو الالتزام بتنفيذ الحكم إذا لم يكن على هوى المتخاصمين وهو ما تسبب باستمرار الصراعات، لكن الأمر اختلف هنا.

---

[1] – قال النبي ﷺ: المدينة حرم ما بين عير وثور، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى مُحدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وثور جبل صغير شمال جبل أحد شمال المدينة، وعير جنوبها. وقيل حماها من كل جهة بريداً في بريد. أبو داود، (سليمان بن الأشعث، ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م): سنن أبي داود، تح: محمد عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، د.ت، ج٢، ص٢١٦، ٢١٧، رقم ٢٠٣٤، ٢٠٣٥، ٢٠٣٦. والبريد ١٢ ميل أي حوالي ٢٤ كم. ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٨٧.

[2] – الأنصاري: المصباح المضيء، ج٢، ص٦.

[3] - أي قتله بلا جناية كانت منه، ولا سبب موجب قتله، فإن القاتل يُقاد به، ويُقتل، وكلّ من مات بغير علة، أي سبب، فقد اعتُبِط. ابن منظور: لسان، ج٧، ص٣٤٨، مادة (عبط).

- وأن يحافظوا على السياسة العامة للعلاقات تجاه من سالمهم ومن عاداهم، فسلم المؤمنين واحد لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله على سواء وعدل بينهم، وكذلك في رد العدوان، فعليهم واجب رده[١].
- وكذلك لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، والمؤمنون بعضهم موالي بعضٍ دون الناس[٢].
- لابد من التوقف قليلاً عند نقطة حرمة المدينة، والإخلال بأمنها، يمكن القول أن هذه الحرمة لم تقتصر على باطن المدينة، بل كذلك أراد رسول الله ﷺ أن يثبت حرمة المناطق المحيطة بها، فلا يسمح المرور بها دون موافقة المدينة، وأي تعدٍّ على حرمتها وأمنها يوجب العقوبة، وهذا ما أراد إيصاله لقريش والقبائل المجاورة من خلال خروج السرايا الأولى في مرحلة مبكرة.

وفي أمور الحرب كل فئة تنفق على نفسها، مسلمين ويهود عليهم نفقتهم في حال اشتراكهم، لقد أراد رسول الله ﷺ من اليهود أن يكونوا مع المسلمين في الحفاظ على سلامة المدينة والأمن العام فيها، باعتبارهم مكوّناً من مكونات السكان فيها، وكذلك الالتزام السياسة العامة تجاه الأعداء والحلفاء، دون التعرض لقضية الدين والمعتقد.

صوّرت الصحيفة ما كانت عليه أحوال المجتمع في المدينة قبل الرسول، وإلى أي حد قد تغيرت هذه النظم القديمة والأسس التي قام عليها المجتمع قبل الإسلام في المدينة بعد كتابة هذه الوثيقة[٣]. لقد قررت الصحيفة حرية العقيدة وحرية الرأي وحرمة المدينة وشددت على عدم خرقها، سواء داخلها أو خارجها، كما أكدت على حرمة الحياة، وحرمة المال، وحرّمت الجريمة، وهي في ذلك الوقت كانت سابقة لكل المفاهيم آنذاك. وكذلك أصبحت المدينة وما وراءها حرماً لأهلها، عليهم أن يدفعوا عنها كل عادية وخطر، وأن يتعاونوا فيما بينهم لاحترام ما تحتويه من حقوق وواجبات ومن صور الحرية[٤].

[١] – ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١، ص٢٢٧.
[٢] – السهيلي: الروض الأنف، ج٤، ص٢٤١.
[٣] – العربي: دولة الرسول، ص١٦٦.
[٤] – هيكل: حياة محمد، ص٢٤١.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الصحيفة كانت مرحلية وليست نهائية هي مثّلت دستور الدولة الناشئة في هذه المرحلة فقط، وبرهنت على العبقرية الإدارية والتنظيمية التي امتلكها رسول الله ﷺ، لقد شكّلت بدء نهاية مرحلة الفرقة بين عشائر الأوس والخزرج، فأبقت على هذه العشائر، ولكن ضمن نطاق يجمعها كلها، ويوحدها ويجعل مصالحها جميعها تسير وفق خط واحد، وهنا يكمن الانتقال والتغير عما كان، فعنصر النظام الذي أدخله الرسول ﷺ وسط تلك الفوضى كان على كل حال سبباً في توحيد القوى والعناصر، فبدا وكأنما قد ابتلعت الجماعة القائمة على أساس الدين تلك الجماعات القديمة القائمة على رابطة الدم، ودخلت الطوائف التي كانت موجودة حتى ذلك الحين في الجماعة الكبرى الجديدة [١]. كما أن عدو المسلمين في هذه المرحلة جسّدته قريش في مكة، وكان اليهود ضمن بنود الصحيفة، ولكنّ الأمر لم يبق كذلك حيث اختلف بعد الحديبية، فأصبح اليهود هم الذين يمثلون الخطر الأكبر بعد إضعاف قريش، ليبرز – بعد التغلب عليهم – الروم البيزنطيون شمالاً والقبائل المناصرة لهم. إلاّ أن دور الصحيفة في بلورة المفاهيم الجديدة التي افتقدتها المدينة سابقاً، وفي إلزام سكانها بها، كان العنصر الأهم فيها.

وحول تحديد تاريخ الصحيفة الذي وضعت فيه، فلا يمكن الجزم بتاريخ مؤكد ولكن يمكن القول بأنها وضعت في وقت قريب من غزوة بدر، قبيل بدر أو بعدها، ومن المحتمل أن إضافات طرأت عليها، حول التزامات أطرافها بأمور معينة كالاشتراك في الدفاع عن المدينة أو عدم التعامل مع قريش.

هذا وترافق ذكر الصحيفة مع ذكر **المؤاخاة** التي أقرّها رسول الله بين المهاجرين والأنصار[٢]، قيل أنها كانت قبل بدر بخمسة أشهر أو ثمانية[٣] آخى بينهم على الحق والمواساة والتوارث بعد الممات دون ذوي الأرحام، وذلك حتى بدر، حيث نسخت في بدر المواريث ورجعت بين ذوي الأرحام بقوله

---

[١]- فلهوزن، (يوليوس): تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، تر: محمد عبد الهادي أبو زبدة، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٠.

[٢] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٥٤؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٤٥٧.

[٣] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٤٥٧.

تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾[١].

كانوا تسعين رجلاً، خمسةً وأربعين من المهاجرين وخمسةً وأربعين من الأنصار، وقيل كانوا مائةً وخمسين من كل فئة[٢]. لقد عزّز رسول الله بهذه العلاقة الرابط بين أفراد الأمة التي شملت الآن المسلمين مهاجرين وأنصاراً، دون أن يخفى العامل الاقتصادي والاجتماعي في هذا، وقد شبّه البعض المؤاخاة بنظام الحلف الذي كان شائعاً قبل الإسلام[٣]، ورآه آخرون أعمق من نظام الحلف، لأن الحليف يكون في مرتبة ثانية بعد حليفه، بينما كان رسول الله ﷺ حريصاً على هذا الأمر فبالأساس أوجده للمواساة وإخراج المهاجرين من غربتهم وضيقهم، وأتاحت لأفراد المهاجرين صلة وثيقة بأهل المدينة، وخففت من عزلتهم ووسعت نطاق علاقاتهم وأمنت لهم ملجأ روحياً يساعدهم على تخفيف الشدائد عنهم، فألقت هذه الرابطة الجديدة على الأنصار مسؤولية إضافية في الحماية وتوثيق الصلة بالإسلام وزادت قوة روابط الرسول بالأنصار[٤]. واقتصرت على المهاجرين الأوائل دون أن تشمل الأعداد المتزايدة التي كانت تدخل إلى المدينة.

وهكذا توافر للإسلام الآن مجالٌ أوسع من المجال الذي كان قد وجد به في مكة، وحدودٌ ليس هناك من يمنع توسعها بالقوة والإجبار، فالإسلام جمع في هذه المرحلة بين المهاجرين والأوس والخزرج في مكان واحد هو المدينة، فتشكلت نواة أول مجتمع سياسي شكل الجسم الأساسي للدولة العربية الإسلامية فيما بعد. وما قام به رسول الله ﷺ من أعمال شكلت الأسس التي غيرّت وبدّلت صورة المدينة من مكانٍ جمع فئات غير متآلفة إلى مكانٍ صهرَ هذه الفئات مضافاً إليها فئاتٍ أخرى، وأذاب ما كان من المحتمل أن ينشب بينها من خلافات ونظّم العلاقات فيها، بالإضافة إلى أن المدينة امتلكت خصائص وميزات جعلتها مستقلةً في خياراتها وغير مرتبطة بقريش كالقبائل الأخرى. فبرزت المدينة الآن على المشهد السياسي، وبدأت مكانتها السياسية تتبدل فغدت أهميتها بموازاة مكة، لا بل وتفوقت عليها بعد أن كانت بلدة هامشية لا دور لها أو ثقل في شبه الجزيرة العربية.

[١] – سورة الأنفال، الآية ٧٥.

[٢] – ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢٣٨.

[٣] – الشريف: مكة والمدينة، ص٤٠٨.

[٤] – العلي: دولة الرسول، ص٩٣، ٩٤.

٣- التعامل مع العنصر المعارض للمسلمين من منافقين ويهود:

كان جميع سكان المدينة من أوس وخزرج قد أدركوا الحاجة الماسة في المدينة إلى السلام وإلى رجل تجتمع عليه الكلمة لإنهاء ما عانته المدينة من فوضى واضطراب، وكادوا يجتمعون على عبد الله بن أبي بن سلول من بني الحُبلى من الخزرج وجعله ملكاً عليهم، لولا ما أراد الله سبحانه وتعالى من الخير لهذه المدينة الطيبة ولسكانها، حيث حصل لقاء رسول الله ﷺ بالأنصار وجرت بيعتا العقبة الأولى والثانية وتمت الهجرة إليها.

لم تكن هجرة رسول الله ﷺ وانتقال المسلمين إلى المدينة يعني صفاء الجو، وانتظام الأمور دون أية تعقيداتٍ، أو مشاق وصعوبات في وجه انتشار الإسلام وتبليغ الدعوة، فكما وُجد في مكة معارضة للإسلام والمسلمين كذلك أصبح في المدينة، إلاّ أن خصائص كل معارضة تختلف عن الأخرى ففي مكة كانت الأمور واضحة ظاهرة وبيّنة، وتولت الفئات القرشية ذات النفوذ زمامها، ولم تدخر جهداً طوال العهد المكي في العمل على القضاء على الدعوة وإضعاف المسلمين وهذا ما دفع النبي ﷺ وأصحابه إلى الهجرة، لكنها في المدينة اتخذت أسلوباً آخر، بعيداً عن الوضوح فيه مواراة وإخفاء أحياناً، وقد ظهر بين أفراد من الأوس والخزرج، وأُطلق على هذه الفئة اسم المنافقين، وبرز اليهود أيضاً كعنصرٍ موادعٍ في البداية، معارضٍ بل ومقاتلٍ في النهاية، وقد تطلّب كلُّ طرفٍ من هؤلاء معاملته بأسلوب يختلف عن الآخر، بحسب درجة الخطورة التي تسبّبَ بها، ودرجة المعاداة التي أظهرها.

- **المنافقون وبروز ظاهرة النفاق:**

إن ظاهرة النفاق لم تكن معروفة في مكة، ظهرت في المدينة بعد استقرار المسلمين وبعد أن اشتد ساعد الإسلام فيها، وبالأخص بعد غزوة بدر، وتخص هذه التسمية الشخص الذي يستر كفره ويُظهر إيمانه[1]، إذاً النفاق تضمن الكفر وزاد عليه بالمواراة والتخفي للخداع والغدر، أما الكفر أو الشرك وحده فكان واضحاً.

لم تكن جميع بطون الأوس قد أسلمت، حيث ذكرت المصادر بني خطمة، ووائل، وواقف، من الأوس، هذه البطون تأخر إسلامها إلى عام الخندق في السنة الخامسة للهجرة، وقد أرجع ابن إسحق أن

[1] - ابن الأثير الجزري، (أبو السعادات محمد بن محمد، ت ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م): النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود الطناجي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، ج٥، ص٩٨.

سبب هذا التأخر هو وجود أبي قيس بن الأسلت فيها[1]، إلا أن وفاة أبي قيس المبكرة قبل انتهاء السنة الأولى للهجرة أزال هذا العائق بوجه إسلام عشيرته ومع ذلك فقد تأخر إسلامها، بينما ورد أن مقتل عصماء بنت مروان، التي كانت تعيب إسلام الأنصار وتهجو رسول الله ﷺ والمسلمين، قد أزال العائق عن بني خطمة وأسلم كثيرون منهم، أي أن أبا قيس لم يكن العائق الرئيسي وخاصة أنه لم ترد أية إشارة في رغبة أبي قيس تكوين جماعة مستقلة في ذلك، مما جعل البعض يرجح بأن قرب مساكن هذه العشائر ومنازلها من اليهود له أثره في ذلك، حيث أن أراضيها لم تكن مستقلة، فكانت غير مستعدة للاندفاع بلا رجعة في خطوة غير مضمونة ومؤكدة[2]، ويبدو هذا الرأي مقنعاً أكثر مما سبق، وهذه الفئة تختلف عن فئة المنافقين الذين كان لهم أثرٌ سلبيٌ ومؤذٍ على المسلمين.

ترد في المصادر ذكر ثلاثة شخصيات معارضة للإسلام في المدينة كانت ذات نفوذ بين الأوس والخزرج، كلٌ من هذه الشخصيات الثلاثة عبّر عن حالة وكان له أتباع، أولها كان أبو قيس بن الأسلت الذي تمت الإشارة سابقاً، بأنه كان من الأحناف، ويبحث عن الدين الصحيح، ولكنه بعد قدوم رسول الله لم يعلن إسلامه مباشرة، بل تردد، وأجّل إسلامه لبعد مدة ولكنه توفي قبل ذلك[3].

والشخصية الثانية كانت شخصية أبي عامر الفاسق من الأوس، الذي كان يُلقّبُ في المدينة بالرّاهب، لكثرة ما كان يبحث عن الدّين الصحيح، ويجادل اليهود في ذلك، وله أسفارٌ في سبيل ذلك، لقّبه رسول الله ﷺ بالفاسق لأنه جحد رسالته ولم يقبل الإسلام، بل أعلن عن عدائه له، وخرج من المدينة معه أتباعه، وانضم إلى معسكر القرشيين ولم يدّخر جهداً في محاربة المسلمين والكيد لهم حتى مرحلة متأخرة امتدت إلى غزوة تبوك ٩هـ/ ٦٣٠م [4].

[1] – ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٣٤٩؛ ابن سعد: الطبقات، ج٤، ص٣٨٤.

[2] Watt: Muhammad, p 178,179.

– العلي: دولة الرسول، ص١٥٢.

[3] – ابن الأثير: أسد الغابة، ج٦، ص٢٥٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٣٨٨، ٣٨٩؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص١٥.

[4] – ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٤٢٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٢٨٢؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص١٣٢/ ج٣، ص٣٥٦.

كان موقف هاتين الشخصيتين وأتباعهما واضحاً لا مواربة فيه، ورغم تأخر إسلام الفئة الأولى، وعدم إسلام الفئة الثانية، إلاّ أنهما كانا أقل خطراً وأكثر وضوحاً من الفئة الثالثة، التي كان عبد الله بن أُبي بن سلول أبرز شخصياتها، وقد انضمت إلى المسلمين، فاعتنقت الإسلام ظاهرياً خشيةً من أي عقاب قد يصيبها في حال بقائها على شركها ووثنيتها، وهذه الفئة لم تنحصر في عشيرة محددة وإنما كانت تضم أفراداً من عشائر متعددة، وبالتالي كان التعامل معها مختلفاً عن الفئات المعادية الأخرى، فهم كانوا يشاركون المسلمين في أمور دينهم وشعائرهم الدينية من صلاة وغيرها، لهذا لم يكن أخذهم والنيل منهم على الظن أمراً ممكناً أو محتوماً، فتعامل رسول الله ﷺ معهم بمرونةٍ وتأنٍ[١]، لأنه كان مدركاً لتبعات أي تصرف ضدهم سواء بين أتباعهم أو عشائرهم، فالعصبية كانت لا تزال لها مكانتها ضمن مجتمع المدينة، كما أنه عليه الصلاة والسلام أراد الصبر عليهم عسى الله أن يهديهم ويدخل الإسلام إلى قلوبهم.

كما أنها لم تقتصر على أفراد من الأوس والخزرج، بل وكذلك شملت نفراً من أحبار اليهود، هؤلاء أظهروا الإسلام ولكنهم ظلوا على عقيدتهم التي يؤمنون بها، اليهودية، فكانوا يسألون رسول الله ﷺ ويجيئون بأمور وقضايا فيها لبس وخلط بين الحق والباطل غايتهم التشكيك وبث الريبة في أحكام الإسلام في هذه القضايا، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه[٢].

وهكذا ظهرت في وجه المسلمين قوة جديدة في مواجهة الدعوة الإسلامية سببت لها الكثير من المتاعب والمحن، ووضعت في دربها الكثير من الحواجز والعقبات، فكان على الرسول ﷺ أن يواجه هذه الفئة إلى جانب الفئات المعادية من المشركين واليهود، لكن هذه الفئة كانت غير واضحة الأبعاد ومتسربة داخل صفوف الجماعة الإسلامية.

وقد ورد في القرآن الكريم آياتٌ تبين صفاتهم وخصائصهم، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون، وتحذر النبي ﷺ والمسلمين منهم في كل ظرفٍ ومناسبة، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية، وخاصة الطويلة

---

[١] - عن تعامل رسول الله معهم وعدم قتلهم، يمكن العودة إلى ابن كثير: تفسير، ج١، ص١٧٩.

[٢] - ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٣٦٢.

والمتوسطة، من ذكرهم[١]، وهذا يعني أن هذه الحركة استمرت طيلة العهد المدني تقريباً وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأول، بالمقابل كان التعامل معهم قد أصبح أكثر قسوة في أواخر العهد المدني، في حين كان التغاضي عنهم في بداية العهد المدني هو الغالب على التعامل فيما يصدر عنهم، وظهر ذلك في أكثر من حادثة، وهذا التغاضي لم يكن ضعفاً من رسول الله ﷺ بل درءاً لأي أزمة أو فتنة قد تحدث نتيجة التنكيل بهؤلاء.

ظهرت أول الإشارات لعدم تقبل هجرة النبي ﷺ والمسلمين من خلال موقف عبد الله بن أُبي بن سلول أثناء تقدم رسول الله ﷺ في أحيائها لانتقاء مكان لنزوله به، اقترب من أطم مزاحم، وهو أطم عبد الله بن أُبي بن سلول، وأراد النزول فلم يحسن ابن أُبي استقباله، وقال له: "بأن اذهب إلى الذين دعوك فانزل عندهم[٢]، وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ مرّ بمجلسٍ فيه أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود فيهم عبد الله بن أُبي، سلّم عليهم رسول الله ﷺ ونزل عن مركوبه، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله: أيها المرء لا أحسن من هذا، إنْ كان ما تقول حقاً، فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك فمن جاءك منا فاقصص عليه"، أثار هذا الكلام من كان في المجلس من المسلمين، كادوا يقتتلون مع من لم يسلم لولا أن ردّهم رسول الله ﷺ [٣]. وفي كلا الموقفين دلالة واضحة على عدم الترحيب بالإسلام والمسلمين.

إلا أن هذا الموقف لم يتمكن عبد الله من البقاء عليه في ظل توسع انتشار الإسلام وازدياد قوة المسلمين ولا سيما بعد غزوة بدر، فتذكر المصادر أن إسلامه كان بعد هذه الغزوة، إلاّ أنه لم يكن عن صدق وإيمان بل تماشياً مع الوضع ودرءاً لأي عقاب، حيث عدّ هو ومن تبعه بأنّ "هذا أمرٌ قد توَجّه"، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وأسلموا[٤]. إذاً كانت الخشية من أي عقاب نتيجة بقائهم على شركهم ووثنيتهم قد دفعتهم إلى الامتزاج والانخراط في صفوف المسلمين ظاهرياً فقط، إلا أنّ عداوتهم

[١] – سور البقرة، آل عمران، التوبة، المائدة، محمد، المجادلة، المنافقون، الأحزاب، النساء، الحديد، الأنفال، النور، الحشر، وللمزيد من الاطلاع العودة إلى دروزة: سيرة الرسول، ج٢، ص٧٦.

[٢] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٤٤٤.

[٣] – الزهري: المغازي، ص١٨١؛ البخاري: صحيح، ج٦، ص٣٩. رقم ٤٥٦٦؛ النيسابوري، (مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م): المسند الصحيح، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٥٤م، ج٣، ص١٤٢٢، ١٤٢٣، رقم ١٧٩٨. وسيتم وروده وفق التوثيق التالي: مسلم: صحيح.

[٤] – البخاري: صحيح، ج٨، ص٤٥، رقم ٦٢٠٧؛ ابن كثير: تفسير، ج١، ص١٧٧.

للإسلام وإضمارهم الشر لم تتغير، وظهرت منهم مواقف كيد ودس وعليها طابع من الخداع والنفاق بارز.

لقد سببت مواقف هؤلاء للمسلمين قلقاً واضطراباً، وأكثر ما برزت أفعالهم وأقوالهم في الأزمات والمواقف الصعبة التي أحاطت بالنبي ﷺ والمسلمين بحجة المصلحة والمنطق والاحتياط، وكانوا أقرب إلى اليهود منهم إلى المسلمين، فقد اجتمعوا معهم على عداء المسلمين. ولعل من الدلائل على ارتباط حركة النفاق بالنشاط اليهودي ضد الإسلام ما ورد في الآيات الأولى من سورة البقرة التي هي أول السور المدنية في ترتيب النزول، *يقول تعالى*: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1]. دلالة الآيات في صفاتهم واضحة، وشياطينهم المقصود بهم رؤساؤهم وكبراؤهم وقادتهم من اليهود[2]، حيث أن نفراً ذكرتهم المصادر من اليهود قد أظهرت الإسلام نفاقاً، وقد كان هؤلاء يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويستهزئون بدينهم[3].

ويؤكد هذا الارتباط موقف عبد الله بن أُبي يوم غزوة بني قينقاع وتوسطه عند رسول الله ﷺ عندما نزل بنو قينقاع على حكمه، أن يخليهم له، وأن يحسن في مواليه، وقد أكثر من الكلام حتى غضب من كلامه رسول الله، وتركهم له، فتم جلاؤهم، في الوقت الذي تخلى به عبادة بن الصامت عن حلفه معهم، وقد نزل القرآن الكريم في الموقفين بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

[1] – سورة البقرة، الآية، ٨، ١٤، ١٥.

[2] – الثعلبي: الكشف والبيان، ج١، ص١٥٥، ١٥٦.

[3] – ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٣٧٣، ٣٧٤. ويعدد منهم سعد بن حنيف، زيد بن اللصيت، ونعمان بن أوفى، عثمان بن أوفى، سلسلة بن برهام، وكنانة بن صوريا.

فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

كما تذكر المصادر في غزوة بني النضير اتصال عبد الله بن أُبي بن سلول ونفر معه بهم، وحثهم على قتال رسول الله ﷺ ووعدهم بالمساعدة العسكرية، إلاّ أن هذا لم يحصل، وتحمل بنو النضير تبعات قتال المسلمين وحدهم وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلاّ الحلقة، فكانت هذه هزيمة جديدة لابن أُبي وأتباعه، وفيهم نزل قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[2].

وقد اشترك هؤلاء في بعض الأعمال القتالية للمسلمين وخرجوا معهم ولاسيما إلى المناطق غير البعيدة، إلا أن مواقفهم كانت مثبطة أثناء الاستعداد للقاء العدو، ومسببة للبلبلة والاضطراب بصفوف المسلمين أثناء هذه الوقائع، مع التأكيد أن اشتراكهم لم يكن عن شيء أكثر من حمية لقومهم، أو لطلب الدنيا.

في غزوة أُحد وقع المسلمون في إشكالية كيفية اتخاذ موقف للدفاع عن المدينة ضد هجوم المشركين، واستقر الأمر بعد جدال على الخروج والتصدي للمشركين، وبعد خروجهم ذكرت المصادر تراجع عبد الله بن أُبي بن سلول ومن تبعه، بحجة أن رسول الله لم يأخذ برأيه هو وأخذ برأي الشبان الحديثين، فقال: " أطاعهم فخرج وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس"[3]، ووصفهم الله عز وجل بقوله تعالى:﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

[1] – سورة المائدة، الآية ٥١، ٥٢.

[2] – سورة الحشر، الآية ١٦، ١٧.

[3] – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٣٩؛ الطبري: جامع البيان، ج٧، ص٣٧٩. الثعلبي: الكشف والبيان، ج٣، ص١٣٩؛ الكلاعي، (أبو الربيع سليمان بن موسى، (ت٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م): الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تح: مصطفى عبد الواحد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨م، ج١، ص٣٧٢؛ قريبي، (إبراهيم): مرويات غزوة بني المصطلق، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، د.ت، ص١٦١.

بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾[1]. ورجع بثلث الجيش يومها، ولما كانت النتيجة ما كانت يومها أكثروا من الكلام واللوم، ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾[2].

واستمروا بمواقف التملق والتزلف، فقد كان ابن أُبي في كل يوم جمعة وقبل أن يخطب رسول الله ﷺ، يقوم بين الناس ويقول لهم: "أيها الناس هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا"، فلما قام بعد غزوة أُحُد في يوم الجمعة قبل أن يخطب بالناس، يريد أن يفعل كما اعتاد أن يفعل، أخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا له: اجلس، أي عدو الله لستَ لذلك بأهل، وقد صنعتَ ما صنعت[3].

أما في غزوة بني المصطلق فقد جرى فيها من أمور النفاق أكثر من غيرها، حيث كثر عدد من خرج بين المسلمين من أهل النفاق، فكاد أن يحصل قتال بين المسلمين مهاجرين وأنصار إثر خلاف على الماء بين مولى للمهاجرين، وآخر للأنصار، فنادى الأنصاري: يا للأنصار، ونادى المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، قال: ما بال دعوى الجاهلية؟ فأخبروه الخبر، فقال لهم: دعوها فإنها منتنة. سمع بذلك ابن أُبي فقال: " فعلوها؟ أقد تداعوا علينا؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل". فبلغ النبي هذه المقالة، فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي: دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه[4]. اكتفى رسول الله باستقدام عبد الله بن أُبي وسؤاله عن صحة ما وصله من كلام، فحلف ابن أُبي ومعه أصحابه بأن ما قاله، فلام الأنصار زيداً وعطفوا على ابن أُبي[5]، فأمر بعدها النبي بالمسير في وقت لم يعتد أن يسير فيه، فسار بهم

[1] – سورة آل عمران، الآية، ١٦٧.

[2] – سورة آل عمران، الآية، ١٦٨.

[3] – ابن هشام: السيرة، مج٢ ، ص٦١٧.

[4] – البخاري: صحيح، كتاب المناقب، ج٤، ص١٨٣؛ مسلم: صحيح، ج٤، ص١٩٩٨، رقم ٢٥٨٤.

[5] – نزلت آية في ذلك، قوله تعالى: يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا...، وقيل أنها نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت الذي كان أيضاً من المنافقين، عندما تكلم عن رسول الله بشكل سيء، فوصل الخبر لرسول الله، وحلف جلاس كذباً أنه لم يتكلم بشيء، وكلا التفسيرين يؤديان إلى المعنى نفسه. الطبري: جامع البيان، ج١٤، ٣٦٤.

يومهم ذاك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله ليشغل الناس عن الحديث الذي كان. فأراد رسول الله من خلال الأمر بالرحيل في وقت غير معتاد والمسير ليلا ونهاراً بشكل متصل أن يصرفهم عن الحديث بما كان من هذا الأمر لتجنب ما يثير البلبلة في صفوفهم، فوقعوا نياماً، فمسح النوم العميق بعد التعب آثار الفتنة. وأصبح الأنصار بعد ذلك إذا أحدث ابن أُبي حدثاً هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه. وكان ما فعله رسول الله ينطوي على كثير من الحلم والأناة، وفيه من الحكمة والذكاء ما منع حدوث أية فتنة[1].

وكاد بعدها عبد الله بن أُبي أن يتسبب بحدوث فتنة بين الأوس والخزرج، إثر الخوض في حديث الإفك، الذي تورط فيه أفرادٌ مؤمنون كذلك، وقد نزلت سورة النور في هذا الحديث[2].

وفي غزوة الخندق كان للنفاق مكان كذلك عندما اشتد الحال على المسلمين، حيث تباطأ رجال من المنافقين في حفر الخندق، وصار الواحد منهم يتسلل إلى أهله دون استئذان رسول الله، ولما بدأ الحصار وغدر يهود بني قريظة ونقضوا العهد، وضاقت الحال، نجم النفاق، حتى قال بعضهم: "كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا". وظهر منهم تخاذل في البقاء والقتال، فكانوا يطلبون السماح بالذهاب إلى بيوتهم لأنها مكشوفة بتعبير أنها عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا، وفي سورة الأحزاب ذكر لهذه المواقف، يقول تعالى:﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[3].

[1] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٤١٨، ٤١٩؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، ج١، ص٣٥٨، ٣٥٩؛ القريبي: مرويات، ص١٩٠.

[2] – عن هذه الحادثة يمكن العودة إلى السهيلي: الروض الأنف، ج٦، ص٤٠٩_ ٤٢٠؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص١٣٣_ ١٣٧؛ العسقلاني: فتح الباري، ج٥، ص٢٧٢، ٢٧٢، شرح الحديث رقم ٢٦٦١؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٢١٢_ ٢١٦.

[3] – سورة الأحزاب، الآية، ١٢، ١٣.

بدأ موقفهم بعد الخندق وجلاء حلفائهم اليهود عن المدينة يميل إلى الضعف، وأصبحوا مكشوفين، وبدأت الشدة تظهر في الرد على مواقفهم من قبل رسول الله ﷺ والمسلمين، لم يعد خطرهم ذا أهمية أو مهدداً للأمن والسلم العام وفي ظل ازدياد قوة الإسلام وتوسع الدعوة وفضح مواقفهم ومؤامراتهم، تذكر المصادر أن عبد الله بن أُبي خرج في الحديبية مع المسلمين ولكنه لم يبايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، وبعد ذلك لم يعد يرد ذكره في المصادر حتى وفاته.

افتقد عبد الله بن أُبي إلى أسس فكرية تجعله قادراً على تلبية احتياجات المدينة، فكان موقفه ضعيفاً، كان دافعه الرئيسي هو الطموح الشخصي، ولكنه كانت تعوزه النظرات التي يمتاز بها رجل الدولة التي كانت ستجعله قادراً على تقدير نتائج أفعاله المعقدة، وكان يعوزه الحدس الذي يمكنه من استغلال الفرص واستمالة الأعوان. أدرك ابن أُبي أن السلم شيء ضروري للمدينة، ولكن محاولاته لتوفير هذا السلم لم تكن تعتمد إلا على أفكار محافظة تقوم على مبدأ العصبية والعشائرية وقد فقدت تأثيرها، وكان سبب معارضته للنبي ﷺ هو عجزه عن السير مع زمنه، ومما له مغزاه أنه لم يكن بين المنافقين سوى شاب واحد[1].

وعند الخروج إلى تبوك، تحجج المنافقون بأوهى الأسباب، وقَبِلَ منهم رسول الله ﷺ أعذارهم. كما حاولوا إنشاء مركز لاجتماعاتهم بصورة لا تثير الشك أو الشبه، من خلال بنائهم مسجداً، دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة فيه، وكانت حجتهم في بنائه عدم تمكنهم في بعض الأوقات من المجيء إلى المسجد النبوي للصلاة بسبب السيول الجارفة في بعض الأوقات، وأنهم بنوه بذوي العلة والحاجة[2]، لكنهم أرادوا أن يكونوا بعيدين عن الأعين أثناء اجتماعاتهم ودسهم على المسلمين، وخاصة أنهم كانوا من أتباع أبو عامر الفاسق الذي كان قد اتفق معهم أن يجمعوا بالمسجد ما استطاعوا من قوة وسلاح ريثما يخرج إلى البيزنطيين يستمدهم بقوة لإخراج رسول الله والمسلمين من المدينة[3]، وكان ذلك قبيل غزوة تبوك أثناء التحضير للخروج، فأجابهم رسول الله، بأنه سيصلي في

1- Watt: Muhammad, p.187.

٢- الطبري: جامع البيان، ج١٤، ص٤٦٨.

٣- البيهقي، (أحمد بن الحسين، ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م): دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ج٥، ص٢٦٣.

المسجد بعد الرجوع من الغزوة[١]، وعند العودة نزل الوحي على رسول الله ﷺ:﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[٢]. فأرسل عليه الصلاة والسلام من أحرق المسجد وهدمه، ولم يُصَلِّ فيه، وكان مجمل من قام بأمر بناء المسجد من الأوس[٣].

وعند العودة من غزوة تبوك، حاول نفر من المنافقين اغتيال رسول الله، إلا أن مساعيهم فشلت، وقد نزل الوحي على رسول الله ﷺ بذلك فأخذ الحذر والحيطة[٤]، وأصبح التعامل معهم بعد ذلك عنيفاً، لا رحمة ولاهوادة فيه، حتى أن الله عز وجل أنزل في سورة التوبة آيات تبين سوء أخلاقهم وتضامنهم في النهي عن المعروف والخير والأمر بالمنكر، وتجمعهم مع المشركين والكفار وتعدهم فريقاً واحداً، وتأمر النبي بمجاهدتهم، يقول تعالى:﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾، كما نهت الآيات رسول الله عن الصلاة على من يموت منهم، وكذلك عن الدعاء لهم ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[٥].

كما أشارت آيات من القرآن الكريم إلى نفاق كان خارج المدينة وهو نفاق الأعراب الذين كانوا يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وظهر نفاقهم عند دعوتهم إلى الجهاد وتقاعسهم عن التلبية بأوهن

[١]- السهيلي: الروض الأنف، ج٧، ص٣٢٢؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص٢٧٥.

[٢] – سورة التوبة، الآيات، ١٠٧_ ١٠٩.

[٣] – يعددهم ابن هشام اثنا عشر رجل، جلهم من الأوس مج٢، ص٩٥٧، ٩٥٨. الثعلبي: الكشف والبيان، ج٥، ص٩١، ٩٢.

[٤]– ابن طرخان، السيرة الصحيحة، الورقة [١٩١– و]؛ الواقدي: المغازي، ج٣، ص١٠٤٢.

[٥] – سورة التوبة، الآيات ٦٧، ٧٣، ٨٤.

الحجج، وكذلك في دفعهم للزكاة التي عدوها مغرماً أي ضريبة، لا يرون فيها ثواباً ولا أجراً، دلّ عليه قوله تعالى:﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾[1]. وكان خطرهم أقل من خطر المنافقين الذين كانوا ضمن المدينة، يشاركون المسلمين أمورهم ويطلعون على مجريات حياتهم بل ويشاركونهم بها.

إنّ مجمل المواقف التي وقفها المنافقون من الإسلام تدور حول غرضين أساسيين أولهما: التخذيل عن اعتناق الإسلام، وإلقاء الرعب في صفوف الجيش الإسلامي وتخويفه من الوقوف في وجه عدوه، كما حصل في غزوة الأحزاب. وثانيهما: بث الشبه والتشكيك في الإسلام ونبيه عليه السلام، وزرع بذور الفتنة في ساحة الجيش الإسلامي، كما حصل في غزوة بني المصطلق. لقد باءت جميع محاولات المنافقين بالإخفاق، واندحر كيدهم وخاب سعيهم، ونصر الله الإسلام والمسلمين، كان الوحي ينزل فيفضح هذه المواقف على اختلافها، ويثبت نفوس المؤمنين[2].

وهكذا كانت هذه الفئة مستمرة طيلة العهد المدني، وإن اختلفت طريقة التعامل معها في بداية هذا العهد عن نهايته، مما جعل المسلمين على حيطة وحذر دائمين لأي حركة غدر أو خيانة، وتعامل معهم رسول الله بكثير من الحلم والحكمة والأناة، فقد حاول تأليف قلوبهم بالعطاء، كما فعل مع المؤلفة قلوبهم، وقد كان لذلك أثره في بعضهم، في حين بقي الآخرين على نفاقه وعدم صدقه.

- **اليهود:**

لم يكن لليهود عند بدء الاتصالات بين الأنصار ورسول الله ﷺ أي موقف يعبر عن قبولهم أو رفضهم، ولم تظهر عندهم أية إشارة أو ردة فعل توضح ذلك، وظل موقفهم ضبابياً غير واضح، حتى بعد قدوم المهاجرين واستقرارهم، لم يظهروا الرفض أو العداء بشكل واضح، ولكنهم بدؤوا بالجدال والنقاش بأمور تخص العقيدة، كانت جلّ غايتها بث الشكوك والريبة، وإظهار رسول الله ﷺ بمظهر العاجز عن الإجابة، ولم تفلح مساعيهم، وفي كل مرة حاولوا ذلك ظهرت نواياهم، وتوضح

---

[1] – سورة التوبة، الآية، ٩٧، ٩٨.

[2] – القريبي: مرويات غزوة بني المصطلق، ص١٦٧.

مقصدهم[١]، ما عدا قلة قليلة منهم آمنوا وصدقوا، كان أبرزهم مخيريق من بني النضير، الذي آمن واستشهد في غزوة أحد[٢]، وعبد الله بن سلام[٣]، ونفر ثلاثة من بني قريظة[٤]، وكذلك بني النضير[٥].

وما لبثت أن ارتبطت مواقفهم ومواقف المنافقين في مختلف الأحداث، التي سلفت الإشارة إليها عند الحديث عن المنافقين، بل إن بعض المصادر ذكرت وعددت قائمة في أسماء المنافقين من اليهود الذين أظهروا الإسلام لكنهم في حقيقة الأمر، ظلوا على جحودهم للرسالة، وكانت غايتهم بث الشكوك والريبة[٦].

إلاّ أن اليهود ما لبثوا أن ظهرت نواياهم، فبعد سرية نخلة، التي حصل فيها قتال في شهر رجب الذي تحرم العرب فيه القتال، أظهر اليهود فرحهم واغتباطهم بذلك، فقالوا: " عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، وواقد وقدت" [٧].

وما لبث أن ظهر عداءهم بعد غزوة بدر، والبداية مع بني قينقاع الذين كانوا يسكنون داخل المدينة، فلربما كانوا يخشون من ازدياد قوة المسلمين، وكما حصل سابقاً عندما ازداد عدد وثروة الأوس والخزرج فإن اليهود قطعوا مواثيقهم وعهودهم معهم، وكرّروا الشيء نفسه، فبعد العودة من بدر أظهروا الحسد والبغض، ولم يمض طويل وقت حتى وقع حادث في سوقهم قُتل على إثره يهودي ومسلم، ووقع الشر فجمعهم رسول الله ﷺ وطلب إليهم أن يكفّوا عن أذى المسلمين، وأن يحسنوا جوارهم، وإلاّ

---

[١]- مثال على ذلك سؤالهم له ﷺ كيف يشبه الولد أمه؟ وما حرّم إسرائيل على نفسه؟ وسألوه عن الروح. ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٨٦، ٣٨٧.

[٢]- السهيلي: الروض الأنف، ج٤، ص٣١٠؛ العسقلاني: الإصابة، ج٦، ص٤٦.

[٣]- ابن عبد البر: الاستيعاب، ج٣، ص٩٢١؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص٢٦٥.

[٤]- أسد بن سعية، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد. ابن الأثير: أسد الغابة، ج١، ص٢٠٣؛ العسقلاني: الإصابة، ج١، ص٢٠٦.

[٥]- أسلم منهم شخصان هما يامين بن عمير بن كعب، وأبو سعد بن وهب. الطبري: تاريخ، ج٢، ص٥٥٥. ابن عبد البر: الاستيعاب، ج٣، ص١٥٨٩، ١٦٦٨. ابن الأثير: أسد الغابة، ج٥، ص٤٣٤.، ج٦، ص١٣٦.

[٦]- كسعد بن حنيف، وزيد بن اللصيت. ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٧٣، ٣٧٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص١٤.

[٧]- ابن إسحاق، (محمد بن يسار، ت ١٥١هـ/ ٧٦٨م) : السير والمغازي، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص٣١٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٣٩.

سينزل بهم ما نزل بقريش[١]، ما كان منهم إلاّ أن استخفّوا وسخروا من انتصار المسلمين على قريش التي عدّوها أنها ليست من أهل الحرب، وأنهم هم أهل الحرب والقوة والبأس، فظلّوا مُصرّين على موقفهم غير متراجعين عن العداوة[٢]، فأمر رسول الله ﷺ بالمسير إلى بني قينقاع ومحاصرتهم، فكان ذلك إيذاناً بانتهاء وجودهم داخل المدينة، وحصلت غزوة بني قينقاع، وحاصرهم ﷺ خمس عشرة ليلة، أشد الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، وطلبوا الخروج من المدينة، فلم يوافق رسول الله على خروجهم إلاّ على حُكْمِهِ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ، ولكن عبد الله بن أبي بن سلول تشفع لهم عند رسول الله ﷺ وألحّ عليه، حتى حقن دماءهم، وأمر ﷺ بإجلائهم عن المدينة دون مال وسلاح[٣]. يمكن القول بأن هذا الموقف الذي ظهر عند بني قينقاع خاصة دون غيرهم، وهم تجار وأهل سوق، كان لبدء استشعارهم بالوجود القرشي الاقتصادي المنافس لنفوذهم وبراعتهم، وتجلي وإظهار عدائهم للمسلمين في السوق، يمكن القول بأنه دليل ومؤشر على ذلك.

وفيما يخص بني النضير فلم يختلف موقفهم عن بني قينقاع، فبعد غزوة أُحد فقد أظهروا العداوة لرسول الله ﷺ، ونقضوا عهدهم معه، وظهر هذا على صعيد الأفراد وعلى الصعيد العام للقبيلة، حيث ذهب كعب بن الأشرف إلى قريش بعد غزوة بدر ورثى قتلاهم، فقد كان شاعراً شريفاً[٤]، وكذلك أنه

---

[١]- يشير ولفنسون بأن غنى بني قينقاع، كونهم من الصاغة، وامتلاكهم الأموال الطائلة والحلي الكثيرة من الفضة والذهب، هو ما أغرى المسلمين بهذا التحول وشجع على محاربتهم، مستفيدين من عداوة بقية بطون اليهود الأخرى لهم بعد معركة بُعاث. تاريخ اليهود، ص١٢٨.

[٢]- ابن هشام: السيرة، ج١، ص٥٧٣، ٥٧٤؛ ابن عبد البر، (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م): الدرر في اختصار المغازي والسير، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م، ص١٤١، ١٤٢.

[٣] – الواقدي: المغازي، ج١، ص١٧٧؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٣٧٢؛ ابن حزم، (علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م): جوامع السيرة، تح: إحسان عباس، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص١٥٤.

[٤] – ابن الزبير، (عروة، ت ٩٤هـ/ ٧١٢م): مغازي رسول الله ﷺ، جمع وتحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مكتبة التربية، الرياض، ط١، ١٩٨١م، ص١٦٢؛ ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٥٧٦، ٥٧٨. ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٣٥.

خرج في أربعين من اليهود إلى قريش، بعد غزوة أُحد، وعقد حلفاً مع أبي سفيان، وتوثقوا ثم رجع إلى المدينة، عندها أمر رسول الله ﷺ بقتله، فأرسل محمد بن مسلمة في هذه المهمة[1].

كما أوردت المصادر نيتهم قتل رسول الله ﷺ عندما ذهب إليهم لطلب المساعدة في دية رجلين من بني عامر إثر حادثة بئر معونة، فقد كانوا على عهدٍ مع رسول الله، فأظهروا الترحيب والسرور بقدومه إليهم، ولكنهم كانوا يتآمرون على قتله ﷺ[2]، وعَلِمَ رسول الله بهذا الغدر، فأرسل إليهم محمد بن مسلمة الأوسي أن يخرجوا من المدينة خلال عشرة أيام لأنهم نقضوا العهد وحاولوا الغدر، وأمّا من وُجِدَ بعد الأيام العشرة فستُضرب عنقه، ولم يصدر عن بني النضير أي ردٍّ على هذا الكلام والاتّهام[3].

أراد رسول الله ﷺ بإرسال محمد بن مسلمة إليهم وكان من الأوس، أن يُظهِرَ لهم أنّ الوضع تغير، وأن لا حليف لهم، فالأوس كانوا حلفاء لهم قبيل الإسلام، بل وأن كل الروابط السابقة قد تغيرت، فكعب بن الأشرف كان أخا محمد بن مسلمة بالرضاعة، ولما قال له بنو النضير: يا محمد ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجلٌ من الأوس، أجابهم بأن القلوبَ تغيّرت[4].

وأخذوا يتجهزون للخروج لولا أن عبد الله بن أُبي بن سلول أرسل إليهم ألاّ يخرجوا ووعدهم بالوقوف إلى جانبهم والقتال معهم، فأخذوا يتجهزون للقتال خلال المدة التي حددها لهم رسول الله للخروج، وكانت لهم حصون قوية فبدؤوا بتجهيزها، ولم يخرجوا، فأمر رسول الله أصحابه بالمسير إليهم، فحاصروهم عشرين يوماً، أمر خلالها رسول الله بقطع بعض نخيلهم للضغط عليهم، ولم يقدر ابن أُبي ومن تبعه أن يصنع شيئاً، ولم يخرج أحدٌ لمساعدتهم، فاستولى عليهم الرعب واليأس وأرسلوا إلى رسول

[1] – أغلب المصادر تذكر حادثة مقتل كعب بعد غزوة بدر، إلا أن سياق الأحداث يجعل مقتله عقب أحد هو المرجح. ابن طرخان: السيرة الصحيحة، الورقة [١٦٠– و]؛ الدياربكري، (حسين بن محمد بن الحسن، ت ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م): تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، دار صادر، بيروت، د.ت، ج١، ص٤٦٠.

[2] – عن المؤامرة، ذكرت بعض المصادر أنهم أرادوا إلقاء حجر من أعلى حصن لهم كان عليه الصلاة والسلام مسنداً ظهره على حائطه، وترد روايات أخرى، كلها تصب في مصب الغدر برسول الله ﷺ، يمكن العودة والاطلاع عليها. ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٦٨٢؛ البستي: السيرة النبوية، ص١٣٠؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٤٩٩؛ الشامي، (محمد بن يوسف الصالحي، ت ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م): سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تح: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ج٤، ص٣١٧، ٣١٨.

[3] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٦٨٢، ٦٨٣.

[4] – الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٦٧.

الله بالخروج من المدينة، فأذِنَ لهم رسول الله بالخروج ومعهم ما حملته الإبلُ من أموالهم، إلاّ الحلقة –أي السلاح–، وجُعِلَ بعيرٌ لكلِّ ثلاثة نفرٍ، فتجهزوا وتجمّلوا وتحملوا على ستمائة بعير، وحملوا النساء والأبناء والأموال [1]. خرجوا من المدينة ومعهم المزامير والدفوف والقيان يعزفن، قسم استقر في خيبر، وآخرون تابع المسير إلى أذرعات من أرض الشام، وتركوا وراءهم مغانم كثيرة من غلالٍ وسلاحٍ بلغ خمسين درعاً وثلاثمائة وأربعين سيفاً [2]. كانت أراضيهم أخصب الأراضي، ظهر ذلك يوم بعاث، إلاّ أنهم خرّبوا بيوتهم قبل خروجهم حسداً وبغضاً [3]،واحتملوا منها الأبواب وما وافقهم من أخشابها[4]. وقد خصّ رسول الله ﷺ دور بني النضير للمهاجرين دون الأنصار، محققاً بذلك منفعتين على قدر كبير من الأهمية، مزيداً من الوحدة داخل المدينة باقتلاع العنصر الغريب المعادي وإضعاف عنصر الفتنة إلى حد كبير أولاً، وكذلك أمناً اقتصادياً خفّف العبء عن الأنصار الذين تحمّلوا إعالة المهاجرين ثانياً. وقد نزلت وقائع هذه الغزوة بسورة الحشر في القرآن الكريم بيّنت وقائعها وأحداثها.

ولم يختلف بنو قريظة في موقفهم عن كل من بني قينقاع والنضير، ولكن غدرهم جاء في مرحلة وظرف هو الأصعب والأشد خطراً على المدينة والمسلمين، من حيث تآمرهم مع المشركين في غزوة الأحزاب وغدرهم سنة ٥هـ/ ٦٢٦م، فكان لابد من عقابهم، فما إن رجع المسلمون من معسكرهم وقبل أن يخلدوا إلى الراحة، جاء الأمر بالتوجه إلى بني قريظة، فأذّن بلالٌ في الناس: إنّ رسول الله يأمركم ألاّ تصلوا العصر إلاّ في بني قريظة[5]. فخفّ المسلمون ولبسوا السلاح وركبوا حتى أتوا بني قريظة، وتتابعوا حتى اجتمع جمعهم، فأمر الرسول ﷺ بحصارها. ولم يجرؤوا على الخروج من حصونهم، على الرغم من

---

[1] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٣٧٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٥٣٦؛ دروزة: سيرة الرسول، ص١٩٧.

[2] – يتبنى باحث فكرة أن رسول الله ﷺ قد علم بممتلكات بني النضير، من الأسلحة خاصةً، من مخيريق الذي أسلم، واستشهد في غزوة أحد، أي أن الهجوم كان عن سابق نية وإصرار. وفي هذا الرأي من الغرابة الكثير.

– Wellhausen: Muhammad And The Jews, P. 26.

[3] – الكلاعي: الاكتفاء، ج١، ص٤١١؛ ابن النجار: الدرة الثمينة، ص١٣١، ١٣٢؛ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج١، ص٤٦٢.

[4] – وهذا العمل يرتبط بعقيدة تلمودية، وهي أن كل يهودي يعلق على نجاف داره صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني إسرائيل، بأن يحتفظوا بالإيمان بإله واحد لايبدلوه ولو عُذّبوا وقُتلوا. ويظهر أنّ اليهود في المدينة كانوا يصنعون تلك الصحيفة داخل النجاف، خوفاً من إتلاف الهواء، أو مسّ الأيدي، فلما رحلوا هدموا نجاف البيوت وأخذوها. ولفنسون: تاريخ اليهود، ص١٣٨.

[5] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٧١٣، ٧١٤؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٣٥٤.

منعتها، وتجهيزها بشكل جيد، ولم يحصل قتال غير تراشق بالنبل والحجارة، وجعل المسلمون يعتقبون فيعقب بعضهم بعضاً أي بشكل قطع متتابعة ومتعاقبة، وظلت الحال على هذا الشكل حتى أيقنوا بالهلاك، ودب الرعب فيهم[١].

يمكن القول بأن السرعة التي تحرك بها رسول الله ﷺ كان لها أثر كبير في سيطرته على الموقف، والانفراد ببني قريظة دون تمكينهم من تجهيز خطط للدفاع أو الاتصال بأي حليف يساعدهم سواء من اليهود أو من القبائل لتدعيم قوتهم، ولكان بإمكانهم استكمال أمورهم للدفاع والصمود إلا أن هذه الحركة المفاجئة لهم، وغير المتوقعة من المسلمين شلّت معنوياتهم وقضت على روح المقاومة فيهم[٢].

أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير، فلم يقبل بذلك، فطلبوا حقن دمائهم فقط والخروج بالنساء والذرية دون أي شيء معهم، فلم يقبل إلا بالنزول على حكمه. فأشار عليهم زعيمهم كعب بن أسد أن يسلموا فهم يعلمون صدق رسول الله، أو يقتلوا نساءهم وأطفالهم ويخرجوا مباغتين المسلمين على حين غرة، أو يخرجوا يوم سبتهم لأن المسلمين يأمنون فيه خروجهم، فيتمكنوا من قتالهم وهزيمتهم، ولم يوافق اليهود ولا على أي واحد منها، وما لبثوا أن نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فكان الحصار خمسة عشر يوماً[٣]. فأمر رسول الله بإخراجهم من الحصون، وجمع ما وُجد في حصونهم من الحلقة والأثاث والثياب، وأراد الأوس التوسط والشفاعة لهم، كما فعل عبد الله بن أُبي مع بني قينقاع، وسألوا رسول الله ﷺ أن يهبهم له وأكثروا عليه السؤال وألحّوا، فجعل الحكم فيهم لزعيم الأوس سعد بن معاذ، وكان سعد أيام الخندق قد ذهب إليهم للتوثق من بقائهم على الحلف، فلاقوه بشكل سيء ونقضوا عهدهم أي أنه لمس غدرهم وحقدهم على المسلمين عامةً، لذلك فعندما حكم فيهم حكم فيهم بناء على ذلك، فقد حكم أن تُقتل منهم المقاتلة، وتُقسّم الأموال، وتُسبى

[١] - ابن عقبة، (موسى، ت ١٤١هـ/ ٧٥٨م): المغازي، دراسة وتخريج: محمد باقشيش أبو ملك، مطبعة العارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٤م، ص٢٢٤، ٢٢٥.

[٢] - خطاب، (محمود شيث): الرسول القائد، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١م، ص٢٥٧؛ خليل، (عماد الدين): دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٤، ١٩٩٦م، ص٢٨٥، ٢٨٦.

[٣] - الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٠١، ٥٠٢.

الذراري والنساء، وأيده رسول الله ﷺ بقوله: حكم فيهم بحكم الله عز وجل، وكان قد استوثق من الأوس بتقيدهم بحكمه[١]، وما لبث أن توفي بعدها[٢].

كثيرةٌ هي الأحكام التي صدرت من باحثين معاصرين عن مصير بني قريظة، وأن له من القسوة ما يجعل ربط الإسلام بالذبح والقتل صفة ملازمة له، لكنّ إشارات وردت تبيح للباحث أن يتوقف ويعيد النظر ولو لبرهة في صحة أخبار مقتل ما يزيد عن خمسمائة شخص دفعةً واحدةً، وأن مدفنهم كان في المدينة في سوقها[٣].

بالعودة أولاً إلى بنود الصحيفة، فيها ذكر أن الفرد لا يؤخذ إلا بعمله وأنه كذلك لا يورط إلا نفسه، فالرسول ﷺ لم يكن يعاقب أو يقتص من أحد بذنب غيره ولم يطبق يوماً مبدأ العقاب الجماعي، كما أن ما ورد من قصة الزبير بن باطا، الذي تشفّع له ثابت بن قيس من الأنصار، فنجاه أولاً، ثم تشفّع لأسرته من الأسر والسبي، فحرّرهم له، ولم يقف الأمر هنا بل ردّ له ماله أيضاً، لكنّ الزبير بعد أن حصل على كل ما يريد، وعَلِمَ بمقتل سيد بني قريظة وساداتها، هو نفسه طلب من ثابت بن قيس أن يقتله، " لأنّ ما في العيش بعد هؤلاء من خير" [٤]، وتأتي رواية لابن طرخان، تذكر أن السبي يوم قريظة كان سبعمائة وخمسين رأساً، وأنّ رسول اللهﷺ أبقى منهم من العيال سبعة عشر، قسّمهم في أهله، أمّا الأسرى فقد جعلهم نصفين، نصف أرسله إلى الشام، والنصف الثاني إلى أرض غطفان، للبيع بالخيل[٥]. أي أنّ من أقدم المسلمون على قتله يوم بني قريظة، كان المقاتلون منهم، وكانوا أفراداً.

وهكذا لم يستطع اليهود التأقلم والتكيف وتقبل وجود المسلمين إلى جانبهم، فكما رفضوا وعادَوا الأوس والخزرج من قبل، فقد عادَوا المسلمين أيضاً، إلاّ أن دوافعهم لم تقتصر على الشعور بالمنافسة الاقتصادية، إنما اشتملت أيضاً على شعورهم بالحسد لظهور النبوة عند نبيٍّ عربيٍّ، وليس في بني

---

[١] – الطبري: تاريخ، ج٢، ص٥٨٧؛ البستي: السيرة ، ص١٤٨، ١٤٩.

[٢] – السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢، ص١٣٨.

[٣] – ابن هشام: السيرة، مج، ص٧١٩؛ ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٧٥.

[٤] – ابن الزبير: مغازي، ص١٨٨، ١٨٩؛ الطبري: تاريخ، ج٢، ص٥٩٠؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج١، ص٤٣٦. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٥١٣.

[٥] – ابن طرخان: السيرة الصحيحة، الورقة [١٦٥– و]

إسرائيل، فامتزجت الدوافع الدينية بالاقتصادية، مما جعلهم دائماً في الصف المعادي المستعد للغدر وإن تردد في البداية، خشية من العاقبة.

٢- التوجه خارج المدينة:

لقد قطعت الهجرة أي مجال للتفاهم والتواصل بين قريش وبين المسلمين، وظنت قريشاً بأن الأمر انتهى وأنها تخلصت من أمر هذه الدعوة التي مزّقت وحدتها، في حين جعل رسول الله ﷺ "قريش" المحور في كل ما قام به من إجراءات ضمن المدينة وخارجها، مستهدفاً إضعافها وتوجيه الضربات ضدّها، فهي في نص الصحيفة، التي نظمت الوضع داخل المدينة، العدو الأول للأمة الناشئة، ومحرّمٌ على أهل الصحيفة التعامل معها بأية صيغةٍ كانت[١]. كان رسول الله ﷺ مدركاً أهمية تجارتها ولا سيما مع الشام، وأهمية القبائل على طريق قوافلها، فكان التعرض لقوافل قريش التجارية سيضعف اقتصادها وهيبتها بين القبائل[٢]، ويجعلها تفكر جدياً بتغيير موقفها المعادي[٣]، لا سيما بأنه كان على قوافلها المسافرة بين مكة والشام أن تمر بين المدينة والساحل، حتى لو ظلّت أقرب ما يمكن من البحر الأحمر، فقد كان عليها أن تمر على مسافة (١٣٠ كم) من المدينة على الأقل، وهي بذلك بعيدة عن قواعدها في مكة بضعف مسافة بُعدها عن المدينة، فما كان على المهاجمين إلاّ الاهتمام بمن يرافق القافلة فقط، والعودة قبل ظهور أي جماعة من مكة للمساعدة[٤].

من جهة أخرى كان رسول الله ﷺ يرى أهمية تأمين استمرار تجارة المدينة مع الشام، للحفاظ على أمنها الغذائي، سواء بإرسال بعوث وسرايا إلى القبائل شمال الحجاز، وكذلك عدم السكوت عن أي اعتداء حصل على تجارة المدينة، والضرب على أيدي المعتدين، وتثبيت وجود المسلمين من خلال كتب ومعاهدات مع هذه القبائل.

---

[١] – وردت الصحيفة بالشكل الأكمل عند ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٣٥١_ ٣٥٤.

[٢] – هذه الهيبة التي حصلت عليها وتأكدت بعد أن قام هاشم بعقد الإيلاف، وهو مجموعة العقود التي عقدها هاشم مع القبائل على طول الطريق التجاري، أمّن لها مصالحها، وحققت نفعاً جراء ذلك، فحُرّم الاعتداء من خلاله على قوافل قريش. ابن حبيب: المنمق، ص٤٢، ٤٣.

[٣] – الشبول، (أحمد): علاقات الأمة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة، بحث مقدم في الندوة العالمية الثالثة (تاريخ الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين) في جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٩م، ج١، ص١٦١.

[4] – Watt: Muhammad, P. 2.

أ. استهداف قريش والضغط عليها لتغيير موقفها من الدعوة الإسلامية:

كثيراً ما كان أهل مكة يؤذون المسلمين الأوائل الذين كانوا يشتكون لرسول الله ﷺ، فيقول لهم ﷺ: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر ﷺفأنزل الله تعالى قوله:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]. فكانت هذه الآية أول آية أذن الله تعالى فيها للمسلمين بالقتال ورد العدوان، وقيل أنها نزلت بقومٍ أرادوا الهجرة ومنعتهم قريش من ذلك فأذن الله تعالى لهم بقتال المشركين الذين يمنعونهم من الهجرة[2]. فكان الغرض رد العدوان ومنع الاعتداء.

وبعد الاستقرار في المدينة نزل الوحي على رسول الله ﷺ بالسماح للمسلمين بالقتال ضد من قاتلهم وأخرجهم من ديارهم، بقوله تعالى:﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾[3] ، كانت هذه الآية أول آية مدنية نزلت بخصوص القتال، وفيها شرط عدم الاعتداء، فلا يقتلوا طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً [4]، أي أَذِنَ الله تعالى للمسلمين بالقتال ولكنْ قتال لا غدر ولا اعتداء فيه، قتال في سبيل إعلاء الحق وردّ الظلم. كان خروج رسول الله ﷺ للقتال وفق خطةٍ مدروسةٍ، وأهدافٍ واضحةٍ، فالبداية والأولوية كانت توجيه الجهود لإضعاف قريش، لتغير موقفها المعادي، والسعي في سبيل ذلك إلى الضغط عليها، فكان ذلك خلال السنوات الأولى.

---

[1] – سورة الحج، الآية ٣٩، ٤٠.

[2] – الثعلبي: الكشف والبيان، ص٣٣٧.

[3] – سورة البقرة، الآية ١٩٠، ١٩١.

[4] – الطبري: جامع البيان، ج٣، ص٥٦١، ٥٦٢.

١ – الأعمال العسكرية الأولى قبل غزوة بدر:

لم تمضِ سنةٌ على وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة حتى كان قد خرج على رأس سبعين رجلٍ متجهاً إلى **الأبواء**[١]، كان الهدف منها اعتراض عيرٍ لقريش، فقد كانت الأبواء ممراً لقوافلها، وفيها قبيلة بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فنتج عن هذه الغزوة أن وادعته بنو ضمرة[٢]، أي أنه ﷺ بدأ بمشروعه، واتخاذ الإجراءات ليصبح أمراً واقعاً.

وعقد كذلك رسول الله ﷺ لواء ثلاث سرايا توجهت غرباً إلى **رابغ**[٣] بقيادة عبيدة بن الحارث في ستين أو ثمانين راكباً، لقي جمعاً عظيماً من قريش لكن لم يحصل بينهم قتال، وفرّ إلى صفوف المسلمين المقداد بن عمرو البهراني وعتبة بن غزوان، وهما حليفان لبني زهرة وبني عبد مناف على التوالي، كانا خرجا مع المشركين للتوصل إلى المسلمين[٤]، وسرية توجهت نحو **سيف البحر** من ناحية **العيص** بقيادة حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكباً، لقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب وحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعاً للطرفين فلم يحصل قتال. وسرية إلى **الخرّار** من أرض الحجاز بقيادة سعد بن أبي وقاص في ثمانية من المهاجرين لم يلق كيداً [٥].

وما لبث أن خرج رسول الله ﷺ إلى **بُوَاط** قرب ينبع[٦] يريد قريشاً لكنه لم يلقَ كيداً، وبعدها إلى **ذي العُشيرة** من بطن ينبع يعترض خروج قافلة لقريش خرجت إلى الشام ففاتته، فوادع فيها بني مُدلج وحلفاءهم ثم رجع. ولم يتوانَ ﷺ عن مطاردة وملاحقة كرز بن جابر الفهري الذي أغار على سرح

---

[١] – الأبواء: وادٍ من أودية الحجاز التهامية، بين مكة والمدينة، ويبعد عن ودّان ستة أميال، لذا سميت هذه الغزوة بالأبواء وكذلك ودّان. السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٤٦٨؛ العلي: دولة الرسول، ص٢٨٤؛ البلادي، (عاتق غيث): معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة، مكة، ط١، ١٩٨٢م، ص١٤.

[٢] – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٢٢.

[٣] – رابغ: وادٍ بين الجحفة والأبواء. الحموي: معجم، ج٣، ص١١.

[٤] – اختلفت المصادر في تحديد أولى السريتين، وبالمحصلة أن رسول الله عقد لهما بنفس الوقت، ولكن خروج أحدهما تأخر عن الأخرى. ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٤٣٣؛ الطبري: تاريخ، ج٢، ص١١.

[٥] – ابن هشام: السيرة، مج١/ ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٦؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج١، ص٣١٧_ ٣٢٠.

[٦] – بُوَاط: جبل من جبال جهينة بناحية رضوى على سبع مراحل من المدينة. ابن هشام: السيرة، مج١/ ٤٣٤؛ الطبري: تاريخ ، ج٣، ص١٥٢.

المدينة، حيث خرج في إثره حتى وصل وادي سفوان من ناحية بدر[١]، لكن كرز فاته، فكانت هذه غزوة بدر الأولى[٢].

وهكذا يكون رسول الله ﷺ قد مهّد لمرحلة ستكون أشد على قريش، عندما نحّى هذه القبائل جانباً، من خلال هذه المعاهدات التي عقدها معها، أي بدأ بضرب الإيلاف من جهة، ومن جهة أخرى إيصال فكرة عدم التهاون أو التسامح في المرور ضمن الأراضي القريبة من المدينة دون الإذن بذلك، ولا سيما من جهة البحر، حيث عُدّت من حرم المدينة، وكذلك الضرب على أيدي المعتدين على أرضها، ككرز الفهري.

وجاءت سرية "**نخلة**" من ضمن الخطة التي بدأها رسول الله ﷺ ، إذ أرسل عبد الله بن جحش وبرفقته نفر[٣]، بشكل سري ومختلف عما سبق، لم يعلموا بوجهتهم إلا بعد مسير يومين من المدينة، حيث أعطاه رسول الله رسالةً أوصاه ألاّ يفتحها إلاّ بعد مسير يومين من المدينة، وألاّ يُكره أحداً على الذهاب معه بعد معرفة الوجهة، كان الأمر بالتوجه إلى منطقة تدعى **نخلة** بين مكة والطائف[٤]. ولما وصلوا المكان المحدد، وإذ مرّت عيرٌ لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارةً من تجارة قريش، وبعد تردد قاموا بمهاجمة القافلة، قتلوا رجلاً منها، وأسروا اثنين، وأفلت رجلٌ منهم، ورجعوا بما غنموه مع الأسيرين إلى المدينة، وكان ذلك في آخر يوم من رجب وهو شهر تحرم العرب فيه القتال[٥]، الأمر الذي استفادت منه قريش وراحت تظهر المسلمين بمظهر المعتدي الذي لا يراعي الحرمات ولا المقدسات، وكان للأمر صداه

---

[١] – بدر: وادي مشهور بين مكة والمدينة، أسفل وادي الصفراء، يبعد عن المدينة ما يقارب ١٥٥ كم. الحموي: معجم، ج١، ص٣٥٧؛ البلادي: معالم السيرة، ص٤١.

[٢] – تختلف هذه الغزوة بتفاصيلها عما ورد عند ابن أبي شيبة وهي غزوة على حي من كنانة إلى جنب جهينة، وقد كانت جهينة قد وادعت رسول الله دون أن تسلم، وهي في رجب في شهر حرام، حصل فيها قتال، فالتجأ المسلمون إلى جهينة فمنعتهم، تلاوموا فيما بينهم لأنهم أغاروا في شهر حرام، وترددوا في أقامة أو العودة، ولما رجعوا وأخبروا رسول الله الخبر، فغضب لتفرق رأيهم، وقرر إرسال شخص ذا رأي وصبر وشجاعة فأرسل عبد الله بن جحش. ابن أبي شيبة: كتاب المغازي، ص١٧٣.

[٣] – يجعلهم ابن إسحق ثمانية نفر، السيرة النبوية، مج١، ص٤٣٧؛ وهم اثنا عشر عند الواقدي: المغازي، ج١، ص١٧. الطبري: تاريخ، ج٢، ص٤١٠.

[٤] – ابن عقبة: المغازي، ص١٢٠؛ البلادي: معالم السيرة، ص٣١٧.

[٥] – كان يسمى شهر رجب قبل الإسلام شهر الله الأصمّ، لأنه كان لا يُسمع فيه صوت مستغيث ولا حركة قتال ولا قعقعة سلاح، لكونه شهراً حراماً. ابن منظور: لسان، ج١٢، ص٣٤٤، مادة (صمم).

في المدينة، وأوقف الرسول ﷺ أمر غنائم هذه السرية[1]، حتى نزل الوحي مؤيداً لعمل عبد الله بن جحش، ويحث المسلمين على القتال بقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾[2]. لأن ما فعلته قريش وتفعله هو أشد عند الله من القتال في شهر حرام[3]. وكان الوحي قد نزل قبل هذه الآية بالسماح للمسلمين الذي اضطهدوا بالقتال والدفاع عن أنفسهم ودينهم. وكأن رسول الله ﷺ قد أراد في البداية من هذه السرية الاستطلاع فقط، تمهيداً لعمل قادم يكون مؤثراً أكثر، وهذا ما يفسر أمر التأنيب إن حصل للمقاتلين، أو أمر تأخير قسمة الغنائم. إلاّ أنه ولا شك دليل واضح على أن الاستهداف سيشمل كافة الطرق والممرات التي كانت تستخدمها قريش للعبور ونقل تجارتها.

في هذه الآونة نزل الوحي بتغيير القبلة إلى الكعبة بعد أن كان المسلمون يتجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس في قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[4]، وفي هذا ردٌّ على كل ما أشاعته قريش فأظهر زيف دعواها وبطلانها، وتأكيد الصلة بالنبي إبراهيم . وكذلك فيه رسالة إلى قريش بأن للكعبة مكانة وقدسية في الإسلام وعند المسلمين، فالاتجاه أصبح نحوها، ويصب في الوصول إليها وتطهيرها مما أحدثوه فيها.

بدأت مرحلة جدية، توضحت فيها العلاقة بين المدينة ومكة، أصبحت فيها قريش مستهدفة، وتجارتها في خطر، وكذلك هيبتها ومكانتها بين القبائل، وكان ذلك نتيجة التحركات التي بدأتها دولة المدينة بقيادة رسول الله ﷺ والتي عبرت عن خطة دقيقة مدروسة، تهيأ خلالها المسلمون وكانوا على درجة عالية من الحماس، وهم رهن إشارة رسول الله ﷺ.

[1] – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٣٨.

[2] – سورة البقرة، الآية ٢١٧.

[3] – الطبري: جامع البيان، ج٤،ص٣٠٢_ ٣١٦.

[4] – سورة البقرة، الآية ١٤٤.

٢- غزوة بدر الكبرى وآثارها (٢هـ/ ٦٢٣م):

كان لقريش عيونٌ تخبرهم بتحركات المسلمين بموجب الإيلاف، لذا فإنها استطاعت الإفلات منهم عندما خرج سعد بن أبي وقاص إلى الخرّار، وكذلك في غزوة بواط حيث سلكت قافلة قريش طريقاً غير طريق القوافل المعتادة وأسرعت بالحركة، وهذا ما حدث في غزوة ذي العشيرة حيث تمكنت القافلة من العبور إلى الشام وفاتت المسلمين، فبدأت قريش تشعر بثقل ما يجري وبتضييق المسلمين عليها، وخاصة بعد سرية عبد الله بن جحش التي استهدفت مكاناً قريباً من مكة، ولم تراعِ حرمة الشهر واستطاعت الاستيلاء على القافلة وهزيمة من يرافقها. في حين استمر رسول الله ﷺ، بعد نزول الوحي إثر سرية عبد الله بن جحش، في سياسته الهادفة ضرب قريش من خلال استهداف مصالحها التجارية.

آن للقافلة التي أفلتت من المسلمين في ذي العُشيرة، أن ترجع من رحلتها التجارية في الشام، فلما اقترب الموعد أرسل رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن نفيل ينتظرانها في موضع على طريق الشام – مكة، ولما مرت بهم أرسلا يخبران رسول الله ﷺ، وكان ﷺ قد انتدب الناس للخروج قبل أن يأتيه الخبر حتى لا تفوت المسلمين كما حصل من قبل، وقال لهم: "هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعلّ الله ينفلكموها"، وأسرع قسم من المسلمين مهاجرين وأنصار بالخروج مع رسول الله في حين بقي البعض الآخر لأنهم لم يظنوا أن قتالاً سيقع[١]، وتحركت القوات من المدينة في الثامن من رمضان السنة الثانية للهجرة[٢]. وردّ رسول الله ﷺ من خرج مع المسلمين من أجل الغنيمة وليسوا مسلمين، فمنهم من أسلم كخُبيب بن يساف وتابع معهم، ومنهم من لم يُسلم ورجع إلى المدينة[٣].

كان أبو سفيان على رأس القافلة، وكان قد بلغه خروج المسلمين لها وقت خروجها إلى الشام فخشي اعتراضهم لها في وقت العودة، لذلك كان حذراً متنبهاً لأخبار تحركات المسلمين، واستطاع معرفة أمر خروجهم لاعتراضه[٤]، فأرسل إلى قريش رجلاً من غفار مستنجداً بهم لحماية القافلة وفيها أموالهم، وكان أهل مكة جميعاً قد اشتركوا في هذه القافلة، لم يبق أحد منهم من الرجال والنساء من استطاع أن

---

[١] – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص١٢.

[٢] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٤٤٧؛ ابن عبد البر: الدرر، ص١٠٢؛ يجعلها الواقدي في ١٢ رمضان، المغازي، ج١، ص٢١.

[٣] – الواقدي: المغازي، ج١، ص٤٧.

[٤] – السهيلي: الروض الأنف، ج٥، ص٨٢.

يساهم فيها بحظ إلا فعل، وقُدّر ما فيها بحوالي خمسين ألفاً من الدنانير[١]. واستنفر أبو جهل أهالي مكة للخروج، لم يبقَ بمكة متخلّف قادرٌ على حمل السلاح، إلاّ أبو لهب، عمّ رسول الله ﷺ، ولكنه أرسل مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، فكانوا بين رجلين إما خارج أو باعث مكانه رجلاً، وكان عددهم تسعمائة وخمسين رجلاً، أخرجوا معهم مئة فرس وسبعمائة بعير وكان الخيالة كلهم دارع، وفي الرجالة أيضاً دروع[٢].

عادت القافلة التي خرجت إلى الشام، محملةً ببضائع ومنتجات لتبيعها، وتجني من خلالها الأرباح، ووفقاً لبعض الإشارات التي وردت في بعض المصادر، فإن بدراً كان هو المكان المخصص لبيع هذه السلع وتصريفها، فهو كان أحد أسواق العرب[٣]، ويعزز ذلك ما أورده الواقدي من حديث جاريتين من جواري جهينة، تقول إحداهما للأخرى بأن العير ستكون في اليوم التالي أو بعده في بدر، وتعدها برد درهم كان عليها ديناً للجارية الأخرى، وإصرار أبو جهل على ورود ماء بدر حتى تسمع بمسيرهم العرب[٤]. ولا بد أن رسول الله ﷺ كان على علم بهذا الأمر، وإرساله العيون كان تأكداً من وصول أو اقتراب القافلة من بدر.

أسرع أبو سفيان في مسيره بالقافلة وكان يريد أن يدنو من ماء بدر، لكن معرفته بقرب المسلمين منها، جعله يأخذ طريق الساحل ويسرع في السير حتى وصل مكة بأمان وسلام، في الوقت الذي تابعت قريش مسيرها عندما وصلت الجحفة أرسل أبو سفيان يعلمها بوصوله بأمان إلى مكة، ويأمرهم بالرجوع، لكن قريش بزعمائها رفضوا الرجوع وأصروا على مواجهة المسلمين وفرض هيبتهم بالوصول إلى بدر والمكوث فيها ثلاثة أيام في سوقها، لكن رجع منهم بنو زهرة [٥].

---

[١] – كانت العير ألف بعير والمال خمسين ألف دينار، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٧، ٢٠٠.السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٤٧٨.

[٢] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٤٤٥؛ الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٨، ٣٩.

[٣] – كانت أسواق العرب القديمة: عدن، مكة، الجند، نجران، ذو المجاز، عكاظ، بدر، مجنة، حجر اليمامة، هجر، البحرين. ابن الحائك الهمذاني: صفة جزيرة العرب، ص٢٩٦؛ السهيلي: الروض الأنف، ج٥، ص٩٦.

[٤] – الواقدي: المغازي، ج١، ص٤٠، ٤٤؛ السهيلي: الروض الأنف، ج٥، ص٩٤.

[٥] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٤٥٢_ ٤٥٤؛ الواقدي: المغازي، ج١، ص٤٤.

عندما اقترب المسلمون من بدر علموا بخروج قريش للقائهم، تبدل الموقف فجأة وانقلب الوضع، أدرك رسول الله ﷺ ما يتبع أي قرار من عواقب، في حال الإقدام وفي حال الرجوع، كان مدركاً لخطورة الوضع، فاجتمع بالناس، واستشارهم، أجابه المهاجرون بما يرضيه، ولكنه أراد الأنصار فجاءه ما يرضيه على لسان سعد بن معاذ بقوله: امضِ يا رسول الله لما أردت، فو الذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصبرٌ عند الحرب، صدقٌ عند اللقاء[١]، فتوحد قرار المسلمين على خوض المعركة، ولو أنها غير متكافئة. وكان رسول الله ﷺ قد استعمل عبد الله بن أم مكتوم في المدينة على الصلاة أثناء غيابه عليه السلام، ولكنه ما لبث أن أرسل أبا لبابة واستعمله على المدينة[٢]، واستعمل على أهل العالية عاصم بن عديّ العجلانيّ، وردّ الحارث بن حاطب العمريّ إلى بني عمرو بن عوف[٣]، لابد أن هذا الإجراء كان من ضمن الإجراءات الاحترازية والوقائية من أية حركة قد يقوم بها اليهود، أو القبائل التي لم تكن قد أسلمت بعد.

كان المسلمون ثلاثمائة وخمسة أو عشرة[٤]، ثلاثة وثمانون من المهاجرين على أكثر تقدير والبقية من الأنصار، وبرفقتهم سبعين بعيراً كانوا يعتقبونها، كل اثنين منهم وكل ثلاثة يعتقبون بعيراً وفرسين اثنين فقط، والفرق واضح بين قوة المسلمين وقوة المشركين من حيث العدد والعتاد، وعقد ﷺ الألوية وهي ثلاثة، وجعل اللواء العام مع مصعب بن عمير وكان أبيض، وراية مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب، وراية مع بعض الأنصار[٥]. وفي ليلة الجمعة لسبع عشرة من رمضان نزل المسلمون وادي بدر، وهناك كان المشركون أيضاً يفصل بينهما كثيب رملي صغير ولا يعلم أحدهم بمنزل الآخر، وعند الماء

[١] – الطبري: تاريخ، ج٢، ص٤٣٥.
[٢] – السهيلي: الروض الأنف، ج٥، ص٨٨، ٢٦٧.
[٣] – ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١، ص٢٨٦.
[٤] – الطبري: تاريخ، ج٢، ص٤٣١. يعدد جميع الأقوال في عددهم. عددهم السمهودي ثلاثمائة وبضع عشر، وفاء الوفا، ج١،ص٤٧٠.
[٥] – ابن هشام: السيرة، مج١، ٤٤٧.

لقي من أرسله رسول الله ﷺ سقائي قريش فأخذوهم إلاّ واحد استطاع أن يوصل الخبر إلى قريش، فعلم المسلمون والمشركون بمنزل الآخر، وبدأ الاستعداد الأخير لما قبل المعركة[١].

نزل المسلمون منزلاً جعلهم مسيطرين على كل الماء بالوادي ومتحكمين فيه غوروا الآبار كلها، واتخذوا لرسول الله ﷺ عريشاً يتولى منه قيادة المعركة، وكان المنزل والعريش بمشورة ورأي من الأنصار فقد كانوا على معرفة ودراية بأمور القتال نتيجة ما شهدوه في المدينة قبل الإسلام، ليصبح هذا الأمر متبعاً فيما بعد في كل الغزوات[٢]، فمقام النبوة كان يقتضي اتخاذ هذا الإجراء وكذلك إدارة المعركة تتطلب هذا الأمر، كما قام سعد بن معاذ مع رجال من الأنصار بحراسة رسول الله في العريش[٣]. وبدأ ﷺ بترتيب المقاتلين، فجعلهم في صفوف وحثّهم وشجعهم على القتال وأعطاهم تعليمات وأوصاهم بالطاعة، ألا يحملوا على المشركين حتى يأذن لهم، وأن ينضحوا المشركين بالنبل حتى يأمرهم بالقتال، وجعل لهم شعار يتنادون به أثناء القتال. كانت خطة رسول الله ﷺ إعطاء المشركين فرصة البدء بالهجوم ، فإذا أصبحوا على مرمى النبال أمر بالرمي الغزير عليهم فيضعضع صفوفهم ويخلخلها نتيجة الإصابات التي يحققها الرمي بالمهاجمين[٤].

بينما تبدل حال المشركين بعد معرفتهم بقرب المسلمين من معسكرهم، حيث باتوا يحرسون المعسكر حتى الصباح خشية هجوم المسلمين عليهم، وكذلك كان هناك رأي بالرجوع والعودة فالقافلة التي خرجوا لحمايتها قد نجت، ولا داعي للقتال ولاسيما وأن الأوس والخزرج هم قوم حرب، فخرجوا متحدين في الرأي لكنهم باتوا الآن متفرقين مختلفين دون زعيم واحد.

في صبيحة يوم الجمعة بدأ القتال بمبارزة فردية خرج فيها من المشركين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، وخرج إليهم من المسلمين حمزة عم الرسول ﷺ وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث،

---

١ – ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١، ص٢٩٠.

٢ – يوضح السهيلي هذا الأمر بأن جهاد رسول الله في المعركة كان بشدة اجتهاده بالدعاء عندما رأى أنصار الله يخوضون غمار الموت. ويتابع شرحه للموقف بأن الجهاد على ضربين جهادٌ بالسيف وجهادٌ بالدعاء، ومن سنة الإمام أن يكون وراء الجند لا يقاتل معهم. الروض الأنف، ج٥، ص١٣٠.

٣ – ابن القيم، (محمد بن أبي بكر، ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م): زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٧، ١٩٩٤م، ج٣، ص١٦٥.

٤ – عرموش(أحمد راتب): قيادة الرسول السياسية والعسكرية، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٩١م، ص٤٨.

فقتل علي الوليدَ، وقتل حمزة عتبةَ، وأصاب شيبة رِجلَ عبيدة، فكرّ علي وحمزة على شيبة فقتلاه واحتملا عبيدة، واستشهد بعد ذلك على إثر الضربة في الصّفراء[1]. وأمرهم رسول الله بألا يقاتلوا حتى يأذن لهم، وإن هاجمهم المشركون أن يرموهم بالنبل والسهام، وتقيد المسلمون بذلك[2]، وكان تصويبهم دقيقاً ومسيطراً عليه والتزموا بأوامر رسول الله ﷺ. واستطاعوا بعثرة قوات المشركين، بعد سقوط سادتهم قتلى، وما لبثوا أن تراجعوا وطاردهم المسلمون، وكانت الغنائم كثيرة[3]، ونزلت سورة الأنفال تبين كيفية تقسيمها، وبردّ الأمر لرسول الله ﷺ.

معنويات عالية وإيمان عميق والتزام بأوامر رسول الله ﷺ أهم ما ميز جيش المسلمين فضلاً عن القيادة الواحدة، شجاعة المسلمين جعلت أسباب النصر متكاملة رغم التفاوت بالعدد والعتاد، وكان رسول الله ﷺ حاضراً يشرف على ساحة القتال، مبشراً مقاتلته بعون الله تعالى لهم وإمدادهم بجيش من الملائكة[4]، نافخاً فيهم روح العزيمة والثبات والتضحية.

كانت معركة بدر معركة ماء، فقد سيطر المسلمون فيها عليه وغوروا الآبار بعد أن بنوا حوضاً للماء في بدر وملؤوه فشربوا، بينما حرم ذلك المشركون. وكان للموقع الذي اختاره ﷺ له أثر في سير المعركة فقد استقبل المغرب فكانت الشمس وراء المسلمين بينما استقبلها المشركون ولا ماء عندهم، الأمر الذي أرهقهم[5].

وكانت حصيلة شهداء المسلمين أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وسبعين قتيلاً من المشركين أمر رسول الله ﷺ برميهم في بئر القليب وردم التراب عليهم[6]، وأسر سبعين أيضاً، وأمر ﷺ بقتل شخصين صبراً، هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط لشدة ما آذوا رسول الله

---

[1] – ابن الزبير: مغازي، ص١٤١؛ الواقدي: المغازي، ج١، ص١١٢؛ ابن القيم: زاد المعاد، ج٣، ص١٦٠.

[2] – الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج٤، ص٣٥.

[3] – خطاب: الرسول القائد، ص١١٢.

[4] – سورة الأنفال الآيات ٥_ ١٩ تُظهر نصر الله تعالى للمسلمين وإمدادهم بجيش من الملائكة.

[5] – الواقدي :المغازي، ج١، ص٥٦؛ خطاب: الرسول القائد، ص١٢٤،

[6] – ابن عبد البر: الدرر، ص ١٠٩، ١١٠.

ﷺ في مكة، وذلك أثناء العودة إلى المدينة، فضرب عنق النضر في الصفراء بعد توزيع الغنائم، وعنق عقبة لما نزل عرق الظبية قبل الوصول إلى المدينة[1].

كانت معركة بدر أول اصطدام مسلح مع قوة قرشية عسكرية كبيرة نسبياً وهي عازمة على قتال المسلمين، هي بالنسبة للمسلمين دقيقة جداً، لأن المهاجرين تعرّضوا لأول مرة كلهم لخطر القتال مع قريش، وهم الأساس الذي يعتمد عليه رسول الله ﷺ حتى آنذاك، هم جوهر الإسلام والأكثر فهماً له وأشدهم تمسكاً به، فتدمير المهاجرين يعرض سلطة الرسول ﷺ والدعوة للخطر الجسيم، وكان رسول الله ﷺ مدركاً هذا الأمر، حيث رجع إلى العريش بعد أن صفّ المسلمين وناشد ربه ما وعده من النصر ويقول: " اللهمّ إنْ تَهلِكْ هذه العِصابةُ اليومَ لا تُعبَدْ"، ولكثرة دعائه أشفق عليه أبو بكر، وكان برفقته في العريش[2].

دخلت المدينة بعد هذه المعركة في صف المواجهة بشكل عملي وعلني ضد مكة، والأنصار ضد المشركين، وكان لها آثار عميقة، فقدت فيها مكة كثيراً من سادتها وأسر الكثير من رجالها ومنهم ذوي مكانة، الأمر الذي جعل صدور الباقين تغلي تريد الثأر من المسلمين.

وقد اختلف الحال عند المسلمين وفي المدينة، فقد رجع المسلمون وهم أكثر ثقة وقوة مما كانوا عليه لم يعد أمر التعدي عليهم داخل المدينة أمر من الممكن أن يمر دون عقاب، فقد كانوا قبل بدر يتعرضون لمضايقات من قبل المشركين واليهود من أهل المدينة، يظهر ذلك من قوله تعالى:﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾[3]، لكنّ الوضع تغير بعد بدر، حيث لم يعد هؤلاء يجرؤون على ذلك كما أن العقاب الذي أصدره رسول الله اتجاه هؤلاء جعلت أمر هذه المضايقات أمراً خطيراً لن يمر دون عقابٍ قاسٍ، وتذكر المصادر سرية عمير بن عدي الخطمي،

[1] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٤٧٣، ٤٧٣؛ المقريزي: رسائل، ١/ ٢٧.

[2] – السهيلي: الروض الأنف، ج٥، ص١٠٥؛ ابن أبي شيبة: كتاب المغازي، ص١٩٤، يورده بلفظ مختلف: اللهم انصر هذه العصابة فإنك إن لم تفعل لم تعبد في الأرض. العلي: دولة الرسول، ص٢٣٠. هيكل: حياة محمد، ص٢٧٦.

[3] – سورة آل عمران، الآية ٣. الواقدي: ١٨٥.

وسالم بن عمير[1]، وإجلاء بني قينقاع[2]، وقد وجهت هذه السرايا تباعاً للتخلص من أشخاص تعدّوا على المسلمين عامة بألسنتهم وعلى رسول الله ﷺخاصة، وكان لهم تأثيرهم على قومهم حيث كان للعصماء بنت مروان دورٌ في تأخّر بني خطمة عن الإسلام، وأبو عفك كثيراً ما يحرّض على رسول الله ﷺ وكان شيخاً كبيراً بلغ من العمر مئة وعشرين سنة[3]. فبدأ من كان له نفس موقف هؤلاء يفكر بعواقب موقفه ويراجع حساباته.

كان هدف الحفاظ على المدينة من الاعتداء والاجتراء عليها هدفاً دائماً حاضراً عند رسول الله ﷺ، وعلى درجة من الأهمية. فما كانت ترد إليه أنباء عن رغبة إحدى القبائل الهجوم على المدينة، حتى يبادر ﷺ إلى التحقق من صحة الخبر ومفاجأة القبيلة، قبل أن تقوم بأي تحرك، بهجوم مباغت ومحبط لخططها مستخدماً أسلوب الهجوم الدفاعي. وهذا ما حصل في سرايا وغزوات أرسلها ﷺ بعد غزوة بدر ضد بني سُليم بالكُدْر[4]، وغطفان بنو ثعلبة ومحارب في نجد بذي أَمَر، وهناك حاول رجل يدعى دعثور قتل رسول الله ﷺ[5]، وغزوة بُحْران ضد بني سُليم[6]. إن ارتباط مصالح هذه القبائل مع تجارة قريش كان له أثر في اتخاذ هذا الموقف من المسلمين، نتيجة توقف الطريق وبالتالي تهديد حياة هذه القبائل.

أما **قريش** فلم يهدأ لها بال، فكلّ فرد منها كان مُصاباً، بمن أُسر أو قُتل، وتأخرت في فداء أسراها، لكي تحافظ على كبريائها وعجرفتها، وحاول صفوان بن أمية أن يدبر أمر اغتيال رسول الله ﷺ بإرسال عُمير بن وهب الجُمَحيّ مقابل أن يؤدي عنه ديونه، ولكن عمير أسلم ورجع إلى مكة وأخذ يدعو إلى الإسلام، فأسلم معه بشرٌ كثيرون[7].

كذلك خرج أبو سفيان في مئتي راكب، للثأر من المسلمين فتقدم إلى أطراف المدينة الجنوبية الشرقية، وكان قبل ذلك قد نزل على سلاّم بن مشكم اليهودي من بني النضير، لابد وأنهما قد ارتبطا

---

[1] – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ٢٧، ٢٨.

[2] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ٥٧٣، ٥٧٤؛ ابن القيم: زاد المعاد، ج٣، ص١٧٠.

[3] – ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١، ص٣٤٠.

[4] – ابن حزم: جوامع السيرة، ص١٥٢؛ ابن القيم : زاد المعاد، ج٣، ص١٦٩.

[5] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٥٧٢.

[6] – البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٣٧٥_ ٣٧٩.

[7] – الواقدي: المغازي، ج١، ص١٢٥_ ١٢٧.

بمصالح اقتصادية فكلاهما تاجران ومرابيان، فاستقبله وسقاه خمراً، وأخبره من أخبار النبي ﷺوأصحابه، وبعد عودته خرج بأصحابه إلى المدينة من ناحية يقال لها وادي العريض فوجد هناك رجلاً من الأنصار يحرث أرضه مع غلامه، فقتلهما وأحرق الحرث كما حرق بيتين وفرّ هارباً خوفاً من الطلب، كان غرضه إشعار المسلمين بأن بدراً لم تقضِ على قوة قريش، وأن الصراع بينهما لمّا ينتهِ بعد[1]. وخرج ﷺ والمسلمون على إثره، فكان أبو سفيان وأصحابه يرمون السّويق أثناء الفرار فسميت بغزوة السويق (والسويق هو قمح أو شعير يطحن ويقلى ويتزود به ملتوتاً بماءٍ أو سمنٍ أو عسل) وقد غنمه المسلمون أثناء المطاردة[2]. إلا أن هذا العمل لم يرض قريش ولم يأخذ بثأرهم، فأخذوا يتحضرون لعمل آخر.

لقد أصبح طريق التجارة بين مكة والشام مهدداً وشبه متوقف، والتجارة بالنسبة لقريش هي عصب الحياة، ومن دونها لا تستطيع الاستمرار، ولم يقتصر استهداف المسلمين قوافل قريش على طريق الشام، بل كذلك شمل طريقها إلى العراق، فعندما خرجت لقريش قافلة إلى العراق، بعد بدر، وفيها أشراف قريش، أبو سفيان وصفوان بن أمية وعبد الله بن أبي ربيعة وحويطب بن عبد العزى، وكانت تحمل فضةً وبضائع ما قدرت قيمته المصادر بمئة ألف درهم، فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة على رأس سرية من مئة راكب لاعتراضها، فوصلت إلى عين تسمى القَرَدَة، اعترضوا القافلة واستطاعوا أخذها هذه المرة حيث فرّ من كان برفقتها، وأصابوا العير، وأسروا الدليل، ورجع زيد بالغنيمة فخمّسها رسول الله ﷺ، وبلغ قيمة الخمس عشرون ألف درهم[3]. فتكامل الحصار على مكة، وأصبحت تجارتها في خطر شديد، وحياتها واستمرارها مهددة، فما كان من حل أمامها إلا القيام بعمل عسكري تحاول فيه إثبات قوتها ووجودها، وتضمن سلامة طرقها، فكانت معركة أُحد.

• غزوة أحد (٣ هـ/ ٦٢٤م):

في هذه الغزوة تعرضت المدينة لخطر أشد من يوم بدر، فقد دنت قوات المشركين منها شمالاً، ورعت إبلهم وخيلهم زروعها، وكانت فرقة الفرسان قريبة جداً حتى كادت تدخل المدينة، وتعدادهم كان

---

[1] – ابن حزم: جوامع السيرة، ص١٥٣.

[2] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٥٧١؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٣٧٣؛ الطبري: تاريخ، ج٢، ص٤٨٥؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٢٢٣.

[3] – ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٥٧٥؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص٢٢٩؛ هيكل: حياة محمد، ص٢٩٦.

ثلاثة أضعاف تعدادهم يوم بدر، وكذلك تجهيزهم وعتادهم، ويزيد على ذلك ما حملوه من حقد ورغبة في الثأر من المسلمين لقتلاهم يوم بدر.

بدأ نفوذ قريش يتقلص ما بين مكة والمدينة ولا سيما بعد سرية ماء القَرَدة التي أظهرت بأن كل الطرق مستهدَفة من قبل المسلمين وأن تجارتها أصبحت مهددة،، كما أن هزيمة بدر كانت لا تزال ماثلة وحاضرة في أذهانهم ورغبتهم بالثأر لها لم تشفِها غزوة السويق، هذه الأمور مجتمعة دفعت قريش للبحث عن حل لفك هذا الحصار، فكان القيام بعمل عسكري هو الحل الذي طُرح، حيث اجتمع ملأ قريش وقرروا وقف أرباح القافلة وجعلها لتجهيز جيش كبير للقيام بعمل عسكري يثأرون به لقتلاهم[١]، وتم التجهيز على أحسن وجه، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[٢]. فخرجت قريش وبرفقتها أحابيشها[٣] من بني المصطلق والهون بن جذيمة، وكذلك ثقيف وقبائل من العرب، في ثلاثة ألوية، وكانوا ثلاثة آلاف، أخذوا معهم من العدة والسلاح الشيء الكثير، معهم مائتي فرس وثلاثة آلاف بعير، ومن بينهم سبعمائة دارع، كما خرجت معهم النساء[٤].

ذكرت المصادر أن العباس أرسل مع رجل من بني غفار كتاباً إلى رسول الله ﷺ يخبره بمسير قريش وعددهم وعدتهم، وكذلك وصلت أنباء تحركهم إلى رسول الله عن طريق نفر من خزاعة وافوا معسكر المشركين بذي طوى أثناء سيرهم إلى المدينة، فأخبروا الرسول بخبرهم وخرجوا من المدينة، فوافوهم كذلك في رابغ، على ليالٍ من المدينة، وقد أدرك أبو سفيان أن أخبار تحركهم وصلت إلى المدينة[٥].

---

[١] – ابن كثير: تفسير، ج٤، ص٥٣.

[٢] – سورة الأنفال، الآية ٣٦.

[٣] – تذكر المصادر أن قبائل الأحابيش: هي عضل والقارة والديش من بني الهون بن خزيمة، ورعل وذكوان، وبنو الحارث ابن عبد مناة بن كنانة، وكذلك بنو المصطلق، تحالفوا عند جبل بأسفل مكة، يسمى حبشي، فسُمّوا الأحابيش لتحالفهم عنده، وكان حلفهم لقريش من أيام قصي بن كلاب. ابن حبيب: المنمق، ص٢٣٠، ٢٣١؛ الفاكهي، (محمد بن إسحاق، ت ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م): أخبار مكة، تح: عبد الملك دهيش، دار خضر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م ج٥، ص١٦٤.

[٤] – الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٠١_ ٢٠٤.

[٥] – الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٠٣_ ٢٠٥.

لما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، أرسل من يأتي بخبر قريش بأي مكان، فوجدوهم قد عسكروا شمال المدينة، وسرحوا إبلهم وخيلهم في الغابة، وأرسل من يقدّر لهم عددهم وعدتهم، فجاءه التقديركما وصلته أخبارهم، وكان المسلمون قد زرعوا في المنطقة التي نزل فيها المشركون في الشمال، بين العرض إلى الجرف إلى العرصة شمالاً، وكانت منازل بني سَلَمَة، وحارثة، وظفر، وعبد الأشهل متوزعة بها، فخرّبت دوابهم الزرع ولم يبقَ منه شيء. وقد عَلِمَ المسلمون، بذلك وبقرب المشركين من المدينة، بعد اعتدائهم على أحد المسلمين من الأنصار، فباتوا يحرسون رسول الله ﷺ، وكذلك المدينة. وقد تم هذا في يوم الجمعة السادس من شوال، وقيل يوم الأربعاء[1].

كان رسول الله ﷺ جمع أصحاب الرأي من المسلمين وأخبرهم بحقيقة الوضع وطلب مشورتهم في صدّ الهجوم عن المدينة، فالرسول ﷺ خارج أمور الوحي كان كثير المشورة لأصحابه ولأهل الرأي، وكان المسلمون بين فريقين، فريق يرى البقاءَ في المدينة والدفاع عنها، فهم إن حاولت قريش اقتحامها، منعوهم ودافعوا عن المدينة، وجعلوا النساء والصبيان في الأُطُم ومعهم حجارةٌ يرمون بها المشركين كما كانوا يفعلون من قبل، فمدينتهم عذراء ما فُضّت عليهم قط، وما دخل عليهم عدوٌّ إلاّ أصابوه، وقد مالَ رسولُ الله ﷺ في البداية لهذا الرأي، وكان أكثر أصحابه من المهاجرين والأنصار يرونه أيضاً، وكذلك عبد الله بن أُبي ولم يدعه قبل ذلك قط[2]. لكنّ الفريق الثاني رأى في البقاء داخل المدينة ضعفٌ وجبن عن المواجهة، وسيؤدي إلى اجتراء القبائل والإغارة عليهم، فها هم المشركون قد أتلفوا الزرع، فإذا سكتوا هذه المرة فلن يكون بمقدورهم فيما بعد زراعته. وهل من الممكن إن هم بقوا ودافعوا عن مدينتهم وردّوهم أن يتركوهم يذهبون دون عقابٍ على إتلاف ما خرّبوه من الزرع، كان هذا رأي من أراد الخروج ولقاء المشركين خارج المدينة منهم الشباب المتحمس ومنهم أيضاً صحابة ذوو شجاعة كحمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، ومنهم من لم يشهد بدراً وكان يرغب بالخروج ولقاء العدو وكسب الأجر والثواب[3]. بعد هذه المشاورات أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ للخروج ولقاء العدو، الأمر الذي أغضب بعض أصحاب الرأي الأول وأبرزهم عبد الله بن أبي الذي ما لبث أن رجع بعد خروجهم عند

[1] - المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص١٣٢، ١٣٣.

[2] - الكلاعي: الاكتفاء، ج١،ص٣٧١؛ الديار بكري: تاريخ الخميس، ج١، ص٤٢١.

[3] - الواقدي: المغازي، ج١، ص٢١٠، ٢١١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٣، ص٢٥٥، ٢٥٦.

منطقة تسمى الشوط بين المدينة وأُحد، فأصبح تعداد المسلمين سبعمائة بينهم مائة دارع، بعد أن كان حوالي الألف[١].

خرج الرسول مع الناس على الحرة الشرقية، حرة واقم، وعند موضع الشيخين، بين المدينة وجبل أحد، استعرض عسكره، فأجاز من أجاز، وردّ من استصغره، وبات المسلمون في هذا الموقع، وعند وقت السّحَر طلب رسول الله من يستطيع العبور بالمسلمين إلى أُحد دون المرور بمعسكر المشركين، أي بسلوك طريق غير الطريق المعهودة، فقام بهذه المهمة رجل من بني حارثة، اجتاز بالمسلمين حرة بني حارثة، ومرّوا في أراضيهم، ووصلوا شعب أُحد، فجعل رسول الله أحداً خلف ظهره، واستقبل المدينة، وجعل الرماة على جبل عينين، عن يساره، وصفّ المسلمين وهم يرون المشركين[٢].

يكون بذلك رسول الله ﷺ قد فرض هو أرض المعركة، بعد أن ظن المشركون أنهم من اختاروها، كما أنه حمى ظهر معسكره، فأصبح المشركون بين المسلمين من جهتين شمالاً وجنوباً، بين جبل أُحد وبين المدينة، ولابد من الإشارة في هذه النقطة، من أن المشركين كانوا يخشون فكرة بقاء المسلمين في المدينة وتحصنهم بالأطم والصياصي، ويعولون على اللقاء في أرض تكون مفتوحة كالسهل، فيستطيعون بكثرة عددهم هزيمة المسلمين[٣]، ولكن دقة اختيار رسول الله ﷺ لموقع اللقاء، واستفادته من طبيعة المنطقة، والخطة الاستراتيجية التي نظم بها قواته، جعلت كثرة المشركين لا تغني عنهم شيئاً.

جعل رسول الله ﷺ الرّماة وكانوا خمسين على جبل عينين، وجعل عليهم عبد الله بن جبير، وقال له: انضح عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا، فلا تبرحوا حتى أرسل لكم، وشدّد عليهم عدم ترك أماكنهم، وأمر الزبير بن العوام أن يكون مع جماعة بإزاء خيل

---

١ - ابن إسحاق: السير، ص٣٢٤؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٢٣٣.

٢ - الديار بكري: تاريخ الخميس، ج١، ص٤٢٢، ٤٢٣

٣ - تظهر هذه النقطة جلية واضحة عندما أدرك أبو سفيان أن خزاعة قد نقلت أخبار معسكرهم إلى رسول الله، وكانوا بذي طوى. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٠٥.

المشركين[١]، وهيأ المسلمين للقتال وصفهم بشكل منتظم، وجعل لواء المسلمين بيد مصعب بن عمير، من بني عبد الدار، وكان لواء المشركين بيد بني عبد الدار كذلك[٢].

وقبيل البدء بالمعركة حاول المشركون تفتيت وحدة المسلمين حيث نادى أبو عامر الفاسق الأوسَ ظناً منه أنهم سيجيبوه ويتبعوه، وكان قد خرج مع قريش مع أتباعه قيل كانوا خمسين وقيل خمسة عشر، لكنهم أجابوه شر جواب، فلم يفلحوا في مسعاهم.

وبدأ القتال وحاول المشركون الالتفاف على المسلمين ثلاث مرات، ولكن النبل نضحتهم فرجعوا متفرقين، وحمل المسلمون على المشركين فأضعفوهم وحميت الحرب، وضربت نساء المشركين على الدفوف يحمسن رجالهن، وحمي الوطيس واشتد القتال،وقتل أصحاب لواء المشركين واحداً تلو الآخر، حوالي العشرة [٣]، ولم يقدر أحد أن يدنو من اللواء ويحمله وانهزم المشركون لا يلوون على شيء وتبعهم المسلمون يضعون فيهم السلاح ويجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة ذلك خالفوا أوامر رسول الله ﷺوفارقوا أماكنهم رغم تحذير أميرهم لهم، فبقي هو ومعه من النفر دون العشرة، ولم يغادر مكانه، في الوقت الذي انتبه فيه خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل من الرّماة وقلّة من فيه، وكان قد علم أهمية موقعهم، فالتف بالخيل ومعه عكرمة بن أبي جهل، وحملوا على من بقي من الرّماة فقتلوهم ومثّلوا بهم، وأحاطوا بالمسلمين[٤]، ثم بدأ هجوماً معاكساً. ونادى المشركون بشعارهم، فوضعوا السيوف بالمسلمين، فتبعثروا تحت وطأة الهجوم، وأصابتهم الدهشة والحيرة، فصار يضرب بعضهم بعضاً من غير شعار، واستطاع المشركون أخذ اللواء وتجمّعوا حوله، وجهدوا في الوصول إلى رسول الله لقتله، كابن قمئة، وعتبة ابن أبي وقاص، وكذلك أُبي بن خلف، ونالوه بالأذى[٥]، كما أنه عليه الصلاة والسلام وقع في حفرة من الحفر

[١]- الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٢٣٥.

[٢] – الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٢١.

[٣] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٤٨٥. عن ابن إسحاق، وكذلك قال غيره أحد عشر؛ يذكر الواقدي تسعة: المغازي، ج١، ص ٢٢٧_ ٢٢٩.

[٤]- الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٢٩.

[٥]- السهيلي: الروض الأنف، ج٥، ص٤٤١، ٤٤٢.

التي حفرها أبو عامر الفاسق[١]، فأغمي عليه ﷺ، وخُدشتْ ركبتاه، ورُمي بالحجارة فكُسرت رباعيته اليمنى السفلى، وشُقّتْ شفته السّفلى، وكُسِرَتِ البيضةُ على رأسه، وشُجّ وجهه الشريف، وجُرحت وجنتاه ﷺ لدخول حلقتي المغفر فيهما، بسبب ضربة ابن قمئة وصار الدم يسيل على وجهه ﷺ الشريف، وأشيع بأن الرسول قد قُتل، الأمر الذي كان له صدى كبير، حيث انهزمت طائفة من المسلمين، قسم منها رجع إلى القتال، وقسم أكمل سيره إلى المدينة، ولكن رسول الله ﷺ ثبت ومعه قلة قليلة، واستطاعوا الصمود والوصول إلى شعب في جبل أُحد، مما خفّف من وطأة الهجوم، وحاول المشركون الوصول لكنهم لم يتمكنوا من ذلك، ورجع عدد كبير من المسلمين[٢]، وعاودوا القتال إلاّ أنّ خسائرهم كانت كبيرة، حيث استُشهد قرابة السبعين[٣]. أما المشركون فقُتل منهم اثنان وعشرون على أكثر تقدير[٤].

إن الموقع الذي اتخذه رسول الله ﷺ في أُحُد كان له أثره في منع قريش بفرسانها من القضاء على المسلمين نهائياً[٥]، وانتهت المعركة بعد أن أعلن أبو سفيان أن هذا اليوم بيوم بدر، والحرب سجال، فكانت أُحد أولها للمسلمين وآخرها عليهم، وتواعدوا في موسم بدر من العام القادم، أي زمن انعقاد السوق فيه، ثم غادروا ساحة القتال، وأمر رسول الله ﷺ بدفن الشهداء، بعد أن تأكد من توجه المشركين إلى مكة.

كانت تجربة أُحد تجربةً قاسيةً، بنتيجتها وبما حصل فيها، فعدم التقيد بأوامر رسول الله أدت إلى هذه الكارثة، وغيرها من أحداث أشارت إليها آيات من سورة آل عمران أنزلها الله سبحانه وتعالى بعد

---

١ – إن هذا الأسلوب في القتال، من أساليب الكمائن التي كان الروم البيزنطيون يستخدمونها في معاركهم، مما يجعل أمر احتمال بدء اهتمام بيزنطة بأمور الجزيرة وما يحصل فيها أمراً وارداً ومحتملاً، من خلال إرسال من علمهم هذا الأسلوب في القتال، أو من ذهب غليهم وتعلمه.

- Maurice's Strategicon, Handbook of Byzantine Military Stratege, translated by: Goerge. T. Dennis. University of Pennsylvania Press, 1984, P. 54.

٢ – الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٢٤، ٢٥٢.

٣ – البخاري: صحيح، ج٥، ص٩٤، رقم ٤٠٤٣. يجعلهم موسى بن عقبة تسعة وأربعين من المهاجرين والأنصار، المغازي، ص٢٠٠. وابن هشام خمسة وستون، مج٢، ص٦٣٥.

٤ – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٤٤٥_ ٤٤٧.

٥ – إبراهيم، (عبد الرزاق): الفكر العسكري ومبادئ الحرب في صدر الإسلام، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٢٠١.

انتهاء المعركة، بيّنت ظروف المعركة وأحداثها، فيها عتابٌ من الله عزّ وجل للمسلمين الذين انكسرت همتهم وثبطت عزيمتهم عن القتال عندما أشيع نبأ مقتل رسول الله ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[1]، وفيها بالوقت نفسه تعزيةً وتسليةً عما حلّ بهم ووقع من جراح وقتل يومها ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[2]. وكذلك أظهرت هذه المعركة وميزت بين المؤمن الحق ومن في قلبه شك﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[3]، وظهر فيها تقريعٌ للمنافقين الذين أخذوا في اللوم والعتب إثارة غيظ المسلمين على رسول الله لأنه اختار الخروج على البقاء في المدينة، والقول بأن لو أُخذَ برأيهم لما وقعت الهزيمة والقتل بهم﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾[4].

لقد عدّ البعض غزوة أُحد غارةً انتقامية للثأر من هزيمة بدر، وليست محاولة جدية للقضاء على الإسلام ودولة المسلمين في المدينة، وكان رسول الله مدركاً أهمية هذه النقطة وخطورتها، حيث أنه أرسل ليتأكد من أن قريش سترجع وتهاجم المدينة، أم أنها اكتفت، وتبين أنها قررت العودة إلى مكة، فالانسحاب السريع للمشركين دون ملاحقة المسلمين عقب المعركة، وعدم صمودهم في حمراء الأسد دليل على هذا الرأي لقد كانت نصراً آنياً لقريش لم تنجح في استثماره [5].

إن أهم من نتيجة المعركة استثمار النصر فيها، وإذا لم يتم ذلك في الوقت المناسب فالفرصة لن تتكرر، وهذا ما حصل بالنسبة للمشركين في غزوة أُحد، وأدركه رسول الله ﷺ، فاستغل هذا الأمر وبادرهم بهجوم معاكس قبل وصولهم إلى مكة، بل قبل ابتعادهم كثيراً، حيث أمر في صبيحة اليوم التالي من يوم أُحد بالخروج لملاحقة المشركين، فأذّن مؤذن رسول الله ﷺ أن يخرجوا خلف قريش، وألاّ يخرج إلا

[1] - سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

[2] - الآية ١٣٩.

[3] - الآيات، ١٤١، ١٤٢.

[4] - الآية ١٦٨.

[5] - العلي: دولة الرسول، ص٢٣٧.

من حضر أُحد، وكان ذلك إرهاباً لقريش حتى لا تحدّثها نفسها بالعودة إلى المدينة أبداً وليظنوا به ﷺ قوة وأن ما أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم، ووصلوا إلى حمراء الأَسَدِ جنوب المدينة(١)، وكان لهذا الخروج أثره في ثني قريش عن العودة، فقد كانت تتناقش في أمر العودة واستئصال شأفة المسلمين في المدينة، لكنهم عندما علموا بخروج المسلمين لقتالهم تابعوا سيرهم إلى مكة خشية أن يفقدوا ما حققوه من نصر(٢). حقّق هذا الخروج عامل ردع قويّ بحسب المنطق العسكري، أثّر على المشركين وكذلك على القبائل المجاورة للمدينة حتى لا تفكر بأن شوكة المسلمين قد ضعفت، فتهدد مصالح وجودهم، وكذلك داخل المدينة بعد أن ظهر المكر على ألسن المنافقين، ووجوه اليهود(٣).

هذا وقد كان لأُحد تداعيات وأصداء خارج المدينة، فقد نفخت هزيمة المسلمين أمام قريش في القبائل عزيمةً لاستهداف المدينة والاعتداء عليها، فتوجب على المسلمين العمل لإعادة فرض هيبتهم ونفوذهم بالرد والتصدي على أي اعتداء أو تحدٍّ لهم. فتركزت سياسة الرسول ﷺ على استباق كل حركة معادية للمدينة فما كاد يسمع بتجمع رجال القبائل وتهديدها للمدينة حتى يرسل حملة لتفريقها، وهذه السياسة حملت الرسول ﷺ على زيادة الاهتمام بالمناطق الواقعة خارج المدينة، فشهدت هذه المرحلة قبيل الخندق عدداً من السرايا والبعوث في هذا الصدد.

فقد أراد بنو أسد حرب رسول الله ﷺ والهجوم على المدينة بقيادة طلحة وسلمة ابني خويلد فأرسل لهم رسول الله ﷺ أبا سلمة بن عبد الأسد على رأس مئة وخمسين من المهاجرين والأنصار(٤)، وكذلك أراد سفيان بن خالد الهذلي الهجوم على المدينة وبدأ يجمع لحرب رسول الله ﷺ فأرسل له رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس سرية بشكل خاطف تمكن من قتله، فانفضت الجموع التي كان قد بدأ بحشدها(٥)، إلاّ أنّ المسلمين أصيبوا بعد ذلك بحادثتي غدر، أولهما حادثة الرجيع(٦)، والثانية ذهب ضحيتها عدد كبير من حفظة القرآن الكريم يسمون القرّاء، عند بئر معونة من أرض بني عامر بن

---

١ – حمراء الأَسَد: جبلٌ أحمر جنوب المدينة على ٢٠ كم؛ البلادي: معجم معالم السيرة، ص١٠٥.

٢ – البستي: السيرة النبوية، ص١٢٧، ١٢٨.

٣ – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٤٥٣؛ إبراهيم: الفكر العسكري، ص٢٠٣؛ هيكل: حياة محمد، ص٣١٢.

٤ – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٥٠.

٥– ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص٥٦.

٦– ابن عقبة: المغازي، ص٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٦.

صعصعة، من قبل قبائل نجدية هي رعل وذكوان وسُليم، على الرغم من الاحتياطات والضمانات التي أخذها رسول الله ﷺ لحمايتهم[١]. وحصل بعدها إجلاء بني النضير عن المدينة. كما وخرج رسول الله ﷺ بنفسه في غزوات أولها كانت غزوة بدر الموعد التي وعدهم إياها أبو سفيان إثر غزوة أُحد، وقد خرج المسلمون إليها ومكثوا ببدر، وأصابوا تجارةً ورجعوا ولم يلقوا المشركين[٢]، وكذلك خرج ﷺ إلى قومٍ من غطفان هم بنو محارب وثعلبة الذين أرادوا حربه ﷺ فخرج إليهم ورجع دون لقائهم في ما سمته المصادر غزوة ذات الرقاع[٣]، وكذلك إلى دومة الجندل وكان فيها قومٌ يعتدون على القوافل، ولّوا هاربين دون قتال تاركين للمسلمين الغنائم، وسيتم الحديث عن خلفية هذه الغزوة بشكل أوفى فيما بعد[٤]، وإلى بني المصطلق الذين أرادوا غزو المدينة، وكانوا قد اشتركوا مع قريش في أُحد، فباغتهم المسلمون على مياه من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، واقتتلوا وهزمهم المسلمون وغنموا، وأصابوا سبياً كثيراً، وحصلت في هذه الغزوة قضايا عدة، كما اختلفت المصادر في تحديد تاريخها[٥]، والمهم في هذا الموقع أن توجه رسول الله ﷺ إلى هذه المنطقة فيه إشارة ودليل على توسع نفوذه ﷺ على ما كان يتبع لقريش، فبني المصطلق كانوا مع قريش في غزوة أُحد ضد المسلمين وكانوا يعدون من أحابيش قريش.

كانت هذه الغزوات والسرايا كلها بمعظمها من نتائج وآثار غزوة بدر، فأُحد كانت نتيجة لبدر، ولكن ما تبع أُحد من أعمال غدر واعتداء كان أثره كبيراً لو لم يقف رسول الله ﷺ منه موقفاً حاسماً، إلاّ أنّ الهجومَ لم يتوقف بعد على المدينة، وتصدت بعد هذه الأعمال لأكبر وأخطر هجوم، لينقلب الوضع بعدها إلى وضع مختلف ومغاير.

---

[١] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٦٧٧_ ٦٧٩ .

[٢] – تعللوا بأن العام عام جدبٍ وجفافٍ. البستي: السيرة النبوية، ص١٣٢، ١٣٣.

[٣] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٦٩١، ٦٩٢؛ ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٦١؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٢٨٥.

[٤] – تعد دُومة الجندل سوقاً من أسواق العرب السنوية، اليعقوبي: تاريخ، ج١، ص٣٢٥.

[٥] – للمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى القريبي، إبراهيم: مرويات غزوة بني المصطلق.

وقد استطاع النبي ﷺ في المدة ما بين أُحد والخندق، وإن عجزَ عن منع المكيين من تكوين حلفٍ ضده، أن يمنع كثيراً من القبائل من الانضمام إليهم، ولكن هذا لم يمنع أو يحُل دون قلقه من الهجوم المرتقب لقريش[١].

٣- غزوة الأحزاب (الخندق) (٥هـ/ ٦٢٦م):

لم تتعرض المدينة منذ هجرة المسلمين إليها إلى خطر أشد ومحنة أصعب وظروف قاسية كما شهدته في هذه الغزوة، حيث اجتمعت القوى الحاقدة والطامعة والراغبة بإطفاء نور الإسلام والقضاء على المسلمين، وتوجهت إلى المدينة ولم يقف الخطر من الخارج بل وجاء من الداخل من يهود بني قريظة الذين نكثوا العهد ونقضوا الصلح وانحازوا إلى المعتدين، فمرّ المسلمون بظروف عصيبة، صوّرها القرآن الكريم بقول الله عزّ وجلّ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[٢]. وبرز المنافقون وحاولوا التشكيك بقدرة رسول الله ﷺ، فيقول الله عز وجلّ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[٣]. إلاّ أن رسول الله والذين آمنوا معه صمدوا وتمكنوا من مجابهة هذا الاعتداء.

لم يركن بنو النضير بعد إجلائهم عن المدينة إلى خيبر، وخاصة زعماؤهم من بني الحُقيق، إلى الهدوء وكفّ الأذى عن المسلمين، بل كان الحقد على المسلمين ونار الغيظ تشتعل في صدورهم، فتولى زعماؤهم حُيي بن أخطب، وسلاّم بن أبي الحُقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عمار الوائلي في نفر من يهود بني النضير وجماعة من يهود خيبر تولى هؤلاء تجميع القوى المعادية للمسلمين للهجوم على المدينة، فذهب هؤلاء إلى مكة ودعوا قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ،

---

1 – Watt: Muhammad, P.35.

٢ – سورة الأحزاب، الآيتان ١٠، ١١.

٣ – سورة الأحزاب، الآية ١٢.

واتفقوا على موعد لذلك. كما عملوا على تجميع القبائل كذلك، فخرجوا إلى غطفان وسُليم لهذه الغاية[١].

تجهزت قريش وأحابيشها ومن تبعهم من العرب فكانوا أربعة آلافٍ، ومعهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير، خرجوا يقودهم أبو سفيان، ووافتهم بنو سُليم وهم سبعمائة، وكذلك بنو أسد بقيادة طلحة بن خويلد، وخرجت فزارة يقودها عيينة بن حصن معهم ألف بعير، وأشجع في أربعمائة، ومثلها بنو مُرّة، فكان جميع من قدم الخندق ممن ذكر من القبائل عشرة آلاف مقسمين على ثلاثة عسكر[٢].

وصلت أنباء هذه التحركات وعددها إلى رسول الله ﷺ قبل وصول الأحزاب إلى المدينة[٣]، فقدّر عليه الصلاة والسلام عدم إمكانية اللقاء كما حدث في المرات السالفة خارج المدينة، فالعدو هذه المرة مختلف، فآثر البقاء في المدينة، وشاور أصحابه كما في كل مرة لا يكون فيها وحي، شاورهم في خطة للدفاع، فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق يحول دون دخول المشركين إلى أحياء المدينة، كانت هذه الفكرة غير مألوفة بين العرب بعد، ولما بيّن وشرح سلمان مقصده، سارع رسول الله ﷺ إلى تحديد المنطقة المتوجب حفرها، لمنع دخول المشركين إلى المدينة، فكان في شمال المدينة، ما بين حرة واقم، والوبرة، لأن هذه المنطقة هي المنطقة الوحيدة المكشوفة في المدينة، وبالإمكان دخولها والاعتداء عليها، أما المناطق الأخرى المحيطة بها فقد كانت محاطة بالبساتين الكثيفة والعوارض الطبيعية الأخرى، وذلك يحول دون إمكان إجراء القتال بقوات كبيرة في أطراف المدينة عدا الشمالية، فعسكر رسول الله والمسلمون إلى سفح جبل سلع، وجعلوه خلف ظهورهم، كما قام ﷺبتوزيع مهام الحفر بين المسلمين والتجهيز للقاء

---

[١] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٧٠٠ _ ٧٠٤؛ الديار بكري: تاريخ الخميس، ص٤٨٠؛ الحلبي. السيرة الحلبية، ج٢، ص٣٢٨_ ٣٣٠.

[٢] – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٦٦؛ ابن سيد الناس: عيون، ج٢، ص٨٥؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٢٢٤؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٢٣١، ٢٣٢؛ يجعلهم المسعودي أربعة وعشرين ألفاً. (علي بن الحسن بن علي، ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): التنبيه والإشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د.ت، ص٢١٦.

[٣] – لما تهيأت قريش للخروج أتى بالخبر ركبٌ من خزاعة، في أربعة ليالٍ، أخبروا رسول الله . الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٣٣١.

العدو، وقام المسلمون كذلك بجني المزروعات، حتى لا يتكرر ما حدث يوم أُحد فترعاها إبل وخيول المشركين، وشرعوا العمل بعد ذلك(١).

لم يكن حفر الخندق بالأمر السهل، كان شاقاً، حيث كان العمل يستغرق طيلة اليوم، ودأب المسلمون في حفره، وكذلك رسول الله ﷺ شاركهم بذلك، ولم يكن المسلمون يغادرون إلا لحاجة ضرورية، ويستأذنوه قبل ذلك، فإذا قضوا حاجتهم عادوا على الفور، وأبطأ عن ذلك رجالٌ من المنافقين، حيث كانوا يقومون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهلهم بغير علم رسول الله ﷺ ولا إذن(٢)، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾(٣). وقد استمر الحفر أياماً قدرها البعض بستة، وآخرون ببضعة عشر إلى عشرين يوماً (٤).وقد قسّم رسول الله ﷺ العمل على المسلمين وكانوا ثلاثة آلاف، فكان نصيب كل عشرة منهم أربعون ذراعاً يحفرونها(٥)، كان الطقس بارداً، ولم يكن عند المسلمين وفرة لا بالطعام ولا بعدة الحفر، فاستعانوا ببني قريظة وأخذوا منهم المكاتل والمساحل والكرازين من أدوات الحفر. وجعلوا الخندق بينهم وبين المشركين(٦)، ووضعوا النساء والأطفال في الأطم داخل المدينة. وكان العمل منتهياً لما وصل الأحزاب، فعجبوا منه فلم يكن معروفاً وعدوا أن الاحتماء وراءه جُبنٌ لا عهد للعرب به (٧)، ونزلت قريش ومن تبعها بمجمع الأسيال من رومة، وعسكرت غطفان بذنب نقمى جانب جبل أُحد، وجعلت قريش ركابها في وادي العقيق وغطفان سرّحت إبلها إلى الغابة في أثلها وطرفائها، أي أن قوات المشركين لم تتركز كلها عند الخندق الذي كان محور المعركة، بل شغلت رقعة واسعة شمالاً وغرباً(٨).

١ - ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٧٠٤؛ الواقدي: المغازي، ج٢، ص٤٤٥

٢ - السهيلي: الروض الأنف، ج٦، ص٢٦٢، ٢٦٣.

٣ - سورة النور، الآية ٦٣.

٤ - الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٣٣٥.

٥ - الطبري: تاريخ، ج٢، ٥٦٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٢٦.

٦ - الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٣٣١، ٣٣٢.

٧ - المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٢٤٣.

٨ - الواقدي: المغازي، ج٢، ص٤٤٤؛ الطبري: تاريخ، ج٢، ص٥٧٠.

لم يقدر المشركون على اجتياز الخندق، رغم محاولاتهم ولم يكن بينهم قتال إلاّ الرمي بالنبل والحصار، وتمكن فوارس من قريش من اقتحام الخندق فقد وجدوا مكاناً ضيقاً تمكنت خيلهم من اجتيازه، كان عددهم قليلاً فتمكن المسلمون من ردهم، ولم يستطيعوا بعدها اجتيازه رغم محاولاتهم، وبدأت تظهر المشاكل في معسكرهم نتيجة طول الحصار كمشاكل التموين، فالجو كان بارداً، والأرض جرداء لا زرع فيها كما حصل يوم أُحد، فقد حصد الناس قبل قدومهم، فواجهوا مشكلة التموين، وكادت إبلهم تهلك من الهزال، كان حصار الخندق في قرٍّ شديدٍ وجوع[1].

وكان حُيَيْ بن أَخْطَبْ قد منّى قريشاً بأن بني قريظة ستنضم لهم، وأنها كانت موادعة رسول الله ﷺ للمراوغة فقط، فذهب حُيَيْ إلى بني قريظة ودخل على زعيمها كعب بن أسد، وبعد جدالٍ نجح في إقناعه بالانضمام إلى صفّهم، فنقض العهد ومزّق الكتاب بينه وبين المسلمين[2]، ولم يلبث الخبر أن وصل إلى رسول الله ﷺ، وتحقق منه[3].فأصبح المسلمون في موقف حرجٍ وخطير، حيث لم يكن بمقدورهم ترك حراسة الخندق، ولم يأمنوا على النساء من غدر بني قريظة، الذين كانوا على علمٍ ودرايةٍ بمداخل ومخارج المدينة. وذكرت المصادر اقتراب يهوديٍ من حصن فارع، حصن حسان بن ثابت، ومقتله على يد عمة النبي ﷺ صفية، والرمي برأسه إلى اليهود، والذين كانوا على ما يبدو ينوون مهاجمة المدينة، فلما رأوا ما حلّ بمبعوثهم قالوا: قد علمنا أنه لم يترك أهله خُلوفاً، ليس معهم أحد، فتفرّقوا وذهبوا[4]، وهذا يُظهِرُ نيتهم، فقد كان هذا اليهودي عينٌ لهم، ليعلموا مدى تحصن المسلمين، فيقوموا بمهاجمتهم، ولولا قتله لتجرؤوا على القيام بذلك ولكن الله ثبّط همتهم وأفشلهم. وأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في ثلاثمائة، وسلمة بن أسلم في مائتين يحرسون المدينة ويظهرون التكبير[5].

---

[1] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٤٦٤.

[2] – الكلاعي: الاكتفاء، ج١، ص٤٢٣.

[3] – أرسل الزبير أولاً، فرآهم يتجهزون، ثم أرسل سعد بن معاذ ونفر معه، دخلوا على بني قريظة وكلموهم فأظهروا العداء. البستي: السيرة النبوية، ص١٤٤؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج٢، ص٤٤١.

[4] – السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٥٠٥؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج١، ص٤٢٧.

[5] – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٦٧.

واستمرت المناوشات ومحاولات المشركين مجتمعين وطلائع متفرقة عبور الخندق، وفي أحد الأيام لم يستطع المسلمون الصلاة حتى كشفهم الله فرجعوا متفرقين[1].

بدأت الأمور تزداد صعوبة، وكان رسول الله ﷺ مدركاً أنّ الأمر على درجة عالية من الخطورة لذلك أراد رسول الله ﷺ أن يفتّت جبهتهم، ويخرق صفّهم، بأن يعرض على غطفان الصلح مقابل ثلث ثمار المدينة، إلاّ أنّ زعيمها عُيينة بن حصن الفَزَاري طمع وأراد النصف، فلما شاور رسول الله ﷺ الأنصار، رفضوا إعطاء عيينة أي شيء من ثمار المدينة، عندما علموا أن الأمر اجتهاد وليس فيه وحي، ولم يتم الأمر[2]. وجاء بعد ذلك شخص يدعى نعيم بن مسعود الأشجعي إلى المدينة، وكان موادعاً للطرفين لكنه لا يكتم حديثاً، فأخبر رسول الله بتآمر بني قريظة مع المشركين، فأجابه عليه الصلاة والسلام بأنه من أمرهم بذلك، وأوصاه بكتمان الأمر، فكأنما أغراه بذلك، ليذهب ويخبر أبا سفيان بهذا الأمر الخطير، ولما أراد أبو سفيان التأكد من نوايا بني قريظة، طلب منهم رهائن تؤكد صدق موقفهم إلى جانب المشركين، وكانت الليلة ليلة السبت، فأجابوا بالرفض، لأنهم يوم السبت لا يقومون بأي عمل خارجه. مما أكد كلام مسعود[3]، وتحقق أبو سفيان من ذلك، وأرسل الله عليهم ريحاً عاصفة، وقذف في قلوبهم الرعب، فأُطفئت نيرانهم وما لبثوا أن انطلقوا من غير قتال[4]. وفي ذلك يقول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[5]، فأصبح المسلمون ووجدوا معسكر الأحزاب خالياً وكفاهم شرّ القتال﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[6].

---

[1] – ابن عقبة: المغازي، ص٢١٧، ٢١٨.

[2] – الزهري: المغازي، ص٧٩؛ ابن هشام: السيرة، مج٢، ٧٠٦؛ الطبري: تاريخ، ج٢، ص٥٧٣؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٣٣٩.

[3] – الزهري :المغازي، ص٨٠. تتعارض هذه الرواية مع ما أوردته المصادر الأخرى، من حيث الدور الذي شغله نعيم فيها، إلاّ أنها هي المرجحة والأقرب للقبول؛ ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٧١٠؛ البستي: السيرة النبوية، ص١٤٥.

[4] – الزهري: المغازي، ص٨٠؛ ابن عقبة: المغازي، ص٢١٩، ٢٢٠.

[5] – سورة الأحزاب، الآية ٩.

[6] – سورة الأحزاب، الآية ٢٥.

فكانت حصيلة كل هذا الحصار الطويل ثلاثة قتلى من المشركين، وستة شهداء من المسلمين، وهو عدد ضئيل إذا ما قورن بحجم القوات المشاركة في القتال، وطول المدة.

وبانسحاب الأحزاب تخلصت المدينة من أكبر خطر داهمها وهددها، واقتنعت قريش بعدم جدوى محاولة اجتثاث الإسلام فكانت آخر محاولة للقضاء على المسلمين والإسلام، كما أدركت القبائل الأخرى ذلك، فأقلعوا نهائياً عن محاولة الهجوم على المدينة.

جرت في الخندق الكثير من الأمور التي لها مؤشرات ودلالات كثيرة، فأولاً أن الأخبار بتحركات قريش ومن معها قد وصلت إلى رسول الله ﷺ ، قبل وقت مكّن المسلمين من الاحتياط والاحتراز للتصدي للهجوم، ولم يكن هناك رأي بالخروج هذه المرة فالكلمة موحدة، وقضية حفر الخندق، كانت أسلوباً جديداً في القتال لم تعهده العرب من قبل.

كان كل من اليهود والمنافقين في المدينة يكيدون لرسول الله وللمسلمين، لكن غدر اليهود في هذه الغزوة فاق في خطورته ودرجة الغدر ما صدر سابقاً عن المنافقين، كانسحاب ابن أبي يوم أُحد مثلاً، صحيح أنه رجع بثلث الجيش تقريباً في غزوة أحد لكن أحداً لم يخطر بباله أن يقوم بالاتفاق مثلاً مع قريش ومهاجمة المسلمين، مع العلم أن هذه الإشارة لا تبرئ عملهم أو تبيض صفحتهم، إلا أن غدر بني قريظة هنا في هذا المقام كان لا يغتفر.

أيضاً وصول الأخبار إلى معسكر الطرفين مسلمين ومشركين، يحمل إشارة أن التواصل بين بعض الأطراف ظل قائماً ولم ينقطع، ولم يكن المعسكران مغلقين تماماً، وربما طبيعة المدينة الجغرافية ساهمت في ذلك، كالاتصال بين اليهود والمشركين، واستيلاء المسلمين على عشرين بعير أرسلتها بني قريظة لقريش محملة شعيراً وتمراً وتبناً، فتوسعوا بها [١]، وكذلك لما أرسل رسول الله أبو حذيفة بن اليمان إلى معسكر المشركين ليستطلع له أخبارهم، وكانوا قد أجمعوا على الرحيل [٢].

بدا التفكك واضحاً في معسكر المشركين على الرغم من أن استعدادهم كان من الوجهة المادية كاملاً ولكنه كان ناقصاً نقصاً كبيراً من الوجهة المعنوية إذ لم تكن لهم غاية مشتركة تجمع بين قلوبهم

[١] - الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٣٤٥.
[٢] - ابن عقبة: المغازي، ص٢٢٢.

وتحملهم على الإخلاص في أعمال الحرب، فأصبح كل طرف لا يأمن جانب الآخر، والكل يخشى غدر الكل. وظهر في موقف الأعراب عندما عرض عليهم رسول الله الجلاء مقابل مقدار من ثمار المدينة، كانوا مستعدين للجلاء لو أعطاهم رسول الله ما طلبوا، وكذلك تردد بني قريظة من ثبات العرب في وجد المسلمين، وريبة المشركين من بني قريظة، كل ذلك أدى إلى ضياع الكثير من الجهد وتبديد القوى، فكان الفشل والإخفاق هو نصيبهم.

لقد كانت وقعة الخندق نقطة فاصلة في تاريخ المدينة والمسلمين، أظهر الحشد الكبير الذي جمعه المشركون واليهود ضد المسلمين مدى الخطر الذي شعروا به، والضرر الذي عانوه، فكان العدد كبيراً جداً مقارنة بما سبقه من أعمال عسكرية وما تبعه، كما ظهرت قدرة المسلمين على الصمود في ظروف قاسية، كما بينت أيضاً استعداد اليهود الدائم للغدر ونقض العهد.

أخذ رسول الله ﷺ زمام المبادرة في تحركاته ضد قريش، أما فيما يخص القبائل فلم تتغير سياسته وذلك بإرسال البعوث والسرايا واستباق أي تجمع يهدف لغزو المدينة أو لاستهداف المسلمين.

ففي السنة السادسة عقب عودة الأحزاب والانتهاء من أمر بني قريظة، خرج رسول الله ﷺ في غزوتين أولهما إلى بني لحيان الذين غدروا سابقاً بأصحاب الرجيع، وكانوا بين غُران وعُسْفان غير بعيدين عن مكة، لكنهم هربوا إلى رؤوس الجبال، ولم يلقَ المسلمون منهم أحداً، ودنا رسول الله بالمسلمين من مكة وصلوا عُسْفان، ووصلت سرية بقيادة أبي بكر إلى كُراع الغَمِيم لا تبعد سوى يومين عن مكة، لإلقاء الذعر والرعب بين قريش[1].

والثانية كانت في طلب عُيَيْنَة بن حصن الفزاري الذي أغار على لقاح رسول الله ﷺ في الغابة وكانت عشرين لقحة، كانت هذه اللقاح ترعى في منطقة البيضاء قرب حمى الربذة[2]، لكن هذه المنطقة أجدبت فجعلوا اللقاح في الغابة[3]، وخرج رسول الله بأصحابه يتعقبونه وكان رسول الله قد أرسل في أثرهم الفرسان، وتمكن أصحاب رسول الله ﷺ من اللحاق بمؤخرة قوات عيينة واستخلاص نصف اللقاح، ورجع المسلمون إلى المدينة. وقد أقام رسول الله ﷺ بذي قَرَد يوماً وليلة يأخذ الأخبار، وكان

[1] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٣٦.

[2] – الربذة: قرية بنجد من عمل المدينة على ثلاثة أيام منها، وقيل أربعة. الفيروز أبادي: المغانم، ص١٥١.

[3] – المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٢، ص٥٣٨.

المسلمون معه خمسمائة رجل وقيل: سبعمائة، وقد ترك رسول الله سعد بن عبادة في ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة، حتى رجوع رسول الله ﷺ(١).

هذا وقد أرسل رسول الله عدة سرايا حول المدينة غير بعيدة عنها إلى القَرْطاء قرب المدينة التي أُسِرَ فيها ثُمَامة بن أُثَال الحنفي سيد أهل اليَمامة، وأسلم بعدها، ومنطقة الغَمر وهي ماء لبني أسد قرب المدينة، وإلى شرقي المدينة إلى بني ثعلبة وعوال في ذي القصة(٢)، فعلى ما يبدو أن الجدب الذي حلّ هذه السنة جعل الأعراب يقتربون من المدينة ويطمعون في الإغارة كما فعل عُيينة بن حصن(٣)، فأراد رسول الله تحذيرهم من الاقتراب والتعدي والضرب على أيديهم وعدم التهاون بأي اعتداء والدليل خروجه عليه الصلاة والسلام بنفسه لتعقب عُيَينة، والإصرار على ملاحقته. وقد جرت حادثة أخرى لتعديات الأعراب على لقاح رسول الله ﷺ من قبل نفر ثمانية من عُرينة، كانوا قدموا المدينة وأظهروا الإسلام، ولكنهم غدروا بعد أن أمنهم رسول الله ﷺ، وجعلهم يشربون من لقاحه، فاستاقوا اللقاح وقتلوا يسار مولى رسول الله ﷺ، ومثّلوا به، فأرسل ﷺ كرز بن جابر الفهري في أثرهم في عشرين فارساً فأدركوهم وساقوهم إلى المدينة وقُتلوا جرّاء غدرهم(٤).

كما كُلّف زيد بن حارثة بعدة سرايا كان أولها إلى **الجموم** إلى بني سُليم الذين اشتهروا بعدائهم للإسلام، وقد وصل زيد إلى المنطقة، وقد هرب من فيها منهم، فغنم إبلاً وشاءً، وأَسَرَ منهم ثم رجع إلى المدينة(٥). وبعدها إلى منطقة **العيص** على ساحل البحر الأحمر، وهي تقع على مسافة متوسطة بين المدينة ومكة على طريق القوافل التجارية القادمة من الشام، من أجل اعتراض قافلة قرشية عائدة من الشام في مئة وسبعين راكباً، فنجح زيد بالمهمة وتمكن المسلمون من أخذ القافلة وأسر ناس ممن كان في العير وأبرزهم أبو العاص بن الربيع، زوج زينب بنت رسول الله ﷺ(٦). ومن الجدير بالذكر أن بعد سرية عين القرَدة قبيل أُحد لم تخرج سرايا لاعتراض قوافل قريش، لانشغال الرسول ﷺ بترتيب الأوضاع ضمن

(١) - الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٣٩_ ٥٤٧.

(٢) - الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص١٩٧_ ١٩٩.

3 – Watt: Muhammad,P.43.

(٤) - الواقدي: المغازي: ٢/ ٥٦٨، ٥٦٩.

(٥) - يذكر الحلبي الجموح بدل الجموم. السيرة الحلبية، ج٣، ص ٢٠٠؛ الشامي: سبل الهدى، ج٦، ص٨٢.

(٦) - المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٢٦٦.

المدينة وللتصدي لاعتداءات الأعراب وكذلك قريش في غزوتي أُحُد والخندق، وكانت هذه السرية أيضاً آخر سرية تخرج من المدينة لهذا الغرض أي التعرض للقوافل لما سيطرأ من مستجدات سياسية.

وقد أرسل أبو سفيان أعرابياً ليقوم باغتيال رسول الله، ولم ينجح الأخير في مهمته، فقام رسول الله إثر هذا التصرف بإرسال عمرو بن أمية الضمري إلى مكة لاغتيال أبي سفيان، وكان عمرو هذا من الفُتّاك قبل الإسلام، ودخل مكة، ورآه أهلها وعلم أبو سفيان وأهل مكة بمجيئه، فخافوه فطلبوه، فلم يستطع تنفيذ المهمة، لكن مجرد إرساله ومعرفة قريش به كانت كافية لإنذارهم وإلقاء الرّعب فيهم[1].

كما كَلّفَ رسول الله ﷺ زيد بن حارثة بالخروج إلى الطرف إلى بني ثعلبة أيضاً في خمسة عشر رجلاً، فهربوا ولم يواجهوه وغنم المسلمون نعماً وشاءً[2].

٤- غزوة الحديبية (الفتح المبين) (٦هـ/٦٢٧م):

استطاع رسول الله ﷺ والمسلمون في بدر أن يثبتوا قوتهم على الصعيد القتالي العسكري، كما تمكنوا في غزوتي أُحد والخندق من الدفاع عن المدينة كقاعدة جغرافية، وبشرية[3]. لقد استنفذت قريش كل إمكانياتها، وبذلت أقصى ما تستطيع فعله يوم الأحزاب، فجمعت أكبر عدد أمكنها وجهزته بأفضل عتاد وبقيت قرابة شهرٍ بعيدة عن مكة دون أن تحقق أي شيء، وعادت خائبة مدركةً أن المسلمين الآن لم يعودوا كما كانوا قبلاً وبدؤوا يترقبون المرحلة القادمة وما ستحمله من مستجدات.

وقد اختصر الرسول ﷺ ترتيبات المرحلة القادمة بقوله: "**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**"[4]. فأخذ رسول الله ﷺ زمام المبادرة في تحركاته ضد قريش، أما فيما يخص القبائل فلم تتغير سياسته وذلك بإرسال البعوث والسرايا واستباق أي تجمع يهدف لغزو المدينة أو لاستهداف المسلمين، وأكثر ما يلاحظ حولها أن أغلبها كان متجهاً إلى الشمال.

---

[1] – المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١٣، ص٢٨٢، ٢٨٣.

[2] – ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص١٤٥.

[3] – اليعقوبي، (مراد): القبيلة ودولة المدينة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، منشورة، جامعة تونس الأولى، تونس، ٢٠٠٢م، ص٢٨٧.

[4] – البخاري: صحيح، ج٥، ص١١٠، رقم: ٤١١٠.

وكان الحدث الأبرز قبيل نهاية سنة ٦هـ/ ٦٢٧مالتوجه إلى مكة لزيارة البيت الحرام وأداء العمرة، وهذا الحدث كان فاتحة لنهاية الصراع بين مكة والمدينة، وانتشار الإسلام وتقبل سلطة الدولة.

دعا رسول الله ﷺ أصحابه للتأهب والتجهز للخروج وأداء العمرة، وكان قد رأى في النوم أنه دخل البيت، وحلق رأسه، وأخذ مفتاح البيت، كما بعث إلى الأعراب من حول المدينة ليشاركوا بالخروج[١]، مع العلم أن الأعراب لمّا يكونوا قد أسلموا بأجمعهم بعد، ولكنّ رسول الله ﷺ أراد أن يبين لقريش أنه جاء معتمراً لغرضٍ ديني ولم يأتِ غازياً بدليل وجود من ليس على دينه معه، وليظهر للعرب أجمع أن المسلمين يعظمون البيت الحرام كما يعظمونه، بل هم أشد تعظيماً له.

وقد لاقت الدعوة هوى في نفوس المسلمين مهاجرين وأنصار، فالمهاجرون أفئدتهم متعلقةٌ بها من يوم خرجوا منها، ولمكة مكانة في نفوس الأنصار مثلهم في ذلك مثل العرب وسارعوا في تلبية نداء رسول الله ﷺ، بينما أبطأ الأعراب واعتذر معظمهم، وهم أعراب بكر بن وائل وغفار ومُزينة وجهينة، فلا زالت قريش تحظى بمهابة وحرمة، فتخوفوا من ردة فعلها، واعتقدوا أن المسلمين سيلاقون رداً عنيفاً منها ولن يرجعوا من خروجهم هذا، وأكثر من انضم إليه من قبيلة أسلم[٢].

خرج رسول الله ﷺ إلى مكة في شوال أو هلال ذي القعدة سنة ستة للهجرة، وقد اجتمع عنده ألف وأربعمائة رجل[٣]، يلبسون ثياب الإحرام بغير سلاحٍ إلاّ السيوف في القُرَب أي سلاح المسافر فقط[٤]، وساقوا معهم سبعين بُدنة، ولكن عندما وصلوا عُسفان، وهي تبعد مرحلتين عن مكة، وصلتهم أخبار عن قريش أنها خرجت ولن تسمح لهم بدخول مكة[٥]، وقدّمت قريش مائتي فارس إلى كُرَاع الغَميم على يومين من مكة، وجعلت خالد بن الوليد عليها، واستنفرت من أطاعها من الأحابيش، وكذلك ثَقيف، ووضعوا العيون على الجبال[٦]، وبعد المشورة قرّر رسول الله ﷺ إكمال ما خرجوا من أجله، فإن صدّوهم قاتلوا من صدّهم، ودنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله

---

١ - ابن حزم: جوامع السيرة، ص٢٠٧.

٢ - الثعلبي: الكشف والبيان، ج٩، ص٤٥.

٣ - السهيلي: الروض الأنف، ج٦، ٤٥٢، ٤٥٣.

٤ - الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص١٠.

٥ - الطبري: تاريخ، ج٢، ص٦٢٠، ٦٢١؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص١٥٥.

٦ - ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٩٥، ٩٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٢٠٨.

ﷺ فصفّ خيله فيما بين رسول الله وبين القبلة، وأمر رسول الله ﷺ عبّاد بن بشر فتقدّم في خيله، وصفّ أصحابه، وصلّوا صلاة الخوف لئلاّ يأخذهم خالد على حين غرّة[١]، ولأنّ القتالَ لم يكن هدف رسول الله ﷺ فإنه سلك طريقاً آخر لا عيون لقريش عليه، كان دليله من قبيلة أسلم، وكان الطريق وعراً وشاقاً أفضى بهم إلى أرض سهلةٍ، منتهين على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة، وهي كانت أقرب حدود الحرم إلى مكة، وفي الحديبية بركتْ ناقة رسول الله ﷺ القصواء، فقال عليه الصلاة والسلام: حبسها حابس الفيل، أمَا والله لا يسألوني اليوم خطة (أي اتفاق أو صلح) فيها تعظيم حرمة الله إلاّ أعطيتهم إياها[٢].

ولـمّا اطمأن رسول الله ﷺفي الحديبية جاءه بُديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة، وأخبروه بحال قريشٍ، فأخبرهم ﷺ أنه ما أتى يريد حرباً إنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته، ولكن من صدّه عن ذلك سيلقى قتالاً، وإن أرادت قريش مدة توضع فيها الحرب بينهم وبين المسلمين كان ذلك، فيأمن الناس بعضهم بعضاً، وأخبرهم رسول الله بأنه لن يتنازل عن هدفه أبداً حتى ينفذ الله أمره. ورجع بديل بالوفد وأخبر قريشاً بكلام رسول الله ورغبته، لكنّ قريشاً لم تشأ أنْ تستمع حتى في البداية إلى ما أرسله رسول الله ﷺ مع وفد خزاعة تعنّتاً وكِبَراً، وكان عروة بن مسعود الثقفي حاضراً فأقنعهم بسماع ما بعثه رسول الله مع وفد خزاعة، كما حاول إقناع قريش بالقبول ولكن دون جدوى، فطلب منهم أن يبعثوه ليتحقق من صدق كلام بُديل، ويكونَ عيناً لهم، فخرج بنفسه وقدم على رسول الله ﷺ فكلّمه، فأعاد عليه رسول الله ﷺ ما حدّث به بُديل ووفد خزاعة، لاحظ عروة أثناء جلوسه إلى رسول الله ﷺ والمسلمين مكانته ﷺ في نفوس أصحابه وحبهم له وثباتهم معه، فقال لقريش بعد رجوعه: إني والله ما رأيت ملكاً في قوم قطّ مثل محمد في أصحابه، وقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، ونصحهم مجدداً أن يوافقوه ويُمادّوه ويخلّوا بينه وبين زيارة الحرم، إلاّ أن قريشاً تعنّتت وأصرّت ألاّ يدخل البيت عامه هذا حتى لا تقول العرب دخلها عنوةً. وأرسلت مِكْرز بن حَفْص بن الأخيف، أخا عامر بن لؤي، فأعاد عليه رسول الله ﷺ ما قَدِمَ لأجله[٣]، وبعده أرسلتْ الحُليس بن علقمة سيد الأحابيش، فلما رآه رسول

[١] – ابن عقبة: المغازي، ص٢٣٤، ٢٣٥.

[٢] – الزهري: المغازي، ص٥١، ٥٢؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٢٨٤؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص١٣.

[٣] – ابن كثير، (إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م): السيرة النبوية، تح: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٦م، ج٣، ص٣١٦، ٣١٧، ٣٣٣.

الله ﷺ قادماً أمر المسلمين أن يرسلوا الهَدْيَ أمامه حتى يراه، ولم يُكمِل مسيره إلى رسول الله ﷺ بعد أن تيقّن من نية المسلمين في زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وقيل أنه رجع غاضباً ومنذراً قريشاً أن تخلّي بين رسول الله ﷺ وبين زيارة البيت(١).

ومن جهته رسول الله أرسل خِراش بن أمية الكعبي الخزاعي، إلى قريش يبلّغ أشرافهم أنه ﷺ إنما جاء معتمراً، لكن قريشاً كادت تقتله وعقرت الجمل الذي يركبه، وهو جمل لرسول الله ﷺ، وأرادوا قتله لولا منع الأحابيش لهم، فخلوا سبيله(٢). وأراد النبي ﷺ أن يبعث عمر بن الخطاب بعده، فخشي عمر من قريش ولا سيما أن ليس له عشيرة تمنعه منهم، وأشار على رسول الله ﷺ بإرسال عثمان بن عفان ليقوم بهذه المهمة، وتم ذلك، فأجاره أبان بن سعيد بن العاص، وبلّغ من بمكة سبب قدوم رسول الله وما يطلب منهم، ولكنهم قالوا جميعاً: لا يدخل محمد علينا أبداً، تصلبوا في موقفهم(٣). وعرضت قريشٌ على عثمان أن يطوف بالكعبة إن شاء، فرفض عثمان حتى يطوف رسول الله ﷺ. وكان المسلمون قد ظفروا بخمسين رجل من قريش خرجوا ليصيبوا من المسلمين غرة، وبهذه الأثناء بلغ رسول الله ﷺ مقتل عثمان ومعه عشرة رجال من المسلمين كان قد أَذِنَ لهم رسول الله ﷺ في دخول مكة لرؤية أهلهم، فدعا رسول الله ﷺ المسلمين ليتبايعوا على ألاّ يفروا، وقيل على الثبات معه عليه السلام حتى الموت، فكانت هذه البيعة بيعة الرضوان تحت الشجرة(٤)، وبايعه من كان معه إلا الجدّ بن قيس فإنه اختبأ ولم يبايع وكذلك عبد الله بن أُبي بن سلول فقد اعتلّ بالوجع(٥)، ولما وصلت الأمور إلى هذه الدرجة من الخطورة والجدية خرج وفدٌ من قريش تألف من سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص، وصل للاتفاق وعقد الصلح، ولكنهم طلبوا من رسول الله ﷺ إطلاق الذين أسرهم رسول الله، فقبل ﷺ مقابل إطلاق عثمان ومن معه من المسلمين، وتمّ ذلك(٦).

---

١ – فالأحابيش كانوا يتألهون أي يتعبدون ويعظّمون أمر الإله والهدي، ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص ٩٦؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص١٥.

٢ – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٧٨١؛ ابن حنبل: مسند، ج٣١، ص٢١٦. رقم ١٨٩١٠.

٣ – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٠٠، ٦٠١؛ ابن القيم: زاد المعاد، ج٣، ص٢٥٩.

٤ – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٧٨٢.

٥ – ابن طرخان: السيرة الصحيحة، الورقة [١٧١– و].

٦ – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٠٢ــ ٦٠٤.

وأبلغ سهيل بن عمرو رسولَ الله ﷺ ألاّ يدخل مكة عامه هذا حتى لا تتحدث العرب أنه دخلها عليهم عنوةً، فتكلما وطال الكلام وتراجعا حتى التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وكتب علي بن أبي طالب شروط الصلح[١]، فاتفقوا أن يرجع المسلمون عامهم هذا دون دخولهم مكة، وأن يعودوا العام المقبل فيدخلونها، وكذلك يكون بينهم صلح يأمن الناس بعضهم لعدد من السنين [٢]. وفي هذه المدة من أتى إلى المسلمين من قريش بغير إذن وليّه ردّوه إليها، ومن ذهب إلى قريش من المسلمين بقي عندها ولم يردّوه[٣]، ومن أحبّ من القبائل أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. فكتبوا العقد وأشهدوا عليه رجالاً من المسلمين، ومن المشركين منهم، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، ومكرز بن حفص، وعلي بن أبي طالب، وهو من كَتبَ الصحيفة[٤]، وتم الأمر. وبينما هم على ذلك قدم جندل بن سهيل بن عمرو ، وكان مسلماً قد حُبس في مكة عن الخروج إلى المدينة واستطاع الإفلات والقدوم إلى معسكر المسلمين، لكن رسول الله ﷺ ردّه تنفيذاً لبنود الصلح، ورجع مع والده سهيل، وقد أثار هذا حفيظة المسلمين وعدّوه مهانةً وذلاًّ، وثقُل عليهم هذا الاتفاق ولم يتقبلوه بادئ الأمر، ورأوا فيه تنازلاً كبيراً من قبل رسول الله ﷺ، وقد جادل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ في ذلك[٥]، حتى نزلت عليه سورة الفتح﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾[٦].

---

[١] – الحلبي: السيرة الحلبية، ج، ص٢٣.

[٢] – تجعله أغلب المصادر عشر سنوات، بينما يرد عند ابن طرخان سنتان، وثلاث عند اليعقوبي. وهو الأقرب إلى الأخذ به، عند الأخذ بعين الاعتبار تطورات الأحداث قبيل فتح مكة، ومجيء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ قبيل انقضاء السنتان راغباً في تجديد العهد ومد الأجل، قبل أن يعلم رسول الله بنقض قريش لأمر الصلح. السيرة الصحيحة، الورقة [١٧١– ظ]؛ اليعقوبي: تاريخ، ج١، ص٣٧٣.

[٣] – أبو نعيم، (أحمد بن عبد الله، ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العربية، بيروت، د.ت، ج٤، ص٣٤٢.

[٤] – يختلف الشهود عند المقريزي: إمتاع، ج١، ص٢٩٦. يجعل عثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح .

[٥] – ابن القيم: زاد المعاد، ج٣، ص٢٦٢.

[٦] – سورة الفتح، الآية ١، ٢.

وروي أن بعض المسلمين قال: ماهذا بفتح، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: بئس الكلام هذا، بل إنه أعظم الفتوح، رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم بالأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا وقد أظفركم الله عز وجل عليهم، وردكم سالمين غانمين مأجورين[١].

أثبتت الأحداث التي جرت بعد الحديبية أنّ هذا الصلح كما سمّاه القرآن الكريم هو الفتح العظيم المبين، لم يكن إلّا في صالح المسلمين، ولم يزد قريش إلا ضعفاً، فمجرد قبولها التفاوض وعقد صلح مع المسلمين، فهذا يعني إقرار واعتراف برسول الله ﷺ وبالإسلام وبقوتهما وكيانهما، وعدت رسول الله ﷺ والمسلمين أنداداً لها، ودفعتهم عنها بالتي هي أحسن ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب الذين كانوا في قريش القدوة لهم ومتأثرين بموقفها من المسلمين كل التأثر[٢].

كما أن رسول الله ﷺ قد حصل على إقرار رسمي من قريش بحقه في زيارة البيت وأنه لم يتنازل بل أجّل الزيارة، أما بند إعادة كل من جاء فاراً إلى المسلمين من قريش رده إليهم، بينما قريش لا تلتزم بشيء من هذا القبيل لهو بصالح المسلمين فالرسول لم يكن بحاجة إلى من يرتد عن الإسلام، بينما المسلم الذي يريد اللجوء إلى صف المسلمين يكون جاء بقلب وإيمان مخلصين ورده إلى قريش لا يزيل هذا الإيمان من قلبه، بالعكس يستطيع نشر الإسلام في صفوف قريش، وخير دليل على ذلك حالة أبي بصير الذي قدم من قريش فاراً إلى رسول الله ﷺ فردّه ﷺ إلى قريش بعد الإرسال في طلبه برجلين أحدهما من بني عامر والثاني مولى له، فقد ردّ ﷺ أبا بصير مع الرسولين، لكنّ أبا بصير تمكن من قتل أحد الحارسين بينما هرب الثاني وقد أعلم رسول الله ﷺ بما جرى. وذهب بعدها إلى منطقة العيص على ساحل البحر الأحمر قرب طريق قوافل قريش إلى الشام، وما لبث بعد ذلك أن التحق به ما يقارب سبعين رجل أصبحت لا تمر بهم عيرٌ لقريش إلا اقتطعوها، فما كانت من قريش إلا أن كتبت لرسول الله ﷺ تسأله بأرحامها أن يجعل أبا بصير وجماعته عنده في المدينة[٣]، ومن الجدير ذكره أن النبي ﷺ تقيد برد

[١] – ابن عقبة: المغازي، ص٢٤٠؛ البيهقي: دلائل النبوة، ج٤، ص١٦٠.

[٢] – دروزة: سيرة الرسول، ج٢، ص٣٥٢.

[٣] – الزهري: المغازي، ص٥٧؛ الواقدي: المغازي، ج٢، ٦٢٥_ ٦٢٧؛ السهيلي: الروض الأنف، ج٦، ص٤٦٩، ٤٧٠، ٤٩٣؛ ابن القيم: زاد المعاد، ج٣، ص٢٦٣، ٢٦٤.

من أسلم من الرجال ولكنه لم يتقيد برد النساء[1]، ونزل القرآن بذلك مؤيداً بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠ ﴾[2].

وفيما يخص القبائل التي انضوت في حلف مع أحد الطرفين فقد انضمت خزاعة إلى حلف رسول الله ﷺ، أما بني بكر بن وائل مع قريش، وبين القبيلتين ثارات قديمة، ومن الجدير ذكره أن خزاعة هي جزء من الأحابيش مما أضعف مركز قريش الحربي إلى حد كبير[3].

أما عن أثر هذا الصلح في الإسلام وانتشاره فقد تبين أنه في سنتي الصلح دخل في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، فهو عليه الصلاة والسلام خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، وبعد عامين خرج على رأس عشرة آلاف لفتح مكة[4].

كانت غزوة الحديبية فتحاً عظيماً مبيناً، عُدّ نقطة تحول في المكانة السياسية للدولة الإسلامية في صراعها مع قريش، وانتصاراً معنوياً وسياسياً، زامنه عودة الحكم البيزنطي لبلاد الشام ومصر بزعامة هرقل وتراجع الفرس الساسانيين عنها، بعد معركة نينوى الفاصلة[5]، عمل رسول الله ﷺ بحرية في نشر الإسلام والتفرغ لأمور الدعوة ونشرها.

فقد ذكرت المصادر بأن رسول الله ﷺ أرسل بعد العودة من الحديبية كتباً ومبعوثين إلى حكام الدول المجاورة، فخرج ستة نفر في يوم واحد[6]، هم "عمرو بن أمية الضمري" إلى النجاشي، و"دحية الكلبي" إلى هرقل قيصر الروم، و"عبد الله بن حذافة السّهمي" إلى كسرى فارس، و"حاطب بن أبي

[1] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٣١؛ الطبري: جامع البيان، ج٢٣، ص٣٢٨، ٣٢٩؛ العسقلاني: فتح الباري، ج٧، ص٤٥٤، رقم ٤١٧٨.

[2] – سورة الممتحنة، الآية ١٠.

[3] – الشريف: مكة والمدينة، ص٤٩١.

[4] – السهيلي: الروض الأنف، ج٦، ٤٦٨.

[5] – الشبول: علاقات الأمة مع بيزنطة، ج١، ص١٦٦، ١٦٨.

[6] – يجعل ابن إسحاق المدة التي بعث بها رسول الله رسله إلى هؤلاء الحكام، مفتوحة ما بين الحديبية ووفاته، ويجعلهم الطبري في ذي الحجة من السنة السادسة للهجرة. الطبري: تاريخ، ج٢، ص٦٤٤، ٦٤٥.

بلتعة" إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، و"شجاع بن وهب الأسدي" إلى الحارث أبي شمر الغساني في الشام، وسليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي وثُمامة بن أثال الحنفيّين ملكي اليمامة[١]، ويضيف ابن هشام "عمرو بن العاص إلى جيفر وعيّاد ابني الجُلَنْديين ملكي عُمان، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، والمهاجر بن أبي أمية المخزوميّ إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن[٢]. دعاهم فيها رسول الله إلى الإسلام وإلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وكانت ردودهم متفاوتة. وكل من هؤلاء الرسل كان يتكلم بلغة من أرسله رسول الله ﷺ إليه[٣].

كانت ردود هؤلاء الحكام متفاوتة، بين مؤمنٍ، مصدّقٍ كالمقوقس والنجاشي[٤]، وبين كافرٍ مشركٍ متحدٍّ ككسرى فارس الذي مزّق الكتاب، فمزّق الله مُلكَهُ [٥]، وأبو الحارث أبي شمّر الغساني الذي رفض ما دعاه إليه رسول الله ﷺ في الكتاب، وتبجّح بقوته، وبأن أحداً لا يقدر بأن يسلبه المـُلك وأكمل تهديد بالأمر بتجهيز الخيل للهجوم على المسلمين حتى لو كانوا في اليمن، فجاءه كتابٌ من هرقل بأن يمتنع عن ذلك، ويلقاه في القدس[٦]، وكان موقف هرقل في الشام موقف المترقب الحذر، وعلى الرغم من أن المصادر تشير إلى ميول هرقل إلى الإسلام، وبأنه التقى مع أبي سفيان، ليسأله عن رسول الله ﷺ، وحاول أن يبين لأتباعه صدق النبوة والرسالة، فلم يقدر على إقناعهم[٧]، إلاّ أنه يمكن القول بأن شخصاً بقوة هرقل كان قد خرج للتوّ منتصراً على الفرس، ومعه رجالٌ وجنودٌ أشداء تحملوا كل القتال، يجعل أمر إسلامه مشكوكاً فيه، إلاّ أنه كرجل دولة وسياسي يمكن تفسير تريثه في الرّد المباشر على الرسالة، وكذلك استدعاء أبي شمر الغساني ليلتقيه في القدس، وقد أَمَرَهُ بالتريث في الهجوم على المسلمين، ما هو إلا لإدراكه أن القوة الناشئة هي قوة مختلفة عمّا سبق، وأن الوضع الجديد يتطلب مزيداً من الحذر، لئلا يدخل في حرب لا يدرك نتائجها.

---

[١]- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٢٢٧؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج٣، ص٢٧٤.

[٢]- السهيلي: الروض الأنف، ج٧، ص٤٦٥.

[٣]- ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢٥٨.

[٤]- الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص٢٧٩_ ٢٨٢.

[٥]- الأنصاري: المصباح المضيء، ج٢، ص١٥١؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص٢٧٨.

[٦]- ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢٦١.

[٧]- ابن الزبير: مغازي، ص١٩٦؛ الزهري: المغازي النبوية، ص٥٩؛ ابن عقبة: المغازي، ص٢٦٦؛ البخاري: صحيح، ج٤، ص٤٥_ ٤٧، رقم ٢٩٤١؛ مسلم: صحيح، ج٣، ص١٣٩٣_ ١٣٩٥، رقم ١٧٧٣.

ومهما كانت نتائج هذه المراسلات، من حيث القبول أو الرفض إلاّ أنه لا يمكن تجاهل أهميتها على الصعيد الإعلامي للإسلام، وتعريف سكان هذه المناطق بالإسلام كدين، وكدولة ناشئة، وبالمسلمين قوة جديدة بالمنطقة، فبدأت ضمن نطاق الجزيرة، أطرافها الشرقية والجنوبية، من ثمّ الدول التي تليها مباشرةً كبيزنطة وفارس والحبشة.

٥- فتح مكة (٨هـ/ ٦٢٩م):

انضم بنو بكر بن عبد مناة إلى قريش بموجب معاهدة الحديبية، وبنو خزاعة إلى المسلمين، وكان بين القبيلتين ثارات قديمة، وبالعموم ساد بين مكة والمدينة الهدوء والسلام، عادت فيها قوافل قريش تخرج إلى الشام، وتوجه المسلمون إلى أماكن أخرى لتأمين مدينتهم وحمايتها من أي اعتداء، كان أبرزها خيبر شمال المدينة، ومؤتة على مشارف الشام، وخرجت سرايا وبعوث إلى مناطق متعددة، والتزم الطرفان ببنود المعاهدة، إلى أن حصل خرقٌ واعتداءٌ، فما كاد يمضي عامان على الحديبية وبالتحديد اثنان وعشرون شهراً عليه، حتى قام بنو بكر، وبالتحديد بنو نُفَاثة منهم، بالاعتداء على خُزاعة في أسفل مكة، وهم على عين ماءٍ هناك وألجؤوهم إلى الحرم، وقتلوا منهم ما يقارب عشرين نفراً، وقد ساعدهم بالمال والسلاح بعض الأفراد من قريش[1]، كان هذا الاعتداء على خزاعة يحمّل قريشاً مسؤوليةَ ما قام به بنو بكر حلفاؤهم، ويقضي أن المسلمين كذلك الأمر معنيين بالوقوف إلى جانب حلفائهم. وخرج وفدٌ من خزاعة إلى رسول الله ﷺ يُعْلِمهُ ما حصلَ مِنْ نكثٍ ببنودِ الصّلحِ ويطلبُ نصرته. وكانت قريش قد أدركت سوء العاقبة بعد هذا الاعتداء، وما سيترتب عليه من إلغاء الصلح، وأن رسول الله لن يدعهم حتى يغزوهم. فذكرت المصادر خروج أبا سفيان إلى المدينة مسرعاً، علّه يصل إليها قبل وصول الخبر إلى رسول الله ﷺ ليماده في الأجل[2]، مما يعطي دليلاً واضحاً بأنّ مدة الصلح يوم الحديبية لم تكن عشر سنواتٍ كما أوردته جلّ المصادر، بل وتجعل الرأي يميل للقول بأن الصلح لم يكن يزيد على سنتين[3]، فما الحاجة لطلب المدّ بأجل الصلح قبل انقضائه بسنة أو سنتين أو ثمانٍ. ولكن أبا سفيان عندما وصل إلى المدينة كان رسول الله قد علم ما حدث، ودخل أبو سفيان على رسول الله وطلب تجديد العهد والمد

[1] - الواقدي: المغازي، ج٢، ص٧٨٣، ٧٨٤؛ الديار بكري: تاريخ الخميس، ج٢، ص٧٧.

[2] - ابن عقبة: المغازي، ص٢٦٩. ابن هشام: السيرة، مج٢، ٨٤٧، ٨٤٨.

[3] - ابن طرخان: السيرة الصحيحة، الورقة [١٨٠- ظ].

في الهدنة، فسأله رسول الله إن كان قد حدث أمرٌ من قبلهم، فأجابه أبو سفيان بأن لم يحدث، فقال رسول الله: "فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل". وخرج دون نتيجة واضحة، ورجع إلى مكة[1].

أمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، ولكنه لم يصرح عن وجهته، بل حاول أن يحافظ على سرية التجهيزات والحركة، وقد أرسل سرية إلى بطن إضم لإيهام القبائل بالتوجه شمالاً[2].

كما أرسل ﷺ إلى قبائل العرب حول المدينة يقول لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسولاً في كل ناحية، حتى قدمت على رسول الله ﷺ أسلم، ومُزينة، وغفار، وجهينة، وأشجع. ووافتهم بني سُليم بقُديد، دون أن يحدد الوجهة إلى قريش، أم إلى هوازن، أو إلى ثقيف[3]، ولم يعلم أحد إلى أين المسير وكلٌ يفترض وجهة، إلى الشمال أو إلى هوازن أو قريش، لقد حرص رسول الله ﷺ على السّريّة في هذا التوجه، حتى يباغت قريشاً فلا تقدر على المواجهة وحتى لا يعطي من يريد قتالاً من أفرادها فرصةً للتجهز، وكأن رسول الله ﷺ أراد أن يشل فيها أي رغبة في القتال بهذه المباغتة، ولما أعلم الناس بوجهته بثّ العيون ومنع الأخبار من الانتقال والخروج، وكشف عن محاولة حاطب بن أبي بلتعة إخبار قريش بالقدوم، ولما بيـّن حاطب لرسول الله حقيقة أمره عفا عنه[4]، ونزل القرآن في هذا الصدد بقوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ

---

[1] – الزهري: المغازي، ص٨٧، ٨٨. ابن طرخان: السيرة الصحيحة، الورقة [١٨٠– ظ]. الكلاعي: الاكتفاء، ج١، ص٥٠٠

[2] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٧٩٧. يجعلها ابن كثير قبل عمرة القضاء، وفيها قتل محلم بن جثامة الليثي عامر بن الأضبط الأشجعي، مع أنه حياه بتحية الإسلام، فنزل به قوله تعالى: ... ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ... من سورة النساء الآية ٩٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٣٦٧.

[3] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٧٩٩، ٨٠٢. يجعل اليعقوبي انضمام القبائل تباعاً، مزينة بالروحاء، وغفار بالسقيا، وسُليم بقديد وبني ليث بالكديد. اليعقوبي: تاريخ، ج١، ص٣٧٧؛ ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص١٣٥.

[4] – الطبري: تاريخ، ج٣، ص٤٨، ٤٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٥٢١؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص٨٧.

وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ [١].

كان تعداد المسلمين في هذه الغزوة عشرة آلاف مسلم من مهاجرين وأنصار وأعراب[٢]، تعداد المشركين نفسه يوم الخندق، ولكن شتان ما بين تنظيم القوتين فالمسلمون جمعتهم قيادة واحدة ولهم غاية مشتركة، وطاعتهم والتزامهم بأوامر رسول الله متناهية، وتنظيمهم على مستوى عالٍ، كما أن سلطة وهيبة رسول الله ﷺ والالتزام بأوامره قد ظهرت وتجلت بشكل واضح في عدم وصول الخبر إلى قريش بالتوجه إليها، على الرغم من أن هذه القبائل لما تكن قد أسلمت جميعها بعد.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هوازن كانت تتوقع هجوماً عليها وتعد العدة لذلك، فلقد وقع في أيدي المسلمين أثناء خروجهم عينٌ لهوازن، كان يحاول تجسس أخبار المسلمين ومعرفة خطة سيرهم وقد اعترف بمهمته وأخبر رسول الله ﷺ بحال هوازن وتجهزها [٣].

لم تكن قريش تتوقع أن يكون هجوم رسول الله ﷺ عليها بمثل هذه السرعة كانت مترقبة تنتظر الأخبار، فلم تأخذ بأسباب الدفاع، خرج في هذه الأثناء العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وبطائفةٍ من بني هاشمٍ إلى المدينة، فلقي المسلمين في الجحفة، وبقي معهم وأرسل أهله إلى المدينة[٤]، وفي مرّ الظهران أمر رسول الله ﷺ بإشعال النيران، فوجئت قريشٌ بكبرها واتساعها، فخرج أبو سفيان، وحكيم ابن حزام، وبُديل بن ورقاء الخزاعي لاستطلاع حقيقة الأمر، وعندما اقتربوا، التقوا بالعباس الذي حذّرهم من قوة المسلمين وخشيته على قريش من هذه الأعداد، ونصحهم بأخذ الأمان لقريش من رسول الله ﷺ، فأوصلهم إلى خيمة رسول الله ﷺ وأدخلهم إليه، وكان قد أجارهم، وأسلم حكيم بن حزام وبُديل

---

١ – سورة الممتحنة، الآية ١.

٢ – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٨٥١؛ الواقدي: المغازي، ج٢، ص٨١٥؛ البخاري: صحيح، ج٥، ص١٤٦، رقم ٤٢٧٦؛ الطبري: تاريخ، ج٣، ص٥٠؛ ويرد اثنا عشر ألفاً في مغازي عروة، ص٢٠٩؛ ومغازي موسى بن عقبة، ص٢٧١؛ ويضيف العسقلاني في فتح الباري، بأن العشرة آلاف خرج بها ﷺمن المدينة ثم تلاحق بها الألفان؛ فتح الباري، ج٨، ص٤، شرح الحديث رقم ٤٢٧٥.

٣ – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٨٠٥؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٣٥٦.

٤ – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٨٥٢؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص٢١٦؛ ابن كثير :البداية والنهاية، ج٦، ص٥٣١.

بن ورقاء، وكذلك أبو سفيان لكن بعد تردد وجدل، وأخذ الأمان لكل فرد من قريش دخل داره وأغلق بابه أو دخل المسجد الحرام، أو دخل دار أبا سفيان[١]، كما أنه شاهد بأم عينه تجهيز وتسليح المسلمين، وعَلِمَ أن لا طاقة لقريش بمواجهتهم، وخاصة بعدما شاهد الكتيبة الخضراء، كتيبة المهاجرين والأنصار، ومعهم رسول الله ﷺ لا يُرى منهم إلا الحُدُق من الحديد[٢]، فقد مرّت الألوية والكتائب في تعبئة دقيقة، وفي حالة انضباط أدق ما كان يعرفه العرب في تاريخهم العسكري عبر العصور، أراد رسول الله ﷺ أن ينقل أبو سفيان لقريش ويعرفهم مدى قوة جيش المسلمين عدداً وتسليحاً وتنظيماً وانضباطاً، وقوة إرادة وحسن طاعة، وقدرة على سحق أية مقاومة، حتى لا يفكر أحد بالتهور والمواجهة[٣].

عبّأ رسول الله ﷺ المسلمين وجعل دخولهم من جهات متعددة، وكأنه أراد بذلك أن يشتّت جموع قريش ويمنع حصول أي قتال، فدخول المسلمين من أكثر من جهة سيجعل من قوة قريش إن وجدت قوة مشتتة على أكثر من جهة، مما يخفف إمكانية حصول أي قتال، فأمر الزبير بن العوام أن يدخل من أعلى مكة أي شمالها، وخالد بن الوليد من أسفلها، ونهى عن القتال إلاّ إذا اضطروا[٤]،وجعل سعد بن عبادة على الأنصار وسلّمه الراية، ونقلها بعد ذلك رسول الله لابنه قيس، وكان دخولهم من كدى، وجعل أبو عبيدة بن الجراح في مقدمة القوة التي دخل فيها من الشمال الغربي، وكان لقاء المسلمين عند جبل هند، ولكنه سمّى أشخاصاً من مكة ستة رجالٍ وأربعةَ نسوة أن يُقتلوا حتى لو وُجِدوا متعلّقين بأستار الكعبة لأذيتهم الشديدة للإسلام[٥].

---

[١] – ابن عقبة: المغازي، ص٢٧١_ ٢٧٣؛ ابن أبي شيبة: كتاب المغازي، ص ٣٢٠، ٣٢١.

[٢] – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص١٣٥؛ ابن كثير :البداية والنهاية، ج٦، ص٥٣١.

[٣] – باشميل، (محمد أحمد): فتح مكة، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ص٢٢٠، ٢٣٠.

[٤] – ابن الزبير: مغازي، ص٢١١.

[٥] – وهؤلاء هم: عبد الله بن سعد أخو بني عامر بن لؤي، وعبد الله بن خطل، والحويرث بن نُقيذ بن وهب، ومقيس بن صبابة، وعكرمة بن أبي جهل، وقينتان لابن خطل وسارة مولاة لبني عبد المطلب. ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٨٥٧، ٨٥٩.

ودخلت قوات المسلمين ولم يحصل قتال إلا من الجهة التي دخل منها خالد بن الوليد أسفل مكة، واجه فيها عكرمة بن أبي جهل ومعه صفوان بن أمية ومجموعة من الأحابيش، هزمهم خالد وقتل عدداً منهم ليس بالكبير[١]، ولم يفقد من رجاله إلا اثنين كانا شذّا عن الطريق التي سلكها.

ولم يدخل رسول الله ﷺ بيوت مكة، ونزل في الحجون قبالة جبل هند على مقربة من قبري أبي طالب وخديجة، وضُربت له خيمةٌ هناك، وطاف بالكعبة سبعاً، ثم دخلها وصلّى فيها، وطهّرها من الأوثان، ولم يُبقِ فيها من مظاهر الشرك شيئاً، فأمر بطمس صور الأنبياء التي وُجدت بداخلها، كصورة النبي إبراهيم عليه السلام يستقسم بالأزلام، وصور الملائكة[٢]. وجمع أهل مكة وخطب فيهم، وسألهم: يا معشر قريش ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم. قال ﷺ: فاذهبوا فأنتم الطلقاء[٣]. وبهذه العبارة أصدر رسول الله ﷺ عفواً عاماً عن قريش وعن أهل مكة جميعاً. فاستطاع رسول الله ﷺ أن يكسب أكبر معركة في تاريخ الدعوة دون إراقة دماء، كما أنه بهذه المعاملة الحسنة التي عامل بها رسول الله ﷺ من آذوه وأخرجوه من بلده قد استطاع أن يغير موقفهم ويليّن قلوبهم بعد أن كانوا أشد الناس عداوة له وللدعوة، وكان لذلك أثره الكبير لاحقاً.

وقد أقام رسول الله ﷺ في مكة خمسة عشر يوماً ينظم شؤونها ويفقه أهلها في الدين، ألغى كل الوظائف التي كانت تتعلق بالحجّ والكعبة ولم يُبقِ إلا على السّدانةِ والسّقاية فقط، وأبقى السّدانة بيد بني عبد الدار[٤]، والسّقاية بيد العباس بن عبد المطلب. وقام في هذه الأثناء بإرسال عدة سرايا لتحطيم الأصنام، أرسل خالد بن الوليد لهدم العزى في بطن نخلة، وعمرو بن العاص لهدم سواع صنم هذيل، وسعد بن زيد الأشهلي الأنصاري لهدم مناة[٥].

---

١ – قدره الواقدي بأربعة وعشرين رجلاً من قريش وأربعة من هذيل. المغازي، ج٢، ص٨٢٥.

٢ – ابن عقبة: المغازي، ص٢٧٦؛ ابن أبي شيبة: المغازي، ص٣٣٢، ٣٣٤.

٣ – الطبري: تاريخ، ج٣، ص٦١؛ المسعودي، (علي بن الحسين بن علي، ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩م، ج٢، ص٢٢٨؛ ابن القيم : زاد المعاد، ج٣، ص٣٥٩.

٤– إلا أن اللواء لم يبق بيدهم، وذلك لما له من طابع سياسي وعسكري، يختلف عن غيره من الوظائف التي ترتبط بخدمة الحجاج والكعبة، كما تتجلى من خلالها سلطة الدولة، وتتمثل في رسول الله ﷺ. اليعقوبي: القبيلة، ص١٣٧.

٥ – الطبري: تاريخ، ج٣، ص٦٥، ٦٦؛ الهيثمي، (علي بن أبي بكر بن سليمان، ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تح: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٩٤م، ج٦، ص١٧٦، رقم ١٠٢٥٥.

وسرايا أخرى في المنطقة المحيطة بمكة تدعو إلى الإسلام دون قتال وكانت منها سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة أسفل مكة على رأس ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار ومن بني سُليم[١]، وكانوا قد أظهروا الإسلام، ولكن خالداً راوده شكٌ في إسلامهم فأمرهم بإلقاء سلاحهم وقيّدهم، ولم يكتفِ بذلك بل أمرَ بعدها أن يَقتلَ كلّ امرئٍ أسيره، فسارع بنو سُليم إلى تنفيذ الأمر، بينما رفض المهاجرون والأنصار تنفيذ الأمر، بل وراجعوا خالداً فيه، ولما رجعوا أعلموا رسول الله بذلك، فقام ﷺ بإرسال علي ابن أبي طالب إلى بني جَذيمة ودفع الدّية لهم عن جميع القتلى، ونفّذ عليٌّ المهمةَ، وفرّق فيهم أموالاً كثيرة حتى أرضاهم، وأثنى رسول الله على فِعْلِ عليٍّ، بينما تبرأَ مما قام به خالدٌ[٢]. وعلى ما يبدو بأن لرواسب الجاهلية أثرٌ في تصرّف خالد، فعندما عاتبه وأنّبه عبد الرحمن بن عوف على هذه الفعلة، أجابَ خالد بأنه قد أخذ له بدم أبيه، فغضب عبد الرحمن عندها، وقال له، بل بدم عمك الفاكه بن المغيرة.

كان رسول الله ﷺ حريصاً شديد الحرص على عدم إراقة الدماء وحذّر من مغبة الأمر، فحتى النفر الذين أمر بقتلهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة لم يتم قتلهم جميعاً ومنهم من استأمن رسول الله فأمنّه، كما استنكر حدوث قتال وقت الفتح، ودخول المسلمين إلى مكة، ولما علم بقيام خزاعة بقتل رجل من هذيل وهو مشرك، غضب رسول الله ﷺ وقام بالناس خطيباً، فقال: يا أيها النّاس إنّ اللهَ حرّمَ مكةَ يوم خَلقَ السّمواتِ والأرضَ، فهي حَرامٌ مِنْ حَرامٍ إلى يوم القيامةِ، فلا يَحِلُّ لامرئٍ يؤمن باللهِ واليومِ الآخِرِ أنْ يسفك فيها دماً ولا يعضد فيها شجراً، لم تحلِلْ لأحدٍ كانَ قبلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ يكون بعدي، ولم تَحْلِلْ لي إلاّ هذه السّاعةَ، غضباً على أهلها، ثم رَجعَتْ كَحُرمتها بالأمس، فليبلّغ الشاهد منكم الغائب. فمن قال لكم إنّ رسول الله قد قاتل فيها، فقولوا إنّ الله قد أحلّها لرسوله ولم يُحْلِلْها لكمْ، يا معشرَ خزاعةَ ارفعوا أيديكم عن القتل، لقد قتلتم قتيلاً لأدينّه، فمن قُتِلَ بعد مَقامي هذا فأهله بخير النّظرين، إنْ شاؤوا فدمُ قاتله، وإن شاؤوا فَعَقْلُهُ. ثم ودّى الرجل الذي قتلته خزاعة[٣]. فالأمر ليس انتقاماً، الأمر قضيةٌ، ونَشْرُ دينٍ سَمْحٍ فيه إحلالٌ للسّلمِ والأمان وليس للخوف والقتل والرعب.

وبعد الانتهاء من تنظيم أمور مكة وترتيب أمورها كان لا بد من التوجه إلى هوازن وقد حشدت جمعاً كبيراً لقتال المسلمين، فكانت غزوة حُنين.

---

[١] – يذكر ابن طرخان بأن بني سُليم فقط هم من خرج مع خالد بن الوليد. السيرة الصحيحة، الورقة [١٨٥– و].

[٢] – الطبري: تاريخ، ج٣، ص ٦٦، ٦٧ .

[٣] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٨٦٤، ٦٥.

• غزوة حُنين:

كان المسلمون قد أمسكوا أثناء توجههم إلى مكة رجلاً تبين أنه كان عيناً لهوازن لتجسس أخبار المسلمين ومعرفة وجهتهم، وأخبر رسول الله ﷺ أنه ترك هوازن وقد جمعوا الجموع وأجلبوا العرب وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم، وبعثوا إلى جرش في اليمن لعمل الدبابات والمنجنيق، وجعلوا أمرهم لمالك بن عوف[١]، والأمر الذي يدعو إلى الاستغراب في هذا المقام بأن قريشاً عندما علمت بتوجه المسلمين إليها، فإنها لم تبادر أبداً بطلب العون من هوازن، وبدورها هوازن لم يَبْدُ منها أيّ تعاون أو ذود عن قريش، وكأن قطيعةً أو جفاءً بين قريش وهوازن، وربما هوازن أدركت ضعف قريش وأرادت أن تكسب شرف هزيمة المسلمين فيكون لها هذا الشرف فتصبح زعيمة العرب، وهذا لم يكن خافياً على قريش لذلك فقد اشترك رجال قريش مع المسلمين في المعركة ضد هوازن، بل حتى أن أفراداً منها ولما يكونوا قد أسلموا بعد قدموا المساعدة للمسلمين ضد هوازن، وشاركوا المسلمين في خروجهم.

كان رسول الله ﷺ قد أرسل للتأكد من صحة ما وصله من أنباء عن هوازن ورغبتها في القتال أبا حَدْرَد الأسلمي، فعاد وأخبر رسول الله ﷺ بخروج هوازن مع أهلها ونعمها، وباعتزال كعب وكلاب، وبرغبة هوازن بقيادة مالك بن عوف في القتال وتأهبها للخروج[٢].

بدأ رسول الله ﷺ بعد ذلك بالتجهيز للخروج، فانضم للمسلمين ألفان من قريشٍ ليصبح تعداد المسلمين اثني عشر ألفاً، واستعار من صفوان بن أمية مئة درعٍ منه[٣]، واستلف منه أيضاً خمسين ألف درهم، ومن عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألفاً، ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألفاً ليقوي بها قوت المسلمين[٤]. وخرج رسول الله ﷺ بالمسلمين، ويتقدم كل قبيلة رايتها وقد أعجبوا بعددهم وعديدهم وظنوا أن لن يغلبهم أحد. ولما وصلوا وادي حُنين نظّم رسول الله ﷺ المسلمين في صفوف وعبّأهم، وكان ذلك

[١] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٨٠٥.
[٢] – الطبري: تاريخ، ج٣، ص٧٣؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص١٢٣.
[٣] – ابن عقبة: المغازي، ص٢٨٢؛ الواقدي: المغازي، ج٢، ص٨٥٤.
[٤] – البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٤٦٠.

في وقت السّحر قبيل الفجر، وجعل بني سُليم مقدّمة الخيل، وانحدر المسلمون في الوادي، وكان وادياً أجوف كثير الشعب والمضائق[١].

وكان مالك بن عوف قد عبّأ أصحابه في الوادي في الليل قبل وصول المسلمين وفرّقهم في الوادي وأوعز إليهم أن يحملوا عليهم حملةً واحدة، وعندما وصل المسلمون وانحدروا في الوادي، انقضت عليهم هوازن دفعةً واحدةً من حيث لم يكونوا يتوقعون، فأصابهم الفزع والاضطراب وانكشفت مقدمتهم وانهزم بنو سليم وتبعتهم مكة وهربوا لا يلوون على شيء[٢]. وقد أشار الله عزّ وجلّ إلى ذلك في محكم كتابه الكريم بقوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[٣].

عند ذلك انحاز رسول الله ﷺ وثبت بعدد من الصحابة قيل أنهم كانوا مئة هم المائة الصابرة كانوا ثلاثة وثلاثين من المهاجرين، وسبعة وستين من الأنصار[٤]، ويقول الله عزّ وجل﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[٥]، فقد أمر العباس، وكان رجلاً صيّتاً، أن ينادي بالأنصار يا أصحاب السّمُرة يا أنصار الله وأنصار رسوله، يا معشر الأنصار، فأقبلوا يقولون: لبيك يا لبيك، ولكن بسبب شدة التدافع اضطر البعض إلى ترك الدابة التي يركبها لعدم قدرتها على التوقف وتغيير اتجاهها نتيجة التزاحم الشديد والهرب من صفوف المسلمين، ويكتفي بحمل سلاحه والتوجه إلى مصدر الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، وعاد قسم وثبت مع رسول الله ﷺ ، واستطاعوا الثبات ومقاومة هجوم هوازن، والانتصار عليهم، وغنم المسلمون كل ما وجد في معسكرهم من مال ومتاع ونساء وأطفال[٦]، إلاّ أن رسول الله أوقف كل هذه الغنائم في مكان سمي

١ – الديار بكري: تاريخ الخميس، ج٢، ص١٠١.

٢ – الطبري: تاريخ، ج٣، ص٧٤.

٣ – سورة التوبة، الآية ٢٥.

٤ – الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩٠١.

٥ – سورة التوبة، الآيتان ٢٦، ٢٧.

٦ – الزهري: المغازي، ص٩٢، ٩٣؛ الطبري: تاريخ، ج٣، ص٧٥.

بالجعرانة واستعمل عليها من يحفظها (بديل بن ورقاء الخزاعي) ونادى في الناس أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغل من الغنائم شيئاً، وتابع مسيره إلى الطائف.

وهنا يمكن ملاحظة البعد الاستراتيجي العسكري عند رسول الله ﷺ، فهو لم يكتفِ بهذه الهزيمة، بل أتبعها بتعقب المنهزمين واستثمار نصره، والقضاء على فلولهم مع العلم أنهم كانوا قد تفرقوا إلى ثلاثة أقسام قسم رجع إلى الطائف، وقسم آخر عسكر في أوطاس، وثالثٌ في نخلة، لم يترك لهم رسول الله فرصة إعادة تنظيم أنفسهم ولم شتاتهم، حيث أتبع كل قسم بفرقة من جيشه، فأرسل قوة من فرسان المسلمين لمطاردة الذين كانوا في نخلة، وقوة بقيادة أبي عامر الأشعري لقتال من ذهب إلى أوطاس، وانطلق بنفسه عليه الصلاة والسلام إلى الطائف حيث اعتصم المنهزمون فيها[١].

اختلفت الطائف عن مكة فقد كانت محصنة ذات أسوار وحصون قوية، ولها أبواب تغلق عليها. تقدمت قوات المسلمين وتجمعت عندها، لكن ثقيف استقبلوهم بالنبال وكأنهم جرادٌ كثير، حتى أُصيب ناسٌ من المسلمين بالجراح، واتخذ رسول الله منزلاً بمشورة من أحد الأنصار، فقد كانوا ذوي بأس وخبرة في الحرب، لا تناله نبال ثقيف[٢].

كانت مدة الحصار قرابة ثلاثة أسابيع، بين خمسة عشر يوماً إلى تسعة عشر يوم استمرت خلالها المناوشات. وقد شاور خلالها رسول الله أصحابه بأسلوب قتال يجبرون فيه ثقيف على الاستسلام، فأشار عليه سلمان الفارسي بنصب المنجنيق، ونصبوا واحداً[٣]، قيل أن سلمان صنعه بيديه، وقيل أن يزيد بن زمعة أو الطفيل بن عمرو قدم به مع دبابتين، وهي آلات مغطاة بجلود البقر تحمي من فيها من المقاتلين، من جرش من اليمن، وقاومت ثقيف وأحبطت محاولات المسلمين في الوصول إلى سور الطائف، وأعلن رسول الله أنه سيعتق كل عبد يأتيه من الطائف، فنزل إليه بضعة عشر عبداً من عبيد أهلها، وعلم منهم أن ثقيف قد أعدت المؤن والسلاح واستعدت لحصار طويل، وعندها

١ - البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٤٦٤؛ الطبري: تاريخ، ج٣، ص٧٨.

٢ - الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩٢٦؛ الطبري: تاريخ، ج٣، ص٨٣، ٨٤.

٣ - يرجح واط أن النبي أخذ المنجنيق عن البيزنطيين. محمد النبي ورجل الدولة، تر: حمّود حمّود، دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٤م، ص٢٧٠.

قرر رسول الله رفع الحصار عنها[1]، لأنه كان متأكداً أن استسلامها وإسلامها ما هي إلا مسألة وقت والحصيلة كانت سقوط اثني عشر شهيداً من المسلمين أكثرهم من قريش[2].

ورحل المسلمون عن الطائف، ورجعوا إلى الجعرانة لتقسيم الغنائم، وكانت الأعراب قد كثّروا عليه وألحّوا في ذلك، وعند المقسم نادى في الناس أن يُرجعوا ما أخذوا من الغنائم قبل تقسيمها، فإنه عارٌ وشنارٌ يوم القيامة، وأخذ وبرةً مِنْ بعيرٍ، وقال: "والله ما يحلّ لي مما أفاء الله عليكم ولا مثلُ هذه الوبرة إلاّ الخمس، والخمس مردودٌ عليكم". ولقد أراد رسول الله بهذا التأجيل بتقسيم غنائم حُنين أن يَقدِمَ عليه وفدُ هوازن مسلماً، فيُرجِعُ لهم سَبْيَهُمْ وأموالهَم، ولكنّ هذا لم يحصل إلاّ بعد القسمة، فبدأ رسول الله بالأموال فقسّمها، وأعطى عدداً من رجال مكة والمنضمين حديثاً للإسلام، ليؤلّف قلوبهم وأجزل فيه، وعُرف هؤلاء بالمؤلفة قلوبهم، وقسّم بين الناس، وبعد ذلك فرّق السبي، وبعد الانتهاء من ذلك جاء وفد هوازن يعلن انضمام القبيلة إلى الإسلام، فقبل رسول الله إسلامهم وخيّرهم بين النساء والذرية وبين الأموال، اختاروا نساءهم وأولادهم فرُدّت إليهم ما عدا بني تميم فإنهم تمسكوا بالسبي حتى جعل فيه رسول الله الفداء[3].

كان رسول الله قد أبقى أهل مالك بمكة، وأوقف ماله، ولم يجرِ عليه السهم، فقال لهم: أخبروا مالكاً إن يأتي مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل، فلما بلغ مالك الخبر، خرج من الطائف خفيةً حتى أدرك رسول الله قد خرج من الجعرانة، فأسلم، ورد عليه رسول الله أهله وماله وأعطاه ما وعده من الإبل، واستعمله على من أسلم من قومه ومن تلك القبائل حول الطائف من هوازن وفهْم، ورجع مالك إلى قومه وأخذ يغير بمن معه من المسلمين من قومه على ثقيف، وعلى سَرْحها وكان يرسل إلى رسول الله بالخمس مما يغير عليه[4].

---

[1] – الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩٢٧، ٩٣١.

[2] – الطبري: تاريخ، ج٣، ص٨٥.

[3] – ابن عقبة: المغازي، ص ٢٨٨_ ٢٩١؛ الواقدي: المغازي، ج٣، ص ٩٤٤_ ٩٥٤.

[4] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٩٢٧، ٩٢٨.

ورجع رسول الله من الجعرانة معتمراً إلى مكة. فلما قضى عمرته استخلف عتّاب بن أُسيد على مكة، ومعاذ بن جبل ليفقه الناس في دينهم ويعلمهم القرآن، وعاد هو والأنصار والمهاجرون قافلين إلى المدينة[١].

ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد غياب دام حوالي شهرين ومع بداية السنة التاسعة للهجرة في شهر المحرّم أرسل المصدقين إلى قبائل العرب لجلب الصدقة، ولما حاول بنو تميم منع عمال رسول الله من جباية الصدقة أرسل عيينة بن حصن الفزاري في سريةٍ إليهم وكانوا في شمال شرق المدينة إلى العراق، وقد استطاع هزيمتهم عيينة وسبى وأسر منهم، ولكن رسول الله ردهم إلى أهلهم عندما قدم وفد منهم إلى المدينة وأسلموا. كما أن رسول الله أرسل إلى قبيلة خثعم في تبالة الواقعة جنوب شرق مكة سريةً، كانت الغاية منها تأمين الطريق الذي يربط اليمن بمكة والمدينة.

ب- غزوات وسرايا الشمال:

إن أهم نقطتين ظهرتا في سياسة رسول الله ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة، كانتا إضعاف قريش من خلال استهداف قوافلها وإغلاق طرقها أولاً، والعمل على تأمين الشمال والطريق إلى الشام لضمان استمرار التجارة والقدوم بما تحتاجه المدينة من منتجات وسلع غذائية وغيرها، وتسلم زمام هذا الأمر، بالتالي الحلول محل مكة في هذا الميدان، فقد كان عليه الصلاة والسلام مدركاً أهمية الدور القرشي في هذه المرحلة في التجارة بالنسبة إلى مختلف القبائل، وأهمية التجارة لها بالمقابل، وهذا كله طبعاً يأتي بعد الناحية الأهم في سياسة رسول الله ﷺ وهي ناحية نشر الإسلام بحرية ودون مقاومة.

١- دُومَةُ الجندلِ والقبائل المجاورة في الشمال:

تعد دُومَةُ الجَنْدلِ من أعمال المدينة، قرب جبلي طيء " أجأ وسلمى" في الشمال الشرقي[٢]، كان بنو كلب ينزلون بدومة الجندل قبل الإسلام وكانوا نصارى[٣]، وهي من وادي القرى، وكان عليها

[١] - ابن عقبة: المغازي، ص٢٩٢؛ هيكل: حياة محمد، ص٤٤٣.

[٢]- ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع، ج٢، ص٥٤٢؛ الشامي: سبل الهدى، ج٣، ص٣٥٠. تبعد دومة الجندل حوالي ٥٠٠ كم شمال المدينة؛ البلادي: معجم معالم السيرة، ص١٢٨. -Watt: Muhammad, P.35.

[٣]- العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٢٥٠.

سور منيع[١]، وتذكرها المصادر بين أسواق العرب السنوية القديمة المشهورة[٢]. بدأ ذكرها في السنة الرابعة بعد الهجرة عندما خرج رسول الله ﷺ إليها، بسبب ما كان يقوم به أهلها من اعتداءات على من مرّ بهم من الضافطة[٣]، وأن قد انضم لهم جماعة من العرب يريدون أن يدنوا من المدينة، لذلك خرج الرسول في ألف من المسلمين، خرج يسير في الليل ويكمن في النهار، ودليله من بني عُذرة. لما وصلوا إلى ديارهم كانوا قد تفرقوا، فلم يلقَ المسلمون بها أحداً، فأقام فيها رسول الله أياماً وبثّ السرايا وفرّقها، فعادت كل سرية بإبل، لكنهم لم يلقوا أحداً، إلا رجلاً أسره محمد بن مسلمة، سأله رسول الله عن قومه، فأخبره بأنهم هربوا عندما علموا بقدوم المسلمين إليهم، ورجع بعدها المسلمون إلى المدينة[٤]. الملاحظ في هذه الغزوة أن العدد الذي خرج به رسول الله كان كبيراً، وهو يعبر عن أهمية هذا العمل، وخطورته في هذه المنطقة الحساسة فيما يخص أمن المدينة. فهذه الاعتداءات ستشكل في المستقبل خطراً ولاشك يهدد أمن المدينة الغذائي، فالمدينة كانت مستمرة النمو، بحكم استقبال المهاجرين إليها من مختلف القبائل.

فيما يخص دومة الجندل أياً كانت نتائجها، فقد ارتبطت بإشعار القبائل القريبة من سوق دومة الجندل أن المسلمين لن يتساهلوا في أمر تجارتهم مع الشام، سواء كانت تلك التجارة بيد المسلمين أم بيد الضافطة من الأنباط الذين عُرفوا بورودهم إلى سوق المدينة، حاملين القمح والزيت من الشام[٥].

وبدأت تظهر بعد غزوة الخندق اعتداءات واضحة على المسلمين، حيث قامت مجموعة من بني جُذام في حِسمى، بالاعتداء على دحية الكلبي في طريق عودته من الشام إلى المدينة، فأرسل رسول الله زيد بن حارثة على رأس خمسمائة رجل من المسلمين لمعاقبتهم[٦]. إلا أن رفاعة بن زيد الجذامي، وكان قد أسلم، وجاء قومه بكتابٍ من رسول الله أسلموا على إثره، عندما سمع بالاعتداء على دحية، خرج ومعه رهطه إلى الهنيد بن عارض وابنه اللذين اعتديا على دحية، فاقتتلوا، وتمكن رفاعة من استنقاذ ما

[١]- الفيروز أبادي: المغانم، ص١٣٩، ١٤٠.

[٢]- تقام في شهر ربيع الأول، تجتمع فيها العرب ورؤساؤها غسان وكلب، أيهم غلب قام بها. اليعقوبي: تاريخ، ج١، ص٣٢٥. الأفغاني: أسواق العرب،ص٢٣٢.

[٣] – الضافطة: هم الجمّالون من الناس، والضّفّاط الذين يجلبون الميرة والمتاع إلى المدن، وكان الضافطة من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت. ابن منظور: لسان، ج٧، ص٣٤٤، مادة (ضفط).

[٤]- الواقدي: المغازي، ج١، ص٤٠٣. الشامي: سبل الهدى، ج٤، ص٣٤٢.

[٥] – الشبول: علاقات الأمة مع بيزنطة، ج١، ص١٦٤.

[٦] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٥٥. السهيلي: الروض الأنف، ج٧، ص٤٧١.

أخذ من دحية، في هذه الأثناء كان زيد قد أرسله رسول الله ﷺ، ومعه دليل من بني عُذرة، وصلوا مكان تواجد الهنيد وقومه، فأغاروا عليهم وقتلوا فيهم، وأصابوا ألف بعيرٍ، وخمسة آلاف شاة، ومائة من النساء والصبيان. وبعد وصول الخبر إلى رسول الله في المدينة، أرسل عليّاً بن أبي طالب إلى زيد يأمره ومن معه برد كل من معهم من أسير أو سبي أو مال[1].

وكذلك قام بنو فزارة بالاعتداء على زيد بن حارثة عندما خرج في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ، وأخذوا ما كان معه، وتركوهم بعدما ظنوا أنهم أجهزوا على كل أفراد القافلة، وتمكن زيد من النجاة بعد إصابته، وأطلقت المصادر على هذه السرية اسم سرية أم قِرفة، فكانت السرية رداً على هذا الاعتداء، ولكن القوم استعدوا للقاء المسلمين، وخاض زيد معهم معركة انتهت بمقتل عددٍ منهم وأسر آخرين ذكرت منهم جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر وأمها أم قِرفة فاطمة بنت ربيعة بن بدر[2]. أما الفتاة فقد استوهبها رسول الله ممن سباها، وافتدى بها أسيراً كان في قريش من المسلمين، وأم قِرفة قُتلت[3].

وضمن سياسته ﷺ أرسل عبد الرحمن بن عوف في سرية إلى دُومة الجندل مؤلفة من سبعمائة رجل في شعبان سنة ٦هـ/ ٦٢٧م، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام، كان عبد الرحمن بن عوف، رجلاً تاجراً، له خبرة في معرفة الطرق والقبائل، ولديه أسلوبٌ في الإقناع، مما كان له دور في إنجاح المهمة المكلّف بها. أما عن عدد أفراد السرية، فقد كان عدداً كبيراً، وقد خرج بهم عبد الرحمن حتى وصل إلى دُومة الجندل فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وأسلم زعيمهم في اليوم الثالث، وكان نصرانياً، وأسلم معه قسم كثير من قومه، ومن لم يسلم دفع الجزية، وقبولهم بأداء الجزية كان اعترافاً منهم بالتبعية لدولة المدينة، والدخول في ذمة الإسلام، وألاّ يعينوا على المسلمين أحد من داخل شبه الجزيرة العربية أو

---

[1] – المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٢٦٨؛ الشامي: سبل الهدى، ج٦، ص٨٩.

[2] – كان يعلّق في بيت أم قِرفة خمسون سيفاً لخمسين رجل كلهم لها مَحرم، ويضرب بها المثل فيقال: أعزُّ من أم قِرفة، وأمنع من أم قِرفة. الثعالبي: ثمار القلوب، ص٣١٠. الميداني، (أحمد بن محمد النيسابوري، ت ٥١٨هـ/ ١١٢٤م): مجمع الأمثال، تح: محمد عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج٢، ص٤٥، ص٣٢٣.

[3] – المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٢٧١. وقد أورد الحلبي هذه السرية بقيادة أبي بكر الصديق، وأضاف أن سبب مقتل أم قرفة أنها كانت تسب النبي ﷺ ولها في قومها شرف، السيرة الحلبية، ج٣، ص٢٥١. أيضاً يذكرها السهيلي: الروض الأنف، ج٧، ص٤٧٧، ٤٧٨.

خارجها، وقد أرسل عبد الرحمن يخبر رسول الله ﷺ بما حقق، ويستشيره برغبته في الزواج منهم، فأشار عليه ﷺ بالزواج من ابنة زعيمهم، فتزوجها عبد الرحمن ورجع بها بعدها إلى المدينة[1].

كان التوجه نحو الشمال، واستهداف قوافل قريش، وإقامة محالفات مع قبائل شمال الجزيرة العربية تقع على طريق التجارة إلى الشام لغرضين هما تشديد الحصار الاقتصادي على مكة لإضعافها دون القيام بعمل مباشر ضدها، وضمان استمرار طريق للتجارة لتموين المدينة وإمدادها بالمؤن بعد بدء توسعها وازدياد سكانها[2]، وتمهيداً لفرض نفوذ دولة المدينة في هذه المنطقة.

٢- فتح خيبر (٧هـ/ ٦٢٨م):

لم تكن تحركات اليهود وتآمرهم خافية عن المسلمين في المدينة، فقد بلغ الرسول ﷺ أن أهل فدك، من بني سعد بن بكر، يجمعون الرجال ليمدوا يهود خيبر، من أجل استهداف المسلمين، فأرسل عليه الصلاة والسلام عليّاً بن أبي طالب في سرية من مئة رجل في شعبان سنة ست للهجرة، وخرج المسلمون وفي الطريق أصابوا رجلاً تبين أنه رسولٌ من بني سعد إلى يهود خيبر يعرض عليهم مساندتهم مقابل أن يجعلوا لهم نصيباً من تمر خيبر، كما فعلوا لغيرهم، فأعطاه علي بن أبي طالب الأمان مقابل أن يدلهم على معسكرهم، وكان ذلك، ولكن بني سعد هربوا ولم يلقَ المسلمون أحداً، إنما غنموا خمسمائة بعير وألفي شاة[3]. وتظهر هذه السرية والإمساك بالرسول قبل وصوله إلى خيبر، أن كان لرسول الله ﷺ عيوناً يقظة كانت ترصد كل التحركات وتسارع بإعلامه بها، الأمر الذي جعل القبائل تحسب حساب أي تحرك ضد المسلمين، كما تظهر استمرار العداء من قبل اليهود، فبنو سعد بن بكر لن يفكروا بمثل هذا العرض دون أن يكون لهم علم بالنيات المكنونة لدى اليهود.

لم يكن رسول الله ﷺ غافلاً عن مكر اليهود في خيبر بعد خروج بني النضير إليها، ولا سيما بعد أن قاموا بتأليب الأحزاب ضد المدينة، وكان لابد من التخلص من هذا الخطر، لا سيما وأنهم كانوا يحشدون ويعدون العدة لتكوين حلف يهودي يضم يهود خيبر ووادي القرى وتيماء لتكوين قوة كبيرة ومهاجمة المدينة دون الاعتماد على القبائل العربية التي فشلت في مهاجمتها يوم الأحزاب. كما أن الأهمية

[1] - الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٦١؛ البستي: السيرة النبوية، ص٢٧٢؛ الحلبي: السيرة، ج٣، ص٢٠٥.

[2] - واط: المدينة، ص٦٧.

[3] - الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٦٢، ٥٦٣؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص٢٠٧.

الاقتصادية لخيبر لم تكن خافية عن رسول الله ﷺ من حيث وقوعها على إحدى الطرق المؤدية إلى الشام، وكونها مصدراً مهماً من مصادر الميرة والدعم الاقتصادي والسياسي لمشركي قريش وحلفائهم[١].

كان التمهيد بعد الخندق من خلال سرايا وغزوات خرج في بعضها رسول الله ﷺ وأرسل بعضها لفرض الهيبة والنفوذ بين القبائل، ومنع الطامعين من الأعراب الاعتداء والاقتراب من المدينة، التي أصبحت بين عدوّين يتربّصان بها ويتحيّنانِ لحظةَ ضعفٍ للانقضاض عليها، يهود خيبر شمالاً، ومشركو قريشٍ جنوباً، كما قام بالتخلص من بعض الزعماء الذين كانوا يحشدون لغزو المدينة، وكان من أبرزهما زعيمان كبيرا النفوذ والسيطرة هما سلاّم بن الحقيق وأسير بن رزام[٢]، فكانت سرية قتل أبي رافع سلاّم بن أبي الحقيق على يد نفر من الخزرج وكان ممن حزّب الأحزاب يوم الخندق[٣]، أما أسير بن رزام فقد كان يجتمع ببني غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات لحرب رسول الله ﷺ[٤].

تمكن رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية من تسكين جنوب المدينة فأوقف تهديد قريش، مما سهّل استخدام طاقات المسلمين وتوجيهها لإنجاز المهمة الخطيرة شمال المدينة. فبعد صلح الحديبية بعدة أشهر[٥] كان التوجه إلى خيبر أول ما قام به رسول الله من أعمال عسكرية، قدّر البعض أنه كان بها عشرون ألف مقاتل[٦]. ولم يخرج معه إلا من حضر الحديبية، كانوا ألفاً وأربعمائةٍ، ومعهم مائتي فرس[٧]. وجاءه من تخلف عن الحديبية طمعاً بالغنيمة فلم يقبل خروجهم إلا راغبين بالجهاد ولا غنيمة لهم **وقد**

---

[١] – شبول: سياسة الرسول، ص١٦٨.

[٢] – ولفنسون: تاريخ اليهود، ص١٥٨.

[٣] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٧٤٤، ٧٤٥. تتعدد الروايات في تاريخ هذه السرية فالبعض يجعلها في ذي الحجة سنة ٤ للهجرة. الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٩١. وكذلك في جمادى الآخرة سنة ٣هـ . تاريخ، ج٢، ص٤٩٣. والمرجح في هذا المقام أنها كانت بعد الخندق. الديار بكري: تاريخ الخميس، ج٢، ص١٢؛ الشامي: سبل الهدى، ج٦، ص١٠٢.

[٤] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٦٦؛ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج٢، ص١٥؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص٢٠٧.

[٥] – جعلها ابن هشام في محرم. السيرة، مج٢، ص٧٩٢؛ وفي صفر أو هلال ربيع الأول عند الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٢٤٩؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص.٣٠٦

[٦] – تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٣٧٤؛ يذكر المقريزي أن كان يهود خيبر يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل ثم يقولون محمد يغزونا هيهات هيهات. إمتاع الأسماع، ج١، ص ٣٠٦.

[٧] – المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٢٢٢؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٣٢٢.

ورد ذكر ذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾[1].

كانت خيبر تضم سبعة حصون رئيسية هي حصن ناعم، والقموص، والشق، والنطاة، والسلالم، والوطيح، والكتيبة[2].

خرج رسول الله بالمسلمين ولم يعلم اليهود بقدومهم، ونزل في وادٍ يقال له الرجيع، بينهم وبين غطفان، حتى يمنع أي اتصال أو إمداد بينهم، ولا سيما وأن غطفان كانت متحالفة مع يهود خيبر ضد المسلمين، وفعلا خرجت غطفان برئاسة عيينة لتنجد يهود خيبر، ولكنهم ما إن خرجوا حتى أشيع بأن رسول الله وجّه حملة إلى ديارهم، الأمر الذي جعلهم يرجعون إلى ديارهم، ولم يخرجوا بعدها إلى خيبر[3].

وكان نزول المسلمين في خيبر ليلاً، وقد مكث رسول الله بالمسلمين ليلاً وفي الصباح فوجئ يهود خيبر بالمسلمين وكانوا خارجين للعمل بأراضيهم، فلما رأوا رسول الله والمسلمين قالوا: محمد والخميس معه، ثم ولوا هاربين، وبدأ الهجوم على حصون خيبر[4].

وكان النطاة أول حصن هاجمه المسلمون، وقد قاتل من به وأظهروا المقاومة، حتى جاء يهودي من أهل النطاة إلى رسول الله ﷺ ودلّه على عورة الحصن فدخل المسلمون الحصن وظفروا به، وقد وجدوا فيه منجنيقاً نصبوه على حصن النزار ففتحه الله لهم[5].

كان حصار النطاة عشرة أيام قد أصابهم فيها جوعٌ، استطاعوا خلالها فتح حصن الصعب بن معاذ، وكان اليهود قد كدسوا فيه أرزاقهم وكثيراً من المواد الغذائية، فاستفاد المسلمون مما وجدوه فيه[6].

---

[1] – سورة الفتح، الآية ١٥.

[2] – الفيروز أبادي: المغانم، ص١٣٤، ١٣٥.

[3] – ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج٢، ص٤٥٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٢٥١، ٣٥٢.

[4] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٧٩٤.

[5] – المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص ٣٠٨.

[6] – السهيلي: الروض، ج٦، ص٥٠٤؛ خطاب: الرسول القائد، ص٢٩٥.

ونازل المسلمون حصن ناعم في النطاة، وألحّ رسول الله عليه بالرمي، ويهود تقاتل، وكان هذا الحصن يعد خط الدفاع الأول ليس في منطقة وادي النطاة وحدها، بل في خيبر كلها، فكان فيه أشهر الفرسان اليهود كعشيرة آل مرحب[١]، وحصل قتال بين المسلمين واليهود وانكشف المسلمون عدة مرات، حتى أعطى النبي الراية لعلي بن أبي طالب، فحملت اليهود فانكشف المسلمون وثبت علي بالراية واستطاع قتل الحارث أبي زينب، أخي مرحب، ومرحب[٢] بعده كذلك لاقى المصير نفسه، ولم يكن القتال سهلاً، وتمكن المسلمون من فتح الحصن[٣].

أما حصن الصعب بن معاذ فقد حاصره المسلمون يومان تراموا فيهما بالنبل، وفي اليوم الثالث حملت اليهود حملة منكرة فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله، وثبت الحباب بن المنذر بالراية وعاد المسلمون وحملوا حتى انهزمت اليهود ودخلوا حصنهم ورموا بالحجارة ثم عادوا وخرجوا وقاتلوا أشد قتال ثم هزمهم الله تعالى، واقتحموا الحصن فوجد فيه المسلمون من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودك كثيراً، وسمح لهم رسول الله أن يأكلوا وألا يحملوا شيئاً، كما وجدوا فيه أسلحة ومنجنيقا ودبابات وعدة، وخمسمائة قطيفة، وعشرة أحمال خشب أحرقوها، وخمراً كثيراً أهرقوه[٤]. وتحول اليهود بعدها إلى قلعة الزبير، فحصرهم رسول الله ثلاثة أيام حتى فتحها، ولم يتمكن المسلمون من فتحه إلا بعد قطع المياه عنها فاضطر من فيها إلى الخروج وقتال المسلمين خارج حصونهم، وكان أحد اليهود قد خرج مستأمناً رسول الله وقد أخبره بشأن الماء، فهزمهم المسلمون بعد ذلك وكان حصن الزبير آخر حصون النطاة، وأخذت بعده الحصون تتساقط بالتعاقب[٥].

لم يكن القتال في خيبر سهلاً لأنها كانت محصنة تكتنفها البساتين ولأن يهودها كانوا أقوياء ومسلحين وأغنياء. كانت خطة رسول الله ﷺ في الاستيلاء على خيبر تتلخص بمشاغلة بعضها بقوات

[١] – سلام، (سلام محمود): حصون خيبر في الجاهلية والإسلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص٢٥.

[٢] – كان مرحب رجلاً شجاعاً، رامياً شديد البطش، صاحب عادية اليهود، أي الذين يَعدُون على أرجُلهم، وكان المسلمون قلّ ما يقومون له إذا خرج، وقد قتل مرحب كلاً من محمود بن مسلمة، وربيع بن الآكثة الأسدي. ابن طرخان: السيرة الصحيحة، الورقة [١٧٣– ظ]؛ ابن الأثير الجزري: النهاية، ج٣، ص١٩٤.

[٣] – المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص ٣٠٩_ ٣١١.

[٤] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٥٩؛ ابن عبد البر: الدرر، ص١٩٧؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٣١٣، ٣١٤.

[٥] – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٢٩٦.

صغيرة وتركيز الهجوم على حصن واحد بقواته الرئيسية حتى يتم له الاستيلاء على الحصن، ثم ينتقل بهجومه المركز إلى حصن آخر، كما أنه قسّم قواته إلى أقسام قسمٍ يقوم بالمشاغلة، وقسمٍ يأخذ قسطاً من الراحة ليستأنف القتال مرتاحاً عند الحاجة[١]، وهذه الخطة تتفق مع أحدث الخطط العسكرية الحديثة في قتال المدن والأحراش، فلو أنه ﷺ قام بالقتال بأسلوب الكرّ والفرّ أو بأسلوب الصّفوف، في مثل هذا الموقف لما كُتِبَ للمسلمين النصر[٢].

وكان في الشقّ عدة حصون، منها حصن القموص وكان لابن أبي الحقيق وكانت به صفية بنت حيي ونساء أخريات وذراري[٣]، بلغ عدد الجميع زيادة على ألفين، وكذلك حصن النزار[٤]، وقد نازل رسول الله هذه الحصون حتى فتحها[٥].

ولم يبقَ إلا حصنا الوطيح وسلالم، آخر حصنين منيعين لليهود وهما حصنا بني أبي الحُقيق، فتجمعت قوات المسلمين كلها حول هذين الحصنين، وحاصرهم رسول الله بضع عشرة ليلةً، عندها نزل ابن أبي الحقيق وطلب الصلح على أن تُحقن دماؤهم، ويتخلوا لرسول الله عن كل ما لهم من الأرض، والأموال، والحلقة أي السلاح، والبز أي اللباس، إلاّ ما كان على ظهر الإنسان، فوافق رسول الله ﷺ بشرط إن كتموا عنه شيئاً فلا ذمة لهم ولا عهد، وتم الصلح على ذلك، ولكنهم عندما سألهم رسول الله عن كنز آل بني الحقيق أظهروا أنهم أنفقوه بالحرب، وظهر كذبهم بعدها حيث عُثر على جزء منه كان مخبأً في خربة، فبرأ رسول الله من ذمتهم فقسّم الأموال وسبى النساء والذراري. وهكذا تمّ فتح خيبر بعضها عنوة وبعضها الآخر صلحاً، فقسّمها رسول الله ، ولكنه أبقى فيها اليهود على أرضهم على أن يكون لهم نصف ما تخرج أرضها من زرع أو تمر مقابل عملهم بها ومتى ما شاء عليه السلام إخراجهم أخرجهم[٦]. وجعل عبد الله بن رواحة على خرص نخلها[١]، وإعطائهم الشطر الذي يرغبون[٢].

---

[١] – يذكر المقريزي أن الحراسة كانت نوباً بين المسلمين، حتى فتح الله النطاة. إمتاع الأسماع، ج١، ص ٣٠٨.

[٢] – خليل: دراسة في السيرة، ص٢٩١.

[٣] – السهيلي: الروض الأنف، ج٦، ص٥٠٩.

[٤] – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٢٩٧.

[٥] – المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٣١٤.

[٦] – ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج٢، ص٤٥٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٢٨٥، ٢٩٥؛ خطاب: الرسول القائد، ص٢٩٨.

سقط للمسلمين في هذه الغزوة واحدٌ وعشرون شهيداً فقط، أما يهود فالخسائر كانت كبيرة جداً بالأرواح والأموال والأملاك. كما وقدم مهاجرو الحبشة عند فتح خيبر وقد فرح بقدومهم رسول الله وقسم لهم من غنائمها، وكذلك وفد الأشعريين من اليمن[٣]. وبعد فتح خيبر أهديت له الشاة المسمومة من قبل زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم، وقد أوحي لرسول الله بأمرها، فلفظ اللقمة التي وضعها بفمه، بينما مات بشر بن البراء بن معرور بعد أكله مباشرة، وقد اعترفت زينب بفعلتها، وبأنها أرادت التأكد من أنه نبي مُرسل أم لا [٤].

ولقد كان لسقوط خيبر بيد المسلمين أثر كبير لدى بقية اليهود في شبه الجزيرة العربية، حيث خشي أهل فدك من نفس المصير فبعثوا لرسول الله يصالحونه على النصف من فدك، فقبل رسول الله بذلك فكانت خالصة له عليه الصلاة والسلام لأنه لم يوجف عليها خيلاً ولا ركاباً[٥].

وبعد الانتهاء من خيبر تقدم إلى وادي القرى ودعا أهله إلى الإسلام فامتنعوا عن ذلك، وجرت معركة محدودة انتهت لصالح المسلمين، فعاملهم رسول الله كما عامل يهود خيبر[٦]، ولما بلغ يهود تيماء ما عامل به رسول الله يهود خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوه على الجزية وأقاموا بأيديهم أموالهم[٧] .

وقد كانت قريش تترقب ما سيكون عليه هذا الخروج إلى خيبر وتراهنت على ما سيكون تراهناً عظيماً، وقد جاءها الخبر في البداية بهزيمة المسلمين ونصر اليهود، من قبل الحجاج بن علاط البهزي الذي كان قد أسلم وقاتل مع رسول الله ولكنه أراد جمع أمواله من مكة ولما تعلم قريش بإسلامه بعد، فذهب إلى مكة بعد أن استأذن رسول الله، وتكلم بذلك خشية أن تحبسه قريش وتحبس أمواله وقد كان

[١] – الخرص: هو الحَزْر، أي التقدير بالظن، وأمر به النبي ﷺ في النخل والكرم، لأن ثماره ظاهرة. ابن منظور: لسان، ج٧، ص٢١، مادة (خرص).

[٢] – الطبري: تاريخ، ج٣، ص١٤، ١٥، ٢٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٣٠٠ .

[٣] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٨١٧_ ٨٢٠.

[٤] – ابن عبد البر: الدرر، ص٢٠٤.

[٥] – ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج٢، ص٤٥٥.

[٦] – البلاذري: أنساب، ج١، ص٣٥٢، ٣٥٣؛ ابن حزم: جوامع السيرة، ص٢١٩.

[٧] – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ٣٥٢، ٣٥٣. وقد ظل الحال هكذا حتى عهد عمر بن الخطاب ، حيث أجلى اليهود من خيبر ومن فدك ما عدا تيماء ووادي القرى لأنها تعد من أرض الشام ، تنفيذاً لقول رسول الله لا يجتمع بأرض العرب دينان. ٣٥٤، ٣٥٥.

له مالٌ كثير ومعادن بني سُليم، فنجح في خداعها وخرج بماله، بعد أن أخبر العباس بصدق موقف المسلمين وانتصارهم، فأخبرهم العباس بذلك بعد خروج الحجاج بثلاثة أيام[1].

كان فتح خيبر خطوة مهمة جداً على صعيد الدعم الاقتصادي للمدينة، والاهتمام بطريق الشام، وتأمينه، لا سيما بعد عودة الحكم البيزنطي للشام، والذي كان لابد وأنه سيحاول مد نفوذه إلى هذه المنطقة، بحكم الاهتمام بطرق التجارة، فبعد إضعاف قريش، كان يتوجب التمهيد للسيطرة على أهم محطات طرق التجارة.

٣ – التوجه شمالاً وحملة مؤتة (٨هـ/ ٦٢٨م):

خرج ما بين فتح خيبر وفتح مكة عددٌ كبيرٌ من السرايا والبعوث، ولكن أهمها كان باتجاه الشمال إيذاناً بالمرحلة القادمة بعد فتح مكة. وهذه السرايا كانت ضد الأعراب الذين لم يهدؤوا تماماً، ضد غطفان وثعلبة وبني سُليم وجُهينة.

أرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب في سرية إلى تربة وهي وادٍ بالقرب من مكة على مسافة يومين لهوازن. وأرسل أبا بكر الصديق في سرية إلى ضرية بنجد على طريق مكة – البصرة، ضد بني كلاب. وأرسل إلى بني ثعلبة غالب بن عبد الله الليثي[2]، وكذلك أرسله إلى كديد. وأرسل عليه الصلاة والسلام بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مُرّة في فدك، وإلى بعض قبائل غطفان فباغتها بشير بن سعد. كما وجه شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلاً إلى بني عامر، وإلى قبائل جهينة أرسل رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجرّاح في ثلاثمئة[3]. هذه السرايا لم تكن على درجة كبيرة من الأهمية إلا أنها تعطي دليلاً ومؤشراً على اتساع سلطة رسول الله ﷺ الجغرافية وإنذاراً لهذه القبائل بوجوب الطاعة.

---

[1] – الطبري: تاريخ، ج٣، ١٧_ ١٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ٣٤٨، ٣٤٩.

[2] – في هذه السرية قتل أسامة بن زيد الرجل الذي نطق بالشهادتين قبيل قتله، وعندما أُخبر بذلك رسول الله غضب وتبرأ من فعلته، وقال له: فهلاّ شققت عن قلبه ورأيت ما به. الواقدي: المغازي، ج٢، ص٧٢٤. الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص٢١١.

[3] – أخبار هذه السرايا توجد في الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص٢١٠_ ٢١٥؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٣٢٨؛ الديار بكري: تاريخ الخميس، ج٢، ص٦١.

وخرج المسلمون بصحبة رسول الله في عمرة القضاء في ذي القعدة من السنة السابعة، فلما سمع بهم المشركون خرجوا من مكة، وأعطوهم ثلاثة أيام حتى يقوموا بطقوس العمرة، وفي هذه المدة رأت قريش من قوة المسلمين وشدتهم ما جعلها تدرك تمام الإدراك أن الأمور لم تعد كما بدأت وأن قوة المسلمين وصلابتهم زادت، كان رسول الله ﷺ يعلم ما للأثر النفسي في نفوس المشركين من تأثير، فأبدى وأصحابه من مظاهر قوتهم الجسمية ونشاطهم ما أبدوه[1].فحصلت العمرة وتمت الزيارة بعد انقطاع دام سبعة أعوامٍ، وكان له أثره العظيم في نفوس المسلمين الذين كان شوقهم عارمٌ للزيارة.

وتفرّغ رسول الله ﷺ في هذه المدة للدعوة ونشرها، فأرسل بعوثاً سلميةً لأجل الدعوة إلى الإسلام وتوسيع رقعة انتشاره، فذكرت المصادر بعوثاً في الجزيرة العربية وخارجها، خاطب فيها رسول الله ﷺ الملوك، إلى هرقل إمبراطور بيزنطة، وكسرى فارس، ونجاشي الحبشة، والمقوقس صاحب مصر، وفي الجزيرة العربية إلى أمير البحرين العلاء بن الحضرمي، وإلى عُمان (آل الجُلَنْدي)، وبني حنيفة في اليمامة، وإلى اليمن، وإلى الشمال كذلك، أما الأهم في هذا المقام فقد كانت *سرية ذات أطلاح* إلى حدود الشام التي خرج على رأسها عمرو بن كعب الغفاري على رأس خمسة عشر رجلاً، فوصلوا إلى ذات أطلاح فلقوا فيها جمعاً كثيراً فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل، وقاتلوهم أشد قتال فقتلوا عن آخرهم ما عدا رجلاً منهم تركوه جريحاً لم يجهزوا عليه، فتمكن من النجاة والوصول إلى رسول الله ﷺ وإخباره بما حصل، وأراد ﷺ أن يرسل بعثاً إليهم لكنهم كانوا قد غادروا إلى موضع آخر[2]، وكان قبل ذلك الغساسنة قد قاموا بقتل مبعوث لرسول الله ﷺ إلى أمير بصرى هو الحارث بن عمير الأزدي[3]، أي أنهم قد رفضوا أيّ شكل من أشكال التقارب بينهم وبين دولة المدينة، وبادروا بالعداء، وكانوا مسؤولين عن إشعال شرارة الصراع الطويل بين المسلمين والبيزنطيين[4].

---

[1] – ابن هشام :السيرة، مج٢، ٨٢٦، ٨٢٧.

[2] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٧٥٣؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٢٣٠؛ الشامي: سبل الهدى، ج٦، ص١٤٣.

[3] – ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٢٨.

[4] – سالم، (عبد الرحمن أحمد): المسلمون والروم في عصر النبوة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٨٤؛ محمد، (فتحي عبد العزيز): الاستراتيجية والتكتيك بين المسلمين والروم، الصدام المبكر، دورية كان التاريخية، دورية الكترونية محكمة (www.historicalkan.co.nr)، العدد (٩)، ٢٠١٠م، ص١٠.

شكّل هذا الاعتداء وما سبقه من معاملة فظة ورد فعل متعنت من قبل الغساسنة وعرب الشام، حلفاء بيزنطة، على رسائل رسول الله ﷺ إليهم ودعوتهم إلى الإسلام شكلت عواملاً وأسباباً أدّت إلى حدوث المواجهة والصدام بين المسلمين وبين بيزنطة، وكانت مؤتة اللقاء الأول الذي كان فاتحة عهد طويل من الصراعات بين المسلمين والبيزنطيين.

كثيرة هي التحليلات التي طرحها باحثون معاصرون حول هذه الغزوة أو السرية، فالبعض رأى فيها سبباً اقتصادياً، وآخرون جعلوا هدف تأمين السلاح لفتح مكة سبباً في خروجها ولا سيما السيوف المشرفية[1]، في حين رآها آخرون بداية لمشروع سياسي واضح المعالم وهو بداية الانتقال وهو التحول من دولة المدينة حجازية الملامح إلى الدولة الإسلامية الكبرى الأكثر تعبيراً عن عالمية الدعوة[2]. بكل الأحوال كانت مؤتة ضرورة ونتيجة حتمية لحوادث الاعتداء والاجتراء على مبعوثي رسول الله ﷺ إلى الشمال، وكانت ذات طابع دفاعي في الأساس وفاتحة للخروج من شبه الجزيرة العربية.

جمع رسول الله ﷺ الناس وجهّز ثلاثة آلاف رجل أوكل قيادتهم إلى زيد بن حارثة، وأوصى أن يستلم جعفر بن أبي طالب الراية إن حصل مكروه لزيد، وكذلك عبد الله بن رواحة إن أصاب جعفر مكروه، وفي حال حصل لعبد الله ما صار لصاحبيه فليرتضِ المسلمون من بينهم رجلاً يجعلونه عليهم.

وعقد رسول الله ﷺ اللواء لزيد وخرج لوداعه ومعه المسلمون، وكانت أخبار التحضير لهذه الحملة قد وصلت إلى القبائل شمالاً وإلى بيزنطة، من قبل بعض العيون التي بين العرب، فتم التحضير للمواجهة. وهنا وردت أخبار بأن أحد أفراد قريش قد أخبر تيودور نائب هرقل في المنطقة بتجهيزات المسلمين وقصدهم هذه المنطقة، فحشد كل حرس الصحراء على حد تعبيره، أي الإمارات العربية التي كانت موالية لبيزنطة[3].

سار المسلمون حتى نزلوا أرض معان من أرض الشام، فوصلتهم أخبار بتقدم هرقل إلى مآب من البلقاء ومعه من قبائل العرب بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام في مئة ألف. لم يتوقع المسلمون لقاء عدد بهذا الحجم، لذلك ذكرت المصادر ترددهم بين الهجوم وبين إرسال طلب العون والنجدة من

---

[1] – حتي، (فيليب): تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تر: كمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت، ط٣، د.ت، ج٢، ص٤.

[2] – بيضون، (إبراهيم): من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول، دار اقرأ، بيروت، ١٩٩٨م، ص٧٣.

[3] -Theophanes: The Chronicle of Theophanes (A.D. 602- 813), Tran. By; Harry Turtledove, U.S.A. Pennsylvania press, 1982 A.D, P. 36.

المدينة، وبعد تردد قرر المسلمون المواجهة، فإما نصرٌ وإما شهادة، وتقدمت قواتهم والتقوا مع العدو وحصل الاشتباك[١]، وعلى ما يبدو أن عين بيزنطة كانت بين المسلمين فقد استطاع القائد البيزنطي معرفة قرار المسلمين بموعد القتال والهجوم فهاجمهم وباغتهم على حين غرة[٢].

حمل زيدٌ اللواء وقاتل حتى قـُتل، فحمله جعفر بن أبي طالب وقاتل حتى قطعت يمينه وشماله، وعندما حمله بعضديه ضرب بالسيف واستشهد. فانتقل اللواء إلى عبد الله بن رواحة الذي لم يكن مصيره مختلفاً عن سابقيه، واستشهد، فحمل اللواء رجل من المسلمين، صاح بالناس أن يرتضوا أحداً غيره ليسلمه اللواء، فاختار المسلمون خالد بن الوليد الذي استطاع إنقاذ المسلمين من إخفاقٍ محتّمٍ، فقام بعمل تكتيكي يدل على المرونة وسرعة الحركة والقدرة على خداع العدو، حيث عدّل تنظيم المقاتلين، فجعل مقدمتهم ساقهم، وساقهم مقدمتهم، وميمنتهم ميسرتهم، وميسرتهم ميمنتهم، فاختلفت وجوه المقاتلين المسلمين على البيزنطيين، وكذلك راياتهم وهيئاتهم، فظن البيزنطيون أنّ مدداً جاء إلى المسلمين، وبذلك تمكن خالد من الرجوع إلى المدينة دون أن يجرؤوا على مطاردتهم[٣].

أدرك رسول الله ﷺ حجم الخطر الذي واجهه المسلمون في مؤتة وجديته وكذلك قدّر أهمية انسحابهم بأقل الخسائر، وكان متأكداً بأن مثل هذا اللقاء سيتكرر ولكنه كان أكثر تفاؤلاً بالنصر، فجعل يرد على من يعيب أصحاب مؤتة بالفرّار بأنهم الكرّار إن شاء الله[٤].

كانت مؤتة معركة استطلاعية أفادت المسلمين كثيراً في معرفة خواص قوات الروم وقوات حلفائها وأساليب قتالها، وأفادوا من هذه المعلومات في قتالهم بعد ذلك ضد الروم[١]. كانت النتيجة الأبرز لمؤتة أنها كانت سبباً في بروز الروم على ساحة الصراع المباشر ضد المسلمين.

---

[١] – ابن هشام: السيرة، مج٢، ٨٣٠؛ الواقدي: المغازي، ج٢، ص٧٦٠؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٣٣٩، ٣٤٠.

[2] -Theophanes: The Chronicle of Theophanes, P. 36.

– كيغي، (وولتر): بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، تر: نقولا زيادة، دار قدمس، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م، ص١١٥، ١١٦.

[٣] - ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٨٣٠ـ ٨٣٢؛ ابن عبد البر: الدرر، ص٢٠٩، ٢١٠؛ محمد: الاستراتيجية والتكتيك، ص١٠.

[٤] – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص١٢٩؛ الشامي: سبل الهدى، ج٦، ص١٥٦.

- **سرية ذات السلاسل:**

وتعزيزاً لموقف المسلمين ورداً للاعتبار ودرءاً لأي اعتداءٍ محتمل، ورغبةً في تأليف القبائل الشمالية، أرسل رسول الله ﷺ سريةً من ثلاثمائة رجل إلى الشمال أيضاً بعد مؤتة بحوالي شهر، وجعل عمرو بن العاص على رأسها وبرفقته كبار الصحابة، وجعل رسول الله ﷺ عَمْراً على هذه السرية تألفاً لهذه القبائل بلي وقضاعة لأن إحدى أمهاته كانت بلويّة، دون إغفال خبرته العسكرية، وقيل أن هؤلاء كانوا يريدون التجمع والتوجه إلى المدينة[٢]. وصل عمرو والمسلمون إلى ماء يقال له سلاسل وراء وادي القرى وبينه وبين المدينة عشرة أيام، وكان رسول الله قد أوصاه أن يستعين بمن مرّ به من العرب من بلي، وعُذرة، وبلقين، وجد عمرو أن عددهم كبيراً فخافهم وأرسل إلى رسول الله يطلب المدد، فأرسل ﷺ مئتي مقاتل على رأسهم أبو عبيدة بن الجراح[٣]، وحصل خلاف على من يترأس الناس، فاستقر الأمر لعمرو ليس لأنه الأقوى بل لأن أبا عبيدة تقيد بتعليمات رسول الله ﷺ بعدم الخلاف بعد الخروج حتى لا يُطمِعوا الأعداء فيهم. ولم يلقَ المسلمون قتالاً جدياً، فكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه كان بالموضع جمعٌ لما سمعوا بقدوم المسلمين تفرقوا حتى انتهوا إلى أقصى بلادهم فلقي جمعاً ليس بالكثير، فقاتلوا وتراموا بالنبل، وحمل المسلمون عليهم فهربوا، وأقام عمرو بالمسلمين أياماً لا يسمع بتجمع لهم إلاّ وهاجمهم، فشتت جموعهم وأعاد هيبة المسلمين في نفوس هذه القبائل القاطنة هناك[٤].

وأرسل رسول الله ﷺ أبا قتادة إلى خضرة من أرض محارب كذلك غنم منها ورجع بنعم وسبي. وذكرت المصادر سرية أبي عبيدة إلى ساحل البحر إلى حي من جهينة ما بين المدينة وينبع[٥].

---

[١] – خطاب: الرسول القائد، ص٣٠٩.

[٢] – الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص٢١٥.

[٣] – ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص٢٠٢.

[٤] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٧٦٩ـــ ٧٧٤؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج١، ص٥٧٦.

[٥] – سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٣، ص١١٧.

٤- غزوة تبوك ٩هـ/ ٦٣٠م:

كانت بيزنطة منشغلةً بأمورها الداخلية وصراعاتها مع فارس عند قيام الدعوة إلى الإسلام، وكان المسلمون في المرحلة المكية التي شهدت ذروة الصراع الفارسي – البيزنطي كانوا يتعاطفون مع البيزنطيين باعتبارهم أهل كتاب، أما المشركون فقد كانوا يتعاطفون مع الفرس[1].

وبعد هجرة المسلمين إلى المدينة وبدء خروج السرايا واستهداف قوافل قريش وخاصة بعد غزوة بدر وتأثيرها على خروج قوافل قريش، وتعطل هذا الخروج وتحكم المسلمين في الطريق التجاري كان له صداه البعيد عند القبائل التي كانت تنتفع من مرور القوافل وكذلك بالنسبة لبيزنطة التي كانت هذه القوافل أساسية لها في تأمين متطلباتها مما تحمله من منتجات الشرق.

كان للمدينة تجارة قبل الإسلام مع بلاد الشام، واستمرت بعده، ولكن بعض القبائل العربية المتنصرة ذات الصلة ببيزنطة حاولت تضييق الخناق على دولة المدينة وقطع أسباب الحياة عنها، فنتج عن ذلك عدد من المواجهات أو المناوشات بين المسلمين وعرب الشام خلال تلك الفترة، وخاصة في دومة الجندل التي أخذت تعتدي على قوافل المدينة وتضايق المسافرين، فخرج رسول الله لتأديب هذه القبائل بعد غزوة أحد بجيش كان أكبر جيش يخرج به ﷺ حتى ذلك الوقت، إذا تم استثناء الجيش الذي خرج به لمواجهة قريش في بدر الموعد، فتمكن عليه السلام من استطلاع الأوضاع في هذه المنطقة. وبدأت السرايا بعدها تتوجه شمالاً نتيجة تكرر الاعتداءات على المسلمين، فكانت سرايا حِسمى، وأم قِرفة إلى فزارة، ومرة أخرى دومة الجندل بعد غزوة الخندق، نتيجة هذه الاعتداءات، وأرسل رسول الله دعاةً إلى الإسلام إلى هذه القبائل، لكنها كانت عنيفة في تعاطيها معهم، فكانت مؤتة ضرورة للرد على هذه التعديات، وبدايةً لخط التوجه شمالاً لتأمين حدود الدولة الإسلامية لا رغبة في التوسع، وإيذاناً بالمرحلة القادمة جعلت الطرفان المسلم والبيزنطي مع الموالين له من القبائل العربية يختبر كل منهما قوة الآخر وتكتيكه الحربي بشكل ملموس ومباشر.

إن أهمية مكة التجارية كانت واضحة متجلية عند بيزنطة، وقد حاولت في مراحل سابقة السيطرة عليها بأشكال مختلفة، إلا أن احتفاظ مكة باستقلاليتها وعدم تبعيتها لأي جهة كانت قد

[1] - المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٣٤٧.

أفادت منه بيزنطة بأنها ضمنت استمرار قدوم السلع الضرورية لها، وظلت مكة محتفظة باستقلالها بوجه عام، لكن فتح رسول الله ﷺ لمكة واتساع نفوذ دولة المدينة بين القبائل في شبه الجزيرة، لم يكن ليمر عند بيزنطة مروراً دون أية ردة فعل، لأن بيزنطة تريد المحافظة على مصالحها التجارية، ولم تكن تتوقع أن تقوم دولة في هذه المنطقة التي عجزت جيوشها عن اختراقها سابقاً، الأمر الذي سيشكل تهديد لدولتها.

وكانت أخبار الشام ترد إلى المدينة عن طريق التجار الأنباط الضافطة، الذين يقدمون إلى المدينة بما تحتاجه من سلع كالدّرمك أي الدقيق الأبيض الجيد الخالص والزيت، فجاء هؤلاء بعد العودة من حُنين وغزوة الطائف، بأخبار تفيد بأن بيزنطة قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام تريد غزو المدينة، وأن هرقل قد أعطى جنده رواتبهم سنة مقدماً، وأن قبائل لخم وجذام غسان وعاملة قد أقبلت إلى البلقاء وعسكروا بها ينتظرون قدوم القوات البيزنطية، ولم يكن شيء أكثر رعباً منه عند العرب من غزو بيزنطة، أو كما يسمونهم بني الأصفر[1].

كان رسول الله ﷺ مدركاً ما خلفته حملة مؤتة من آثار في نفوس المسلمين أبرزها الخشية من قوة البيزنطيين ومواجهتهم، ولاسيما عند الذين أسلموا حديثاً من الأعراب، فكان لا بد من معالجة هذه الآثار، وبالوقت نفسه لابد من إثبات قوة المسلمين في وجه أعدائهم البيزنطيين وحلفائهم من العرب، فكان التهديد باستخدام القوة خير وسيلة لذلك، فكان الخروج لتبوك[2]، كما أن تأمين طريق التجارة كان ضرورة ملحة بالنسبة للمدينة التي أصبحت احتياجاتها بشكل مؤكد متزايدة لبعض السلع والمنتجات، بعد أن أصبحت ملتقى ودار هجرة لإتمام فروض الإسلام، وفي هذا الخروج تأكيد لكافة أنحاء الجزيرة العربية وقبائلها بقوة المسلمين والإسلام، وإنهاء لأي تردد عند بعض القبائل في الدخول بالإسلام، والخضوع لسلطة دولة المدينة.

فأعلن رسول الله ﷺ النفير، ودعا المسلمين للتجهز والخروج لغزو الروم، وكذلك أمر المسلمين بالإنفاق لتجهيز الحملة وحثّ على ذلك. وأرسل ﷺ إلى القبائل ليشاركوا في الخروج في هذه الغزوة[3].

[1] – الواقدي: المغازي، ج٣، ٩٩٠.

[2] – محمد: الاستراتيجية والتكتيك، ص١٠.

[3] – أرسل رسول الله إلى مكة وإلى أسلم وغفار وبني ليث، وضمرة، وكذلك جهينة، وأشجع وبني كعب بن عمرو وبني سليم، وحض على الجهاد ورغّب فيه. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٢، ص٤٧.

وقد كان ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها، وأخبر غير الوجه الذي يقصده، إلاّ ما كان في هذه الغزوة، فإنه بيّنها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له، وحتى يتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم. وأرسل إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم وحضّ أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله[1].

وقد اختلف التفاعل مع دعوة رسول الله ﷺ إلى الخروج، ولا سيما وأن المصادر ذكرت أن زمن الخروج كان صيفاً شديد الحرّ، وأن موسم جني الثمار قد حلّ، فتثاقل الناس عن الخروج وودوا ألاّ يكون، وقد صعُبت على مسلمين مخلصين فضلاً عن المنافقين، وورد ذكر هذا في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[2]، فشدّد رسول الله ﷺ في الحث والإنذار، فاستجاب المخلصون حتى أنه لم يتخلف من أهل المدينة سوى المنافقين، ولاسيما أغنياؤهم ورؤساؤهم، وقد قدّرتهم المصادر بحوالي الثمانين[3]، ولم يكتفوا بعدم الخروج بل حاولوا تثبيط همم المسلمين عن الجهاد، وذكرت المصادر منهم الجِدّ بن قيس، فيقولون لهم: لا تنفروا في الحرّ، نزل فيهم قوله تعالى ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ وقوله أيضاً ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[4]، وكانوا يجتمعون في دار يهودي اسمه سويلم أمر رسول الله طلحة بن عبيد الله أن يحرق عليهم بيته[5].

ولما استنفر رسول الله الأعراب سارع بعض منهم إلى الاعتذار والاستئذان في التخلف، وتخلف آخرون بدون أعذار[6]، فعذرهم رسول الله ولكن الله لم يقبل، وورد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ

[1] – أبو الفداء: المختصر في أخبار، ج١، ص١٤٨، ١٤٩؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص١٤٨.

[2] – سورة التوبة، الآية ٣٨.

[3] – المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٢، ص٥٠.

[4] – سورة التوبة، الآيات ٨١، ٨٢، ٤٩.

[5] – السهيلي: الروض الأنف، ج٧، ص٣٠٦؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص١٥٠.

[6] – الثعلبي: الكشف والبيان، ج٥، ص٨٠.

ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾[1].

ولم يُقبل عذر أحدٍ إلاّ من كان مريضاً أو لم يقدر على نفقة نفسه من الفقر، فقط، أما من كان قادراً فلم يقبل عُذره. يقول تعالى﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[2].

وذكرت المصادر بالمقابل المقادير التي شارك بها الصحابة في التجهيز للخروج، فتذكر أن أبا بكر أنفق كل ماله في هذه الغزوة، وعمر بن الخطاب أنفق نصف ماله، وكذلك عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة، والعباس بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة أنفقوا مالاً كثيراً، ولكن إنفاق عثمان لم يماثله إنفاق حتى أنه جهز ثلث الجيش وكفاه المؤونة، كما وتبرعت النساء بكل ما قدرت عليه فأرسلن حليهنّ إلى رسول الله ﷺ، أي أن كلّ قادر أنفق على حسب قدرته، وأقبل كثيرون من الفقراء يريدون أن يحملهم رسول الله معه، فحمل منهم من استطاع واعتذر إلى الباقين وقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، وأطلق عليهم اسم البكّائين، وكانوا سبعة، حملهم المؤمنون بعد ذلك، وقد اجتمع لرسول الله في هذا الجيش، الذي سمى جيش العسرة لشدة ما لاقى منذ يوم تكوينه، وكان عدد الجيش ثلاثين ألفاً وهو أكبر جيش خرج به المسلمون حتى هذه الغزوة، وكانت الغزوة في رجب سنة تسعة للهجرة[3].

إن إعلان رسول الله لهذا الخروج في هذا التوقيت من السنة وفي هذه الظروف توحي بأن هذا الخروج كان ضرورة ولم يكن رغبة فقط، ضرورة اقتضاها تهديد بيزنطة والموالين لها من القبائل العربية لأمن الدولة العربية الإسلامية في المدينة.

[1] - سورة التوبة، الآية ٩٠.

[2] - سورة التوبة، الآية ٩١، ٩٢.

[3] - الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩٩١؛ البيهقي: دلائل النبوة، ج٥، ص٢١٤_ ٢١٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٤٥؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص١٤٨، ١٤٩.

وعند ثنية الوداع نظّم رسول الله أمر العسكر، ورتّب أمور المدينة فاستخلف فيها سباع بن عرفطة وقيل محمد بن مسلمة، كما ترك علي بن أبي طالب على أهله، فلم يبقَ بها إلا من تثاقلوا عن الخروج من المنافقين، والثلاثة الذين تخلفوا بغير عذر[١]، ومن كان مريضاً أو ضعيفاً مع النساء والأطفال والشيوخ. وما لبث عبد الله بن أبي بن سلول أن رجع بمن معه متعللاً بشدة الحر والحال[٢].

ولم يكن عبور الصحراء بالأمر السهل في الأحوال العادية فكيف في هذا الحر الشديد، وعندما سُئل عمر بن الخطاب عن هذا الخروج وظروفه أجاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا ليذهب فيلتمس الرحل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقي على كبده[٣] إلا أنه تجدر الإشارة هنا إلى عدم اعتراض عبور المسلمين الطريق بين المدينة وتبوك، وكذلك قبلها إلى مؤتة، مما يعني أن هذه القبائل إن لم تكن قد انضمت إلى دولة المدينة، ودخلت في الإسلام، فهي لم تعد تجرؤ على القيام بهذه الاعتداءات.

لكن لم يلقَ رسول الله ﷺ من خرج للقائهم، وأقام في تبوك عشرين ليلةً دون أن يلقَ كيداً أو عدواً، وأثناء هذا المقام عقد عليه الصلاة والسلام معاهدات مع أهل دومة الجندل وأيلة ومقنا وأذرح والجرباء، وهي المعاهدات التي مثـّلت أكبر إنجاز للمسلمين في تاريخ الصراع بينهم وبين الروم البيزنطيين في حياة الرسول ﷺ، فهذه المستوطنات رغم ارتباطها مصلحياً وجغرافياً ببيزنطة كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي، واقتنعت بأن رسول الله ﷺ أصبح سيد الموقف في الجزيرة العربية، لا سيما بعد فتح مكة، وقبلها خيبر، وجاء مرور هذا الجيش الضخم والإقامة لعشرين يوم في تبوك ليعزّز هذه القناعة عند قبائل المنطقة، مما دفعها لأن تعقد معاهدات صلح مع الرسولﷺ. فيها يبرز الجانب السياسي، والتأكيد على التبعية للمدينة، من خلال ذكر الأمان وعهد الله وذمة المسلمين، مقابل ما حدده الرسول في هذه المعاهدات، سواء من دفع الجزية عمن لم يدخل بالإسلام، و الالتزام بأداء الصلاة وأداء الزكاة لحقها،

١- هم كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. البخاري: صحيح، ج٦، ص٣، رقم ٤٤١٨؛ الثعلبي: الكشف والبيان، ج٥، ص١٠٥ .

٢- ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٩٤٨، ٩٤٩؛ الطبري: تاريخ، ج٣، ص١٠٣.

٣ - ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٦٠.

التي كانت رمزاً لهذه التبعية السياسية أكثر منها الدينية للمدينة. ولا تخفى ما تحمله من أهمية استراتيجية، ولا سيما تأمين طرق مواصلاتهم، وتقديم العون والنصح لهم.

فكانت تبوك خاتمة لهذه المرحلة في حياة الدولة العربية الإسلامية في المدينة، مرحلة النشأة والتأسيس، ونقطة فاصلة فيما يخص القبائل التي ظلت مترددة في ولائها وتبعيتها للمدينة، توضحت قوة المدينة ورجحت الكفّة لصالح الحاضرة وليس الملأ.

إثرَ العودة من تبوك قدمت وفود قبائل العرب إلى المدينة، معلنةً دخولها في الإسلام، وخضوعها للدولة العربية الإسلامية، وكان هذا الأمر بحد ذاته خطوة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للقبائل البدوية التي ترفض الخضوع لأي شكل من أشكال السلطة، بعد أن تحققت من قوة المسلمين الذين تحدوا أكبر قوة آنذاك، وسمت المصادر هذه السنة بسنة الوفود، وورد عند ابن سعد ذكر وِفادات العرب على رسول الله ﷺ ، وجرت بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وكان يأمر من يعلمهم مبادئ الإسلام، ثم يرجعون إلى أهلهم ليعلموهم ما تعلموا. ومن أبرز هذه الوفود وفد بني تميم، ووفد بني حنيفة، وقدم وفد بني طيء، ومن اليمن وفدٌ من بني زُبيد، ووفد كندة، والأزد، وكذلك من حمير يعلنون إسلامهم، ووفودٌ أخرى[١].

أي أن الإسلام قد انتشر ووصل كل أرجاء شبه الجزيرة العربية، وعمّ بين سكانها، ولو أنه حصل بعد وفاة رسول الله ﷺ لدى بعض القبائل ارتداد عن سلطة الدولة، إلا أن الصورة ما لبثت أن توضحت، وما زرعه رسول الله في هذه الأرض قد نبت وأثمر، وتطورت الحالة الفكرية والسياسية عندهم، وبدأت مرحلة جديدة ظهر فيها العرب بصورة لم تعهدها الشعوب الأخرى عنهم.

[١]- الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص٢٤٨_ ٢٧٠.

الفصل الثالث

نتائج الهجرة على الوضع الاقتصادي في المدينة، وآثارها

أولاً: الوضع الاقتصادي والحالة المعاشية بعد قدوم المهاجرين.

ثانياً: التغيرات والتنظيمات في شؤون الحياة الاقتصادية بعد الهجرة:

١- تبدل في ملكيات الأرض، وتوجيه العقود في الزراعة.

٢- تنظيم التجارة.

ثالثاً: واردات جديدة إلى المدينة نتيجة التحول السياسي فيها.

يقتضي نشوء أي كيان سياسي اقتصاداً يدعم هذا الكيان، ويؤمّن احتياجاته، ويخدم أفراده، ومن هنا اقتضى نشوء الدولة العربية الإسلامية في المدينة كذلك اقتضى تنظيم اقتصادها وجعله متوافقاً يوازن بين إمكانية المدينة وطاقاتها، ومستجدات المرحلة، وتعاليم الإسلام في الوقت نفسه أي العمل على إيجاد نظام اقتصادي عميق البنيان، متين، للتغلب على الأوضاع الصعبة وتحقيق السيادة، وهذا لم يحدث بموجب قرار أو بمجرد الهجرة، بل جاء بشكل تدريجي.

لم تعد المدينة كمنطقة جغرافية جيولوجية هي فقط يثرب الواحة الصغيرة التي تضم أعداداً محدودة من السكان ذات الاقتصاد القائم على مقوماتها الذاتية العضوية، لقد تغير المشهد السياسي، وتشكلت الدولة فيها، وهذا بدوره أثّر على اقتصادها وعناصره المكونة والداعمة.

إنّ الحديث عن المدينة في هذه المرحلة، يعني الحديث عن الدولة العربية الإسلامية في طور النشأة، فقد بدأ فيها تشكل نظام اقتصادي، له واردات، وتطلّب نفقات عامة، كما أن مكونات الحياة الاقتصادية، الزراعة، والصناعة، والتجارة، تأثرت بهذا التحول، فتغيرت كثيرٌ من الأمور الناظمة لهذه النشاطات، وعمل الإسلام من خلال إرشادات وتوجيهات رسول الله ﷺ على تنظيمها وتنقيتها من كل أوجه الظلم والاستغلال التي كانت موجودة في أشكال التعامل بين السكان.

كان اقتصاد المدينة ذا طابع زراعي، أي أن مفهوم المال والثروة ارتبط فيه بالأرض والنخيل، بخلاف مكة ذات الاقتصاد التجاري الذي قام على توفر النقد والعملة والسلع العينية، وقد تأثر الوضع الاقتصادي في كل من مكة والمدينة بعد الهجرة، لقد نقل المهاجرون معهم خبرتهم التجارية، وما لبثوا أن دخلوا ميدان التجارة، وكان لهم تميزٌ فيها، الأمر الذي أدى إلى التنافس مع اليهود الذين كانوا بالإضافة إلى امتلاكهم الأراضي كانوا صُنّاعاً ومرابين، وكما هو معلوم أن الاقتصاد التجاري قائم على الوفرة النقدية وليس على الأرض والأشجار كما الزراعي، فساهم نشاط المهاجرين وخبرتهم في التجارة وبراعتهم فيها على جلب هذه الوفرة ، وفي هذا التحول.

أولاً – الوضع الاقتصادي والحالة المعاشية في المدينة بعد قدوم المهاجرين:

كان مجتمع المدينة مجتمعاً زراعياً، فكان اقتصادها يتذبذب وفقاً لتغير الأوضاع الزراعية، فيصبح سيئاً عند الجدب، ويزداد سوءاً عند الصراعات والحروب التي كانت تنشب بين أهلها، ويزدهر في سنوات الخصب والسلام، وأعداد السكان المحدودة جعلت اقتصادها يميل إلى الاكتفاء الذاتي، مع وجود استيراد بضائع ومنتجات من الشام يتزودون بها تكمل النقص في المحاصيل الزراعية، وفي غياب حكومة، أو سلطة ناظمة، أو ما شابه ذلك كالملأ، يجمع سكان المدينة من عرب ويهود ويوحدهم كما في مكة، لم تكن هناك سياسة اقتصادية واحدة تنظم أمور اقتصادها وتديره بشكل يجعل للمدينة نظاماً اقتصادياً شاملاً متكاملاً، وكان كلاً من الأوس والخزرج يعملون بالزراعة، كذلك اليهود عملوا في الزراعة وامتلكوا الأراضي الخصبة إلى جانب عملهم بالتجارة والصياغة فالغلبة الاقتصادية كانت لهم.

وعندما حصلت الهجرة إلى المدينة كانت أوضاعها الاقتصادية عموماً والزراعية خصوصاً عادية، فقد كانت الصراعات قد توقفت لخمس سنوات، بعد معركة بُعاث آخر صراعات الأوس والخزرج التي أنهكت الطرفين، ولم تشكُ من الجدب أو الآفات الزراعية، إلا أنها لم تكن في كثير من السعة، كان إنتاجها يكفيها بالقدر الضروري، والحديث هنا يخص الأوس والخزرج فقط دون اليهود، ولا شك بأن الزيادة المفاجئة في السكان قد أثـرّت على اقتصادياتها، لا سيما وأن أغلب المهاجرين لم يستطيعوا إخراج أموالهم معهم، فكانوا في هذه المرحلة لا يملكون شيئاً، وأظهر الأنصار من كرم الضيافة وحسن استقبال رسول الله ﷺ والمهاجرين، ما جعلهم يعرضون على رسول الله أن يقسموا للمهاجرين من أراضيهم ونخلهم، بقولهم لرسول الله ﷺ : "اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقالوا: تكفونا المؤونة، ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا "[1]. أي أن يقوم المهاجرون بما يحتاج إليه النخيل من عمل كالسقي وغيره، ويشركهم الأنصار بما تنتجه الأرض، كما أنهم وهبوا لرسول الله ﷺ فضل خططهم حتى يبني المهاجرون مساكنهم[2].

---

[1]- صحيح البخاري، ج٣، ص١٠٤، رقم ٢٣٢٥.

[2] – البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦.

وإذا أُخِذَتْ بعين الاعتبار الأسماءُ التي ذكرها ابن هشام عند الهجرة، فيمكن إحصاؤها بما يزيد عن ستين رجلاً ما عدا النساء والذراري[١]، ولكن ظلت الزيادة مستمرة، ولكون الهجرة في هذه المرحلة شرطاً في الدخول إلى الإسلام، ففي غزوة بدر كان المهاجرون المشتركون فيها كما ذكرتهم المصادر ثلاثةً وثمانين رجلاً، وهو مع النساء والأطفال يشكل عدداً ليس بالقليل وعبئاً على كاهل المدينة في ظل إمكانياتها المحدودة، فقد كان مجتمع الإسلام مستمر النمو والتوسع بمن ينضم إليه من خارج المدينة حتى يكمل شروط الدخول بالإسلام[٢]، فكان عليهم أن يقيموا ويتدبروا أسباب عيشهم، لذلك سعوا لكسب رزقهم من خلال الانخراط في أعمال الزراعة والتجارة، لأن معظمهم لم يكونوا من الصناع، ولم يكن من الممكن التوسع في التجارة بسبب خصومة مشركي قريش المسيطرين على التجارة، فكان أمامهم التوجه إلى أعمال الزراعة، والتي بدأت بأعمال تحتاج لقوة بدنية كالسقي.

يمكن القول بأن إمكانيات المدينة كانت متواضعة، فليس المهاجرون فقط من عانى من الشدة، بل كذلك الأنصار الذين أحبوا وآثروا أخوانهم المهاجرين على أنفسهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[٣]،تظهر الآيتان حال المهاجرين واستقبال الأنصار لهم، كما تبين الشدة الواقعة على الطرفين : هؤلاء المهاجرون تركوا الديار والأموال والأهل والعشائر، خرجوا حبًا لله ولرسوله، واختاروا الإسلام على ما فيه من الشدّة، حتى لقد ذكر أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ماله دثار غيرها[٤].ولم يتوان الأنصار عن تقديم أقصى ما يستطيعون، فهم آثروهم على أنفسهم كما ذكرت الآية، ذلك بأنهم عندما خصّ رسول الله أموال بني النضير للمهاجرين دون الأنصار، حتى يخفف عن الأنصار أعباء اعتماد المهاجرين عليهم، وأخبرهم بذلك، لم يتوقف الأمر على تفهم مقصد النبي ﷺ بل تعداه أن يعرضوا بقاء المهاجرين معهم وأن

---

[١] – ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٢٢ـ ٣٣١. ويزيد العدد عن السبعين عند ابن حزم: جوامع السيرة، ص٨٦.

[٢]- ظل شرط الهجرة إلى المدينة واجباً للدخول في الإسلام حتى فتح مكة سنة ٨هـ/ ٦٢٩م.

[٣] – سورة الحشر، الآية ٨، ٩.

[٤] – الطبري: جامع البيان، ج٢٣، ص٢٨١.

يقسموا لهم أموالهم، بعد تقسيم رسول الله ﷺ أموال بني النضير لهم كذلك[١]، وإذا ما تم التذكير بأن آخر حرب قامت في المدينة "حرب بعاث" بعد أن أظهر الخزرج رغبتهم في النزول مكان يهود بني قريظة والنضير يعلم المرء مدى الإيثار وكرم الضيافة التي قدمها الأنصار للمهاجرين ومدى الالتزام بأوامر رسول الله ﷺ.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن سوء الحالة الاقتصادية للأنصار في هذه المرحلة هي التي جعلت كعب بن الأشرف يصدّق الحجة التي جاء بها محمد بن مسلمة ومن معه بأنهم قدموا لأخذ الطعام من عنده مقابل رهن سلاحهم، ويخرج معهم في جنح الظلام[٢].

كما ذكرت المصادر الشدة التي عانى منها رسول الله ﷺ وعائلته[٣]. وظلت الغالبية العظمى تعيش على الكفاف، وتعاني العوز والفقر، وقد أشارت كتب الحديث إلى ما كان عليه الصحابة من الفقر في هذه المرحلة المبكرة من الهجرة، ذكر أن علي بن أبي طالب خرج يلتمس عملاً يحضر منه ما يقيت به رسول الله ﷺ، فأتى بستاناً لرجلٍ من اليهود، فاستقى له سبعة عشر دلواً، كل دلوٍ بتمرة، فجاء بها إلى رسول الله ﷺ[٤].

وفي حديث زواج علي بن أبي طالب من فاطمة بنت رسول الله ما فيه دلالة واضحة جداً على الشدة، فلم يكن لهما غير جلد كبشٍ ينامان عليه في الليل ويعلفان الناضح عليه في النهار، وكان علي كذلك يعمل في السقي، فقد ورد عنه عندما أراد أن يأخذ من سبي جاء إلى رسول الله قوله: "والله لقد سَنَوْتُ[٥] حتى اشتكى صدري" ومع ذلك كان هناك من هو في وضع أسوأ هم أصحاب الصّفّة فلم يقبل رسول الله أن يعطه ويترك أهل الصفة [٦].

---

[١]- الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٢٧٧، ٢٧٨.

[٢]- ابن عقبة: المغازي، ص١٨٢؛ ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٥٧٨.

[٣]- ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٤٠٠ ــ ٤١٠؛ البخاري: صحيح، ج٧، ص٦٧، الحديث رقم ٥٣٧٤.

[٤]- ابن ماجة، (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت ٢٧٣هـ/ ٨٨٧م):سنن ابن ماجة، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، د.م، د.ت، ج٢، ص٨١٨، رقم ٢٤٤٦، ٢٤٤٨.

[٥]- أي سقيت.

[٦]-ابن سعد: الطبقات، ج١٠/ ٢٥، ٢٦؛ ابن حنبل: مسند، ج٢، ص٢٠٢، رقم ٨٣٨؛ سبط ابن الجوزي: المرآة، ج٣، ص٢٣٥.

عمل رسول الله ﷺ على التخفيف من هذه المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي عانى منها المهاجرون، من خلال نظام **المؤاخاة** الذي أوجده، بين المهاجرين والأنصار، وهنا يمكن القول بأن اعتناق المسلمين الأوائل للإسلام في مكة كان يعني بدء الانفصال عن مجتمعهم وتشكيل مجتمعهم الخاص، وهو بداية نشوء أمة جديدة، حيث أصبحت رابطة الإسلام هي التي تربط وتقرب بين أفراده، وليس رابطة العصبية القبلية التي كانت متجذرة في النفوس، ومع ذلك كان بقاؤهم ضمن الأرض التي عاشوا وتربوا فوقها يخفف ولو قدراً يسيراً من الشدة التي يلقونها من أقربائهم المشركين، لكن ازدياد الأذى دفعهم إلى الخروج ومغادرة الأرض وترك المال والمتاع، ولا يخفى على أحد مدى الشدة النفسية التي يعاني منها الإنسان بابتعاده عن الأهل والعشيرة والأرض، ولم يكن هذا الأمر ليخفى على رسول الله ﷺ ولا سيما وأنه عليه الصلاة والسلام دخل في نفس إطار هذه المعاناة بل وأشد، وزاد الأمر سوءاً ما عاناه البعض من الحمى التي كادت تودي بحياتهم، فقد كان جو المدينة الرطب الحار يختلف عن جو مكة كلياً مما زاد في أثر ذلك على نفوس المهاجرين وجعل حنينهم يزداد، فأراد رسول الله ﷺ أن يخفف من آثار ذلك بإيجاد رابطة تحل محل رابطة العشيرة[1]، فكانت المؤاخاة، التي شملت الطبقة الأولى ممن قدم المدينة فقط، فهي لم تستمر، اقتصرت على المهاجرين الأولين. وبموجب هذه المؤاخاة أصبح للمهاجرين صلة وقرابة، فترتب على تشريع نظام المؤاخاة حقوق خاصة بين المتآخين كالمواساة بين الاثنين، والمواساة ليست محددة بأمور معينة بل مطلقة لتعني كل أوجه العون على مواجهة أعباء الحياة سواء كان عوناً مادياً أو رعاية ونصيحة وتزاوراً ومحبة، كما ترتب على المؤاخاة دون ذوي الأرحام، مما يرتقي بالعلاقات بين المتآخين إلى مستوى أعمق وأعلى من أخوة الدم[2].وقد تقبل الأنصار المؤاخاة بكل رحابة صدر ومحبة حتى أنهم أورثوهم الديار والأموال ولم يبخلوا بشيء حتى بنسائهم، كسعد بن الربيع الذي قال لعبد الرحمن بن عوف: إن لي مالاً فهو بيني وبينك شطران، ولي امرأتان فانظر أيهما أحب إليك فأنا أطلقها فإذا حلت فتزوجها، إلا أن عبد الرحمن قابل هذا الكرم والإيثار بعدم الاتكال واستغلال أخيه فذهب إلى السوق وبدأ بتجارة تزوج بعدها بامرأة من الأنصار ودفع مهرها نواة من ذهب[3].وبيّن السمهودي

---

[1] – السهيلي: الروض الأنف، ج٤، ص٢٩٦.

[2] – ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢٣٨؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٢٧٠؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١، ص٢٣١.

[3] – ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص٤٧٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٦٣.

الخلاف في تحديد تاريخها بين الشهر الخامس والسابع، أي أثناء بناء رسول الله لمسجده وقبل غزوة بدر، لكنه لم يشر إلى حادثة دفعت إليها، بل اقتصر على ذكر أسسها[١].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن عدداً من المهاجرين لم تشملهم المؤاخاة، فقد بقي بعض الفقراء منهم لم يدخلوا في نظام المؤاخاة، لا منازل لهم[٢]، وقد خصص لهم رسول الله ﷺ جانب في المسجد سمي بالصُّفّة، واستمرت الصُّفّة باستقبال فقراء المسلمين طيلة العهد المدني، وأصبح لها فيما بعد دور ديني تعليمي وإسهام في نشر الإسلام، شكّل نواة مدرسة المدينة، وكان وجودهم دليل على الشدة الاقتصادية فهم لا يأوون على أهل ولا مال[٣]، فكان رسول الله ﷺ إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها[٤]، وكان يقسّمهم إذا أمسى بين المسلمين، أصحابه فكان يذهب الرجل بالرجل، والرجل يذهب بالرجلين، والرجل يذهب بثلاثة، حتى العشرة، وكان سعد بن عبادة يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين منهم بعيشهم[٥]، ومهما كان هذا العدد مبالغاً به إلا أنه يدل على كثرتهم في بعض الأحيان. حتى أن المصادر أخبرت عن سوء حالتهم المعيشية فكان ثوب أحدهم بالكاد يغطي جسده، وسماهم رسول الله ضيوف الرحمن، والأوفاض، وكان حريصاً على توزيعهم على المسلمين بشأن طعامهم، ويحرص على إعطائهم ما يأتي إليه من صدقات الطعام والهدايا، وكان جلهم ممن نزل في منزل سعد بن خيثمة أي كان أعزباً.

كان المتآخون يتوارثون دون ذوي الرحم حتى غزوة بدر، لكن هذا الأمر نُسخ بعد نزول سورة الأنفال عقب غزوة بدر في آية المواريث بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ

[١]- السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٤٥٧.

[٢] – ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢٥٥.

[٣] – ابن النحار: الدرة الثمينة، ص٧١، ٧٢.

[٤]-أبو نعيم: حلية الأولياء، ج١، ص٣٣٨، ٣٣٩؛ الذهبي، (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م ج٢، ص٥٩١.

[٥] – المصدر السابق، ص٣٤١.

فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾[1]، فرجع الإرث إلى ذوي الرّحم[2].

كانت خطة رسول الله ﷺ ضد قريش تقوم على ضرب اقتصادها، وإضعاف نشاطها الاقتصادي، والضغط عليها اقتصادياً، وهذا اقتضى خروج السرايا، لتمكين السيطرة على المنطقة حول المدينة وحراستها لمنع قوافل القرشيين من المرور عبرها وخرق حرمة المدينة، وهذا أدى إلى المواجهة مع قريش وحلفائها من القبائل.

وعلى صعيد داخل المدينة أدرك رسول الله ﷺ ضرورة تنظيم الاقتصاد حتى تكتمل دعائم بناء الدولة على أسس متينة، فكانت له تنظيمات وتشريعات عززت وقوّت ودعمت اقتصاد المدينة وأوجدت نظاماً جديداً اختلفت العناصر المكونة له، وقد حاول في البداية إشراك اليهود وإدخالهم في هذا الأمر، حيث وادعهم فهم كانوا عنصراً من عناصر سكان المدينة وكانوا على درجة فاعلة ومهمة في اقتصادها،و لم يُظهِر اليهود أية ردة فعل إيجاباً أو سلباً فيما يخص قدوم رسول الله ﷺ وقدوم المهاجرين، بل كانوا يترقبون الأمور إلى ما ستؤول إليه، ولعلهم ظنوا في بادئ الأمر أنه يمكنهم احتواء هذا الرفد البشري لصالحهم بالسهولة نفسها التي رافقت هجرة الأوس والخزرج قديماً، ولكنهم سرعان ما أدركوا خطأ حسابهم الذي عاد عليهم بالضرر، فقد اصطدموا بمنافسة المهاجرين الذين انتقلت معهم الخبرة القرشية في التجارة، التي شكلت نوعاً من المنافسة الاقتصادية وبدأت بالتفوق عليها[3]، وخاصة وأنه لم يكن لليهود أي تنظيم يجمعهم فلا ملأ ولا وحدة في القيادة أو الموقف، في حين أن المسلمين مهاجرين وأنصاراً شكلوا وحدة سياسية اجتماعية ناشئة بدأ رسول الله ﷺ بتنظيم شؤونها، وترتيبها. وبعد مرور بعض الوقت هذا الموقف ما لبث أن تحول إلى عداء ظاهر، ولا سيما بعد بدء التعرض لقريش وقوافلها، مما يجعل أمر ترجيح وجود ارتباطات تجارية معينة بين اليهود والقرشيين أمراً محتملاً، لاسيما وأن من بدأ بالمجاهرة بالعداوة كان بنو قينقاع الذين عرفوا بعملهم بالتجارة والصياغة وإن خطبة رسول الله ﷺ لهم في **السوق** سوق بني قينقاع لم تكن محض صدفة، بل مؤشراً ودليلاً على الخلفية الاقتصادية لعداوة اليهود

[1] – سورة الأنفال: الآية ٧٥.
[2] – الطبري: جامع البيان، ج١٤، ص٨٩.
[3] – بيضون: الحجاز، ص١٠٧.

للمسلمين، فبدأت المواجهة تباعاً، مما أدى إلى إخراجهم من المدينة وحلول المهاجرين مكانهم وبدء الانفراج.

كما أن **الصحيفة** التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار وبين اليهود أظهرت بعض المسؤولية المالية على الأطراف الساكنة في المدينة بحكم المواطنة إن أمكن التعبير، إذ قررت مبدأ التعاون في دفع الديات وفداء الأسرى والاشتراك في النفقات بين المؤمنين واليهود في حال تعرض المدينة إلى اعتداء خارجي، إلى غير ذلك من التنظيمات التي كانت نواة للنظام المالي الجديد للدولة الإسلامية[1].

– يمكن التدرج بسير الحوادث وإيضاح جوانبها الاقتصادية، بعد اكتمال عناصر الدولة، تطلب قيامها وجود مالية عامة، تتولى المهام، إلا أن عبء ذلك وقع على عاتق الأفراد لأن الدولة كانت في طور النشأة ولم يكن بالإمكان قيامها بهذه المهام، وكانت أبرز مهامها، هي القيام بتجهيز المقاتلين أثناء الخروج في السرايا والغزوات، ووقعت مسؤولية ذلك على الأفراد، فكل فرد يقوم بتجهيز نفسه ومركوبه إن وجد، ومؤونته. وبعد ذلك بدأ الحصول على الغنائم من هذه الأعمال العسكرية، بدأت الدولة تتولى مهامها المالية، وتتحمل شيئاً فشيئاً مسؤولياتها تجاه الأفراد، وبعد جلاء اليهود من المدينة تحسن الوضع، فقد غنم المسلمون مزارعهم، وبيوتهم، ومواشيهم.

إلا أن هذا لم يعنِ على الإطلاق بأن وضع المدينة الاقتصادي شهد سعة وبحبوحة إلى درجة كبيرة، فقد ظلت الشدة موجودة، فقد ذكرت المصادر الظروف الصعبة التي مر بها المسلمون أثناء حفر الخندق، يوم غزوة الأحزاب وما عانوه من جوع وفاقة وبرد قارس[2]. بل أحد الباحثين يرى أن من أسباب تحديد حرم المدينة هو استمرار الهجرة غير المنظمة إلى المدينة والتي لو أنها استمرت لفقدت المدينة قدرتها على استيعاب المهاجرين وتوفير الضروريات المعيشية لهم[3]، وما يعزز هذا الرأي أن رسول الله ﷺ طلب ممن كان لهم غنم أن يبتعد بها عن المدينة فإنها أقل أرض الله مطراً[4]، كما سمي الجيش الذي خرج إلى غزوة تبوك، بجيش العسرة، فقد كان الزمان زمن حرّ وعسرة، عسرة في الظهر وعسرة الزاد وعسرة

[1] – الكرمي: الإدارة في عصر الرسول، ص١٤٦؛ بطاينة، (محمد ضيف الله): الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، دار الكندي، الأردن– أربد، د.ت، ص١٠.

[2] – الواقدي: المغازي، ج٢، ص٤٥٢؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ٣٣١، ٣٣٢.

[3] – إدريس: مجتمع المدينة، ص٩٣.

[4] – العسقلاني: الإصابة، ج٤، ص٨٨.

المال، واعتمد على ما قدمه المسلمون من تبرعات وأعطيات[١]، يمكن القول بأن بعد فتح خيبر، حققت المدينة أمنها الغذائي، ويستدل على ذلك من حديث أم المؤمنين عائشة: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ قُلْنَا الآنَ نَشْبَعُ مِنَ التَّمْر" ، وقول ابن عمر: " ما شبعنا حتى فتحنا خيبر" [٢].

فأبرز ما ميز اقتصاد المدينة في هذه المرحلة، هو انعدام الخلافات التي كانت كثيراً ما تنشب بين أفرادها وتضر بالأراضي وتعطل أمور الحياة، حيث أُرْجعَتْ كل الخلافات إلى رسول الله ﷺ، والشدة التي عانتها كانت ضمن السياق الطبيعي بعد أن أصبحت مركز الثقل السياسي والعسكري للدولة الناشئة، وفي الإطار المتوقع في ظل الزيادة المستمرة التي كان المجتمع الإسلامي يعيشها، والتي استمرت حتى عام فتح مكة أي سنة ٨هـ/ ٦٢٩م، إلاّ أن هذه الشدة كانت تمهيداً للدور الجديد الذي أصبح ليثرب، وبموجبه أصبحت حاضرة الدولة العربية الإسلامية الناشئة، وتجمعت فيها الوظائف المختلفة للدولة[٣]، وحصلت على موارد متعددة فيما بعد، وقد عبّر عن ذلك حديث رسول الله ﷺ للمسلمين الذين تعرضوا له عليه السلام بعد رجوع أبي عبيدة بن الجراح بمالٍ كثير من البحرين[٤]، صالح رسول الله ﷺ أهله عليه، فقال لهم بعدما علم بمقصدهم : "فأبشروا ...فواللَّهِ لاَ الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ" [٥]. والأهم من كل ذلك كان قضية الانتقال والارتقاء في النظام الاقتصادي للمدينة، الذي عمل رسول الله عليه وأسهم به المهاجرون.

---

[١] – ابن الزبير: مغازي، ص٢٢٠. ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٩٤٦؛ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج٢، ص١٢٣.

[٢] – البخاري: صحيح، ج٥، ص١٤٠، رقم٤٢٤٢، ٤٢٤٣.

[٣] – للمزيد من الاطلاع على هذه الوظائف جميعها يمكن العودة إلى الخزاعي: الدلالات السمعية؛ والكتاني، (محمد بن عبد الحي بن عبد الكبير، ت١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م): التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، ط٢، د.ت.

[٤] – البحرين: كانت تمتد حسب تقسيمات الجغرافيين آنذاك بين البصرة وعُمان شرقي الجزيرة العربية على ساحل الخليج العربي، قاعدتها هجر، تشمل الأحساء والقطيف وبيشة والزارة والخط، وهي بلاد سهلة كثيرة الأنهار والعيون، عذبة المياه، كثيرة النخل والفواكه، سكنتها قبائل عبد القيس. ابن الحائك الهمذاني: صفة جزيرة العرب، ص٢٤٩. البكري: معجم ما استعجم، ص٢٢٨. الحموي: معجم، ج١، ص٣٤٦_ ٣٤٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص٨٢.

[٥] – البخاري: صحيح، ج٤، ص٩٦، رقم ٣١٥٨.

ثانياً: التغيرات والتنظيمات في شؤون الحياة الاقتصادية بعد الهجرة:

كانت الثروة في المدينة تقاس بامتلاك الأراضي وبساتين النخيل والآبار، فطبيعة المدينة الجغرافية جعلت اقتصادها زراعياً بالدرجة الأولى، وعلى أساس ذلك ارتبطت الثروة بالأرض، وقد توزعت الملكيات بين العرب واليهود، فتركزت أراضي اليهود في منطقة العوالي، في الشرق والجنوب الشرقي، على واديي بطحان ومهزور، ومعهم بعض العشائر، في حين تركزت أراضي الأنصار على وادي العقيق. وكانت أراضي اليهود أكثر خصوبة من أراضي العرب عموماً، وكان اليهود أكثر ثراءً وغنىً ولهم الغلبة.

وحصل اختلاف بعد الهجرة على صعيد المشهد السياسي داخل المدينة وخارجها، ولكلٍّ أثره وانعكاسه الاقتصادي، فيما يخص أثر هذا التغير على داخل المدينة، فيمكن الإشارة إلى عدة أمور بارزة سيتم تناولها وهي: تبدل في الملكيات الزراعية، وتشجيع رسول الله ﷺ على العمل في الزراعة، بإقطاعه الأرض لمن يعمل على إحيائها وزراعتها، وظهور الحِمى بمفهومه الجديد معبراً عن ملكية الدولة، بالإضافة إلى تنظيم أصول التعامل فيما يخص الأرض، من زراعة وسقي وغير ذلك، هذا فيما يخص الزراعة والأرض. أما التجارة، التي كانت تحت سيطرة وهيمنة اليهود قبل مجيء المهاجرين القرشيين، كان لها أهمية ومكانة، فقد عمل رسول الله ﷺ على إعادة تنظيمها، وفق منظور الإسلام والربح المشروع، بعيداً عن الظلم والغش والخداع، وكذلك توجيه التعامل في أمور البيع والشراء إلى نظام النقد والابتعاد عن نظام المقايضة والتبادل العيني، وذلك من خلال توحيد أصول التعامل بين الناس في شتى معاملاتهم عن طريق توحيد قيمة النقد المستعمل والمعتمد، من خلال ضبط وزن الذهب والفضة بعد أن لاحظ عليه السلام الغش الحاصل نتيجة جهل الناس بهذه الأمور، الأمر الذي أدى إلى نفي كل أشكال الرّبا، وأفضى في نهاية الأمر إلى الصدام والمواجهة مع اليهود، وبدايةً مع يهود بني قينقاع الذين عُرفوا بعملهم وبراعتهم بهذه الأمور مستغلين حاجة الناس وجهلهم لزيادة ثرواتهم.

١- تبدل في ملكيات الأرض، وتوجيه العقود في الزراعة:

عرض الأنصار ، كما سلفت الإشارة، على رسول الله ﷺ بعد وصوله والمهاجرين إلى المدينة، أن يقسموا أرضهم ونخيلهم بينهم وبين المهاجرين، ولكن رسول الله لم يقبل، فأشركوهم في العمل مقابل

أن يشركوهم في الثمار[١]، وبدأ المهاجرون بهذا الشكل العمل لكسب قوتهم وقوت عيالهم، والجدير بالذكر أن القرشيين لم تكن لهم خبرة في ميدان الزراعة كخبرة الأنصار، بحكم اختلاف طبيعة كلا المنطقتين، لذلك بدأ عملهم في مجال الزراعة في الأمور التي تتطلب جهداً جسمياً وقوة بدنية، كالحمل والسقي، وما شابه ذلك، كما أن الأنصار وهبوا لرسول الله ﷺ كل فضل في خطط المدينة[٢].

وبعد هزيمة بني النضير وإجلائهم عن المدينة مع السماح لهم بحمل ما قدروا عليه، عُدّتْ أراضيهم فيئاً لرسول الله ﷺ يضعها حيث يشاء[٣]، له حرية التصرف دون التقيد بأية قاعدة، والمهم هنا ما ذكرته المصادر من أن النبي ﷺ خص المهاجرين دون الأنصار بأموال بني النضير نظراً لحاجتهم وعدم امتلاكهم وحتى يخفف عن الأنصار ما تحملوه من عبء ومشقة اقتسام أموالهم مع المهاجرين، ولم يُقطع منهم أي الأنصار إلا اثنين لفقرهما، فلما طابت نفوس الأنصار عن هذه الأموال أمر رسول الله المهاجرين برد ما كان للأنصار لاستغنائهم عنهم، ولأنهم لم يكونوا ملكوهم ذلك وإنما دفعوا إليهم النخيل لينتفعوا بثمرها[٤]. وكان ممن ذكرتهم المصادر أبو بكر، وقد أعطاه الرسول بئر حجر، وأعطى عمر بن الخطاب بئر جرم، وعبد الرحمن بن عوف سوالة وكيدمة، وصهيب بن سنان الضراطة، والزبير وأبا سلمة البويلة[٥]، كما أقطع الزبير أرضاً فيها نخلاً[٦]، ولعل آخرين لم ترد أسماؤهم أعطاهم عليه السلام من هذه الأراضي، ولا تذكر المصادر نسبة ما وزع من هذه الأراضي على المهاجرين بالنسبة إلى المجموع الكلي من أراضي بني النضير، ولا مكان استقرار وسكن من أعطاهم، والمرجح بأن أغلبهم بقي على ما مسكنه الذي كان عليه، وأنه اكتفى باستثمار واستغلال الأرض وزراعتها من قبل عمال مأجورين، سواء من سكان المدينة أو خارجها ممن هاجر إلى المدينة بعد الإسلام[٧]، ولا شك أن استثمار هذه الأراضي الخصبة قد عاد بالفائدة وساهم في تأمين معيشتهم.

---

[١]- البخاري: صحيح، ج٣، ص١٠٤، رقم ٢٣٢٥.

[٢]- البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦.

[٣] – ابن عقبة: مغازي، ص٢١٢، ٢١٣.

[٤]- الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٢٨٤؛ الفيروز أبادي: المغانم، ص٤١٠.

[٥] – الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٨٠؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٣، ص٣١١؛ خريسات: القطائع في صدر الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان ٢٧، ٢٨، ١٩٨٧م، ص٧٣.

[٦]- ابن سعد: الطبقات، ج٣، ص١٠٣.

[٧]- العلي: دولة الرسول، ص٣٦٦.

وهكذا بدأ المهاجرون يأخذون مكان اليهود، ملّاك الأراضي، ويحلون محلهم في الزراعة، وأخذ دور اليهود يتراجع ولاسيما بعد غزوة بني قريظة، التي انتهى بعدها وجود اليهود كقبائل مسيطرة في المدينة، وتم اقتسام أراضيهم وفق قاعدة توزيع الغنائم، خمس لله ورسوله، وأربعة الأخماس المتبقية على المشتركين في الغزوة رجالاً وفرساناً، فقسّمها رسول الله بينهم. وهكذا أصبحت الأراضي موزعة بين المهاجرين والأنصار.

تحسن واقع الزراعة في المدينة بعد استقرار أحوالها بعد الهجرة، والقضاء على المنازعات الداخلية فيها، واستوعبت عدداً كبيراً من المهاجرين إليها والوافدين عليها من قبائل العرب، وكثر عمرانها. وبدأ الناس باستغلال الأراضي واستصلاح الموات منها وإعدادها للزراعة وتجفيف المستنقعات، كما استصلحوا ما كان حول الأودية، مثل وادي بطحان، بعد أن كان يجري آجناً متغير الطعم واللون[١]. شجع رسول الله ﷺ على ذلك حيث منح القطائع لمن رغب في زراعة الأرض، أو كانت به حاجة، فأصبحت الأرض لمن يحييها بقوله عليه السلام: " من أحيا أرضاً ميتةً فهي له"[٢]. فقد أقطع رسول الله رجلاً من الأنصار يدعى سليط أرضاً، أحياها، لكن سليط عاد واستأذن رسول الله ﷺ بردّها لأنها تشغله عن الله ورسوله، كما لم يعد له بها حاجة، فاستقطعها الزبير بن العوّام فأقطعه رسول الله ﷺ إياها [٣]، وأقطعه عليه الصلاة والسلام أيضاً أرضاً في موات النقيع بمقدار ركض فرسه، فأجراه الزبير ثم رمى بسوطه رغبة في الزيادة، فقال رسول الله ﷺ: "أعطوه منتهى سوطه"[٤].

كما شجع رسول الله على الزراعة وبَيَّن الثواب والأجر على كل غرسة يغرسها المسلم بقوله عليه السلام: "ما مِنْ مسلمٍ يَغرسُ غرساً إلاّ كانَ ما أُكِلَ منهُ لهُ صَدَقَةً، ومَا سُرِقَ منهُ لهُ صدقةً، وما أَكلَ السّبعُ منهُ فهُوَ لهُ صَدَقةٌ، ومَا أَكَلَتِ الطّيرُ فهوَ لَهُ صَدَقةٌ، ولا يَرزؤهُ أحدٌ إلاّ كانَ لهُ صَدَقةٌ.

١- إدريس: مجتمع المدينة، ص٣٠٨.

٢- البخاري: صحيح، ج٣، ص ١٠٦، رقم ٢٣٣٥. وسنن أبي داود، ج٣، ص١٧٦، رقم ٣٠٧٣.

٣ – ابن سلام: الأموال، ص٣٤٧.

٤ – الماوردي، (علي بن محمد بن حبيب، ت ٤٥٠هـ/ ١٠٨٥م): الأحكام السلطانية، دار الحديث، القاهرة، د.ت، ص ٢٨٤.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: لا يَغرسُ مسلمٌ غرساً، ولا يزرَعُ زرعاً، فيأكلُ منهُ إنسانٌ، ولا دابةٌ، ولا شيءٌ، إلاّ كانتْ لهُ صدقةٌ "[١].

فيما يخص العمل في الأرض، من كان يملك الأراضي الواسعة يزرعها لحسابه أو يزارع عليها غيره أو يكريها (يؤجرها)، ومنهم من يقوم بزراعتها بنفسه، ومنهم من لم يكن له مُلك خاص فيزرع في أرض غيره مزارعة أو كراء، إلا أنهم كان لهم ضروب في المزارعة والمؤاجرة نهى عنها رسول الله بعد أن اطلع عليها، وبدّل نظمها وقواعدها، وقد ذكرت كتب الحديث والأموال ضروباً منها.

فكان بعضهم يؤجر أرضه على شرط تخصيص إنتاج جزء منها لصاحب الأرض، وجزء للذي يزرع، بما تنتجه، فيأخذ كل منهما ما ينتجه قسمه قلّ أو كثر، وإذا ما أصيب أحد القسمين بضرر، ولم ينتج أو أن إنتاجه كان قليلاً فلا يلتزم صاحب القسم الآخر بأي شيء تجاهه، وقد نهى رسول الله عن هذا النوع من المؤاجرة[٢].

ولما سأل رسول الله ﷺ أحد الأنصار ماذا يفعلون بمحاقلهم أي مزارعهم، " قلت: نؤاجرها على الربع، وعلى الأوسق من التمر والشعير، قال: «لا تفعلوا، ازرعوها، أو أزرعوها، أو أمسكوها [٣]. وهو ما سموه بالمحاقلة، التي نهى عنها رسول الله وعن المخابرة والمزابنة [٤]، وهي أنواع من أجارات الأرض ولكن بمقابل قدر معلوم من الإنتاج دون الأخذ بعين الاعتبار أي ضرر قد يلحق بالأرض أو الزرع، وبيع المعاومة أي بيع الثمر لسنين. وكذلك حضّ النبي على منح المسلم الفضل من أرضه لأخيه المسلم بقوله: من كانت له فضل أرضٍ فليزرعها، أو ليمنحها أخاه، فإن أبى فليمسك أرضه[٥].

وقد اعتمدت الزراعة في المدينة على مياه الأودية، بطحان ومهزور والعقيق، إلى جانب الري في أوقات الجفاف، فكانت المياه تسير في الأراضي، إلا أنه لا بد وأن تنشأ خلافات في توزيعها، لذلك

---

[١] – الشيباني، (محمد بن الحسن بن فرقد، ت ١٨٩هـ/ ٨٠٤م): الكسب، تح: سهيل زكار، مكتبة عبد الهادي حرصوني، دمشق، ط١، ١٩٧٩م، ص٦٥؛ ابن آدم، (يحيى القرشي الولاء الكوفي، ت ٢٠٣هـ/ ٨١٨م): الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م، ج١، ص٧٨؛ مسلم: صحيح، ج٣، ١١٨٨، رقم ١٥٥٢.

[٢] – البخاري: صحيح، ج٣، ص١٠٥، رقم ٢٣٣٢.

[٣] – البخاري: صحيح، ج٣، ص١٠٧، رقم ٢٣٣٩.

[٤] – مسلم: صحيح، ج٣، ص١١٨٥، رقم ١٥٥٠.

[٥] – مسلم: صحيح، ج٣، ص١١٧٦، رقم ١٥٣٦.

حذّر رسول الله المسلمين أنصاراً ومهاجرين من منع أو حجز الماء في أراضيهم عن الأراضي التي تلي أرضهم[١]، ونهى كذلك عن بيع فضل ماء السقي[٢].

كما قضى رسول الله فيما نشب من خلافات بين المسلمين في شؤون السقي والزراعة، ومن ذلك قصة الزبير والرجل الأنصاري الذي خاصم الزبير عند النبي ﷺفي شِراج[٣] الحرة، التي يسقون بها النخل، فقالَ الأنصاريُّ: "سَرِّحِ الماءَ يَمُرُّ، فأبى عليه؟ فاختصما عند النّبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «أَسْقِ يا زُبَيرُ، ثمّ أرْسِلِ الماءَ إلى جَارِكَ» ، فَغَضِبَ الأنْصَاريُّ، فقال: أَنْ كانَ ابْنَ عَمّتِكَ؟ فَتلوّنَ وَجهُ رسولِ الله ﷺ، ثم قالَ: «اسْقِ يا زُبيرُ، ثمّاحبس الماءَ حتى يرجع إلى الجَدْرِ»"[٤]، وكان ذلك إلى الكعبين[٥].

وكذلك قضى عليه السلام في خلاف كان بين أبي بكر وربيعة الأسلمي في ثمار نخلة كان أصلها في أرض ربيعة وفرعها في أرض أبي بكر، فقضى رسول الله لربيعة[٦].

- أرض **الحِمى** التي خصصها رسول الله ﷺ في المدينة:

ضمن الحديث عن التغير في مُلكية الأرض التي حصلت في المدينة بعد الهجرة، تجدر الإشارة إلى الأرض التي خصصها رسول الله ﷺ للحِمى، فمنع الناس الاقتراب منها للرعي أو الزراعة، وخصّها لرعي إبل الصدقة أي الزكاة، ولخيل الجهاد في سبيل الله[٧]. الحِمى: موضعٌ فيه كلأٌ يُحمى من الناس أن

---

١ - ابن سلام: الأموال، ص٣٧٩.

٢ - النسائي، (أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م): المجتبى من السنن، تح: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٩٨٦م، ج٧، ص٣٠٧، رقم ٤٦٦٣.

٣- شِراج: جمع شرج وهي مجاري الماء من الحِرار أي من مرتفع إلى السهل وهو منخفض. الفيروز أبادي، (محمد بن يعقوب، ت ٨١٧هـ/ ١٤١٥م): القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥م، ج١، ص١٩٥؛ ابن منظور: لسان، ج٢، ص ٣٠٧. مادة (شرج).

٤ - والجدر هي الحواجز التي تحبس الماء حتى تبلغ تمام الشرب، ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص١٢٢، مادة (جدر).

٥ -البخاري: صحيح، ج٣، ص١١١، رقم ٢٣٥٩ و ٢٣٦٢.

٦ - ابن سعد: الطبقات، ج٤، ص٣١٣.

٧ - البخاري: صحيح، ج٣، ص١١٣، رقم ٢٣٧٠.

يُرعى[١]، وكان وادي النقيع هو أول الأحماء، أحماه رسول الله ﷺ لخيل المسلمين وركابهم، وفي تقدير مساحته، أمر رجلاً صيّتاً بأن يصيح من فوق عسيب (أي جبل)، فكان مدى صوته بريداً، ثم جعل ذلك حمىً طوله بريد وعرضه الميل، وفيه شجر ويستجم حتى يغيب فيه الراكب. والنقيع يقع في وادي العقيق وهو أخصب موضع هناك تنبت فيه أنواع مختلفة ومتعددة من الأعشاب والشجيرات، على أربعة بُرُدٍ من المدينة، أو على عشرين فرسخاً منها[٢]، وهو من ديار مُزينة، على يسار الخارج من المدينة[٣]. وقد استعمل عليه رسول الله ﷺ رجلاً من مُزينة يدعى أبو هيصم يمنع من جاء إلى الوادي للرعي[٤].

مفهوم أرض الحمى لم يكن غريباً عن مفاهيم البيئة آنذاك، إلاّ أنه جاء بطابع جديد هو طابع الإسلام ودولته، وليس الطابع القبلي، فالقبائل العربية قد امتلكت الحِمى الخاص، ولكنه اختص بعزيزها أي سيدها فقط، كالذي كان يفعله كليب بن وائل؛ فإنه كان يوافي بكلب على نشاز من الأرض، ثم يستعويه، فيحمي ما انتهى إليه عواؤه من كل الجهات، وكان التجاوز على هذه الحِمى، يثير النزاع والحروب القبلية[٥]، أي لم يكن للحمى القدسية التي للحرم، بل كان شكلاً من أشكال محاولة قلب الملك المشاع إلى ملكية خاصة عن طريق القوة والسيطرة[٦]. ولقد بيّن النبي ﷺ الغاية من الحِماء بقوله: " لا حِمى إلاّ لله ورسوله"[٧]، عندما حمى النقيع فجعلها لخيل المسلمين المعدة للجهاد في سبيل الله فلا يكون الحمِى إلا على ما حمى رسول الله، أي لمصلحة المسلمين العامة، وتحت إشراف الدولة[٨]، وقيل

١- ابن منظور: لسان العرب، ج١٤، ص١٩٩. مادة (حما).

٢- يساوي الفرسخ ٥.٤ كم تقريباً. رمضان، (حميد السيد): الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب والمسلمين، دار الملاّح، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م، ٧٥، ٧٦.

٣- الخزاعي: الدلالات السمعية، ص٦٤٣؛ الفيروز أبادي: المغانم، ص٤١٥؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٤، ص٧١_ ٧٣؛ أبو علي الهجري، ص٣٨٠.

٤- العسقلاني: الإصابة، ج٧، ص٣٦٧.

٥- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٧٧؛ ياسين، نجمان: التنظيمات، ص١٧١.

٦- العلي، (صالح): الحجاز في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٠م ص٣٥٩.

٧- الطبراني، (سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم، ت ٣٦٠هـ/ ٩٧١م): المعجم الكبير، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، د.ت، ج٨، ص٨١، رقم ٧٤١٩. صحيح.

٨- السمهودي: وفاء، ج٤، ص٧٧.

أنه عليه السلام حمى الربذة [1] لإبل الصدقة[2]. وتجدر الإشارة إلى أن مناطق الحِمى توسعت في العصر الراشدي، نتيجة ازدياد أعداد نِعَمِ الصّدَقة، وأعداد الخيل المعدة للجهاد في سبيل الله[3].

وهكذا أصبحت الأراضي موزعة بين المهاجرين والأنصار، واختص المهاجرون بأراضي بني النضير، بينما اشتركوا مع الأنصار في أراضي بني قريظة، فرضي كلٌّ بقسمته، ولم يعد هناك مطامع لأحد بأراضي الغير، كما كان سابقاً، وظهرت ملكية الدولة من خلال أرض الحِمى التي حددها رسول الله ﷺ، وكانت بالعموم فائدتها للصالح العام، بعد أن كان المفهوم السائد يخص رئيس أو شيخ القبيلة.

٢- تنظيم التجارة:

أولى رسول الله ﷺ التجارة اهتماماً وعنايةً بعد استقراره في المدينة ورتب أوضاعها الداخلية، وعدّها من الكسب الطيّب للمؤمن[4]، فعمل رسول الله على تدعيم تجارتها الداخلية، والاهتمام بتجارتها الخارجية بل كان هذا الاهتمام سبباً في خروج عدد كبير من البعوث والسرايا، حتى انتهى الأمر إلى أن تتفوق على مكة، وتسيطر هي على تجارة شبه الجزيرة العربية، ولا سيما بعد تنظيمات رسول الله ﷺ لها وضبطها، وبعد الحصار الاقتصادي الذي فرض على مكة، بعد استهداف قوافلها الخارجة إلى الشام. وكان المهاجرون من قريش قوماً تجاراً، ما لبثوا أن انخرطوا في العمل بالتجارة، وضربوا بأسهم وافرة فيه، فساهموا في رفد الحركة التجارية وتنشيطها، والنهوض بها. وقد وجه رسول الله ﷺ اهتمامه في البداية إلى المعاملات التجارية التي كانت تتم بين الناس، فعمل على تنظيمها، وضبطها بقواعد وضوابط أخلاقية،

---

[1] - الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز. الحموي: معجم، ج٣، ص٢٥؛ الفيروز أبادي: المغانم، ص١٥١.

[2] - ابن شبة: تاريخ المدينة، ج١، ص١٥٥؛ ابن سلام: الأموال، ص٣٧٥، ٣٧٦؛ الخزاعي: الدلالات السمعية، ص٦٣٧؛ يذكر أبو علي الهجري بأن عمر بن الخطاب هو من أحمى الربذة، وهو المرجح، ص٢٤٠.

[3] - لمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى السمهودي: وفاء الوفا، ج٤، ص٧٨ وما بعد .

[4] - الشيباني: السير، ج٣، ١٠١٢.

وإنسانية، عززت من مكانتها، وشجعت الناس على القدوم والتعامل بها. وكانت البداية من إنشاء سوق خاص بالمسلمين، إلى جانب الأسواق الأخرى الموجودة في المدينة سابقاً [1].

أ. إنشاء السوق وتنظيم المعاملات:

كانت خبرة المهاجرين وبراعتهم في التجارة تفوق بلا شك خبرتهم في ميدان الزراعة، فقد كانوا قوماً تجاراً، وقد قامت في المدينة حركة تجارية نشطة، ليس بالشكل الذي كان لمكة، أو بالصيت الذائع نفسه الذي اشتهرت به قوافلها، إلا أن المدينة بحكم موقعها وقربها من الطريق التجاري، وكذلك من الشام ومن سوق دومة الجندل، بالإضافة إلى شهرتها بالنخيل، وببعض الزراعات والصناعات التي قامت فيها، فإنها كانت سوقاً للقبائل المجاورة. ووجد فيها عدة أسواق، تمت الإشارة إليها من قبل، كان أبرزها وأهمها سوق بني قينقاع، الذين كانت لهم السيطرة فيه، وكانوا على ما يبدو يضربون الخراج على التجار، ويبيعون فيها الأماكن أو يؤجرونها أو يحتكرونها. فبعدما دخل رسول الله ﷺ سوقهم وتجوّل فيه، أمر بعد ذلك بإنشاء سوق خاص بالمسلمين، لا سلطة وسيادة وسيطرة فيه إلا لكلمة الله تعالى، ولسلطان الإسلام. فلم يكن من الممكن فرض أو إلزام اليهود بما أراد رسول الله ﷺ من أمور وأحكام لا تتناسب ما اعتادوا عليه، وكذلك لا يمكن للمسلمين التعامل بنفس قواعدهم، فخرج إلى موضع قريب من سوق بني قينقاع، وضرب قبة قائلاً: " هذا سوقكم، فلا يضيّق ولا يؤخذ فيه خراج"[2]. الأمر الذي لم يرُق لليهود، فخرج كعب بن الأشرف وضرب أطناب القبة، فسقطت، الأمر الذي يشير بأن المكان أو جزء منه كان من أملاك كعب، لأن رسول الله ﷺ لم يقم بأية ردة فعل تجاه تصرفه، بل نقل الموضع إلى مكان آخر، وقال: لا جرم لأنقلنّها إلى موضعٍ هو أغيظ له من هذا. فنقلها إلى موضع سوق المدينة في بني ساعدة [3]، في الجهة الغربية من المدينة، في طريق القادم إلى المدينة، ثم قال: هذا سوقكم، لا تتحجروا، ولا يُضرب عليه الخراج [4].

---

[1]- تذكر المصادر واثلة بن الأسقع ومناداته في سوق بني قينقاع أثناء الإعداد لغزوة تبوك سنة ٩هـ: من يحملني وله سهمي، مع العلم أن بني قينقاع تم إجلاؤهم عن المدينة عقب غزوة بدر سنة ٢هـ. ابن الجوزي: المنتظم، ج٦، ص٢٦٥.

[2]- ابن شبة: تاريخ المدينة، ج١، ص ٣٠٤؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٢.

[3] – عن منازل بني ساعدة، العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص٨٤ وما بعد.

[4] – السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٢.

في الواقع إن اختيار رسول الله ﷺ لهذا المكان، خارج المدينة في غربها، حمل الكثير من الفائدة والنفع لكلٍّ من أهل المدينة والتجار القادمين من خارجها على حد سواء. حيث كان أول ما يطالع القادمين إليها سواء من الشام، أو من داخل الجزيرة العربية، ووفرت عليهم عناء الدخول بين أحياء المدينة للوصول إلى سوق بني قينقاع، كما وفرت مساحة كافية لحط رحالهم وتنزيل بضاعتهم بمجرد الوصول، كما أن العامل الأهم في جذب التجار إليها وجلب بضائعهم هو رفع الخراج عنهم[١]. وضَمِن حرية السوق فمنع استئثار أي فرد كان لأي مكان به، بضرب قبة أو دكان ثابت في موضع محدد، فالمكان لمن يسبق، وهذا يعزز الفرصة أمام من يتردد للبيع والتجارة، بتحسين دخله وأرباحه، من خلال عدم الثبات في مكان واحد، وإمكانية إحراز موقع أفضل وملائم أكثر مما سبق للبيع والتجارة، إذا ما كان قدومه للسوق في وقت مبكر، فكان هذا دافعاً ومحفزاً للتجار والتجارة. ولما رأى رسول الله خيمة قد ضُربت في السوق، أمر بحرقها، لأنه نهى أن يضرب فيها أي خباء أو خيمة، أو مكان يستأثر به فرد دون آخر، فكان الراكب ينزل بسوق المدينة يضع رحله ثم يطوف بالسوق ورحله بعينه يبصره، لا يغيبه عنه شيء[٢]. كما أن وجود السوق خارج المدينة بعيداً عن أحيائها قد جنّب السكان ضوضاء السوق، وأصوات الباعة، بالإضافة إلى الروائح المنبعثة من مخلفات البضاعة التي تُعرض.

كان رسول الله ﷺ مدركاً أن ما كان من نظم وأعراف اقتصادية موجودة في المدينة، مع تحكم الأفراد فيها، وما حمله التجار المهاجرون والأنصار من عادات في تجارتهم، هي غيرُ نافعةٍ، وجلّها فاسدةٌ يجب تغييرها، فرسالة الإسلام جاءت لتلغي كل ما فيها فساد وظلم، وتعمل على تخليص المجتمع من كل هذا، فتبدأ في مجتمع الأمة الناشئة تجربة نقية لا يشوبها شيء من الفساد والشرور، وكان لا بد لإرساء مثل هذه التجربة من الارتكاز على أسس ومنطلقات جديدة وفق منظور دعوة الإسلام تكون مستحدثة بعيدة عن رواسب الماضي. والبدء من جديد للنهوض بالمدينة اقتصادياً لتقوية الدولة، ومن هذا المنطلق قام رسول الله بإنشاء السوق، وجعله صدقةً للمسلمين، فلم يضرب عليهم خراجاً مقابل السماح لهم بالدخول والبيع فيه، لكنه بالمقابل كان حريصاً كل الحرص على عدم الغش وحذّر من عاقبته، فكان يتردد على السوق ويتفقد المنتجات المعروضة، ويعاينها، فقد مرّ على طعامٍ في السوق، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال: يا صاحب الطعام ما هذه؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال:أفلا

[١] - الوكيل، (محمد السيد):المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى، دار المجتمع، جدة، ط٢، ١٩٨٩م، ص٢٠٧، ٢٠٨.
[٢] - السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٤.

جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ ثم قال: من غشّ فليس منّا "[١]. وعندما رأى رجلاً يبيع بسعرٍ أرخَصُ من سعر السُّوق، فقال: "تبيعُ في سوقنا بسعرٍ هو أرخصُ من سعرنا؟ قال: نعم، قال: صبراً واحتساباً؟ قال: نعم. فقال عليه الصلاة والسلام: أَبْشِرْ، فإنّ الجالبَ إلى سُوقِنا، كالمجاهدِ في سبيلِ اللهِ، والمحتكِرْ في سُوقِنَا كالملحِدِ في كِتابِ اللهِ-[٢]. وكذلك نهى عن الاحتكار، ووصف المحتكر بالخاطئ[٣]، وبالملعون، وتوعده بعذابٍ من الله تعالى[٤].

لم تكن مهمة رسول الله ﷺ في ميدان تنظيم أمور اقتصاد المدينة عموماً والتجارة خصوصاً أمراً سهلاً ولا سيما في ظل الكثير من المعاملات والتعاملات الفاسدة التي كانت سائدة والناس يتعاملون بها، وقد ألفوها وعدّوها من المفاصل العادية في التجارة، وأهمها الرّبا، الذي كان يدخل في كل معاملاتهم، فيزيد الغني من غناه، والفقير من فقره.

وفي تنظيم معاملات البيع والشراء، وإصلاحها نزلت على رسول الله ﷺ الكثير من الآيات القرآنية التي فيها الأوامر والنواهي التي تنظم الحركة التجارية وتنقيها من الشوائب والمعاملات المشبوهة[٥]، كما نهى رسول الله عن كثير من البيوع، ولم يقر التجار على بعض معاملاتهم التي كانوا يديرون تجارتهم عليها ومنها تحريم التعامل بالربا، وبيع المحرمات كالخمر، وأمور كان الهدف من ورائها تهذيب أخلاق التجارة وجعلها ذات ربح مشروع، تضمن الحقوق، وتوازن الربح، وتمنع الظلم وتنفي الفساد.

أوردت كتب الحديث كثيراً من أوامر وتوجيهات رسول الله فيما يخص تنظيم أمور التجارة، يمكن الاستنتاج من خلالها مقدار استغلال التاجر لجهل أو سذاجة الآخرين، فبدأ بضبط المسألة من

١- الترمذي، (محمد بن عيسى، ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): سنن الترمذي، تح: أحمد شاكر ومحمد عبد الباقي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٧٥م، ج٢، ص٥٩٨، رقم ١٣١٥؛ الخزاعي: الدلالات السمعية، ص٣٠٤. ويذكر السمهودي حديثاً مشابهاً، وفاء الوفا، ج٣، ص٩٢.

٢- ابن البيع، (أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله، ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٥م): المستدرك على الصحيحين، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ج٢، ص١٥، رقم ٢١٦٧؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٣.

٣- أبو داود: سنن، ج٣، ص٢٧١، رقم ٣٤٤٧؛ الترمذي: سنن، ج٣، ص٥٥٩، رقم ١٢٦٧.

٤- ابن ماجة: سنن، ج٢، ص٧٢٨، ٧٢٩، رقم ٢١٥٣.

٥- ذكر بعض من الآيات. الروم ٣٩. البقرة ٢٧٨. النور ٣٣.

خارج السوق، حيث نهى رسول الله عن تلقي الركبان لبيع[١]، وعن تلقي السِّلَع حتى تبلغَ الأسواقَ، وأعطى للبائع المُتلقى الفرصة لاسترداد ما أُخذ منه قبل وصوله إلى السوق إن أراد ذلك بعد وصوله [٢]، حتى لا يتم استغلال جهل وعدم معرفة القادم بالسعر الحقيقي لسلعته لأنه خداع في البيع، والخداع لا يجوز [٣]، وضمن هذا المجال نهى عليه السلام عن السمسرة، أي أن يبيع حاضرٌ لبادٍ[٤].

ونهى عليه السلام عن أنواع من البيوع كانوا يتعاملون بها، منها بيع الملامسة، والمنابذة، المزابنة، بيع الحصاة وبيع الغرر، كذلك بيع الحَبِلة، أي بيع ما يوجد ببطن الناقة قبل الولادة. والمناجشة: لما فيها من الخداع، بأن يرفع سعر سلعة ما أكثر من قيمتها الحقيقة. والتصرية للإبل والغنم هي جمع اللبن في ضرعها عند الرغبة في بيعها، حتى يعظم ضرعها عند بيعها فيظن المشتري أن كثرة لبنها عادة لها مستمرة[٥]. وكله يندرج ضمن بيع الغرر، أي التي فيها غرر وخطر وخداع.

وكذلك نهى عن أنواع من البيوع تخص الحاصلات وترتبط بالزراعة، فعندما سئل عن شراء التمر بالرطب، سأل من حوله: أينقصُ الرّطَبُ إذا يَبِسَ، قالوا: نعم، فنَهى عنه[٦].ونهى عليه السلام عن بيع الصُّبْرة التّمر، وهي الكومة المجهولة القدر، التي لا يُعلَم مكيلتَها بالكيل المسمّى من التمر[٧]. ونهى عن بيع الثمار قبل ظهور صلاحها أي نضجها، فلا شيء يضمن الثمار من الآفات والأوبئة التي تذهب بالمحصول وتضر به. وإذا ما باع رجلٌ نخيله بعد أن أبّره، فله ثمارها، إلاّ أن يشترط المبتاع ذلك [٨]، أي يصح الشرط في البيع.

[١]-النسائي: سنن، ج٧، ص٢٥٧، رقم ٤٥٠٠.
[٢]- مسلم: صحيح، ج٣، ص١١٥٦، رقم ١٥١٧، ١٥١٨.
[٣] – البخاري: صحيح، باب النهي عن تلقي الركبان، ص٧٢.
[٤] – البخاري: صحيح، ج٣، ص٦٩، رقم ٢١٤٠. مسلم: صحيح، ج٣، ص١١٥٧، رقم ١٥٢٠.
[٥]- مسلم: صحيح، ج٣، ص١١٥٥، شرح الحديث رقم ١٥١٥
[٦] – النسائي: سنن، ج٧، ص٢٦٨، رقم ٤٥٤٥.
[٧]- مسلم، ج٣، ص١١٦٢، رقم ١٥٣٠.
[٨] – النسائي: سنن، ج٧، ص٢٦٢، ص٤٥١٩. وكذلك ص٢٩٦، رقم ٤٦٣٥.

وكذلك نهى رسول الله أن يَسِمَ المسلم على سَومِ أخيه، بأن يعرض الرجل على التاجر شراء البضاعة التي يكون قد اتفق هو ورجل آخر عليها على ثمنها ولم يعقدا بعد[١].

وكذلك نهى من البيع على البيع بقوله " لا يَبِعْ بعضُكُمْ على بَيعِ بعضٍ" [٢].كأن يقول تاجر لمن اشترى، في مدة الخيار، افسخ هذا البيع وأنا أبيعك بأرخص من ثمنه أو أجود منه بثمنه، ونحو ذلك، وهو حرام، أو كأن يقال للبائع افسخ هذا البيع وأنا أشتريه منك بأكثر من هذا الثمن[٣].

وكان رسول الله يتحرى الدقة في كل أصناف التجارات والبيوع، حيث ذكر ابن عمر أنهم كانوا يُضربون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتروا طعاماً جِزافاً، أن يبيعوه في مكانه حتى يحوّلوه، أي لم يكن مقداره معلوماً [٤]. وأنّ من ابتاع طعاماً فلا يبعه حتى يكتاله [٥].

ومن ضمن القواعد التي أراد رسول الله إرساءها في السوق خاصة، وفي التعامل عامة كان الصدق والأمانة، فحذّر عليه السلام من الأيمان الكاذبة، والخداع، وفي هذا يقول:" ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر، ليقتطع بها مال رجل مسلم، ورجل منع فضل ماء فيقول الله: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك [٦] ". وقد نزل في القرآن الكريم ما يفيد في هذا المعنى بقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾ ﴾[٧].

---

[١] - مسلم: صحيح، ج٣، ص١١٥٤، رقم ١٥١٥.

[٢] - ابن مالك، (مالك بن أنس، ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م): الموطأ، تح: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٤م،ج٤،ص٩٨٥، رقم ٢٥١٦؛ ابن حنبل: مسند، ج٨، ص١٢٦، رقم ٤٥٣١.

[٣] - مسلم: صحيح، ٣/ ١١٥٤، رقم ١٤١٢.

[٤] - مسلم: صحيح، ج٣، ص١١٦١، رقم ١٥٢٧.

[٥] – مسلم: صحيح، ج٣، ص١١٦٠، رقم ١٥٢٥؛ النسّائي: سنن، ج٧، ص٢٨٥، رقم ٤٥٩٧.

[٦] – البخاري: صحيح، ج٣، ص١١١، ١١٢، رقم ٢٣٦٩؛ النسائي: سنن، ج٧، ص٢٤٥، رقم ٤٤٥٨.

[٧] – سورة آل عمران، الآية ٧٧.

كذلك قوله: "يا معشرَ التّجَّارِ، إنَّ البَيْعَ يَحضُرُهُ اللّغو والحِلف، فَشُوبُوهُ بالصّدَقَةِ"[1].

وهكذا أنشأ رسول الله ﷺ السوق مستقلاً، بعيداً عن سيطرة أي طرف من سكان المدينة، وأقامه وفق قواعد سليمة تتناسب مع أخلاق الإسلام وأصوله، فضبط ضروب البيع وأشكال التعامل، ونهى عن كل أشكال الغش والخداع فعزز الثقة بين الناس، وأصبح التاجر المسلم يُعرف بأخلاقه وأمانته، وكان الربا وتحريمه ضمن هذه القواعد، التي عمل رسول الله ﷺ على إرسائها، وكذلك توحيد أصل المعاملات بالبيع والشراء.

ب. تحريم الربا:

كان الربا مظهراً من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية ونشاطاتها، وقد تعامل به العرب واليهود قديماً على حدٍّ سواء، وليس فقط داخل المدينة بل وخارجها تعاملت القبائل به، وأَلِفَهُ الناس وعدّوه نوع من أنواع التجارة وزاولوه، فكان تحريمه من المفاصل المهمة جداً في تنظيم الحياة الاقتصادية في المدينة. لقد كانت الزراعة هي العمل الرئيسي للأوس والخزرج في المدينة، والزراع يحتاجون دوماً إلى الاستلاف، وكانوا يلجؤون إلى الاستلاف من اليهود الذين يتعاطون بالرِّبا، فتزيد ديونهم وتكثر[2]، حتى تذهب بالأرض في بعض الأحيان[3]، وقد ندّد بهم الله تعالى في الآية الكريمة: " وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيماً " [4].

إنّ الربا هو الزيادة في رأس المال، ولكنها زيادة غير مشروعة حيث يستغل الدائن حاجة وإعسار المدين فيضاعف الدّين إن لم يقدر المدين على إرجاعه في موعده المحدد حتى كان يخسر كل ما يملك. جاء تحريم الربا بالقرآن الكريم متدرجاً مبتدأً بالنهي عن الربا الفاحش منتهياً بالنهي القاطع عن التعامل به، وفي هذا السياق قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ

[1] - الترمذي: سنن، ج٢، ص٥٠٦، رقم (١٢٠٨)؛ النسائي: سنن، ج٧، ص٢٤٧، رقم (٤٦٣)؛ ابن البيع: المستدرك، ج٢، ص٥، رقم ٢١٣٨، (صحيح)؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج٤، ص٤١٨؛ العسقلاني: الإصابة، ج٥، ص٣٧٤.

[2] - دروزة: سيرة، ج٢، ص٤٤٢، ٤٤٣.

[3] - ورد الخبر عن أحيحة بن الجلاح بأنه كاد يحيط بأموال قومه لكثرة غناه وتعامله بالربا. الأصفهاني: الأغاني، مج١٥، ص٣٤.

[4] – سورة النساء، الآية ١٦١.

ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ ﴾[1]. وفي الآية إشارة إلى تعاطي الناس بالرِّبا، ودلالة إلى أنّ بعض المسلمين قد تعاطوا فيه، فنهاهم القرآن عن الأضعاف المضاعفة.

ثم نزلت آيات تظهر سوء حال الذين يتعاطون بالرِّبا ويتعاملون به، وصرّحت بتحريمها، بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[2].

وفي ذلك قال رسول الله ﷺ: " لعن الله آكل الرِّبا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه إذا علموا به"[3].

وقد احتوت الآيات حلاً للتخلص من الرّبا، بإسقاط المرابين للرِّبا عن مدينيهم، واستيفاء رؤوس أموالهم فحسب، كما حثّت على إمهال المعسرين والتصدق عليهم بإسقاط ديونهم جملة. وهدد بحرب من لا يمتثل للأوامر، وقيل بأن هذه الآيات نزلت في ثقيف، وكان لها مالٌ كثير عند قوم من الربا، وقيل في مالٍ للعباس بن عبد المطلب وله أموال عظيمة في الربا، فنزل الأمر بتحريمها [4]، أي أن الأمر لم يقتصر على المدينة وتجارتها، بل شمل الدولة ككل، وهذا ينطبق على جميع الأحكام التي كان عليه السلام يأمر بها في المدينة، وفي أية مناسبة.

ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً في كل معاملات البيوع أن تكون خالية من أي نوع من أنواع الرّبا، وذلك من خلال النهي عن بيع صنف من المنتجات كالتمر مثلاً، بمثيله من الجنس ولكنه نوع أفضل، حيث جاء بلال بتمرٍ برني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله رسول الله عن مصدر

١ – سورة آل عمران، الآية ١٣٠.

٢- سورة البقرة، الآيات ٢٧٥_ ٢٧٨.

٣ – الطبري: جامع البيان، ج٦، ص١٢.

٤- الطبري: جامع البيان، ج٦، ص٢٢، ٢٣؛حميد الله، (محمد): مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، دار النفائس، بيروت، ط٦، ١٩٨٦م، ص ٢٨٦.

التمر، فأخبره بلال بأنه قد باع صاعين من تمرٍ رديء بصاعٍ من هذا التمر، ليطعم رسول الله، فنهاه رسول الله عند ذلك عن مثل هذا النوع من البيوع وأخبره بأنه رِباً، بل إنه عين الرِّبا. وأوصى في حادثة أخرى ببيع السلعة بالدراهم، ثم شراء السلعة الجيدة بالدراهم[1]. وقد كان الناس يبيعون تمر الجمع، وهو الخلط منه، صاعين بصاع، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا صاعين بصاع، ولا درهمين بدرهم"[2].

وشجع رسول الله ﷺ على إنظار المعسر ووضع الدين عنه، ووردت أحاديث تشجع الناس على ذلك وتبين ثواب ذلك، ومنها: "من سَرّه أنْ يُنْجِيهِ اللهُ من كُرَبِ يومِ القيامةِ، فليُنفّس عنْ مُعْسِرٍ أو يضَعْ عنهُ"[3]. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على مُعْسرٍ، يسّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرة... " [4]، كما ساعد من أصابه دين وعجز عن أدائه، فعن أبي سعيد الخدري قال: أُصيبَ رجلٌ في عهدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمارٍ ابتاعها، فَكَثُرَ دَيْنُهُ، فقال رسول اللهﷺ: " تَصَدّقُوا عَلَيهِ"، فتصدّق الناسُ عليه، فلم يبلغ ذلك وفاء دَينه، فقال رسول الله ﷺلغرمائه: "خُذوا ما وجدتُمْ، وليسَ لكمْ إلاّ ذلكَ"[5].

جـ- الأوزان والمكاييل:

لابد عند الحديث عن التجارة من التطرق إلى النقود التي كانت مستعملة ويتم تبادل البضائع بواسطتها بين الناس، وكانت النقود آنذاك تدور بين الذهب والفضة لا غير، وكان الناس يتبايعون بأوزان اصطلحوا عليها فيما بينهم، فكان المثقال من الفضة درهماً، ومن الذهب ديناراً [6]. وورد ذكر إشارة لذلك عند خبر عتق سلمان الفارسي، كان قد كوتب على غرس ثلاثمائة نخلة، وإيفاء أربعين أوقية

[1]- مسلم: صحيح، ج٣، ص١٢١٥، رقم ١٥٩٣؛ النسائي: سنن، ج٧، ص٢٧١، رقم ٤٥٥٣؛ الخزاعي: الدلالات، ص٦٤٩.

[2] – البخاري: صحيح، ج٣، ص٥٨، رقم ٢٠٨٠.

[3] – مسلم: صحيح، ج٣، ص١١٩٤، رقم ١٥٦٣.

[4] – أبو داود: سنن، ج٤، ص٢٨٧، رقم ٤٩٤٦.

[5] – مسلم: صحيح، ج٣، ص١١٩١، رقم ١٥٥٦؛ النسائي: سنن، ج٧، ص٢٦٥، رقم ٤٥٣٠.

[6] – المقريزي: رسائل، ج١، ص١٥٧.

لعتقه، فغرس النخل وبقي المال، فأعانه رسول الله على ذلك عندما أُتي بمثل بيضة الدجاجة من الذهب، فأخذها سلمان ووزنها، فكانت أربعين أوقية، فأوفى ما عليه وأعتق[١].

لما قدم رسول الله المدينة كان أهلها من أخبث الناس كيلاً، فليس منهم أحد يزن كما يتزن، ولا يكيل كما يكتال، وكانوا إذا اشتروا استوفوا بكيلٍ راجح، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان [٢]، فأنزل الله تعالى :﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٣]. فأصبح عندها أهل المدينة أوفى الناس كيلاً، وأرشدهم رسول الله ﷺ إلى التعامل بوزن مكة إذا وزنوا.

ولعل الحديث الأبرز في هذا المجال قول رسول الله ﷺ" المكيال مكيال أهل المدينة والميزان ميزان أهل مكة "[٤]. فقد وحّد به رسول الله ما كان يوزن به ويكيل الناس به بضائعهم، وأصبح أصلاً لكل شيء من الكيل والوزن. لأن مكة لما كانت أرض متجر تباع فيها الأمتعة بالأثمان، ولم يكن بها حينئذ ثمرة ولا زرع. وكانت المدينة بخلاف ذلك، لأنها دار النخيل وفيها الزرع، فكان جلّ تجارتهم في المكيل دون الموزون، جعل النبي صلّى الله عليه وسلم المناطق والبلدان كلها تتبع مكة والمدينة فيما يحتاجون إليه من الكيل والوزن[٥]. كان أهل المدينة يتعاملون بالدراهم عند مقدم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالعدد فأمرهم بالتعامل بالقطع حسب الوزن وذلك لاختلاف الجودة بين درهم وآخر، وجعل المعيار **وزن** أهل **مكة**، وأما **الدنانير** فلا خلاف فيها، كانت تحمل إلى العرب من الروم[٦].

١- ابن هشام: السيرة، مج١، ص١٤٩.

٢ – القرطبي، (محمد بن أحمد الأنصاري، ت ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م): الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهين أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م، ج١٩، ص٢٥٠.

٣ – سورة المطففين، الآيات ١ـــ ٦.

٤ – النسائي: سنن، ج٥، ص٥٤، رقم ٢٥٢٠. ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٦٠٥، مادة (كيل).

٥- الخزاعي: الدلالات السمعية، ص٥٩٧.

٦ – النووي، (أبو زكريا، يحيى بن شرف، ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م): المجموع شرح المهذب، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج٦، ص١٤. ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٦٠٥، مادة (كيل).

فأما الأوزان التي أقر وأرشد إليها رسول الله ﷺ الدرهم هو ستة دوانق أي أن الدانق هو سدس الدرهم[١]، والأوقية أربعون درهماً، والنش نصف أوقية أي عشرين درهماً. وأما الدينار فهو والمثقال واحد، وتتوجب الزكاة في عشرين ديناراً وما فوق، ولا تتوجب في أقل. والدينار هو أربعة وعشرون قيراط، والقيراط هو وزن ثلاث حبات شعير، الدينار اثنتان وسبعون حبة شعير. أما النواة فهي وزن خمسة دراهم، ولكن ذهباً. وكما ذكر كل عشرة دراهم سبعة دنانير[٢]. فكانت الصدقة تتوجب في خمسة أواقٍ أي مائتي درهم يُخرج منها خمسة دراهم. وأما في الذهب فتتوجب الزكاة في إخراج نصف دينار لكل عشرين ديناراً[٣]. وفيما يتعلق بالمكاييل فكان الصاع هو أربعة أمداد[٤]، والمد هو ما يعادل رطلاً وثلثاً أو ملئ كفي رجل متوسط، والوسق هو ستين صاعاً وهو حمل بعير[٥].

وأهمية ذلك ترجع إلى ناحيتين دينية واقتصادية، لما يتعلق به حق الزكاة، ويمتنع معه الغش والخلط. فأما المكيال فهو *الصاع* الذي يتعلق به وجوب الزكاة، وصدقة الفطر، والكفارات، والنفقات، وغير ذلك، وهو مقدر بكيل أهل المدينة دون غيرها من البلدان وفقاً للحديث المذكور، وأما الوزن فيريد به وزن *الذهب والفضة* خصوصاً دون سائر الأوزان ومعناه أن الوزن الذي يتعلق به حق الزكاة في النقد هو وزن أهل مكة، أي وزن الدرهم فيها وهو ستة دوانيق[٦]، وكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل أي دنانير[٧]. ولما تم ضبط هذه الأوزان لناحية دينية، فقد أدت بالضرورة إلى فائدة اقتصادية حيث مُنع وحُرّم التلاعب بأوزانها، أو استبدال الجيد بالرديء منها، كما كان موجوداً.

وقد وجد في السوق من كان يعمل كوزّان فيزن للناس، وكان بلال الحبشي يزن الأواقي لمن ينفله رسول الله ﷺ من غنائم خيبر[٨].

١- الدانق يعادل نصف غرام وعلى هذا يكون وزن الدرهم ٣ غرام. محمد: المكاييل، ص٢٤.
٢- الخزاعي: الدلالات السمعية، ص٦٠٧ ــ ٦١٣.
٣- النووي: المجموع، ج٦، ص١٤.
٤- أي ما يعادل ٢ كغ. محمد: المكاييل والموازين، ص٣٧.
٥- الخزاعي: الدلالات السمعية، ص٦٠٧ ــ ٦٢٥.
٦ – الخزاعي: الدلالات السمعية، ص٥٩٧.
٧– ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٦٠٥، مادة (كيل).
٨- الخزاعي: الدلالات السمعية، ص٥٨٦.

وكان اليهود على معرفة ودراية بأمور النقد والصرف أكثر من العرب سواء أوس أم خزرج، ولاسيما بنو قينقاع، الذين عملوا بالتجارة، واشتهروا بالصياغة وصناعة الحلي، والعمل بالصرف وهو بيع الذهب بالفضة، وشرط رسول الله ﷺ أن يتم هذا البيع يداً بيد أي مباشرةً، أما النسيء فيه أي تأجيله لموعد لاحق فلا يصلح[1]، ولقد حلّ المهاجرون محلهم في النهوض بأمور هذه التجارة، وضربوا سهماً وافراً فيه، فقد قدموا من مكة المعروفة بتجارتها، الأمر الذي جلب للمدينة ازدهاراً وتقدماً في هذا الميدان.

د. التجارة الخارجية:

واجهت المدينة زيادة سكانية، وضغطاً اقتصادياً، فكانت بحاجة إلى التموين لمواجهة الزيادة المستمرة، لأن الزراعة والمنتجات المحلية لم تكن كافية، فكانت بحاجة إلى سد النقص من خلال الاتجار مع بلاد الشام، وكانت المدينة من قبل الإسلام تجلب القمح من الشام، يجلبه لها الأنباط. فكان أمر حماية وتأمين طريق التجارة أمراً ضرورياً، ومن المحتمل أن معاهدات الصلح التي عقدها رسول الله ﷺ في الغزوات الأولى كانت ضمن هذه الرؤية، كقبيلة جهينة، وبني ضمرة، ومدلج، فقد تعرض تجار المدينة إلى مضايقات من أهالي دومة الجندل، شمال المدينة، مما حدا برسول الله إلى الخروج في غزوة لتأديبهم. وكان هذا بدء توجه الغزوات والأعمال القتالية شمالاً، فكان لا بد من فرض هيبة الدولة، وإقناع القبائل بقوة دولة المدينة.

كان لليهود نشاط تجاري خارجي، فقد ورد ذكر مجيء سبع قوافل من بصرى وأذرعات ليهود بني قريظة والنضير في يوم واحد، قبل إجلائهم، وفيها أنواع من البز، والطيب، والجواهر، وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى هذه السورة وقال:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[2]، فقد خاطب الله عز وجل المسلمين الذين تمنوا أن تكون القوافل لهم، بأن أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل[3].

[1] - الكتاني: التراتيب الإدارية، ج٢، ص٢٨.
[2] - سورة الحجر، الآية ٨٧.
[3] - الثعلبي: الكشف والبيان، ج٥، ص٣٥٠.

أخذ المهاجرون يتولون قيادة العمليات التجارية، وبدأت فعالياتهم تزداد يوماً بعد يوم أمام تراجع تجارة مكة، ولا سيما بعد أن ضرب المسلمون طرقها التجارية، إلا أن البدايات لم تخلُ من تعديات، حيث يرد ذكر تعرض قافلة خرج بها زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب رسول الله ﷺ، من قبل ناس من بني فزارة عند وادي القرى، فضربوه، وضربوا أصحابه، حتى ظنوا أنه قد قتل، أخذوا ما معهم، ثم قام زيد فقدم المدينة على النبي ﷺ وأخبره بما حدث، فبعثه في سرية إليهم فأسروا وغنموا ما غنموا[1].

وكذلك خبر ورود قافلة دحية الكلبي، عندما جاء من عند قيصر بعد أن أجازه بمالٍ وكساه، فأقبل حتى إذا كان بحسمى، شمال الحجاز، لقيه ناس من جذام، قطعوا عليه الطريق وأصابوا كل شيء معه، فجاء إلى رسول الله فأخبره بذلك، فأرسل الرسول زيد بن حارثة في سرية إليهم وكان ذلك سنة ست للهجرة[2]. وفي هذا دلالة ومؤشر على الفعاليات التجارية، لكنها كانت مستهدفة، من قبل هذه القبائل التي لابد وأنها تضررت مصالحها من توقف تجارة قريش، لارتباطها بالإيلاف معها. فكان لا بد من تأديبها واستعمال الشدة والقوة لفرض هيبة وسلطة المدينة، ومنعها من الاعتداء مجدداً.

كما نزل في سورة الجمعة قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾[3]. نزلت معاتبة مؤنبة المسلمين على تركهم لرسول الله ﷺ وهو قائمٌ يخطب يوم الجمعة، لسماعهم صوت قدوم بعير لدحية الكلبي في تجارة من الشام، ولم يبق في المسجد سوى اثني عشر من المسلمين وامرأة، وقيل بأن المسلمين فعلوا ذلك ثلاث مرات، وكل مرة كانت عيرٌ تقدم من الشام وتوافق يوم الجمعة[4].

وما لبث أن أصبحت المدينة مركزاً مهماً بعد أن كانت نقطة على طريق القوافل التجارية، حيث أن أخبار الشام كانت تأتيها كل يوم، في السنة التاسعة للهجرة، لكثرة قدوم الأنباط إليها، وهم

[1]- المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٢٧١.

[2]- الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٥٥. السهيلي: الروض الأنف، ج٧، ص٤٧١. الدياربكري: تاريخ الخميس، ج٢، ص١٠.

[3]- الآيات ١٠، ١١.

[4]- الثعلبي: الكشف والبيان، ج٩، ص٣١٧.

من أخبر المسلمين عن تجهيزات الروم لغزو المدينة، فخرجوا في غزوة تبوك [١]. وقد شغل هؤلاء دوراً في نقل الأخبار بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي في هذه المرحلة من التاريخ.

فأخذ كبار التجار المسلمين يخرجون في قوافل تجارية لبلاد الشام كطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد، والزبير بن العوام، وقد حققوا أرباحاً كبيرة من عملهم بالتجارة ظهرت في مرحلة لاحقة، ومنهم عبد الرحمن بن عوف الذي بدأ تجارته برأس مال بسيط، انتهى إلى امتلاكه قوافل تذهب إلى الشام ومصر [٢].

لابد من الإشارة إلى الدور والخدمات التي قدمها التجار للدولة في هذه المرحلة، فقد أسهموا إسهاماً بارزاً في حل الأزمات، وفك الضيق الاقتصادي الذي عانت منه، وكان أولهم من المهاجرين أبو بكر الصديق، الذي وضع كل ماله تحت تصرف رسول الله ﷺ، وأسهم منذ بدء الدعوة بتحرير من عذبتهم قريش، ثم بشراء أرض المسجد النبوي في المدينة، انتهاءاً بإنفاقه كله في التجهيز لغزوة تبوك، ولم يكن عثمان بن عفان بأقل نفعاً، فخدماته الجلى قد أوردتها المصادر بدءاً من شراء بئر رومة، وجعلها للمسلمين صدقة، وانتهاءاً بتجهيز ثلث جيش تبوك، وتحمل مؤونته، وأيضاً الزبير بن العوام. كما كان للأنصار مساهماتهم ومشاركتهم في التخفيف من الشدة والضيق، وكذلك في الأعمال القتالية، ولعل الأبرز سعد بن عبادة الذي كفى قوات المسلمين مؤونتها في أكثر من غزوة، وساهم هو ومحمد بن مسلمة وغيرهما في التجهيز لغزوة تبوك. بالمقابل فإن هذا التاجر في ظل الإسلام حمل نمطاً جديداً، أصبح داعيةً يحمل معه رسالة الإسلام، مجسداً أخلاقه وتعاليمه، مطلعاً بنفس الوقت على أحوال المناطق التي وصلت إليها قوافل المدينة، في الشام وغيرها من البلدان، مما أفاد فيما بعد في نجاح الفتوحات، فلم تكن المناطق غريبة عنهم.

وهكذا كانت لتوجيهات رسول الله وإرشاداته الدور الأهم والأبرز في الارتقاء بالنظام الاقتصادي ومكوناته، وساعدته خبرة المهاجرين التجارية، ونشاطهم، وامتثال المسلمين عموماً مهاجرين وأنصار لإرشاداتهم في إنجاح خطته الاقتصادية. وكان لكل منهم تميزه بمجال، فالمهاجرون في ميدان

[١] - الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩٩٠.

[٢] - يُذكر بأنه تصدق في عهد الرسول بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدّق بأربعين ألفاً، ثم بأربعين ألف دينار، وحمل على خمسمائة فرس في سبيل الله ثم على خمسمائة راحلة في سبيل الله، وعامة ماله من التجارة. ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص٤٧٥.

التجارة، والأنصار في ميدان الزراعة[1]، مع مشاركة الطرفين لنشاط الآخر ولكن دون تنافس على السيطرة ورغبة في السيادة كما كان اليهود.

وهكذا استطاع المهاجرون القرشيون استغلال المقومات الموجودة في المدينة المساعدة على التجارة، فتمكنوا من النهوض بها والارتقاء إلى درجة أفضل مما كانت عليه ووازت مكة، التي تناقصت مكانتها التجارية بعد التحول السياسي الذي حصل، وتأثرت بشكل سلبي.

- *وفي مجال الصناعة*

يمكن القول أنها تأثرت بإجلاء يهود بني قينقاع ولا سيما صناعة الحلي، وخاصة مع نظرة العرب المتدنية لمختلف الصناعات، وعزوفهم عن امتهان أية حرفة وممارستها، على الرغم من أهمية الصناعة عموماً، فكانوا يسمون الحدّاد " قيناً" وفي هذا دلالة على تدني المنزلة، وكانوا يأنفون من الجلوس إلى أصحاب المهن ولا يستجيبون لصانع إذا دعاهم إلى طعام، وقد عمل رسول الله ﷺ على تغيير هذه النظرة، من خلال توجيه المسلمين وحثهم على الكسب الحلال بغض النظر إلى المهنة حتى لو كان حطاباً، وعدم طلب المساعدة خاصة للمسلم القوي القادر على العمل، فلما سُئل عليه الصلاة والسلام: أيُّ الكسب أفضل؟ قال: عمل الرجل بيده[2]، وحذّر الفرد الذي يقدر على العمل من المسألة وطلب العون من الناس[3]. وكذلك أشار إلى ضرورة احترام هذه المهن من خلال ضرب الأنبياء مثلاً في امتهانهم للصناعات، فقد كان النبي زكريا نجاراً [4]، وقد أكل النبي داود من كسب يده [5]. كما أكل رسول الله ﷺ من خياط في المدينة، أتاه بقصعة فيها طعام، عندما دخل إليه، وكان بصحبته أنس بن مالك[6]، وضمن هذا المقصد وضع ابنه إبراهيم مسترضعاً عند زوجة حداد يدعى أبا سيف، أراد عليه السلام من هذا إلغاء النظرة المتدنية عن هذه الصناعات لأنها ضرورية في المدينة وفي كل مدينة. وذكرت المصادر أن رسول الله استبقى حوالي ثلاثين قيناً من خيبر، استبقاهم ليكونوا بين المسلمين ويستفيدوا من

[1]- ابن حنبل: مسند، ج١٢، ص٢١٩، رقم ٧٢٧٥.
[2]- الطبراني: المعجم الكبير، ج٤، ص٢٧٦، رقم ٤٤١١. (صحيح).
[3] - أبو داود: سنن، ج٢، ص١٢٠، رقم ١٦٤١.
[4]- ابن ماجة: سنن، ج٢، ص٢٢٧، رقم ٢١٥٠.
[5] - الشيباني: الكسب، ج١، ص٣٦. البخاري: صحيح، ج٣، ص٥٧، رقم ٢٠٧٢.
[6]- البخاري: صحيح، ج٧، ص٧٥، رقم ٥٤٢٠. وكذلك ص٧٨، رقم ٥٤٣٥.

عملهم ويتقوون بها على جهاد عدوهم، ومن تعلم على أيديهم أصبح لقبه صانعاً أو معلماً بعد أن كان قيناً [١]. وعلى العموم كانت المدينة تضم مختلف الصناعات، والمهن، من قبل الإسلام، ومع دخول الإسلام أخذت هذه الصناعات تشغل مكانة أفضل مما سبق.

ثالثاً: واردات جديدة إلى المدينة نتيجة التحول السياسي فيها:

إن صراع المسلمين ضد من وقف في وجه نشر الإسلام ومن اعتدى على حرمة المدينة، بدءاً من قريش ومروراً بالقبائل العربية القريبة من المدينة والبعيدة عنها انتهاءاً بالروم البيزنطيين، شكّل عبئاً، ولكنه عاد أيضاً بالنفع الاقتصادي من خلال ما كان يحصل عليه المقاتلون بعد انتصارهم، وهذا النفع الاقتصادي جاء بعدة مسميات، حسب طريقة الحصول عليه، فمكاسب الحرب نوعان: نوع يشترك في اغتنامه المسلمون في حرب فعلية يسمى غنيمةً، وآخر لا تقع في سبيله حرب فعلية ويسمى فيئاً، إذ تتضمن الكلمة معنى الهبة [٢].

١- الغنائم:

الغنيمة هي ما أوجف عليه المسلمون بخيلهم وركابهم من أموال المشركين [٣]، والمتاع والسلاح والكراع وغير ذلك، وكذلك كل ما أُصيب في المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص، ويجب الخمس لمن قسمه الله له، ويُقسم كما هو مذكور في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [٤]. فالغنيمة هي جميع ما أصاب المسلمون من شيء قلّ أو كثر، حتى الإبر، ما عدا الأراضي [٥].

[١] - الكتاني: التراتيب الإدارية، ج٢، ص٥٢.
[٢] - دروزة: سيرة الرسول، ج٢، ص٤١١.
[٣] - ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ٤٤٦. مادة (غنم).
[٤] - سورة الأنفال، الآية ٤١.
[٥] - ابن آدم: الخراج، ص١٨.

إنّ الغنائم أمرٌ استجد في حياة المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة، وتأسيس دولتهم، فهم لم يخرجوا لأنهم معتادين على الغزو والسلب، كما يحاول البعض قول ذلك[1]، فالمغازي والسرايا امتلكت شرعية الجهاد الذي كانت الدولة مسؤولة عنه، ففي المرحلة الأولى لم يكن الأمر الإلهي قد نزل وسمح للمسلمين برد الاعتداء ضد من اعتدى عليهم وعلى أرضهم، وعندما نزل الأمر بذلك كان الشرط عدم الاعتداء والإسراف في الأذى، واقتضت مهمة نشر الدعوة وطبيعة العلاقة العدائية بين المسلمين وقريش آنذاك أن يقوم المسلمون بالتعرض لقافلات مكة التجارية، ومحاولة الاستيلاء عليها إضعافاً لجبهة قريش من جهة وتعويض المهاجرين عما تركوه في مكة من جهة أخرى.

فبدأت الغزوات والسرايا، وحصلت المواجهات، وكانت سرية عبد الله بن جحش قبيل غزوة بدر هي أولى الأعمال القتالية التي أحرزت غنيمة، وهي بعض العير التي كانت تحمل أدماً وزبيباً خرجت للتجارة، ولكنها كانت في شهر رجب وكان محرماً كما سبق وتم الحديث عنه، فحصل لغطٌ واختلافٌ في شرعية هذا العمل وعن اقتسام ما تحصّل منها، لكن نزول ما يؤيد فعله بالقرآن الكريم قد أبطل كل شك وريبة، وأكد حسن صنيعه[2]، وما لبث أن حصلت غزوة بدر بعدها، التي انتصر فيها المسلمون وغنموا من المشركين غنائم كثيرة، جعلتهم يختلفون في قسمتها[3]، فنزل قوله تعالى:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾[4]. فردّوا ما بأيديهم من الغنائم لرسول الله ﷺ، فقسّمه ثم ارتحل[5]، ووضحت سورة الأنفال بعد ذلك وبينت كيفية قسمة الغنائم وفق الآية التي وردت في البداية، حيث جعلت خمس الغنيمة على خمسة

---

[1] – واط: الفكر السياسي الإسلامي،تر: صبحي حديثي، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ص٢٧.

[2] – ذكرت بعض المصادر أن عبد الله بن جحش قد أخرج الخمس من الغنيمة ثم وزّع الباقي بين أفراد السرية، قبل الرجوع إلى المدينة. ابن هشام: السيرة، مج١، ص٤٣٩؛ الواقدي: المغازي، ج١، ص١٧، ١٨. ومصادر أخرى تقول بأن غنائم السرية أوقفها رسول الله ﷺ ومضى إلى بدر، وبعد الرجوع من بدر قسمها مع غنائم بدر؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، مج١، ص٧٧. وهو المرجح، لا سيما وأن رسول الله قد أخذ الخمس منها، ولم ينزل الحكم بالخمس إلى ما بعد غزوة بدر.

[3] - الشيباني: شرح السير الكبير، ج٢، ص١٢١.

[4] - سورة الأنفال، الآية ١.

[5] – ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص٤٧٢. ابن سلام: الأموال، ص٣٨٣؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج١، ص٣٤٤.

أسهم لله ورسوله سهمٌ، ولذي القربى سهمٌ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم[١]. والأربعة أسهم الباقية فتوزع على الأفراد المقاتلين، وأورد بعض المؤرخين بأن غنائم بدر قُسمت بعد نزول كيفية التوزيع ووزعت وفقها[٢]. فكان نزول هذا الأمر هو خطوة أولى في مجال التربية الربانية قولاً وعملاً، فأمره تعالى المسلمين بردّ ما بأيديهم كله إلى رسول الله ﷺ، إنزال حكمه في قسمة الغنائم بجملتها، ليوضح لهم أن الأمر لم يعد حقاً لهم يتنازعون عليه، إنما أصبح فضلاً من الله عليهم يقسّمه رسوله بينهم كما علّمه، وحتى يتجرّد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض، وليسلموا أمرهم كله لله ربهم وللرسول القائد، ويخوضوا المعركة لله وفي سبيل الله[٣].

وقد ذكر الواقدي أن المسلمين في بدر ما رجع أحدهم يريد أن يركب إلا وجد ظهراً، حتى حصل بعضهم على البعير والبعيرين، وألبس من كان عارياً وأصابوا طعاماً من أزوادهم، وأصابوا فداء الأسرى الذي أغنى كل عائل[٤]. وكان الكفار قد جاؤوا بمائة فرس، فنجوا منها بسبعين وحصل المسلمون على ثلاثين، وسبعمائة بعير وأسلحة وسيوف كثيرة، فأصابوا سعةً وبحبوحةً [٥]. وتجدر الإشارة بأنه لا يجوز لأحد من الجند الذين شهدوا الغنيمة أن يبيع سهمه من المغنم، ولا يعتقه حتى تقسم الغنيمة[٦].

أما الأسرى قيل أنهم كانوا تسعة وأربعين[٧]، وقيل وهو الشائع سبعين رجلاً [٨]. وقد استشار رسول الله أصحابه في مصير هؤلاء، فأشار أبو بكر بالفداء فتكون للمسلمين قوة، بينما أشار عمر بن الخطاب بالقتل "حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا للمشركين هوادة، هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم"[٩]. وأخذ رسول الله ﷺ برأي أبي بكر وجعل الفداء ما بين أربعة آلاف درهم للمقتدر وألف،

---

[١] – أبو يوسف، (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب، ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م): الخراج، تح: طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د.ت، ص٢٩.

[٢] –ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص١٨١.

[٣] - الندوي، محمد لقمان الأعظمي: مجتمع المدينة في عهد الرسول، دار الاعتصام، د.ت، ص٢٠٠.

[٤] – الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٦. إمتاع الأسماع، ج١، ص٢٤.

[٥] – سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٣، ص٢٢٤.

[٦] – ابن آدم: الخراج، ص١٨..

[٧] – الواقدي: المغازي، ج١، ص١١٥.

[٨] – مسلم: صحيح، ج٣، ص١٣٨٣، رقم ١٧٦٣.

[٩] – الطبري: تاريخ، ج٢، ص٤٧٥؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٣، ص٢٢٩.

وصفح عمن لا يملك، كما سمح رسول الله ﷺ للمشركين بفداء أنفسهم بالسلاح، وهذا ما حصل لنوفل بن الحارث الذي أُسر في بدر، الذي قال له رسول الله عند فداء الأسرى، افدِ نفسك برماحك التي بجدة، ففدى نفسه وكانت ألف رمح[١]. وفي الأسرى نزل القرآن معاتباً رسول الله لأنه أبقاهم، كما أن الغنائم أُحلت لرسول الله ولم تحلل لنبي قبله[٢]، وفي ذلك يقول الله عز وجل:﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[٣].

كانت الغنائم تُجمع، فإذا جُمعتْ كان للدولة ممثلةً برأسها، النبي ﷺ، سهم يسمى الصّفي، جعله الله عزّ وجل له[٤]، فكان يجعله النبي لليتامى والمساكين والفقراء وذوي الحاجة، لم يرزأ منه شيئاً فيما يعلمون إلا أنّ الله عز وجل أراد أن يصفيه بأجره، ثم تقسم السهام بعد ذلك على خمسة أسهم، سهم منها لله ورسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين، يقسمها رسول الله على ما يرى، ثم يتولى توزيع الأسهم الباقية على المسلمين[٥]. فكان لرسول الله ﷺ صفي من كل غنيمة يصطفيه إما فرس وإما سيف وإما جارية، فإن الصّفي يوم بدر جمل لأبي جهل، ويوم خيبر كانت صفية، وكان له نصيب في الخمس ما قسم في أزواجه من ذلك الخمس، وكان له سهمه مع المسلمين، مثله مثل من اشترك في القتال[٦].

بعد بدر غنم المسلمون أموالاً وسلاحاً وآلات صياغة بعد غزوة بني قينقاع، الذين لم يكونوا أصحاب أرض، فقسّم رسول الله الغنيمة بعد أخذ خمسها على المجاهدين الذين اشتركوا في الغزوة[٧].كما

---

[١] – ابن سعد: الطبقات؛ الكتاني: التراتيب الإدارية، ج٢، ص٣٨.

[٢] – الطبري: جامع البيان، ج١٤، ص٦٤؛ السهيلي: الروض الأنف، ج٥، ص٢٢١.

[٣] – سورة الأنفال، الآية ٦٨.

[٤]- حاول بعض الباحثين ردّ سهم الصفي إلى ما كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام بالمرباع، وذلك أنهم إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه، ثم يصطفي منها أيضاً عدا المرباع ما شاء. إن في هذا الكلام مقارنة استشراقية في غير محلها، فرسول الله ﷺ لم يكن شيخ عشيرة ولا متزعم مجموعة من المغيرين، بل كان رئيس الدولة وزعيم الأمة التي أراد الله تعالى أن يكون رسولها وهاديها ومنذرها، فقد مثّل هذا السهم جزءاً من نفقات الدولة ورئيسها وعاد إلى الصالح العام. الشيباني: السير الكبير، ج٢، ص١٣٤؛ الواقدي: المغازي، ج١، ص١٧، الحاشية رقم ٣؛ الثعلبي: الكشف والبيان، ج٩، ص٢٧٧. بطاينة: الحياة الاقتصادية، ص١١، ١٢.

[٥] – ابن زنجويه: الأموال، ج١، ص٩٨، ٩٩.

[٦] – أبو يوسف: الخراج، ص٣٣.

[٧] – الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ٢٢٠_ ٢٢٣.

أحرز المسلمون، وكانوا مائتين، في غزوة قرقرة الكدر وهو ماء لبني سليم، خمسمائة بعير[١].كما حصل المسلمون الذين خرجوا مع زيد بن حارثة إلى نجد في سرية ذي القرَدَة على فضةٍ كثيرة، بلغت قيمتها مئة ألف درهم، إثر هجومهم على سرية لقريش التي حاولت أن تتخذ طريق نجد العراق طريقاً لقوافلها كبديل عن الطريق المعتاد إلى الشام، وكان سهم رسول الله أي الخمس ما قُدّر بعشرين ألف درهم وقسم أربعة الأخماس بين أفراد السرية الذين ذكرت المصادر أنهم كانوا مائة راكبٍ[٢].

وأحرز المسلمون في سرية أبي سلمة بن عبد الأسد إلى طلحة وخالد ابني خويلد، نعماً وشاءً، فأصاب كل فرد منهم سبعة أبعرة، وأخرج الخمس والصفي لرسول الله ﷺ[٣].

وبعد غزوة الخندق وقعت غزوة بني قريظة، ونزلوا على حكم سعد بن معاذ الذي استشهد بعدها، فحكم أن تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتسبى النساء والذرية، وتولى رسول الله بنفسه إنجاز الأمر فأمر بجمع ما وجد في حصونهم من الحلقة والسلاح وغير ذلك، فجمع، فوجد فيها ألفاً وخمسمائة سيفاً، وثلاثمئة درع، وألفي رمح، وخمسمائة ترس وجحفة. ووجد فيها أثاثاً كثيراً، وآنيةً كثيرةً، وجمالاً نواضح – أي التي يسقى الماء عليها – وشياهاً كثيرة، خمّس رسول الله ﷺ ذلك مع النخل والسبي وحتى الرثة من أمتعة البيت، جعل عليه السلام للفارس ثلاثة أسهم، سهماً للفارس وسهمين للفرس، وللراجل سهم، وأعطى للنساء اللاتي حضرن القتال ولم يُسهم لهنّ[٤]. وأرسل السبايا قسم إلى نجد لشراء الخيول بمقابل الثمن، وقسم إلى الشام ليباع هناك، وقسم اشتراه عثمان بن عفّان وعبد الرحمن بن عوف. فحصلت بذلك المنفعة المادية والعسكرية من جراء هذه الغزوة بالإضافة إلى المكسب الذي أحرزه المسلمون بإخراج اليهود من المدينة، أولئك الذين كانت لهم سيطرة وتأثير على اقتصادياتها، فأصبحوا في سعة من أمرهم وفي معيشتهم، أي أصبح الضغط الاقتصادي أخف وطأة.

---

[١] – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٣١؛ ضياء العمري: السيرة، ص٣٧٤.

[٢] – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٣٦؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص١٨٦؛ سبط: المرآة، ج٣، ص٢٤٤.

[٣] – الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ص١٨٦.

[٤]- ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٧٢٢؛ الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٢٢؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٣، ٣٦٢.

وفي غزوة بني المصطلق غنم المسلمون ألفي بعير وخمسة آلاف شاة فضلاً عن المتاع والسلاح[١]. وكذلك أحرز المسلمون نعماً وشاءً في سرايا متعددة أمرهم رسول الله ﷺ بالخروج إليها[٢].

وكانت غزوة خيبر الأبرز في أمر الغنائم، فقد أحرز منها المسلمون الشيء الكثير، حيث كانت خيبر معروفة بغناها وقوة مقاتليها، وكانت أكبر منطقة غير عربية أخضعها رسول الله ﷺ بجيش كبير قوامه ألف وأربعمائة مقاتل، وتم إخضاعها بعد قتال شديد، واستسلم بعضها دون قتال، فكان ذلك من أسباب سعة المعلومات التي وصلت عن أحكام الرسول ﷺ في قسمة غنائمها، وبخاصة ما خص به الرسول ﷺ من الصفي، وسهمه كمشارك في القتال وأساليب توزيع ما يجبى منها. وذكرت أكثر الروايات أن رسول الله ﷺ قسّم خيبر على ستة وثلاثين سهماً، جعل نصفها صافية، وقسم الثمانية عشر سهماً الباقية على المسلمين، وأنه قرر الأسهم بعد فتح الشق والنطاة وقبل استسلام الوطيح والسلالم، وجعل الشق والنطاة للمسلمين[٣]. فكان الكسب معنوياً وإعلامياً واقتصادياً، حيث رجحت وظهرت قوة المسلمين، لا سيما وأنهم كانوا قد دخلوا في هدنة مع قريش، أهل الحرم الذين لم يكن أحد يجرؤ على الاعتداء عليهم، فزادت رهبة القبائل تجاههم.

وأصبح بعد ذلك نصف ما تنتجه خيبر للمسلمين المشاركين في هذه الغزوة كلٌّ بحسب سهمه، حسب ما نص اتفاق رسول الله معهم، على أن يخرجوا في الوقت الذي يحدده لهم[٤].

كان لهذه الأسهم رؤساء مُسمّين، لكل مئة شخص رئيس يقسم على أصحابه ما يخرج من غلتها، وكان رؤساؤهم في الشق والنطاة: عاصم بن عدي، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسهم بني ساعدة وسهم بني النجار وسهم حارثة بن الحارث، وسهم أسلم وغفار، وسهم بني سلمة، وسهم عبيدة رجل من اليهود، وسهم أوس، وسهم بني الزبير، وسهم أسيد بن

---

١ – ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٦٤؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص٢٠٥؛ بدر: التاريخ الشامل، ج١، ص٢٢٨.

٢- يمكن تعداد هذه السرايا: مثل سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء، وعلي بن أبي طالب إلى فدك، وسرية زيد بن حارثة إلى العيص.

٣- ابن آدم: الخراج، ص٣٧؛ ابن سعد: الطبقات، ج٢،ص١٣٣، ١١٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ٢٥.

٤ –الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٩٠، ٦٩١؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، ج١، ص١٧٧؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج٢، ص٤٥٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٢٨٥_ ٢٩٥.

حضير، وسهم بلحارث بن الخزرج، رأسه عبد الله بن رواحة، وسهم بياضة، ورأسه فروة بن عمرو، وسهم ناعم، فهذه ثمانية عشر سهماً في الشق والنطاة[١].

استعمل رسول الله فروة بن عمرة البياضي على غنائم خيبر، وكان قد جمع ما غنم المسلمون في حصون النطاة وحصون الشق وحصون الكتيبة، ولم يترك أحد من أهل الكتيبة إلا ثوباً على ظهره من الرجال والنساء والصبيان، وجمعوا أثاثاً كثيراً وبزاً وقطائف وسلاحاً كثيراً وغنماً وبقراً، وطعاماً وأدماً كثيراً. فأما الطعام والأدم والعلف فلم يخمس، يأخذ الناس منه حاجتهم ، وكان من احتاج إلى سلاح يقتل به أخذه من صاحب المغنم، حتى فتح الله عليهم فرد ذلك في المغنم[٢]. فلما اجتمع ذلك كله أمر به رسول الله ﷺ، فأخرج خمس أي سهم الله، وبيعت أربعة الأخماس الباقية فيمن يريد.

أما الخمس منه الذي صار لرسول الله فأعطى منه السلاح والكسوة، و لأهل بيته الثياب والخرز والأثاث، وأعطى رجالاً من بني عبد المطلب ونساء، وأعطى اليتيم والسائل، وجمعت مصاحف فيها التوراة من المغنم فجاءت اليهود تطلبها من رسول الله وأن ترد عليهم وقد ردها لهم. فنادى منادي رسول الله: أدوا الخيط والمخيط، فإن الغلول عار وشنار ونار يوم القيامة، وقد ورد ذكر لمن كان قد غلّ وأخبر عنه رسول الله ﷺ[٣].

ولقد قسّم رسول الله ***الكتيبة*** بين قرابته ونسائه، وبين رجال المسلمين ونساء أعطاهم منها، وكان ما قسمه رسول الله يشمل قمحاً وشعيراً وتمراً ونوىً وغير ذلك، على قدر الحاجة، وكانت حاجتهم في بني عبد المطلب أكثر، ولهذا أعطاهم أكثر، وتراوح العطاء ما بين عشرين إلى مئتي وسق[٤].

وفي الحديث عن غنائم حُنين مواقف كثيرة، أمر النبي ﷺ بجمعها، وأمر مناديه أن ينادي بالناس: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغل"، حتى أنّ عقيل بن أبي طالب رجع إلى زوجته بإبرة تخيط بها الثياب، فلما سمع منادي رسول الله من أخذ شيئاً من المغنم فليرده، فأعادها عقيل وألقاها في

---

[١] -المقريزي: المغازي، ج٢، ص٧١٨.
[٢] - الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٨٠.
[٣] - الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٨١، ٦٨٢.
[٤] - ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٨١٠_ ٨١٢.

الغنائم. وجاء رجل إلى رسول الله بكبة من شعر، وطلبها منه، فأمره رسول الله بإعادتها، لأن الغنائم لم تقسم بعد ونصيب المسلمين منه لم يقسمه[١].

كان رسول الله ﷺ يشدّد، قبل تقسيم كل غنيمة يغنمها المسلمون، على ردّ أي شيء أخذه المقاتلون من الغنائم، قبل توزيعها وقسمتها، فهي من حق الجميع، وفيها لله حقٌّ، وحقّ الله لا يسقط عن أحد، وبيّن إثم وذنب من يأخذ شيئاً مهما صغر أو كبر، فهو عارٌ وشنارٌ يوم القيامة، وهذا التشديد والتحذير قد ظهر لاحقاً بعدما خرج المسلمون فاتحين، وكان لهذا أثره الواضح في حركة الفتوحات اللاحقة التي انطلقت شمالاً وفتحت مناطق واسعة من حيث الانضباط والالتزام بالقواعد، فلا طمع ولا خشية من ضياع الحق في الغنائم فالحق محفوظ، طالما الالتزام والانضباط مطبق.

كان رسول الله ﷺ قد غنم فضة كثيرة، أربعة آلاف أوقية، فجمعت الغنائم بين يديه، فجاءه أبو سفيان وبين يديه الفضة، فأعطاه أربعين أوقية ومائة من الإبل، وكذلك ابناه يزيد ومعاوية كل واحد منهما أربعين أوقية، ومائة من الإبل. وأعطى كذلك في بني أسد وبني عبد الدار، وبني مخزوم، وجمح، وفي **العرب** أعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة من الإبل، وعيينة بن بدر الفزاري مائة من الإبل، وأعطى مالك بن عوف مائة من الإبل. والعباس بن مرداس السلمي[٢]. هؤلاء سموا المؤلفة قلوبهم، كانوا أشرف أشراف الناس، أعطاهم رسول الله ليتألفهم ويتألف بهم قومهم[٣].

وبيّن رسول الله مقصده من هذه الهبات عندما سأله سعد بن أبي وقاص أن يعطي جعيل بن سراقة، فهو أفضل من عيينة والأقرع، فأجابه رسول الله: أما والذي نفسي بيده، لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها، مثل عيينة والأقرع، ولكنني تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه.

وأمر النبي زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم، ثم فضلها على الناس، فكانت سهامهم، لكل رجل أربع من الإبل أو أربعون شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشرة من الإبل، أو عشرين ومائة شاة، وإن كان معه أكثر من فرس واحد لم يسهم له. المهم من كل هذا السرد للغنائم وقيمتها، والأفراد

---

[١] – الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩١٨.

[٢] – الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩٤٤ــ ٩٤٦.

[٣] – الكلاعي: الاكتفاء، ج١، ص٥٤٠..

والقبائل التي شملتهم هبات رسول الله، إدراك الأهمية السياسية لها في تأليف هذه الجماعات وجعلها تحت سيادة سلطة الدولة، وما يعزز هذا القول موقف رسول الله من وفد هوازن عند قدومه مسلماً، طالباً استرداد الأهل والمال، وكذلك من مالك بن عوف على وجه الخصوص وتصرفه حيال ماله وأهله، وقد حقق رسول الله المقصود الذي أراده، حيث أسلمت هوازن، وأصبح مالك بن عوف ظهراً للمسلمين في وجه ثقيف[1].

وفي غزوة دومة الجندل خرج أربعمائة وعشرون فارساً مع خالد التي أسر فيها أكيدر بن عبد الملك، فحصل المسلمون على ألفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح[2]. وقد حصل واثلة بن الأسقع وحده ست قلائص (وهي الشابة من الإبل) وهو نفسه كان ينادي في سوق بني قينقاع من يحمله ويجهزه وتكون له غنيمته، ولأبي سعيد الخدري أصابه من السلاح بيضة ودرع ورمح، وعشراً من الإبل. وكان قد شارك فيها من مزينة وحدها أربعين فارساً، أصاب كل فرد منهم خمس فرائض مع سلاح[3].

لا شك أن غنائم الغزوات رفعت من اقتصاد المدينة وساعدتها على مواكبة الزيادة السكانية، إلا أنها كانت قليلة في هذه المرحلة، وأنها بعد انتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية قد انحسرت وتراجعت، أي أن الاعتماد الأساسي لم يكن عليها فقط، هي كانت جزءاً من واردات المدينة وشغل دوراً مهماً في تعزيز شؤون المسلمين المالي والاقتصادية، ولكنه لم يكن كافياً لسد متطلبات الأمة الناهضة التي تسعى لمغادرة الأوضاع الصعبة، ولكن بعد الانطلاق اتجاه الشمال أصبحت وافرة وتدفقت ثروات كثيرة إلى المدينة، أقلقت الخليفة عمر بن الخطاب من أن تفسد نفوس الناس وأخلاقهم بسببها. لا بد من الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ لم يأخذ بمبدأ بيت المال بل كان حريصاً على توزيع كل شيء.

[1] - فقد عينه رسول الله على من أسلم من قومه، وأخذ مالك يشن الغارات على مواشي ثقيف، ويبعث بالخمس من ما يستطيع غنيمته منهم، إلى رسول الله. الواقدي: ج٣، ص٩٥٥.الكلاعي: الاكتفاء، ج١، ص٥٣٧.

[2] - الواقدي: المغازي، ج٣، ص١٠٢٧.

[3] - الواقدي: المغازي، ج٣، ص١٠٢٩.

٢- الفيء :

الفيء هو الغنيمة التي لا تلحقها مشقة، فتكون باردةً كالظلّ، وهو ما حصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا جهادٍ[١]. الفيء هو ما صالح عليه المسلمون بغير قتال، ليس فيه خمسٌ[٢]، وهو لمن سمى الله تعالى في الآية الكريمة:﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[٣]. جعل الله سبحانه وتعالى أمر الفيء بيد رسوله يوزعه كما ورد في الآية وكما تقتضي الضرورة والحاجة، فبيّنت وجوه أو مستحقي الفيء، هم نفسهم مستحقو خمس الغنائم، سهم رسول الله ينفقه في أهله، وسهم ذي القربى، سهم اليتامى المستحقين وهم يتامى الأب، ذلك أن الأب هو المعيل للأسرة، وسهم المساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم، وسهم أبناء السبيل[٤]

وأصبح لرسول الله ﷺ أراضي مخيريق اليهودي[٥] قيل أنه من بني النضير، وقيل أيضاً أنه من بني قينقاع من بقايا الفطيون، لكن المرجح أنه من بني النضير لامتلاكه الحوائط التي تبرع بها إلى رسول الله يضعها حيث يشاء وما كان لبني قينقاع أراضٍ، الذي أسلم وجاهد مع المسلمين في غزوة أُحد، وأوصى بأمواله لرسول الله ﷺ إن هو قُتِل في المعركة، وكانت سبعة حوائط، أي بساتين، وهي الـمِيْثَب، والأعراف أو الأعواف، والصافية والدلاّل وبُرقة وحُسْنى ومشربة أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ مارية القبطية، أخذها النبي وجعلها صدقةً للمسلمين[٦].

---

[١] – الزبيدي: تاج العروس، ج١، ص٣٥٥..

[٢] – ابن آدم: الخراج، ص١٩.

[٣] – سورة الحشر، الآيتان ٦، ٧.

[٤] – الباروني: ص٢٤٨.

[٥] – توجد ترجمته كاملة في العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٦، ص٤٦.

[٦] – السهيلي: الروض الأنف، ج٦، ص٤٧. الفيروز أبادي: المغانم، ص٤١٢.

كانت أموال بني النضير فيئاً، جعله الله عزّ وجل لرسوله يضعه فيما اقتضته الضرورة، وكما نصت الآية، ولقد غنم المسلمون من بني النضير ثلاثمائة وأربعين سيفاً وخمسين درعاً وخمسين بيضةً أي خوذة للرأس، وغنموا مزارعهم وبيوتهم ومواشيهم، وعندما أراد رسول الله توزيع الأراضي والدور، جمع الأنصار، وخيّرهم بعد أن خطب فيهم، وأظهر حُسن ما فعلوه لإخوانهم المهاجرين، وكرم ضيافتهم، خيّرهم بقوله: إن أحببتم قسمتُ بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم، فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا: يا رسول الله، بل تقسمه للمهاجرين ويكونون معنا في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله، فقال عليه السلام: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار[١]، فقسّم رسول الله ما أفاء الله عليه بين المهاجرين ولم يعطِ أحداً من الأنصار من ذلك الفيء شيئاً، إلا رجلين كانا محتاجين هما سهل بن حنيف، وأبو دجانة[٢]. ويضيف الثعلبي إليهما الحارث بن الصمة[٣]. وذكرت المصادر أن رسول الله كان يزرع تحت النخل، وينفق منها على أهله وأزواجه نفقة سنة، ثم ما بقي جعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله عز وجل[٤].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الله عز وجل أضاف إلى رسوله الأرض، وهي غير مختصة بالغانمين، ويقوم الرسول أو الإمام الذي ينوب مكانه بقسمتها بالاجتهاد. أي الغنائم تختص بالمنقولات التي لا أصل لها وهي تستهلك ويختص بها من أخذها، والفيء كل ما له أصل فهو مشترك بين المسلمين[٥].

١ – الثعلبي: الكشف والبيان، ج٩، ص٢٧٢.

٢ – البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٩؛ بدر: التاريخ الشامل، ج١، ص٢٢٨، ٢٢٩.

٣ – الكشف والبيان، ج٩، ص٢٧٢.

٤ – ابن رجب الحنبلي، (عبد الرحمن بن أحمد، ت ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م): الاستخراج لأحكام الخراج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص٢٩؛ الفيروز أبادي: المغانم، ص٤١١.

٥ – ابن رجب: الاستخراج، ص٣٠.

كان أهل فدك قد أرسلوا إلى رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر، فبايعوه على أن لهم رقابهم ونصف أراضيهم بتربتها ونخلها، ولرسول الله شطر أرضيهم ونخلهم[١]، فكان النصف خالصاً لرسول الله لأنه لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكان يصرف ما يأتيه منها في أبناء السبيل[٢].

وقد تطور مفهوم الفيء فيما بعد ، ولا سيما في عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، عندما وضع خراجاً على الأراضي المفتوحة بدل تقسيم الأرض، ووزع خراجها وفق ما تضمنته آيات سورة الحشر[٣]. وأصبح فيما بعد الفيء والخراج واحداً، والخراج لم يكن على عهد النبي ﷺ، بل ظهر لاحقاً بعد أن افتتحت الأراضي وكثرت، فأمر عمر بمسح أراضي السواد والفيء، ودفعها إلى الفلاحين الذين كانوا عليها، على غلة يؤدونها كل سنة، وقيل بعد ذلك على الأراضي التي افتتحت صلحاً ووظف ما صولحوا عليه على أراضيهم: خراجية لأن تلك الوظيفة أشبهت الخراج الذي ألزم به الفلاحون، وهو الغلة[٤].

فيمكن القول بأن الفيء كان يختص بالمصلحة العامة، أي ملكية دولة، فجعله الله تعالى للمحرومين في المجتمع ليرفع من شأنهم ويبلغ بهم مستوى الميسورين، ويعوضهم عما لحق بهم من حرمان[٥].

٣- الجزية:

الجزية حق أوصل اللهُ سبحانه وتعالى المسلمينَ إليه من أهل الكتاب، تؤخذ على الرأس وتُسقط بحدوث الإسلام، واسمها مشتقٌّ من الجزاء، إما جزاءً على عدم إسلامهم أو جزاءً على الأمان لهم[٦]، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ

١ - ابن زنجويه: الأموال، ج١، ص٩٤.

٢ - أبو يوسف: الخراج، ص٦٢. ابن قدامة: الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٥٩؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج١، ص٤٨٢.

٣ - لمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى أبو يوسف: الخراج، ص٣٤ـ ٣٨.

٤ - ابن رجب: الاستخراج، ص٣٣، ٣٤؛ ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص٢٥٢، مادة (خرج).

٥ - حسن، (حسين الحاج): النظم الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص٢٧٣.

٦ - الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٢٣.

وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾[١].

والجزية واجبة على جميع أهل الذمة على الرجال منهم دون النساء والصبيان، ولا تؤخذ من المسكين الذي يُتصدّق عليه، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل، ولا من ذمي يتصدق عليه ولا من مُقعد، لكن من كان له يسار أي ذو سعة من هؤلاء تؤخذ الجزية منه[٢]، وهي مقدار معين من المال فرضه رسول الله ﷺ، اختلف في مقداره وماهيته بين منطقة وأخرى، فقد كان أحياناً نقداً، وأحيان أخرى ثياباً، فهي موردٌ مهمٌ من موارد بيت المال، تتعلق بالأعباء المالية لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي بوصفهم جميعاً من رعايا الدولة ينعمون بالعيش فيها وحمايتها فهم يتحملون تبعات ذلك، فهي بمثابة بدل عن الاشتراك في القتال والجهاد، الذي كان جميع أفراد الدولة معنيين في الاشتراك به، وبما أنهم أصبحوا أفراداً من الدولة فعليهم واجب الاشتراك في الدفاع عن الدولة.

كان رسول الله ﷺ قد خرج في تبوك لقتال الروم، ولكنه لم يلقَ أحداً، فصالحه أهلها على الجزية، وقدِم عليه هناك صاحب أيلة يحنة بن روية، فصالحه رسول الله ﷺ على أن جعل له من كل حالم بأرضه ديناراً في السنة فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار، واشترط عليهم أن يقوموا بضيافة من يمر بهم من المسلمين، وكتب لهم كتاباً أن يحفظوا ويمنعوا[٣]، وقدم مع صاحب أيلة أهل جرباء وأذرح فصالحوا رسول الله ﷺ وقطع عليهم الجزية وكتب لهم كتاباً بأنهم آمنون بأمان الله وأمان رسوله، وأنّ عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة[٤]، وكتب لأهل مقنا: أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم[٥]

---

[١] – سورة التوبة، الآية ٢٩.

[٢] – أبو يوسف: الخراج، ص١٣٥.

[٣] – ابن قدامة: الخراج، ص٢٧٠.

[٤] – المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ٤٦٨، ٤٦٩؛ حميد الله: الوثائق، ص١١٧_ ١١٩.

[٥] – الواقدي: المغازي، ج٣، ص١٠٣١، ١٠٣٢.

وقيل أن أول من أعطى الجزية هم أهل نجران وكانوا نصارى، وقبل رسول الله الجزية من أهل البحرين، وكانوا مجوساً، ثم أدى أهل أيلة وأذرح إلى النبي الجزية في غزوة تبوك، ثم بعث خالد بن الوليد إلى أهل دُومة الجندل فأسروا رئيسهم أكيدر، فبايعوه على الجزية[١].

وبعد العودة من تبوك قدمت وفود العرب تُعلن إسلامها وصلحها مع رسول الله، وممن جاء وفد ملوك حمير، فكتب إليهم كتاباً، ومما جاء فيه: "... ومن كان على يهوديته، أو نصرانيته، فإنه لا يُفتن عنها، وعليه الجزية، على كل حالم دينار وافٍ، أو قيمته من المعافر، أو عوضه ثياباً"[٢]. وبعدما أسلم أهل تبالة وجرش، جعل رسول الله على كل حالٍم ممن بهما من أهل الكتاب ديناراً، واشترط عليهم ضيافة المسلمين[٣].

كما جاء وفد نجران إلى رسول الله سألوه الصلح، فصالحهم عن أهل نجران على ألفي حلة، ألف حلة منها في صفر وألف منها في رجب ثمن كل حلة أوقية، والأوقية وزن أربعين درهماً فإن أدوا حلة فوق الأوقية حسب لهم فضلها، وإن أدوا بما دون الأوقية، أخذ منهم النقصان، على أن يُقبل منهم ما أعطوه من سلاح أو خيل أو ركاب، وعليهم أن يضيفوا رسل رسول الله شهراً، وأن عليهم ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إن كان باليمن كيد... وجعل لهم ذمة الله وعهده ألا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم، ولا يحشروا، ولا يعشروا، واشترط ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به[٤]. كان رسول الله يريد الرفق بأهل الذمة، وأن لا يباع عليهم من متاعهم شيء، ولكن يؤخذ مما سهل عليهم القيمة[٥].

وجه رسول الله سنة ثمان للهجرة العلاء بن عبد الله الحضرمي، إلى البحرين ليدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية، وكتب معه إلى المنذر بن ساوى وسيبخت مرزبان هجر، يدعوهما إلى ذلك فأسلما وأسلم معهما جميع العرب وغيرهم، ومن لم يسلم في ذلك الوقت صالح عن أرضه، وكتب العلاء بينه وبينهم كتاباً بأن: عليهم أن يكفونا العمل، ويقاسمونا على النصف، من الحب والتمر وأن على كل حالم

[١] - ابن سلام: الأموال، ص٤١.

[٢] - ابن زنجويه: الأموال، ج١، ص١٢٨؛ حميد الله: الوثائق، ص٢٢١.

[٣] - البلاذري: فتوح البلدان، ص٦٦.

[٤] - ابن قدامة: الخراج، ص٢٧٣. ابن زنجويه: الأموال، ج٢، ص٤٤٩. البلاذري: فتوح البلدان، ص٧١.

[٥] - ابن سلام: الأموال، ص٥٦.

ديناراً، وقيل أن العلاء بن الحضرمي بعث إلى رسول الله ﷺ مالاً من البحرين يكون ثمانين ألفاً [١]، وإلى مجوس أهل هجر يدعوهم إلى الإسلام فمن أسلم قبل منه ومن لم يسلم ضربت عليه الجزية في أن لا تؤكل له ذبيحة ولا تنكح له امرأة[٢].

إن قيام رسول الله ﷺ بفرض الجزية أو الصدقة على القبائل في مختلف المناطق المذكورة ما هو إلا دليل على قوة المسلمين وسلطتهم، والقبول بهذا الأمر من قبل القبائل المتعددة ما هو إلا إقرار بسلطة المدينة ونفوذها، أي انضمام إليها بشكل أو بآخر.

٤- الصّدقة أو الزكاة:

الصدقة زكاةٌ والزكاة صدقةٌ، يفترق الاسم ويتفق المسمى، ولا يجب على المسلم في ماله حقٌّ سواها، قال رسول الله ﷺ: ليس في المال حقٌّ سوى الزكاة[٣]. فالصدقة أوالزكاة تفرض على أموال المسلمين من الذهب والورق أي الفضة، والإبل، والبقر، والغنم، والحب، والثمار إذا كان بمقدار محدد،وهي للأصناف الثمانية الذين سماهم الله تعالى في الآية الآتية، لا حق لأحد من الناس فيها سواهم[٤]، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾[٥].

اختُلف في تحديد السنة التي فُرضت الزكاة فيها على المسلمين، فقيل أنها فرضت في السنة الثانية للهجرة، ودلّ البعض الآخر على فرضها في السنة التاسعة للهجرة بنزول الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾[٦]، وقد بينت الآية الكريمة توزيعها على الأصناف المستحقين لها. ويمكن الجمع بين الرأيين، بأن الزكاة أو الصدقة كانت في المرحلة الأولى تطوعاً

[١] – البلاذري: فتوح البلدان، ص٨٥، ٨٨.
[٢] – ابن سلام: الأموال، ص٣٩.
[٣] – الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٧٩.
[٤] – ابن سلام: الأموال، ص٢٤.
[٥] – سورة التوبة، الآية ٦٠.
[٦] – سورة التوبة، الآية ٦٠.

واختياراً، وليس فيها حداً مقرراً، ولكنها أصبحت فيما بعد حُكماً مقرراً وله نصاب كما أن تعبير "العاملون عليها" تعني الموظفين الرسميين الذين كان النبي يعينهم لجبايتها مما يدل دلالة حاسمة على رسمية هذا المورد المالي.

ويمكن القول أنه من خلال آيات القرآن الكريم يتبين أن الزكاة أو الصدقة كانت موجودة من المرحلة المكية، فقد وردت في آيات عدة:﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾[1]، وهي سورة مكية بالإجماع بين أهل التفسير، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن الزكاة كانت واجبة في مكة، وأنّ ما نزل في المدينة من الزكاة أو الصدقة فهي ذات النصب والمقادير الخاصة[2]، كما ورد أيضاً في سورة الأنعام، وهي مكية﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾[3]، وقوله تعالى﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[4].

إن ظروف الدعوة كانت تدعو إلى فرض شيء من المال على الغني المسلم للفقير المسلم، في المرحلة المكية وكان الفقراء أكثر من الأغنياء ومعرضين للأذى والمطاردة. وقد عبر عنها في هذه المرحلة بأنها حق محتوم واجب الأداء للفئات المحتاجة والمصلحة الإسلامية العامة، بالإضافة إلى ما احتوته الآيات من معنى الحث على الإنفاق ومساعدة المحتاجين مما قصد به التبرع التطوعي أي الصدقة بمفهومها الحالي، ومن الممكن القول بأن تشريع الزكاة في العهد المكي هو الوحيد بين التشريعات غير التعبدية إذ أن جل التشريعات إنما كانت في العهد المدني، فلم تكن قلة المسلمين وضعفهم في العهد المكي مانعين لهذا التشريع منذ البدء، فأداها المسلمون الأوائل بطيب أنفسهم وبدافع إيمانهم كالصلاة، وقد دخلت الزكاة في الطور المدني دور رسمي، ونزل القرآن بها[5]، في آيات كثيرة مقترنةً بذكر الصلاة، منها في سورة البقرة آيات عدة منها:﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ وقوله

[1] – سورة "المؤمنون" : الآيات ١_ ٤.

[2] – ابن كثير: تفسير، ج٥، ص٤٦٢.

[3] – الآية ١٤١. وبعض الآراء ترجح أن المقصود بالآية الزكاة، زكاة الأموال. الثعلبي: الكشف والبيان، ج٤، ص١٩٨.

[4] – سورة فصّلت، الآية ٦، ٧.

[5] – دروزة: سيرة الرسول، ج٢، ص ٤٠٧_ ٤٠٩.

تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾وكذلك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾[1]، ووردت في سور أخرى[2]. وقد وردت عن رسول الله ﷺ أحاديث في حضّ المسلمين على الصدقة والعمل الطيب، بقوله عليه السلام: " من تصدّق بعدل تمرةٍ من كسْبٍ طيّبٍ، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإنّ الله يتقبّلها بيمينه، ثم يربّيها لصاحبه كما يربّي أحدكم فُلوّه، حتى تكون مثل الجبل" [3]. وكذلك "مَنِ اسْتطاعَ منكُمْ أنْ يَسْتَتِرَ منَ النّارِ ولَو بِشِقِّ تَمرةٍ، فليفعل[4].

إن فرضها في مرحلة مبكرة، لم تكن الدعوة أو الدولة على قدر كبير من الاتساع والكثرة فيه معنى تكافلي إنساني، يحمل في طياته الرفق والتعاون والإيثار بين المسلمين ومساعدة بعضهم بعضاً، وتقليص الفوارق بين مختلف الفئات. إلاّ أنها في المرحلة المتأخرة، ولا سيما بعد أن تم فرضها على منطقة أو قبيلة بأكملها، ذات معنى سياسي ترمز إلى رئاسة الرسول العليا وفيه إقرار من هذه القبيلة أو المنطقة بتبعيتها لدولة المدينة ولسلطان الإسلام ممثلاً به ﷺ أكثر من كونه مورداً للمال، وبعدما فرضت على من أسلم من القبائل خارج المدينة، بينت المصادر بأن هذه الصدقات كانت توزع أولاً على فقراء المنطقة التي تدفعها ثم ما يزيد يرسل إلى المدينة، وفي هذا حالة جديدة ووضع مستحدث لم تعتد القبائل في شبه الجزيرة عليه وخاصة إلزامها بذلك، وهو كان سبب من الأسباب التي ساهمت في قيام حروب الردة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

وهكذا كانت الصدقة بمكة طوعية اختيارية وأصبحت في المدينة فرضاً محدداً، وقد نزل الأمر بها بعد فتح مكة وتوسع الدولة وتوسع دائرة الإسلام خارج نطاق المدينة والقبائل المحيطة بها، فكانت الزكاة أو الصدقة ذات معنى سياسي ترمز إلى رئاسة الرسول ﷺ العليا والاعتراف بها أكثر من كونها مصدراً للأموال، وأصبح اسم الزكاة يدلّ على الصدقات الرسمية، على حين احتفظت تسمية الصّدقة بمعنى

---

[1] – سورة البقرة، الآيات: ٤٣، ١١٠، ٢٧٧ على الترتيب.
[2] – سورة النساء، ٧٧، ١٦٢. والمائدة: ١٢، ٥٥. الأعراف: ١٥٦. الأحزاب: ٣٣. المجادلة :١٣. البينة: ٥.
[3] – البخاري: صحيح، ج٢، ص١٠٨، الحديث رقم ١٤١٠.
[4] – مسلم: صحيح، ج٢، ص٧٠٣، رقم ١٠١٦؛ الأنصاري: المصباح المضيء، ج٢، ٤.

الهبات الطوعية الاختيارية، يقول تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾[1]. وفي ذلك قول رسول اللهﷺ: خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول[2].

وقد ذكرت المصادر أنواع الأموال التي فرضت الزكاة فيها والمقدار المحدد، سواء في المواشي من إبل وبقر وغنم، بينما لم تفرض على الخيل، إلا إذا كانت معدة للاتجار بها، أو في ما تخرجه الأرض من الحب والثمار، وفي الذهب والفضة سواء كان من الحلي أو النقد، وأنواع التجارات[3].

وعندما أرسل رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن، أوصاه بعرض الإسلام على أهلها، فإن أطاعوه أعلَمَهم بفرض الصلاة، فإن أطاعوه لذلك أعلَمَهُم أنّ الله افترض عليهم صدقةً أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتـُرَدّ على فقرائهم، فإن أطاعوا فليأخذ زكاة أموالهم، ولكنه عليه السلام حذّره من أخذ كرائم أموالهم، أي أجودها وأحسنها، حتى لا يظلمهم، فليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب، فكان رسول الله حريصاً على عدالة جباته[4].

ووضع رسول الله عامل الصدقة بمرتبة رفيعة بقوله: العامل على الصدقة بالحق كالغازي في سبيل الله حتى يرجع"[5]. لأنه عليه السلام كان مدركاً لطبيعة القبائل البدوية التي تأبى وتأنف من السلطة والانقياد لأي أحد، فقدّر خطورة هذا الأمر وصعوبته، لذلك جعل العامل عليها بمرتبة المجاهد الذي يخاطر بنفسه في سبيل الله.

كما عدّ رسول الله ﷺ مانع الزكاة أنه ليس بمسلم، وأنّ صلاته لن تكون مقبولة، بقوله ﷺ: "ما مانع الزكاة بمسلم، ومن لم يؤدها فلا صلاة له"[6]. وكما هو معروف الصلاة أهم أركان الدين بل هي عماد الدين، فربط الزكاة بالصلاة أمر في غاية الأهمية، فهي أمر نهائي لا تهاون فيه ولا تخفيف، أو

[1] – سورة البقرة، الآية ٢١٩.
[2] – ابن حنبل: مسند، ج١٥، ص٣٧٦، رقم ٩٦١٣؛ البخاري: صحيح، ج٢، ص١١٢، الحديث رقم ١٤٢٦.
[3] – لمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى ابن سلام: الأموال، كتاب الصدقة وأحكامها، ص٤٣٧ وما بعد.
[4] – الترمذي: سنن الترمذي، ج٣، ص١٢، رقم ٦٢٥.
[5] – أبو داود: سنن، ج٣، ص١٣٢، رقم ٢٩٣٦.
[6] – أبو يوسف: الخراج، ص٩٣.

تأجيل، وحذّر المسلمين عامةً من عدم أدائها من عقاب وعذابٍ شديدين، بقوله ﷺ : «ما من صاحب ذهبٍ ولاَ فضّةٍ، لا يؤدّي منهَا حَقّها، إلاّ إذَا كَانَ يَومُ القيامةِ، صُفّحَتْ له صَفائحُ منْ نارٍ، فأُحْمِيَ عليها في نارِ جَهَنّمَ، فيُكوى بها جَنبهُ وجبينهُ وظهرهُ، كلّمَا بَرَدَتْ أُعيدَتْ لهُ، في يومٍ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنَةٍ، حتّى يُقضَى بين العِباد، فيَرَى سبيلهُ، إمّا إلى الجنّةِ، وإمّا إلى النّارِ»[١].

إذاً كانت الزكاة حقاً للدولة تجتبيه من القبائل والجماعات والأفراد الذين دخلوا في الإسلام، واستخدمت لفرض مركزية الدولة، ومع أن رسول الله ﷺ كان الرئيس الأعلى للدولة، إلا أن الصدقة لم تكن له، بل هي لا تحلّ مطلقاً له ولا لآل بيته، عليه الصلاة والسلام، ورد في حديث عن رسول الله ﷺ أنها لم تكن تحِلّ له ولا لآل بيته فهي أوساخ الناس[٢]. كما ورد في كتابه ﷺ إلى ملوك حمير، إذ جاء فيه: أنّ الصدقة لا تحلّ لمحمد ولا لآله، إنما هي زكاة تزكون بها أموالكم، هي لفقراء المسلمين والمؤمنين". وما زاد عن الحاجة في منطقة والي الصدقة، كان يبعث به إلى رسول الله في المدينة ليتم توزيعه على من يأتي من المحتاجين ممن لهم فيها حق[٣].

يتضح من الكتب التي ورد ذكرها من رسول الله إلى قبائل ومناطق مختلفة، عدم تحديد لنصاب الزكاة المطلوبة، أو طريقة جبايتها، يظهر ذلك في عدد من الكتب منها، كتاب رسول الله ﷺ لعبد القيس من البحرين[٤]، وكذلك قبيلة عقيل بن كعب[٥]. وفي رواية أن رسول الله ﷺ قد كتب كتاب الصدقة ونصابها لعماله، ولكنه توفي قبل أن يُخرجه، وقد أخرجه الخليفة الراشدي أبو بكر، وعمل به، وتبعه كذلك عمر ابن الخطاب، حتى توضحت وتجلت الصورة[٦].

وبعد العودة من حُنين، بعث المصدقين لجباية الصدقات من القبائل، فبعث بريدة بن الحصيب إلى **أسلم وغفار**. ويقال كعب بن مالك. وبعث عباد بن بشر الأشهلي إلى **سُليم ومزينة**، وبعث رافع بن

---

١ – مسلم: صحيح، ج٢، ص٦٨٠، ٦٨١. رقم ٩٨٧.

٢ – ابن مالك: الموطأ، ج٥، ص١٤٥٦، رقم ٣٦٦٥؛ مسند أحمد، ج٣، ص٢٥٠، رقم ١٧٢٤، ١٧٢٦؛ الترمذي: سنن، ج٣،ص٣٧، رقم ٦٥٧؛ النسائي: سنن، ج٥، ص١٠٥، رقم ٢٦٠٩.

٣ – ابن سلام: الأموال، ص٢٥٩، ٧٠٨ ومابعد؛ الكرمي: الإدارة، ص١٦١.

٤ – حميد الله: الوثائق السياسية، ص١٦٠.

٥ – حميد الله: الوثائق السياسية، ص٣١٢.

٦ – ابن حنبل: مسند، ج٨، ص٢٥٣، رقم ٤٦٣٢. وكذلك ج٨، ص٢٥٦، رقم ٤٦٣٤.

مكيث في **جهينة**، وعمرو بن العاص إلى **فزارة**، وبعث الضحاك بن سفيان الكلابي إلى **بني كلاب**، وبسر بن سفيان الكعبي إلى **بني كعب**، وابن اللتيبة الأزدي إلى **بني ذبيان**، وبعث رجلا من **بني سعد بن هذيم على** صدقاتهم. وأرسل إلى **صنعاء** المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة، وزياد بن لبيد الأنصاري إلى **حضرموت** وصدقاتها، وعدي بن حاتم على صدقات **طيء**، وفرق **صدقات بني سعد** على رجلين الزبرقان على ناحية، وقيس بن سعد على ناحية أخرى. العلاء بن الحضرمي على **البحرين**، وعلي بن أبي طالب على **نجران**(١).

يتبين من قائمة أسماء مصدقي الرسول أنها تشمل أهل الحجاز ابتداءاً من أقصى الشمال إلى أطراف اليمن، كما تشمل العشائر التي منازلها في الأطراف الشرقية من الحجاز، تميم وطيء، وكافة المصدقين رجالٌ من العشيرة التي وُلّوا عليها، وكان كثير منهم رؤساء لعشائرهم قبل إسلامهم، يستثنى من هذا الكلام، عبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، وعباد بن بشر الأشهلي والوليد بن عقبة، وإطلاق لقب المصدقين على هذه الأسماء يدل على أن هذه الأسماء أرسلت لغرض محدد هو جمع الصدقات فحسب، وهذا لا يستلزم إقامتهم الدائمة فيها، فالصدقات تجمع من هذه العشائر عندما تتجمع العشائر على المياه أوائل الربيع(٢).

ويُظهِر موقف بني تميم من الزكاة التي أخرجتها خزاعة لعامل الصدقة الذي أرسله النبي ﷺ لأخذها منهم، واستنكارهم لها، حتى قالوا: "ما هذا؟ تؤخذ أموالكم منكم بالباطل"(٣). إلا مؤشر على رفض هؤلاء الأعراب لفكرة سلطة الدولة، ومركزية السلطة، والانضمام إليها، فدفع الزكاة يعني بنظرهم الخضوع والطاعة للمدينة، وهذا ما تأنفه القبائل البدوية، فكان من الضروري إشعارها بقوة المسلمين، ووجوب الطاعة، لذلك أرسل رسول الله ﷺ سرية ضدهم، وصلت إلى ديارهم، اضطرت بعدها بنو تميم إلى القدوم إلى المدينة، والدخول بالإسلام، والقبول بفروضه، والانضمام لسلطة المدينة.

وعن مصارف الزكاة، فقد وضحتها الآية وكذلك حديث رسول الله بأنها للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، وكان على المصدق أن

١ – الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩٧٣.
٢- العلي: دولة الرسول، ص٣٩٠.
٣- الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩٧٤.

يوزعها في المكان الذي أخذت منه، ثم يرسل ما بقي إلى رسول الله إلى المدينة حيث ينفقه وفق شرع الله عز وجل.

إنّ ما تم إجماله من تغيرات في مقومات الحياة الاقتصادية ومفرداتها الزراعة والتجارة والصناعة، كان بدايةً لتغيرات لاحقة ستكون أشد وذات أثر أكبر وربما أخطر على مجرى الحياة السياسية، إلا أنه يمكن القول أن المدينة في هذه المرحلة قد استطاعت التخلص من الأسباب التي كانت تسبب لها الخلافات والصراعات، فبعد تبدل الملكيات الزراعية، والتشجيع على زيادتها من خلال إقطاع الأراضي الموات لمن رغب بزراعتها، والتزام الأفراد بضوابط حدّدها لهم رسول الله ﷺ، سواء في أمور السقي، أو في عقود البيع والشراء والكراء في ميدان الزراعة، يمكن القول أنها تحسنت، وأن الإنتاج قد عاد بين سكان المدينة بشكل أفضل مما كان من قبل، عندما كانت غالبية الأراضي الخصبة بيد اليهود.

ولا يخفى التبدل الكبير الحاصل في ميدان التجارة الذي حدث بعد قدوم المهاجرين، وبعد الإجراءات التي أجراها رسول الله ﷺ بدءاً من إنشاء السوق الخاص بالمسلمين، ومروراً بإلزام التجار بضوابط وقواعد أخلاقية، جعلت التاجر المسلم موضع ثقة مما شجع الآخرين على التعامل معه، بالإضافة إلى التشجيع على التبادل النقدي بدل العيني الذي كان هو السائد، وانتهاءاً بتوحيد الأوزان والمكاييل مما كان له أثرٌ كبير على تنقية المعاملات التجارية من الغش والخداع.

كما أن العمل على تغيير النظرة المجتمعية للصناع، على اختلاف مهنهم وحرفهم، واستقدام عدد منهم إلى المدينة، كان له أثر كبير لاحقاً في الإقدام على احتراف المهن، مما ساعد في تقدم الصناعة عموماً.

هذا النظام الاقتصادي الذي بدأ بالتعافي، وبالنهوض، جاءت واردات الغزوات والبعوث لترفده وتقوي إمكانياته، على الرغم من محدوديتها في هذه المرحلة إلا أنها كانت من الواردات المساعدة، وكان لها أيضاً مغزىً سياسياً مهماً جداً في إرساء فكرة سلطة الدولة ومركزيتها بين القبائل العربية، التي أرسلت المدينة لإخضاعها عدداً من البعوث، إلاّ أن بعضاً من هذه القبائل ظلّ رافضاً لفكرة التبعية، وظهر ذلك لاحقاً في حروب الردة، إلا أن ذلك كان مؤقتاً حيث انضوت الجزيرة العربية كلها تحت لواء الإسلام، وخضعت لسلطة دولة المدينة، الدولة العربية الإسلامية الأولى.

الفصل الرابع

نتائج الهجرة على الوضع الاجتماعي في المدينة

أولاً – نشأة الأمة و التبدلات الحاصلة في مجتمع المدينة والعناصر السكانية المكونة له.

١- عملية دمج وتنظيم العناصر الجديدة في المدينة.

٢- التبدلات في العناصر المكونة لسكان المدينة.

ثانياً – تنظيمات اجتماعية وتشريعات جديدة في المجتمع.

٣- علاقات الحلف والجوار في ظل الإسلام.

٤- الزواج ومكانة المرأة ودورها الفاعل.

٣- معاملة الرقيق.

٤- ضوابط ونواهي في مفاصل الحياة اليومية لصلاح المجتمع.

الحديث عن الجانب الاجتماعي والتحول الذي حصل فيها هو أمر في غاية الأهمية، فالإسلام جاء نتيجة ما كان سائداً من فساد واضطراب في الحياة الاجتماعية عموماً، لما له من تأثير كبير على كافة شؤون ومفاصل الحياة، إن أهم ما يميز الإسلام عن غيره من الديانات والشرائع والقوانين الناظمة لشؤون المجتمع هو تنظيمه لكل جوانب الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، وهذا ما حصل في المدينة وانتقل تأثيره إلى خارجها.

والتغيرات التي طرأت في هذه المرحلة من قيام الدولة العربية الإسلامية، والتحولات التي حصلت في المجتمع داخل المدينة المنورة بشكل خاص، يمكن القول بأنه لم يكن نهائياً، بل كان بدايات ومقدمات لتغيرات اجتماعية ظهرت في مرحلة لاحقة، فالتحولات الاجتماعية بحاجة إلى وقت ربما أطول حتى يمكن التماسها، إلا أنه يمكن الحديث هنا عن تبدلات ونتائج من الممكن القول بأنها جاءت مباشرة وكانت ملموسة، كالتبدلات السكانية التي كانت واضحة وجلية، سواء في خروج عناصر منها أو وفود قبائل إليها، والإجراءات التي أرساها رسول الله ﷺ إحلال مفهوم الأمة التي تربط وتجمع بين أفراد المجتمع العربي الإسلامي الناشئ في دولة المدينة، وكذلك أمور وقضايا استجدت في الحياة اليومية فتطلبت واقتضت تشريعاً لتنظيمها وإزالة ما فسد منها، فنزل القرآن موضحاً وناظماً لها.

أولاً – نشأة الأمة و التبدلات الحاصلة في مجتمع المدينة والعناصر السكانية المكونة له.

تم الحديث عن العناصر المكونة لمجتمع يثرب قبل الإسلام، من العرب واليهود، وطبيعة العلاقات التي كانت سائدة بينهم بالإجمال، فتبينت الفرقة وعدم الانسجام أو التمازج الحاصل بين جميع المكونات، مما سبب المشاكل والخلافات والصراعات التي كادت أن تفنيهم، وبعث في الوقت نفسه في نفوس أهلها الرغبة في الخلاص وإنهاء هذه الصراعات، للعيش بسلام ووئام، وبعد اعتناقهم الإسلام وهجرة رسول الله ﷺ والمسلمين إلى المدينة، بدأ عهدٌ جديدٌ، حيث تشكلت نواة الدولة، وعلى رأسها النبي ﷺ ممثلاً لشرع الله عزّ وجلّ، مبلغاً رسالته، ومنظماً لشؤون الحياة المختلفة، ولاسيما أصبحت المدينة مفتوحة، تستقبل مهاجرين بشكل جماعي أو فردي، فتعددت عناصرها المكونة للمجتمع الجديد، وتنوعت، فكان لا بد من تهيئة المدينة لاستيعاب هذه الحركة الوافدة إلى مجتمعها، وتنظيم أمر الاندماج، ومنع حصول أي تعديات.

١- عملية دمج وتنظيم العناصر الجديدة في المدينة:

عندما قامت الدعوة في مكة شكّل المسلمون الأوائل فئةً منفصلةً عن مجتمعهم، جمعتهم عقيدة واحدة، وهي نفسها فرّقتهم عن أهلهم وقبائلهم، الذين عارضوا وحاولوا الوقوف في وجه انتشار الدعوة واتساع جمهورها، لكن صلابة وحدة المسلمين وعمق الدعوة وتمكّنها في نفوسهم أحبطت كل هذه المساعي وأسهمت في ازدياد انتشار الإسلام وتوسعه. اختلف الوضع في المدينة حيث أن القسم الأكبر من سكانها كانوا هم الذين يرغبون في احتضان الدعوة والمؤمنين بها، لأنهم وجدوا في الإسلام سبيلاً للخلاص من كل المشاكل التي تعاني منها المدينة.

مثّل الإسلام في جوهره الوحدة في كافة مفاصل الحياة العربية، مقابل الوثنية القائمة على التعدد والتجزئة، وساعد الإسلام على الانتقال من حالة الانقسام القبلي إلى حالة التوحيد والوحدة الشاملة[1]، وقد بيّن القرآن فضل الإسلام على العرب بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[2]. فالمسلمون في مكة شكلوا وحدة منفصلة عن مجتمعهم الرافض لدعوتهم التي آمنوا بها واعتنقوها، وما لبثوا بعد الهجرة إلى المدينة أن أصبحوا مع من آمن من أهل المدينة وحدةً اجتماعيةً واضحةً، جديدةً ومختلفةً عما عرفه العرب من قبل، حيث ربطهم الإسلام برباط العقيدة الواحدة، ورسّخ رسول الله ﷺ هذا التمايز فجعلهم أمةً واحدةً، واتخذ إجراءات عدة في سبيل إنماء هذه الأمة وازديادها، وكذلك في تهيئة المدينة لاستيعاب هذه الوحدة الاجتماعية التي أصبحت لا تقتصر على سكان المدينة المتواجدين سابقاً، والمهاجرين من قريش فقط، بل كل من آمن وصدّق بالإسلام.

أبقى رسول الله ﷺ الهجرة شرطاً واجباً لاكتمال الدخول بالإسلام، وظل الشرط واجباً حتى فتح مكة، عام ٨هـ/ ٦٢٧م، أي أن المدينة خضعت للزيادة السكانية طول هذه المدة، بحكم انتشار الإسلام واتساع دعوته، وظهور قوته.

---

[1] – ياسين: التنظيمات، ص٦٠، ٦١.

[2] – سورة آل عمران ، الآية ١٠٣.

كان للهجرة أهمية كبيرة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية الناشئة، فقد كان عدد المسلمين قليلاً نسبياً، ومقصوراً على المدينة، وما يجاورها، كما كان المسلمون مهددين بكثير من الأخطار، فكان لابد من طلب الاستقرار من المسلمين في المدينة، مع رسول الله ﷺ ، ليكونوا أقرب إليه ﷺ، ويستطيعوا الاستجابة بسرعة لما قد تقتضيه الظروف من قتال للدفاع عن الإسلام أو خدمته، كما أن سكنهم في المدينة بجوار الرسول ﷺ يعينهم على تفهم مبادئ الإسلام ومتطلباته[١].

ويرى باحثٌ أن رسول الله ﷺ أراد من شرط الهجرة الانتقال بالإنسان إلى الاستقرار والتحضر، فالبداوة هي تكريس للتسيب والخروج عن الجماعة والابتعاد عن المركزية ذات الطابع التوحيدي، مما يعمق روح الإحساس بالولاء للأمة وإضعاف العصبية القبلية، وفي ضوء هذا يمكن فهم دلالة تشجيع الهجرة إلى المدينة، إذ كانت تعني الإسهام في بناء المجتمع الناشئ الموحد الذي ينحاز إلى التحضر والاستقرار ومفارقة النزعات الفردية[٢]. وقد شاع بين الناس أن النبي ﷺ نهى عن قبول هدايا الأعراب أو طعامهم[٣]، وأراد الرسول ﷺ بالأعراب كل منقطع في البادية لا يتصل بالمسلمين في المدينة، ولا يجيب داعي الجهاد والدين، فأراد ربطهم بالحاضرة وتهذيب أخلاقهم على ما كانوا عليه من تخلف في أدب المعاملة وجفوة في الطبع بسبب العزلة والانقطاع في البادية[٤].

لقد أدت الهجرة المستمرة إلى تنوع سكان المدينة فلم يعودوا يقتصرون على الأوس والخزرج ويهود بل نزل معهم المهاجرون من قريش والقبائل الأخرى، وأرسيت قواعد المجتمع المدني الجديد، وشيد بنيانه على أساس روابط العقيدة التي كانت فوق روابط القبلية وعصبيتها[٥].

وسلف الحديث عن الضغط الذي تعرضت له المدينة نتيجة الهجرة والانتقال إليها، وكذلك الصعوبات التي عانى منها المهاجرون الأوائل فقد كانت روابطهم بالمجتمع الجديد حديثة، تركوا أهلهم

---

[١] - العلي: دولة الرسول، ص٨٢.

[٢] – ياسين: التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية، ص٦١.

[٣] - عندما أحضرت أم سنبلة الأسلمية لبناً هدية إلى رسول الله، أخبرت عائشة أن رسول الله قد نهى عن أكل ما تهديه الأعراب، لكن الرسول لم يعد قبيلة أسلم من الأعراب فقبل الهدية، والخبر بشكل كامل في العسقلاني: الإصابة، ج٨، ص٤١٣.

[٤] - إدريس: مجتمع المدينة، ص١٠١، ١٠٢.

[٥] - العمري، (أكرم ضياء): المجتمع المدني في عهد النبوة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٣م، ص٧٠.

وأصحابهم في مكة وانقطعت صلتهم بأرحامهم وذويهم مما ولد إحساساً بالوحشة والحنين لديهم، وزاد الأمر سوءاً ما عانوه في بداية هجرتهم من صعوبة في التأقلم مع المناخ السائد في المدينة، فقد كان هواؤها وبيئاً، لكنهم بعد حينٍ ألفوا جوها واستطابوه، وصاحب هذا التكيف مع المناخ تكيف اجتماعي، وتمثيل تام شمل سكان ذلك المجتمع المتعدد، وكان لرسول الله ﷺ دور كبير في حصوله، حيث قام بدمج العناصر المكونة للأمة الناشئة من خلال نظام **المؤاخاة**، الذي كان بمثابة أداة لدمج الفئتين لاسيما وأن المهاجرين لم يكونوا قد اشتركوا بأية خلافات وصراعات سابقة بين الأوس والخزرج، فكانوا بمثابة المادة أو العنصر الذي ساهم في عملية الدمج في المدينة بين مختلف عشائرها، ولا سيما وأن المهاجرين كانوا متمازجين مجتمعين لا يوجد بينهم أية فروقات أو اختلافات، إلا بالتقوى والعمل الصالح، فالأخوة الإسلامية هي أخوة تعاون وتراحم، تواد وتعاطف، أخوة عدم اعتداء [1].

لقد عبّر رسول الله ﷺ من خلال المؤاخاة على فهم عميق لواقع وطبيعة المجتمع العربي عموماً آنذاك، ومجتمع المدينة بشكل مخصوص، من خلال إحلال رابطة الدين والعقيدة بدلاً من رابطة الدم، فكان خطوة أولية وحكيمة لتحطيم العصبيات وإسقاط فوارق النسب واللون والقبيلة. فالتكتل العشائري يقع ضمن رابطة الأمة وهو خاضع لها، وقد أصبح معرضاً للتفكك في ظل الإسلام لأن من يعتنقه يرتبط برابطة عامة مع إخوانه في الدين، ويشترك معهم في تأدية فرائضهم، وكان ذلك يصب في تهيئة الأجواء للمجتمع الجديد، وإحلال نظام يؤكد الوحدة الجامعة التي تعبر عن نفسها في أخوة جامعة تعمل من أجل بناء الأمة الناشئة[2].

اقتضى العمل على تكوين نواة المجتمع الجديد في المدينة، ودمج عناصرها، وضع أسس ومبادئ لتنظيمها، وإظهار حقوق مكوناتها الاجتماعية، وواجباتها ضمن الدولة، وذلك لإنهاء كل مظاهر الفرقة التي كانت سابقاً موجودة، التي ستضعف الدعوة ولن تُمكّن رسول الله ﷺ من تبليغ الرسالة، وتم ذلك من خلال **الصحيفة** التي جعل فيها رسول الله ﷺ المسلمين جميعهم " أمة واحدة" ، سواء من قريش أو من الأوس والخزرج، أو من قبائل أخرى، لتكوين بيئة جديدة ووسط مختلف عما اعتادوا عليه، وجعل عليه الصلاة والسلام الانتماء إلى الدّين مقدماً على الانتماء القبلي ومحكماً فيه " لا يؤمن أحدكم حتى

[1] - الندوي: مجتمع المدينة، ص٨١_ ٨٤.

[2] - ياسين: التنظيمات، ص٧٢؛ العلي: دولة الرسول، ص١١٦.

يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما" ، وقوله: " إنْ كانَ الرّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يريدُ إلاّ الدّنيا، فمَا يُسْلمُ حتّى يكونَ الإسلامُ أحَبَّ إليه منَ الدّنيا وما عليها"[١]، أي أنه ﷺ جعل هذه الرابطة فوق كل رابطة، وهي التي تجمع بين الفئات المكونة للمجتمع في ظل الإسلام، وليس رابطة الدم أو القرابة التي تفضي في النهاية إلى العصبية.

إن ما يظهر من مواد **الصحيفة** أن رسول الله ﷺ قد أبقى على تنظيماتها العشائرية أو القبلية، والسكانية في المدينة، حيث اعترف بكل العناصر الموجودة، من مختلف بطون الأوس والخزرج، وكذلك اليهود، ولم يغفل ذكر حتى من لم يدخلوا في الإسلام ممن بقي على شركه، بأن لا يخرجوا عن السياسة العامة التي ترسمها الدولة لا سيما فيما يخص العلاقة مع قريش[٢].

كان ﷺ مدركاً مدى تأثير العصبية والانتماء القبلي في النفوس، لذلك عمل على الاستفادة من هذا العامل من خلال الإبقاء عليه لكن ضمن إطار أكبر وأوسع وأشمل هو إطار الأمة، فأصبحت مهام العشيرة تنحصر في الأمور الاجتماعية الممثلة في رعاية أفرادها وتفقد أحوالهم، وفي الأمور الدينية والمالية كجباية الصدقة وصرفها على مستحقيها، وكذلك في أمور الجهاد والاستعداد بجمع العشيرة تحت راية واحدة[٣]. والاستقرار في المدينة كان لا بد وأن يضعف من حدة العصبية، لأن الحياة في المدن تفضي إلى علاقات اجتماعية تخفف من حدة البداوة.

كما أن الرسول ﷺ لم يكن في هذه المرحلة يؤاخذ الناس على حميتهم أو فخرهم بقومهم، فلما سأله أحد الصحابة: أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: لا، ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم[٤]. أي أنه عليه الصلاة والسلام عمل بالتدريج على التخفيف من العصبية والنزعة العشائرية التي تكون مع أبنائها بالظلم بكافة الوجوه، وانتقل بعدها ﷺ إلى التنظيم الجماعي حيث جمع عدة بطون وعشائر ينتمون إلى قبيلة واحدة، في تنظيم خاص، له استقلاله المحدود، كمرحلة أولية وتمهيدية والوصول في النهاية إلى جمع عدة قبائل تحت راية واحدة، وأبرز إنجاز لهذا التنظيم إلغاء كل تمييز

[١]- مسلم: صحيح، ج٤، ص١٨٠٦، رقم ٢٣١٢.
[٢]- ابن هشام: السيرة، مج٢، ص٣٥٣، ٣٥٤.
[٣]- إدريس: مجتمع المدينة، ص١٢٩.
[٤]- ابن ماجة: سنن، ج٢، ص١٣٠٢، رقم: ٣٩٤٩.

قبلي، جمع الأوس والخزرج تحت اسم واحد هو الأنصار، وسائر من هاجر إليها من كافة القبائل بالمهاجرين[١].

كما ورد عن النبي ﷺ أحاديث تعمق الأخوة، وتزيد في الود والألفة بين المسلمين وتقرب بينهم، وتبين فائدة ذلك على المجتمع، منها قوله ﷺ: "مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٢]. وقوله: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً"[٣]، و" ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال له الملك: ولك بمثل"[٤]، كما حذر من الهجر والخصام الذي قد يحصل بين الأفراد ويؤدي إلى الحقد والغل في حال استمر، بقوله: " لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ" [٥].

كلها أحاديث أراد منها رسول الله ﷺ التأكيد على ضرورة وحدة المسلمين، وطبيعة العلاقة المفترضة بينهم، بين الأنصار والمهاجرين، وكذلك بينهم أنفسهم، علاقة بعيدة عن كل خلاف أو نزاع، فكانت رابطة الإخوة رابطة جديدة أساسها رابطة الإسلام، وهي التي ميز مجتمع الأمة الناشئة في المدينة عن غيره من المناطق كمكة، والطائف.

ومما ساهم في عملية الدمج والتنظيم الاجتماعي **المسجد النبوي**، الذي كان مسجداً جامعاً من لحظة البدء ببنائه، حيث شارك جميع الصحابة في بنائه، مقتدين برسول الله ﷺ الذي قسّمهم، ووزع المهام فيما بينهم لإنجاز بنائه بأسرع وقت[٦]. وبعد الانتهاء من بنائه، أصبح المسلمون بمختلف قبائلهم وعشائرهم يجتمعون فيه للصلاة ولقاء رسول الله ﷺ، لا فرق بين أحد ولا تفضيل، فالجميع متساوون بالصلاة، مما أسهم في التخفيف من الفرقة والطبقية بينهم، وقد حرصت القبائل على الصلاة فيه حتى لو

---

[١]- إدريس: مجتمع المدينة، ص١٢٢.

[٢]-مسلم: صحيح، ج٤، ص١٩٩٩، رقم ٢٥٨٦.

[٣]-البخاري: صحيح، ج٣، ص١٢٩، رقم ٢٤٤٦. مسلم: صحيح، ج٤، ص١٩٩٩، رقم ٢٥٨٥.

[٤]-مسلم: صحيح، ج٤، ص٢٠٩٤، رقم ٢٧٣٢.

[٥]-مسلم: صحيح، ج٤، ص١٩٨٤، رقم ٢٥٦٠.

[٦]- ابن النجار: الدرة الثمينة، ص١٤٥.

كانت منازلها بعيدة بعض الشيء، مثل بني سلمة الذين فكروا ببيع بيوتهم والنزول قريباً من المسجد، لولا أن أمرهم رسول الله ﷺ أن يلزموها[١].

كان المسجد الجامع في عهد الرسول ﷺ رمزاً لاجتماع المسلمين واتحاد كلمتهم وكان مشاركة الصحابة جميعهم في بنائه دليلاً عملياً على تعاونهم وتوادهم. كما أن موقعه وسط حرم المدينة سهل على المسلمين اتصالهم برسول الله ﷺ ومع بعضهم في كل صلاة[٢].

كما أن فرائض الإسلام نفسها، كالصلاة والصيام كلها أدت دوراً مهما في ترسيخ فكرة المساواة بين عناصر المجتمع الإسلامي في المدينة، حيث أن الجميع متساوون في أدائها، لا فرق بين غني وفقير، وبين عبد أو حر، لم يعفَ أحدٌ من الصلاة أو حتى من بعضها، وكذلك من الصيام وغيره من الفرائض، الجميع متساوون، والتفاضل أصبح بالتقوى وبالعمل الصالح وليس بالحسب والنسب.

ومن ضمن الحديث عن تنظيم المجتمع وضبطه، نقطة مهمة جداً في ضبط المجتمع وهي أن أي حدث أو اشتجار فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ[٣]، أي جعل الحُكم لله ورسوله" في جميع المشاكل بين أهل المدينة، وضرورة الخضوع لهذا الحكم، طالما أنهم مسلمون مقرون بالطاعة لله ورسوله، ومن جملة ذلك كانت جريمة القتل وما يتبعها من الأخذ بالثأر، إن عادة الأخذ بالثأر كانت من أخطر المشكلات التي كان يعاني منها مجتمع المدينة قبل الإسلام، وكانت سبباً في الفوضى واستمرار المشاكل في المدينة، كانوا يورثون أبناءهم ثاراتهم، إن تولي الدولة لتنفيذ العقوبة، مع منح المعتدى عليه أو وليه حق الاختيار بين إقامة الحد أو العفو، مع الترغيب بالعفو بوعد فاعله بالأجر العظيم، والثواب الكبير ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[٤]. وإذا ما اختار القصاص فهو بيد الدولة. لم يكن التزام بهذا الأمر مباشراً أو سهلاً، فقد كانت حميتهم في هذا الموضع كبيرة،

---

[١] - ابن شبة: تاريخ المدينة، ج١، ص٧٧.

[٢] - إدريس: مجتمع المدينة، ص١٣١.

[٣] - ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٥٣.

[٤] - سورة البقرة، الآيات ١٧٨، ١٧٩.

فتذكر المصادر أن الحارث بن سويد بن الصامت، قد قَتَلَ يومَ أُحُدٍ المجذّرَ بن ذياد غدراً أثناء الغزوة وهو معه في صف المسلمين، آخذاً بالثأر لقتله سويد بن الصامت قبل الهجرة، وقد أنبأ الله عز وجل نبيه ﷺ بالأمر، فذهب إليه في قباء، وجمع الناس، وقد أمر بأخذ القصاص العادل منه، فقتل بقتله المجذر[١].

كان الهدف من هذه الإجراءات والتنظيمات والتشريعات التي حصلت بعد الهجرة، وعمل رسول الله ﷺ على ترسيخها بين العناصر الموجودة في المدينة جعل النسيج المكون لمجتمع المدينة نسيجاً واحداً، منسجماً، لا خلل فيه، يخضع لسلطة واحدة، تجعل منه وسطاً مختلفاً وجديداً عن كل ما يحيط به، للنهوض بأمر نشر الإسلام وحمايته.

٢- التبدلات في العناصر المكونة لسكان المدينة:

كان اليهود عنصراً مهماً من العناصر الموجودة في المدينة، وله تأثيره الكبير على مختلف شؤون الحياة فيها، وكان رسول الله ﷺ مدركاً لهذا التأثير، لذلك قام بتنظيم العلاقة معهم، فكتب الصحيفة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، وبينهم، عاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، شرط لهم وشرط عليهم[٢]، وكان ﷺ يهدف إلى تنظيم الداخل ضمن سياسة عامة واحدة، حتى يتمكن من نشر الدعوة والتصدي لقريش، وكانت سياسته تصب في هذا المجال، فكل أمر مخالف يجب معالجته، وكل طرف يخرج عما تم الاتفاق عليه، ويهدف إلى زعزعة الأمن الداخلي للمدينة أو الوقوف إلى جانب قريش لابد أن يحاسب وينال الجزاء.

لم يكن إخراج اليهود من المدينة عن سابق عزم ونية مبيتة من رسول الله ﷺ كما يحاول البعض أن يشير إليه، بل إن الإسلام عموماً اتخذ موقفاً إيجابياً لدمجهم في الأمة الناشئة، التي كانت تستوعب جميع الأديان السماوية والأجناس البشرية، إلا أنهم أظهروا من العداوة، والغدر، ونقض العهد ما توجب إخراجهم وعقابهم على فعلهم، والبداية مع بني قينقاع، الذين كانوا أول قوم من يهود المدينة أظهر العداوة ونقض العهد إثر غزوة بدر[٣]، وكما سلفت الإشارة إليه بأن عوامل اقتصادية كانت الدافع لهم لاتخاذ هذا الموقف والعداء، فتم إجلاؤهم عن المدينة، بعد توسط عبد الله بن أُبي بن سلول فيهم.

[١]- سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٣، ص٢٨٨، ٢٨٩؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٢٧٤، ٢٧٥.
[٢]- ابن هشام: السيرة، مج١، ص٣٥١_ ٣٥٤؛ حميد الله: الوثائق، ص٥٩_ ٦٢.
[٣]- الدياربكري: تاريخ الخميس، ج١، ص٤٠٩.

وتبعهم بني النضير الذين هموا بالغدر وقتل رسول الله ﷺ عندما قدم إليهم، فأظهروا له الود، بينما كانوا يخططون لاغتياله بإلقاء رحىً عليه، فأنبأه الله عز وجل، فقام وأرسل إليهم، يعطيهم مدة للخروج من المدينة، وتدخل المنافقون وأغروهم بالقتال، فلم يخرجوا وحاصرهم الرسول ﷺ والمسلمون، حتى نزلوا على حكمه ﷺ، وأجلاهم عن المدينة [1].

وكانت الحادثة الأخطر في غدرهم يوم غزوة الأحزاب عندما تآمروا مع الأحزاب، ونقضوا العهد مع المسلمين، وأرادوا قتال المسلمين من خلف ظهورهم، إلا أن خطتهم فشلت، وهزم الأحزاب وانصرفوا راجعين[2]. وكانت النتيجة أن أصبح الوجود اليهودي في المدينة في السنة السادسة للهجرة مقتصراً على أفراد من بني النضير وقريظة خرجوا إلى المسلمين أثناء الحصار وأسلموا، وعلى جماعات متفرقة لم يكن لها تأثير[3]. فكان اليهود هم العنصر الذي خرج من المدينة، وقد عاد هذا الأمر بالفائدة عموماً على المدينة والمسلمين، فقد كانوا هم العنصر المعارض قيام الدولة والالتزام بأحكامها وضوابطها، وكذلك غير مندمج مع الأمة الناشئة ومسبب لكثير من الاضطراب والقلق لها، كما شكلوا مع المنافقين جبهة غير معلنة ضد المسلمين، فانتفى العنصر الغريب عن الأمة، وأصبحت مكوناتها منسجمة متشابهة.

ونتيجة التشجيع على الهجرة وإبقائه شرطاً في إكمال الدخول بالإسلام فقد شهدت المدينة قدوم ووفود عناصر بشرية من قبائل مختلفة، كما سلفت الإشارة إليه، فكانت قريش بالمقدمة، بشكل بديهي حيث بدأت الهجرة من مكة، وبدأ التوافد من العرب عموماً إلى المدينة بعد ذلك بشكل مستمر، أفراداً وجماعات، وأخيراً عشائر، فتذكر المصادر إسلام قبيلة جهينة، بأنه لما قدم الرسول ﷺ إلى المدينة قدم إليه عبد العزى بن قيس بن جهينة، ومعه أخوه لأمه، أسلما، وبايعا الرسول ﷺ على الإسلام، فخط لهم مسجدهم وهو أول مسجد خط في المدينة[4].

[1] - المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص١٨٨_ ١٩٢.

[2] - تم الحديث بشكل وافٍ عن العقاب الذي ناله بني قريظة بعد غدرهم بالمسلمين وكذلك العدد الصحيح، حيث قتلت المقاتلة فقط، وسبيت النساء والذرية.

[3] - يذكر المقريزي أسماء من أسلم، ومنهم ثغلبة بن سعيه، وأسد بن عبيد، فأمنوا أنفسهم وأهلهم وأموالهم.

[4] - ابن سعد: الطبقات، ج١،ص٣٣٣.

وفي السنة الخامسة للهجرة يرد ذكر إسلام كل من قبيلة مُزينة، وأشجع، وبني بكر بن وائل، ولقائهم رسول الله ﷺ[١].

وذكرت المصادر منازل القبائل التي نزلت، التي كانت كثيفة لدرجة جعلت السمهودي يبدي تعجبه بقوله: "ومن تأمل ما ذكر في دور المهاجرين ومنازل القبائل منهم مع ما سبق في منازل الأنصار رأى أمراً عظيماً فيما كان من عمارة المدينة وسعتها واتصال بعضها ببعض" [٢]. حيث أن المدينة تحولت من مجموعة مستقرات منفصلة كل منها وحدة قائمة إلى مدينة متصلة ببعضها، وقد استقر المهاجرون في الأراضي الموات، البور، أو في المزارع التي أخذت تتحول تدريجياً إلى محلات سكن، وقد تكتل المهاجرون الجدد وشكلوا مجموعات قائمة على وحدة النسب، ومحلات بأسمائها[٣].

ويعدد ابن شبة في تاريخه دور أي منازل هذه العشائر، فيبدأ بقريش وعشائرها، فيذكر دور بني زهرة، وبني تيم، وبني مخزوم، وكذلك دور بني عدي بن كعب، ودور بني جمح، وبني سهم، وبني عامر بن لؤي، ودور بني محارب بن فهر، وكذلك دور أحلافها قريش[٤]. ويذكر الدور والشوارع المحيطة بالمسجد النبوي، ويذكر المسافة بينها، يظهر أنها كانت تقريباً على مسافة متقاربة يحددها بخمسة أو ستة أذرع بين كل دار أو منزل وآخر[٥].

أما أماكن القبائل الأخرى، منازل كل من بني غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناف، ومنازل أسلم ومالك ابني أفصى، ومنازل مُزينة ومن حلّ معها من قيس الذين كانت ديارهم في البادية واحدة، ومنازل جهينة وبليّ، وأشجع وكذلك بني كعب بن عمرو وإخوانهم من بني المصطلق. كلها ضمن حرم المدينة، في الجانب الغربي والشمال الغربي من المدينة المنورة، في الخطط الخالية بين منازل الخزرج[٦].

١- ابن سعد: الطبقات، ج١،ص٢٩١، ٢٩٩، ٣٠٦.

٢- السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص١٠٤.

٣- العلي: الحجاز، ص٤٨١.

٤- ابن شبة: تاريخ المدينة، ج١، ص٢٤٢_ ٢٥٢.

٥- ابن شبة: تاريخ المدينة، ج١، ص٢٥٧، ٢٥٩.

٦- السامرائي و محمد، (خليل إبراهيم و ثائر حامد)، : المظاهر الحضرية للمدينة المنورة في عصر النبوة، الموصل، مطبعة الزهراء الحديثة، ط١، ١٩٨٤م، ص٥٦.

ولما خط الرسول ﷺ الدور حول المسجد لم يخط بادئ الأمر لمعظم المهاجرين الأوائل،، فظلوا نازلين في خطط الأنصار بعالية المدينة وفي قباء، منهم خباب بن الأرت والمقداد بن عمرو، اللذان نزلا على كلثوم بن الهدم، وبقيا حتى توفي قبل خروج الرسول ﷺ إلى بدر، فتحولا فنزلا على سعد بن عبادة، وبقيا حتى فتحت بنو قريظة[1]. كذلك لما خصّ عليه السلام أموال بني النضير للمهاجرين، خصهم بها لأنهم كانوا لا يزالون نازلين مع الأنصار في خططهم[2].

وقد بدأ التغير في البنية المعمارية للمدينة عندما خطّ رسول الله ﷺ المسجد النبوي، وبناه في منطقة تتوسط المجموعات السكنية المتناثرة وكأنه قلبها، فمن الجنوب العوالي وقباء، ومن الغرب حرة الوبرة، ومن الشمال أحد والجرف، ومن الشرق حرة واقم، وكانت الأرض المحيطة، أرض خالية من السكان بعضها خرائب مهملة ليس لها مالك، وفيها بقايا نخل، وبعضها ملك لبعض الأنصار وقد وهبوه الفضل منها، فأقطعها للصحابة، وظل يخط في المنطقة القريبة إلى قريب من عام الفتح، فعندما جاء خالد بن الوليد خط له أرضاً مما بقي، فبناها لكنه وجدها صغيرة، فشكى ذلك إلى رسول الله ﷺ فوجهه إلى أن يرفعها في السماء، فظهرت كتلة عمرانية متراصة تتجاوز فيها المساكن وتتلاصق وتحيط جميعها بالمسجد النبوي، وامتدت المسكن مع نهاية السنة العاشرة إلى منطقة بني ساعدة شمالاً، وبداية العوالي وقباء جنوباً، واتصلت بالبقيع شرقاً، واقتربت من السوق غرباً[3].

وقد أصبح تخطيط المدينة المنورة بعد الهجرة يعد رائداً في مجال تخطيط المدن بعد اتساع رقعة امتداد الدولة العربية الإسلامية، وبدء تخطيط مدن جديدة كالبصرة والكوفة والفسطاط، من حيث اتخاذ المسجد الجامع، نواة، في وسط المكان المحدد لتخطيط هذه المراكز، وبعد ذلك يتم البدء بتنظيم الخطط[4].

أي يمكن القول بأن الزيادة التي طرأت على المدينة بعد أن أقبل عليها المسلمون من مكة وغيرها كانت أكبر بكثير من أعداد اليهود الخارجين منها، وقد عمل الرسول ﷺ على تخفيف الهجرة

[1] - ابن سعد: الطبقات، ج٣، ص١٦٥، ١٦٦.
[2] - الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٧٩؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص١٩٢.
[3] - بدر: التاريخ الشامل، ج١، ص٢٤٨_ ٢٥٠.
[4] - الشمري: تخطيط المدينة المنورة، ص٢٢١.

قبيل الفتح، فأثناء الطريق إلى فتح مكة، جاء بريدة بن الحصيب الأسلمي بقبيلته أسلم، وأخبر رسول الله ﷺ بأن قسماً لم يهاجر وأنهم ظلوا على مواشيهم ومعاشهم، فقال له رسول الله: أنتم مهاجرون حيث كنتم"، بالمقابل لم يمنع أحداً من الإقامة في المدينة بعد الفتح، فقد جاء عدد من أهل مكة وأقاموا فيها بعد الفتح فظلت أعداد السكان في ازدياد[1].

ولابد من ذكر أهل الصّفّة الذين شكلوا فئة اجتماعية، ضمن مجتمع المدينة، كانوا تحت رعاية الرسول ﷺ، ومقربين منه، إلا أن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية جعلتهم يجتمعون في هذا المكان الذي أخذوا اسمه، هم الفئة الفقيرة من الصحابة، فتذكر المصادر أنه لم يكن لهم عريف، أو ولي، ولا مال ولا أهل، وكانوا غير متزوجين عزاباً، فتولاهم الرسول ﷺ وخصص لهم صفّة المسجد. هي فئة وجدت، إلا أنها كانت تتأثر بالأوضاع المستجدة، فقد تتسع وتزيد وقد تنقص، تبعاً للظروف المستجدة، أي أن وضعهم كان مرحلياً ومؤقتاً، ولم يكن نهائياً أي بقاؤهم في هذا المكان، أو ضمن هذه الصفة، عاشوا حياةً بسيطةً، فيها من الزهد ما أغرى بعض الأنصار إلى الانضمام إليهم لينالوا الأجر والثواب، منهم كعب بن مالك من بني سلمة[2]، ويكونون قريبين من رسول الله ﷺ، الأمر الذي كان له أثره في مدرسة الحديث النبوي لاحقاً، وقد جعل لهم رسول الله ﷺ عريفاً، هو أبو هريرة الدوسي إذا ما أراد رسول الله ﷺ إخبارهم بشيء أو إشراكهم طعاماً أرسل لهم عن طريقه، وكذلك هُم إن أرادوا شيئاً أرسلوا عن طريقه[3]. كان أهل الصفة فئة مختلطة من قبائل عدة، من المهاجرين الأوائل من قريش، ومن قبائل جاءت لاحقاً، وكان فيهم بعض الموالي، بلال بن رباح، وثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكذلك واثلة ابن الأسقع الليثي، وأبي ذر الغفاري، وكذلك يعيش بن قيس بن طهفة الغفاري، جابر بن جميل الأشجعي، وجرهد الأسلمي، غرقة الأزدي، وهلال مولى المغيرة بن شعبة، وغيرهم ممن ذكرتهم المصادر.

وهكذا فتحت الهجرة الباب أمام التغير في التركيب السكاني للمدينة، والتبدل، وكانت شرطاً حتى مرحلة متأخرة من العصر النبوي لا بد منه، الأمر الذي كان بحاجة إلى تنظيم وضبط منعاً لحدوث أية خلافات أو تعديات، وهذا ما تعامل معه رسول الله ﷺ وكان حريصاً على إحلال مفاهيم المساواة،

---

[1]- بدر: التاريخ الشامل، ج١، ص٢٤٢.

[2]- ابن أبي حاتم، (عبد الرحمن بن محمد، ت ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م): الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٥٢م، ج٧، ص١٦٠.

[3]- أبو نعيم: حلية الأولياء، ج١، ص٣٧٦.

والبعد عن العصبية، الأخوة، بإجراءات عملية عززت هذه المبادئ وساهمت في دمج الفئات والعشائر والقبائل المختلفة في مجتمع واحد.

ثانياً – تنظيمات اجتماعية وتشريعات جديدة في المجتمع.

لا يقتصر الحديث عن الوضع الاجتماعي والتغير الملموس والحاصل بعد الهجرة على مكونات المجتمع من عناصر سكانية، سواءً أصيلة باقية، أو حديثة قادمة، بل لا بد من الحديث عن أبرز العلاقات التي تربط جميع العناصر المكونة له، سواءً بين القبائل والعشائر من علاقات حلف وجوار في ظل الإسلام، وبين الجنسين من ذكور وإناث أي علاقات الزواج، فالإسلام كان ولا زال دين وشريعة حياة، والتغييرات التي أحدثها شملت كافة شؤون وخصائص الحياة، ولأن لكل مقامٍ مقال، سيتم الحديث بشكل سريع حول هذه الأمور، بشكل يعطي فكرة عن التطور الحاصل في هذا الميدان، دون الدخول إلى عمقه وتفاصيله الدقيقة، فيصبح الحديث حديث فقه وعبادات، والحديث هنا تاريخي يرصد أبرز وأهم هذه التطورات التي تشير إلى التقدم الحضاري عموماً والرقي الاجتماعي خصوصاً، الذي حصل في المدينة بعد الهجرة، وكان تمهيداً للنهضة التي ستشمل جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية.

١– علاقات الحلف والجوار في ظل الإسلام:

والبداية عن العلاقات بين العشائر والقبائل المكونة لمجتمع المدينة بعد الهجرة، لم تعد المدينة، كما سلفت الإشارة إليه، تقتصر على الأوس والخزرج من السكان، بل تعددت وتنوعت عناصر السكان، وكانت علاقات الحلف والجوار هي العلاقات التي تربط بين العشائر قبل الإسلام، وتتيح للقبائل الضعيفة الحماية، لكن الوضع اختلف بعد الإسلام، فالقبائل القادمة المهاجرة جاءت بدافع الإيمان بالله وبرسوله ورغبةً بالإسلام. ولقد عمل رسول الله ﷺ على استيعاب واحتضان ما كان من أمور ناظمة للحياة قبل الإسلام كعلاقات الحلف والجوار وحتى العصبية التي كانت موجودة، وتهذيبها أو أخذ الناحية الإيجابية منها، وترك ما هو غير نافع، وكذلك حصل في هذا الميدان.

ألغى رسول الله ﷺ كل حلفٍ في الإسلام بقوله: "لا حِلف في الإسلام، وأيّما حِلفٍ كانَ في الجاهليّةِ لمْ يزِدهُ الإسلامُ إلاّ شدّةً "[١]، أي منع عقد محالفات جديدة لأنّ مثل تلك الأحلاف تعني رفضاً للإسلام، فهي تفترض عدم كفاية الحماية التي تؤمّنها الدولة في ظل الإسلام[٢] ، كما أن أخوة الإسلام أغنت عن الأحلاف، لكنه أبقى ما كان من أحلاف، شرط ألا يتبع هذا الحلف أي التزام من قبل الحليف بحليفه من ثارات وصراعات، حيث كان الحليفان قبل الإسلام يتعاهدان بميثاق يشهد عليه الملأ بين الملتحق والملتحق به: دمي دمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، ترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك[٣]. ولا يخفى ما يحمّل هذا الطرفان من عبء ومسؤولية التزام بمواقف بعضهما، لا سيما وأنه لم يكن يوجد مرجعية يعود إليها الناس للفصل في أي نزاع. فالقاعدة في الإسلام﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[٤]. كما أن سلطة الدولة ممثلة برسول الله ﷺ، وضرورة الالتزام بها والخضوع لأحكامها، أغلق الباب الذي كان يدفع بالشخص إلى الالتجاء وطلب الحلف والجوار، فالقصاص، والعقاب لكل جريمة هي مهمة الدولة، وإذا ما قامت به فقد أسقط أي مطالبة بالثأر.

ومناصرة الحليف حليفه، تكون إذا كان مظلوماً فقط، أما إذا كان ظالماً فينبغي ويجب رده عن ظلمه، ولا يناصره عليه[٥].

وكان الحليف يرث إذا مات حليفه، قبل الإسلام، واستمر في الإسلام مدة ثم نسخته الآية الكريمة: "وأولو الأرحامِ بعضهم أولى ببعض في كتاب الله"[٦]. فبقيت النصرة والنصح والرفادة والعقل والولاء والمشورة.

وقد يكون الحلف بين فرد وقبيلة، وكان يحدث أن يلتحق بطن أو عائلة من قبيلة بقبيلة أخرى، فيكون أفرادها موالي القبيلة الجديدة، وكذلك تقوم المحالفات بين القبائل، فتحالف قبيلة قبيلة أخرى أو

١- مسلم: صحيح، ج٤، ص١٩٦١، رقم ٢٥٣٠.

2 -Watt: Muhammad, P.248.-

٣- الطبري: جامع البيان، ج٨، ص٢٧٦. في تفسير الآية ٣٣ من سورة النساء.

٤- سورة النجم، الآية ٣٨.

٥- البخاري: صحيح، ج٩، ص٢٢، رقم ٦٩٥٢.

٦- سورة الأنفال، الآية ٧٥.

عدة قبائل. وهذا التحالف يشبه المعاهدات السياسية في الوقت الحاضر[١]. وقد مر ذكر حلف قبيلة مُزينة للأوس، وكذلك قبيلة جهينة للخزرج[٢].

ولم يختلف الحال في علاقة الجوار، إلا أن الجوار كان بصورة مؤقتة، أما الحلف كان بصورة دائمة، فالجار يدخل في جوار قبيلة أو البطون من ترى فيهم القوة والعزة للحماية والاعتزاز، وقد ورد في القرآن أنه كان نتيجة للضعف طلباً للحماية والعزة[٣]، فيصبح في حماية المجير سواء فرد أو عشيرة، وأي اعتداء عليه اعتداء عليها، فيتوجب حمايته والأخذ بثأره، أقر الإسلام أمور حمايته ومنع الاعتداء عليه، إلا أنه منع الجار من الاعتداء على أحد أو ارتكاب الإثم، وضرورة الالتزام بنظام الدولة، كما أنه منع إجارة المرأة إلا بإذن أهلها، وكان قبل الإسلام من تسمى بمجير الظعن، كان يحميها حتى من أهلها.

وهكذا اعترف الإسلام بما كان موجوداً من قبل، إلا أنه جعله متكيفاً وفق نظمه وقوانينه، فلا حمية ولا عصبية، بل التزام بأمور الشرع وسلطة الدولة وقوانينها في نصرة المظلوم، للحفاظ على فائدة المجتمع، ولم تعد الحاجة التي كانت تدفع بالفرد أو القبيلة لطلب الحلف أو الجوار موجودة بعد أن خضع الجميع للإسلام ممثلاً بسلطة الدولة والقانون.

٢- الزواج ومكانة المرأة ودورها الفاعل:

وفيما يخص النوع الآخر من العلاقات التي تشكل النواة الأولى في تكوين المجتمع، أي الزواج وتكوين الأسرة، فقد اهتم الإسلام والرسول ﷺ بكافة أمورها، وأدق تفاصيلها، للحفاظ على صحتها واستمرارها بشكل جيد ينتج أفراداً متوازنين أشداء ، للنهوض بأمور الدعوة والجهاد.

وجد في شبه الجزيرة العربية أنواع متعددة من النكاح، كان الزواج على ما هو عليه اليوم أحدها، أي الزواج القائم على الخطبة والمهر، وعلى الإيجاب والقبول وهو ما يسمى بزواج البعولة، أبقى الإسلام عليه، وحرّم كل ما عداه لما فيه من أمور تؤدي إلى الفوضى والاختلاط بالأنساب، وكذلك لا تشجع

---

[١]- الشريف: مكة والمدينة، ص٥٦، ٥٧.

[٢]- ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٦٠١؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٨٧.

[٣]- قال تعالى: " وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذلّ وكبّره تكبيراً" سورة الإسراء، الآية ١١١.

على الحياة المستمرة، والإسهام بشكل فاعل في بناء المجتمع[١]. ومن جملة ما حرّمه ما كان يسمى بنكاح المقت، وكان ممقوتاً قبل الإسلام من الأغلبية من الناس لذلك سمي بزواج المقت، نشأ عن فكرة أن المرأة جزء من الميراث، ويبدو أن هذا النوع كان شائعاً في المدينة قبل الإسلام، حيث كان الوارث إذا لم يكن للمتوفى أبناء أو أخوة، يلقي ثوبه على المرأة فتكون في ملكه، إن شاء تزوجها وإن شاء عضلها، أي منعها من الزواج من غير مهر حتى تموت، فيرث ميراثها، إلا أن تفتدي نفسها بفدية ترضيه[٢]. وكان الابن الأكبر هو الأحق بذلك، فإذا لم يكن له حاجة تزوجها بعض أخوانه بمهر جديد[٣].

تذكر المصادر أنه عندما توفي أبو قيس بن الأسلت فورث ابنه نكاح زوجته كبيشة بنت معن بن عاصم الأوسي، لكنها كانت تعده بمثابة ولدها، فأتت رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك[٤]، فنزل قوله تعالى محرماً هذا الزواج:﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾[٥].

رغّب الإسلام عموماً بالزواج، وذكر بأنه من سنن الأنبياء :﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[٦]. وكذلك قوله تعالى:﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾[٧].

[١] - لمزيد من الاطلاع عن أنواع الزواج قبل الإسلام يمكن العودة إلى: علي: المفصل، ج٥، ص ٥٣٣_ ٥٤٨.

[٢] - الطبري: جامع البيان، ج٦، ص٥٤٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص٤٠٣؛ الحازمي: مجتمع يثرب، ص٩٨.

[٣] - ابن حبيب: المحبر، ص٣٢٥، ٣٢٦؛ النويري، (أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٣م، ج٣، ص١٢٠.

[٤] - العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٥، ص٣٦٥.

[٥] - سورة النساء، الآية ٢٢.

[٦] - سورة الرعد، الآية ٣٨.

[٧] - سورة النور، الآية ٣٢.

وقوله عليه الصلاة والسلام: " يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصرِ، وأحصنُ للفَرْجِ، ومن لم يستطع فعليه بالصَّوم، فإنّهُ لهُ وِجَاءٌ "[١]. وحض على مساعدة من يرغب بالزواج ولم يستطع: ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله". فقد جاء عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي إلى الرسول ﷺ يستعينه على النكاح [٢].

ولقد أعطى الإسلام المرأة ، ثيباً أو بكراً[٣]، الحرية الكاملة في إبداء رأيها فيمن يخطبها، بالقبول أو الرفض، وليس لوليها أو أبيها الحق في إجبارها على زواج من لا تريده، وذلك وفق قوله ﷺ: لا تُنكح الأيِّمُ حتى تُستأمَرَ، ولا تُنكحُ البِكْرُ حتى تُستأذنَ"[٤]، أعطاها الله عز وجل الحق في إلغاء عقد الزواج إن أكرهت عليه، وعن خنساء بنت خدام الأنصارية، أن أباها زوّجها وهي ثيب، فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحه[٥].

وكان رسول الله ﷺ يوصي الرجل مذكراً إياه بحقوق الزوجية، وأهمية رعايتها، ويقول ﷺ: استوصوا بالنساء خيراً[٦]. و "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي" [٧].

وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تبين وتوضح الصورة القائمة، وأهم التشريعات التي شرعها الله عزّ وجل في هذا الخصوص، وقد خصص الله عز وجل سورة كاملة باسم سورة النساء في القرآن الكريم لتوضيح الكثير من الأمور التي تتعلق بها، وكذلك في آيات متفرقة من سور مختلفة.

بدايةً لم يتحدث الله عز وجل في كتابه الكريم عن المرأة بأية سلبية، فهو يساوي بينها وبين الرجل في القيمة الإنسانية، الإيجابية، يقول الله عز وجل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

[١]- البخاري: صحيح، ج٧، ص٣، رقم ٥٠٦٦.
[٢]- الواقدي: المغازي، ج٢، ص٧٧٧.
[٣]- الثَّيِّب: هي المرأة فارقت زوجها، أو دخل بها، والبِكْر: بالكسر هي العذراء. الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج١، ص٦٤ ، ٣٥٤ على التوالي.
[٤]- البخاري: صحيح، ج٧، ص١٧، رقم ٥١٣٦.
[٥]- البخاري: صحيح، ج٧، ص١٨، رقم ٥١٣٨؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ج٢، ص٤٥٩؛ العسقلاني: الإصابة، ج٢، ص٢٣١.
[٦]- مسلم: صحيح، ج٢، ص١٠٩١، رقم ١٤٦٨.
[٧]- الترمذي: سنن، ج٥، ص٧٠٩، رقم ٣٨٩٥.

فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1]. وهي مكية، أي في مرحلة مبكرة في بدء الدعوة بدأت المفاهيم تتغير، وورد في الآيات المدنية آيات تبين ما للمرأة من الحقوق والواجبات، وما للرجل، ومنها قوله تعالى:﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾[2].وتوضح الآيات أن كلاً من الرجل والمرأة متساويان في الأجر وحسن الثواب، فليس في القرآن الكريم خط فكري يفضل الرجل على المرأة في المسؤولية وفي نتائجها، بل إن مسألة التفضيل تعود إلى قاعدة شاملة لهما تتلخص بقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[3].

ومن ضمن هذا المفهوم بالمساواة في القيمة الإنسانية فقد حرّم الله عز وجل ما كان البعض يقوم به من وأدٍ لبناتهم بعد الولادة، وإن لم تكن هذه الحالة عامة، فإنها كانت موجودة، وكذلك أظهر السوء الذي كان يحصل عند سماع الخبر بولادة الأنثى:﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[4]. حيث كانوا يخشون العار والمذلة، إن تعرضت للسبي والأسر، أو خشية الفقر والحاجة، بالمقابل بيّن رسول الله ﷺ أجر وثواب من ربى البنات، بقوله: " من عال جاريتين، أي ابنتين، حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو"، وضم أصابعه" وكذلك، " فله الجنة"[5]. وهن سترٌ من النار[6].

---

[1] - سورة النحل، الآية ٩٧.

[2] - سورة النساء، الآية ١٢٤.

[3] - سورة الحجرات، الآية ١٣.

[4] - النحل: (٥٧_ ٥٩) .

[5] - صحيح مسلم، ج٤، ص ٢٠٢٧، رقم ٢٦٣١؛ الترمذي: سنن، ج ٤، ص ٣٣٨، رقم ٥١٤٧.

[6] - صحيح مسلم، ج٤، ص ٢٠٢٧، رقم ٢٦٢٩.

ويقول أيضاً: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَكُونُ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَيُنْفِقُ عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَبِنَّ أَوْ يَمُتْنَ إِلَّا كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ [١]. فكان رسول الله ﷺ يشدد ويؤكد على ما يرد في القرآن الكريم حتى يعتاده الناس ويألفوه ويعملوا به.

كما أن الله عز وجل نهى المسلمين عن الإساءة إلى من هن تحت وصايتهم، من اليتيمات من أقربائهم، أن يتزوجوا بهنّ رغبة في الزواج دون مهر أو بمهر قليل والإساءة إليهن بعد ذلك، أو تعسير أمر الزواج بغيرهم طمعاً برفع مهرهن والذي لم يكن يصل للمرأة بل لوليها [٢]، وحرّم النكاح ما فوق الأربع مع تفضيل الاقتصار على زوجة واحدة، خشية عدم العدل بينهن، إلا أن الأمر أي تحديد العدد اقتصر على الحرائر من النساء دون الإماء أو ملك اليمين[٣]. فقد كان البعض قد تزوج بالعشر من النساء والأكثر والأقل، كغيلان بن سلمة الثقفي الذي أسلم وكانت تحته عشرُ نسوة، فأمره رسول الله ﷺ باختيار أربعة وتسريح البقية[٤]، وكذلك الحارث بن قيس بن عميرة الأسدي أسلم وكان تحته ثماني نسوة[٥].

وهذا التحديد لم يشمل رسول الله ﷺ، فقد كان له من الزوجات، بعد وفاة السيدة خديجة بنت خويلد، ثلاث عشرة، لم يجمع في وقت واحد أكثر من تسع زوجات[٦]، وكان في كل نكاح له عليه الصلاة والسلام فائدة وحكمة وموعظة حسنة، من توفير رعاية اجتماعية وحماية لدينها كزوجه عليه السلام من سودة بنت زمعة التي توفي عنها زوجها الصحابي السكران في الحبشة، فكان زوج رسول الله منها إنقاذاً لها من العودة إلى بيت أبيها الكافر وشقيقها الذي أخذ يحثو التراب على رأسه عندما علم بزواج شقيقته من النبي ﷺ[٧]، أو إنهاءً لحالة موجودة كزواجه من زينب بنت جحش التي كانت تحت زيد

١- الطبراني: المعجم الكبير، ج١٨، ص٥٦، رقم ١٠٢.

٢- الطبري: جامع البيان، ج٧، ص٥٣١. في تفسير سورة النساء.

٣- سورة النساء، الآية ٣، ٤.

٤-أبو نعيم، (أحمد بن عبد الله، . ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م): معرفة الصحابة، تح: عادل يوسف العزاوي، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٩٩٨م، ج٤، ص٢٢٧٠.

٥-ابن عبد البر: الاستيعاب، ج١، ص٢٩٩.

٦- للتوسع يمكن العودة إلى ابن سعد: الطبقات، ج٨، ص٥٢ وما بعد. ابن بكار، (الزبير، ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م): المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ، تح: سكينة الشهابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

٧- ابن سعد: الطبقات، ج٤، ص٢٠٤، وَ ج٨، ص٥٢.

بن حارثة، لتشريع الزواج من زوجات الأدعياء بنص إلهي، حيث كانوا يحرمون الزواج بهن قبل الإسلام، وكان هذا موضع فخر لزينب فكانت تقول: الله عز وجل أنكحني من السماء[١].

ونزل الأمر بتفصيل هذا الأمر من حيث تحريم الزواج من المشركات، أو المشركين، وكذلك نهي المسلمين عن الاحتفاظ بزوجاتهم الكافرات: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾[٢].

وأتاح وشرّع للمسلمين الزواج من نساء أهل الكتاب المحصنات منهن أي اللواتي يشتهرن بالعفاف والصيانة، دون زواج المسلمات من رجالهم [٣]، وحكمة ذلك غير خفية، فالرجل قوّام الأسرة أي المسؤول عن النفقة وإليه ينسب النسل، فليس في تزوجه من كتابية محظور من وجهة النظر الإسلامية، بل إنه مفيد، وعكس ذلك في تزوج المسلمات بغير المسلمين[٤].

وفي حال حصول خلاف بين الزوج والزوجة، فقد ورد ذكر ذلك في القرآن، بأن يتم التدرج في معالجة الأمر، بالوعظ، والهجر في المضاجع، وكذلك توسيط أهل الحكمة من أهل الطرفين الزوج والزوجة لإحلال الصلح بينهما، وكذلك إن كان الزوج لا يعدل بين زوجاته فلا مانع من العمل على إحلال الصلح بينهما، مع التشجيع على الاكتفاء بزوجة واحدة لأن العدل بين الزوجات أمرٌ متعذرٌ[٥].

هذا وقد حدد الله عز وجل ما هو محرّم من النكاح، وورد ذكره في سورة النساء أيضاً، وهن ذوات المحارم من القرابة والنسب والمصاهرة، الأمهات والبنات، والأخوات، والعمات والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، وأمهات الرضاعة، وأخوات الرضاعة كذلك، وأم الزوجة، وبناتها، وزوجة الابن، وكذلك

[١] - ابن بكار: المنتخب من أزواج النبي، ص٤٨.
[٢] - سورة البقرة، الآية ٢٢١.
[٣] - سورة المائدة، الآية ٥.
[٤] - دروزة: سيرة الرسول، ج٢، ص٤٥٢.
[٥] - سورة النساء، الآية ٣٤، ٣٥. و الآيات ١٢٨_ ١٣٩.

أسقط الجمع بين المحارم، فحرم الجمع بين الأختين، وكذلك الجمع بين المرأة وخالتها أو عمتها[١]. وأكد على ذلك رسول الله ﷺ بأن " لاَ يُجْمَعُ بَيْنَ المرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَلاَ بَيْنَ المرْأَةِ وَخَالَتِهَا" [٢].

وكما اهتم الإسلام بأمر الزواج ونظمه، كذلك لم يغفل الاهتمام بأمر الطلاق، فحدد عدد المرات التي يطلق بها الرجل زوجته، بثلاث، وأباح له في التطليقتين الأوليتين أن يتراجعا، وحرّم ذلك بعد الثالثة، وقد كان الأمر مفتوحاً قبل ذلك، حيث ورد أن البعض طلق زوجته ألف مرة. وقد حذّر الرجل من الإمساك والامتناع عن الطلاق بغية الإضرار بالزوجة حيث يرجعها قبل انقضاء عدتها[٣]، فمن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه، وبالمقابل فمن تحصل على الطلاق عليها الالتزام مدة حددها بثلاثة قروء، لاستبراء الرحم، وحذّر عاقبة كتمان الحمل، وأعطى للرجل الفرصة بردها في حال وجود حمل منه بغية الإصلاح[٤].

كما أتاح الإسلام للمرأة أن تطلب هي الخلع من زوجها، إن كان ثمة سبب سيحول دون إقامة حدود الله، فيطيعاه فيما ألزم كل واحد[٥].

هي أمور وردت في القرآن وفصل فيها الله عز وجل لأن كثيراً من التعديات والظلم في هذا الأمر كان يقع مجمله على المرأة، عمل الإسلام على تخليصها منه، وقد خصص سورة كاملة للطلاق في القرآن الكريم، للتنبيه والتشديد على الالتزام بأحكام الله عز وجل.

وإن الاهتمام بأمر الزواج وما يتعلق بالحياة الزوجية، ما هو في حقيقته إلا اهتمام بأمور المرأة أكثر من الرجل، وذلك لأن الرجل كان قبل الإسلام هو المسيطر في هذا الأمر، وتعدد الآيات في هذا الميدان ما هو إلا دليل على مخالفات وتعديات حصلت بعد بدء التشريع في تنظيم هذا الأمر.

وإن كل ما مر ذكره من حصر أنواع الزواج بزواج واحد، ومن ترغيب الشباب بالزواج، ومساعدة من لم يستطع، وصولاً إلى التزام المرأة بعدةٍ حددها الإسلام بالنسبة للمطلقة أو الأرملة، فقد كان الهدف منه

١- الآية ٢٢، ٢٣.
٢- البخاري: صحيح، ج٧، ص١٢، رقم ٥١٠٩.
٣- الطبري: جامع البيان، ج٤، ص٥٤٠.
٤- تفصيل كل ذلك في سورة البقرة، الآيات ٢٢٦_ ٢٣٣.
٥- الطبري: جامع البيان، ج٤، ص٥٥٢.

منع وتحريم الزنا، الذي يهدم ويخرب كيان أي أسرة، ويفضي في النهاية إلى اختلاط في الأنساب، والابتعاد عن الغاية السامية التي جعل الله تعالى من الزواج طريقاً إليها، وجاءت محاربة الزنا بالتدريج، من خلال كما سلف القول التشجيع على الزواج والمساعدة في ذلك، وكراهية المغالاة في المهور، والإعراض عن الزواج خشية الفقر وعدم القدرة على تحمل أعباء معيشة الأولاد، وأخيراً فرض عقاب شديد على مرتكبه.

كان **الزنا** من الأمراض الاجتماعية المستشرية في الوسط الجاهلي، أي قبل الإسلام، سواء في المدينة أو في مكة، وغيرهما، فليس من شريعة صحيحة تلزمهم بالامتناع عن فعل ذلك، أو الالتزام بشكل واحد من الاتصال الصحيح والمشروع، حيث كان العُرف والعادة هو الحاكم في هذه الأمور وكثيراً ما ابتعد العُرف عن المجرى الصحيح، فجاء الإسلام ليصحح ويقوّم هذا الأمر.

وكان لا بد من معاقبة من يرتكب هذا الأمر، بإقامة الحد وهو الرجم للمحصن والمحصنة، والجلد مائة جلدة للبكر عليه كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، وكان قبل هذا للمحصنة الحبس والإيقاف تحبس في البيوت لا تترك تنكح[٢].

وفي ما يخص المرأة وما منحها الإسلام من حقوق، فلا بد من ذكر أن الإسلام لم يلغِ فقط وراثة الابن لزوجة الأب، وسلبها أية إرادة، بل إنه منحها حق الوراثة، فما عادت تورث كالمتاع، بل أصبح لها حقٌ في الميراث، وحدّد الله عز وجل في كتابه الكريم ذلك بقوله: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾[٣]، ولم يكن للنساء أو البنات أي نصيب من الميراث، وقد نزلت آية المواريث بعد شكوى جاءت بها أرملة رجل من

[١]- سورة النور، الآية ٢.

[٢]- الطبري: جامع البيان، ج٢٢، ص٤٣٩.

[٣]- سورة النساء، الآية ٧.

الأنصار، توفي وله أربع بنات، وقد ترك مالاً حسناً، لكن أبناء عمه قد أخذوا المال ولم يتركوا لهن شيئاً، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ، وردّ ما أخذوه وقسمه وفق الآية[١].

كما كفل للمرأة حق التملك والتصرف في أموالها، الشراء، والهبة، والوصية، والشهادة، وفي شتى مجالات الحياة أقر لها الإسلام دوراً، وشاركت أيام الرسول ﷺ في شتى المجالات، سواء في السلم والحرب، فقد ورد ذكر رفيدة الأسلمية وخيمتها التي مرّضت فيها سعد بن معاذ، بعدما أصيب يوم الخندق، وكانت نسيبة بنت كعب المازنية حاضرة في كثير من الغزوات مع رسول الله ﷺ، وكانت ممن صمد يوم أحد وممن وقف مدافعاً عنه عليه الصلاة والسلام وقد أصيبت بجراحات كثيرة، وكذلك أم سنان الأسلمية، وأم سليم، وأم عطية الأنصارية. فالمرأة في الإسلام في هذه المرحلة كانت حاضرة إلى جانب الرجل وفق القدرات، وبالحدود التي تستطيع.

وقد ورد حديث عن رسول الله ﷺ أخذه البعض نقطة للطعن بما أعطى الإسلام للمرأة من حقوق وللتقليل من شأنها وهو: " يا معشر النساء ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن"[٢]. وقد صدر عن النبي في سياق ملاطفة كانت في أحد الأعياد، وكانت تعبيراً عن تعجب الرسول من التناقض القائم في ظاهرة تغلب النساء وفيهن ضعف، على الرجال ذوي الحزم، أي التعجب من حكمة الله الذي وضع القوة حيث مظنة الضعف، وأخرج الضعف من مظنة القوة، وهذا مفهوم لا علاقة له بالتقليل من شأن فطرة المرأة أو قدرتها أو كفاءتها العقلية، أما ناقصات الدين، وفقاً للحديث فلا تفضيل بين الرجل والمرأة في الحساب إلا بقدر القيام بالتكليف الصحيح المؤمن والعمل الصالح مثلها كمثل الطفل أو المراهق الذي لم يبلغ سن البلوغ بعد، ويوصف بأنه ناقص دين، ولا يعني ذلك تقصيراً أو تهاوناً منه، بل لأنه لم يكلف بعد بشيء من مبادئ الدين وأحكامه[٣].

---

[١]-ابن حبيب: المحبر، ص٣٢٤، ٣٢٥؛ الثعلبي: الكشف والبيان، ج٣، ص٢٦٠. ذكر القصة ابن سعد في أرملة سعد بن الربيع، وقد ترك ابنتان، فأخذ عمهما مالهما ولم يدع شيئاً. ج٣، ص٥٢٤؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢، ص١٢٨.

[٢]- البخاري: صحيح، ج١، ص٦٨، رقم ٣٠٤؛ مسلم: صحيح، ج١، ص٨٦، رقم ٧٩؛ ابن حنبل: مسند، ج٩، ص٢٤٥، رقم ٥٣٤٣.

[٣]- قصاب، عبد اللطيف ياسين: الجنس والمرأة عبر العصور، د.ن، دمشق، ٢٠٠٩م، ص٤٦١.

كانت هذه أبرز النقاط التي أكد عليها الإسلام فيما يخص الزواج وما يتعلق به، وينظم أموره، ويهتم بشأن المرأة عموماً، من اعتراف بوجودها مع الرجل على قدم من المساواة، دون التقليل من شأنها، إلى إعطائها حقوقاً لم يكن يعترف لها بها المجتمع الذي كانت تعيش فيه، بل يسلبها إياها.

٣- معاملة الرقيق في الإسلام:

يرجع نشوء الرق إلى ما قبل الإسلام بزمن بعيد، أوجدته الأمم السالفة وعدته نظاماً طبيعياً وإلهياً، ونهائياً، وقد عرف الناس في الحصول على الرقيق مصادر وأساليب مختلفة، لعل الغزو والحروب ، وما كان يقع فيها من السبي والاسترقاق من أهم المصادر[١]، فقد أدرك زيد بن حارثة سباء قبل الإسلام، وسيق إلى سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن حزام لخديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ بأربعمائة درهم[٢]، وكذلك أعمال الخطف كما حصل لسلمان الفارسي أثناء قدومه إلى الحجاز[٣]، وكان الفقر والعجز عن الوفاء بالدين، والرهن على النساء والذرية من موارد الحصول على الرقيق .

وكان الرقيق يعد من السلع التجارية المتداولة، وكانت تجارته رائجة ورابحة، ويطلق اسم النخاسين على تجاره، كما يطلق أيضاً على من يبيع الدواب[٤]، وفي هذا مؤشر واضح إلى الدرجة التي كان ينظر من خلالها إلى الرقيق، عندما يساووه بالدواب.

كانت أبواب الرق مفتوحة عند بدء الإسلام، فأغلقها كلها ما عدا باب واحد، كان لا بد أن يظل مفتوحاً وهو رقيق الحرب، الأسرى، وذلك حتى يكون هناك رادع للعدو من الكفار، وسلاح بيد المسلمين يدفع به الأخطار، ويضغط به على العدو[٥]. إلا أن هذا لم يكن هدف الدعوة أو هدف وضعه رسول الله ﷺ ، لكنه كما سلف القول، وسيلة ضد العدو رادعة، والدليل عدم الاحتفاظ بهؤلاء الأسرى وسبايا الحرب بعد الانتهاء، فقد كان يتم التصرف بهم بإحدى طريقتين إما إطلاق سراحهم

١- بطاينة، (محمد ضيف الله): الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٨م، ص١١٦، ١١٧.

٢- العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٢، ص٤٩٥.

٣- ابن هشام: السيرة النبوية، مج١، ص١٤٩، ١٥٠؛ ابن سعد: الطبقات، ج٤، ص٧٨؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ج٢ ، ص ٦٣٤.

٤- الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ص٥٧٦.

٥- الوكيل: المدينة، ص٦٢.

بالفداء، أو بالمنّ، وقد نزل القرآن معاتباً في بدء الأمر لرسول الله ﷺ لاتخاذه الأسرى بدلاً من قتل الكفار حتى يقوى الإسلام ويكون مرهوب الجانب وتتوطد هيبته في الأرض[١]، ولكنه بعد ذلك بعد أن قوي جانب المسلمين أمر بأخذ الأسرى بعد إضعاف العدو بقتل أكبر عدد منه وإرهابه دون إبادة[٢]. وهذا ما عمل به رسول الله ﷺ فقد فادى الأسرى يوم بدر ، ومنّ على قسم منهم[٣]، ومنّ على أسرى بني المصطلق، وكذلك على سكان خيبر رغم فتحها عنوة، وأيضاً في فتح مكة، لم يسترق من هؤلاء وأبقاهم أحراراً.

ويساوي الإسلام بين جميع البشر في المعاملة الإنسانية، ولا فرق ولا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح، ولذا فالإسلام لا يعترف بالعبودية لغير الله، وعدّ الرق حالة مستحدثة وطارئة ومؤقتة، وليست طبيعية، لأن الأصل هو الحرية، لكن الإسلام وجد في مرحلة تاريخية كان الرق فيها نظاماً دولياً، ليس فقط في شبه الجزيرة العربية، لذلك لم يكن بالإمكان إلغاؤه بشكل نهائي ومن جانب واحد، إلا أنه شرّع العتق ورغّب فيه، وأقرّ عدة إجراءات كان من شأنها تخفيف العبودية والتوسع في فتح أبواب للحرية، في المرحلة المكية وردت إشارات إلى أنه كان نظاماً قائماً مألوفاً أولاً في بعض الآيات[٤]، ودعوةٌ إلى عتق الأرقاء الذي فيه منجاة من جهنم، وهو من أحسن القربات إلى الله تعالى[٥].

كان أهل المدينة يعتمدون في حياتهم الاقتصادية، على الزراعة، فكان أمر وجود العبيد ضرورة من الضرورات، للاعتماد الكبير عليهم لقيامهم بكثير من الأعمال والخدمات التي يصعب القيام بها، ولاسيما العمل بالأرض، وكذلك للعمل بمختلف الصناعات والحرف التي كان يأنف العرب من الاشتغال بها، وما يدل على ضرورة وجود المولى عند الأنصار، أن غلام تعرض للطم من قبل مالكه، فأتى رسول الله ﷺ، وشكى إليه فأعتقه النبي ﷺ ، فقيل له: يا رسول الله ليس لهم خادم غيره، فقال: فليخدمهم

١- سورة الأنفال، الآيات ٦٧_ ٦٩. ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض... .

٢- سورة محمد، الآية ٤. "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فغما منّاً بعدُ وإمّا فداءً حتى تضع الحرب أوزارها..." .

٣- الطبري: تاريخ، ج٢، ص٤٧٦؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج٣، ص١١٠؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص١١٥ .

٤- قوله تعالى: "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ". سورة النحل، الآية (٧٥)، وهي مكية. وكذلك سورة الروم، الآية ٢٨. وسورة المعارج، الآية ٢٩، ٣٠.

٥- سورة البلد، الآيات (١١_١٤).

حتى يستغنوا[١]. وهذا يرجح أن نسبة الأرقاء في المدينة لم تكن قليلة، للحاجة إلى مجهودهم، وكذلك لما كانوا يتقنوه من حرف وصناعات، كان ملّاكهم يفرضون عليهم مبلغاً يجب أن يؤدوه لهم، فعندما احتجم رسول الله عند أبي ظبية، أمر له بصاع من تمر، وطلب من أهله أن يخففوا من خراجه.

واستمر الأمر على هذا السياق في المدينة بعد الهجرة، فقد اعترف الإسلام بالوضع القائم، إلا أنه أمر بالإحسان إليهم، وعدهم مع الوالدين وذوي القربى، بقوله تعالى:﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾[٢]. وعدم التعامل معهم بدونية والارتفاع بالنظر لهم، ولو على صعيد اللقب المستعمل، ومن هنا نهى رسول الله ﷺ عن استعمال لقب رب، وعبد، بقوله: " لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ وَضِّئْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي مَوْلاَيَ، وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلاَمِي "[٣].

أوصى الإسلام بالرقيق خيراً، أن جعلهم إخواناً لمن يملكهم، وأمر السادة أن يطعموهم ويلبسوهم ما يأكلون ويلبسون، وتكليفهم بأعمال حسب قدرتهم على التحمل، وعن رسول الله ﷺ أنه قال : «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».[٤].

وحذر من سوء العاقبة لمن يظلم غلامه، أو يضربه بقسوة، فجعل الرسول ﷺ كفارة من يضرب غلامه عتقه، بقوله: "مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ، أَوْ ضَرَبَهُ، فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ"[٥]. وعندما كان أبو مسعود الأنصاري يضرب غلاماً له، وإذ به يسمع صوتاً من خلفه، وإذا برسول الله ﷺ يقول له: " اعلَمْ، أبا

[١] - العسقلاني: الاصابة، ج٦، ص١٢٣.
[٢] - سورة النساء، الآية ٣٦.
[٣] - البخاري: صحيح، ج٣، ص١٥٠، رقم ٢٥٥٢.
[٤] - البخاري: صحيح، ج٣، ص١٤٩، رقم ٢٥٤٥.
[٥] - أبو داوود: سنن، ج٤، ص٣٤٢، رقم ٥١٦٨.

مسعودٍ، لَلّهُ أقدرُ عليك منك عليه" فما كان من أبي مسعود إلا أن أعتقه لوجه الله، فقال ﷺ: لو لم تفعل لمسّتك النار"[١].

بالمقابل دلّ الإسلام على أهمية صون المولى لمال مولاه، وقيامه بالعمل المكلف على أتم وجه وأحسن صورة،: قَالَ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْهُمْ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤولَةٌ عَنْهُمْ، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[٢]. وجعل أجر وثواب العبد مضاعفاً « إِذَا نَصَحَ سَيِّدَهُ، وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ، كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ» [٣].

وكانت العلاقة بين الرقيق والمالك تنتهي بالعتق وتحرير الغلام في كثير من الحالات، حيث شجع الإسلام على العتق عموماً، وجعل كفارة أمور عديدة هي عتق رقبة، ومن جملة ذلك: كفارة من يظاهر امرأته، أي يطلقها بطلاق الجاهلية، ثم يعود عنه، وفقاً لقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾[٤]. وكذلك في كفارة الحنث باليمين بقوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[٥]. وجعل كفارة من قتل مؤمناً بالخطأ دون قصد، تحرير رقبة مع دفع الدية، وإن كان مؤمناً في قوم من الكفار فتحرير رقبة، وإن كان كافراً لكنه من قوم بينهم وبين المسلمين عهدٌ وميثاق فتحرير رقبة كذلك[٦].

---

[١] - مسلم: صحيح، ج٣، ص١٢٨١، رقم ١٦٥٩.

[٢] - البخاري: صحيح، ج٣، ص١٥٠، رقم ٢٥٥٤.

[٣] - البخاري: صحيح، ج٣، ص١٤٩، رقم ٢٥٤٦.

[٤] - سورة المجادلة، الآية ٣.

[٥] - سورة المائدة، الآية ٨٩.

[٦] - سورة النساء، الآية ٩٢.

كما تحملت الدولة مسؤولية تحريرهم، عن طريق تخصيص جزء من الزكاة لهذا الأمر، وفقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾[١]. وفي ذلك تلميحٌ واضحٌ إلى أن العتق موت، والتحرير حياة، فمن قتل نفساً عليه أن يحيي مكانها نفساً أخرى، وذلك بتحرير رقبة، وفي تحريرها إحياء لها، وإخراج من العبودية التي هي تقييد للحياة[٢].

وقد شجع رسول الله ﷺ المؤمنين على تحرير الرقيق ، بقوله: " أن من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من النار، حتى يعتق فرجه بفرجه"[٣]، وحض على ذلك عند وفاة المالك، حيث وجه رسول الله ﷺ سعد بن عبادة أن يعتق عن أمه المتوفاة، وكذلك فعلت السيدة عائشة عن أخيها عبد الرحمن.

كما كانت المكاتبة سبيلاً إلى العتق، وهي أن يكاتب الرجل غلامه أو مملوكه على مالٍ يؤديه إليه، على مدة من الزمن، فإن أداه صار حراً [٤]، وورد ذلك في قوله تعالى: " ... فكاتبوهم إن علمتم بهم خيراً ... " [٥]، أي أن يكون قادر على الكسب كي لا يصبح عالة على الناس، وقد يطلب المملوك المساعدة في أداء ما عليه، كسلمان الفارسي الذي قدم له رسول الله ﷺ العون بعد قدومه إلى المدينة في القدر الذي كان قد كاتب على أدائه لليهودي الذي يملكه ليرجع إلى الحرية[٦]، مثل بريرة التي جاءت إلى السيدة عائشة زوج رسول الله ﷺ تستعينها في أداء ما عليها[٧]، وكذلك كان المكاتَب يساعد من أموال الزكاة في أداء ما عليه[٨].

---

[١]- سورة التوبة، الآية ٦٠.

[٢]- الوكيل: المدينة، ص٦٣؛ بطاينة: الحياة الاجتماعية، ص١٣٣، ١٣٤.

[٣]- مسلم: صحيح، ج٢، ص١١٤٧، رقم ١٥٠٩.

[٤]- ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٧٠٠. مادة كتب.

[٥]- سورة النور، الآية ٣٣.

[٦]- ابن هشام: السيرة، مج١، ص ١٤٩

[٧]- مسلم: صحيح، ج٢، ص١١٤١، رقم ١٥٠٤.

[٨]- الطبري: جامع البيان، ج١٤، ص٣١٧.

كان زواج الموالي من الحرائر أمراً مستهجناً، ولكن رسول الله ﷺ عمل على التقليل من حدة هذا الأمر وردة الفعل عند البعض، فزوج مولاه زيد بن حارثة من زينب بنت جحش، التي كرهت ذلك ولم تقبل في بادئ الأمر[١]، حتى نزل أمر الله بلزوم القبول، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[٢]، ثم طلّقها بعد ذلك، وكذلك زوّجه من أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وقد كانتا على منزلةٍ وشرف[٣].

وكانت الإماء أو الجواري تعد ملك يمين لصاحبها، وأباح له الإسلام الاتصال بهن بما عرف باسم التسري، والزواج منهن، وفقاً للآية الكريمة﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾[٤]. وقد تسرر رسول الله ﷺ مارية القبطية، وأعتقها بولادة ابنه إبراهيم.

إن أهم مسألة في هذه النقطة، نقطة تسرر مُلك اليمين هو إلحاق الولد الذي تنجبه الأمة بصفوف الأحرار، فتصبح هي أم ولد، وعند موت مالكها تُعتق، لأن الولد يعتقها، وهذا لم يكن موجوداً قبل الإسلام، فيكون بهذا الإسلام قد فتح باباً جديداً من أبواب الحرية وضيّق دائرة العبودية دون أن يُحدث أية هزة في النظام الاجتماعي[٥]. وقد شجع القرآن الكريم ورسول الله ﷺ على الزواج من الإماء المسلمات، فقد تزوج عبد الله بن أبي رواحة من أمة سوداء ورعة.

ولقد نظم الإسلام هذا الأمر ووضع له شروطاً، فكما وجد للزواج محارم، كذلك في التسري وجد أيضاً، حيث حرّم الإسلام إتيان الأمة إن كانت حاملاً، وحرّم وطأ الأختين، وكذلك الأم وابنتها، وإن كانت الأمة متزوجة من مملوك، ولو كان هذا المملوك ملكاً للسيد نفسه، فإنها لا تحل للوطأ. وأجاز للرجل أن يجمع أكثر من أربع إماء بينما حرم ذلك في النكاح.

---

[١] - الثعلبي: الكشف والبيان، ج٨، ص٤٦.

[٢] - سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

[٣] - العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٢، ص٤٩٦.

[٤] - سورة المؤمنون، الآية٦.

[٥] - ياسين: التنظيمات، ص١٤٥.

وقد فرق الإسلام بين الأمة والمرأة المسلمة الحرة بالحجاب، الذي نزل القرآن بفرضه على نساء المسلمات، كي لا يتعرضن لأية مضايقات كانت تتعرض لها الإماء، حيث كن يخرجن كاشفات الوجه والشعر[١]، بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ ﴾[٢].

وكان للموالي تأثير في مجال الغناء، وكانوا يتقنونه ويقومون به في مناسبات عامة كالزواج، ومناسبات أخرى، فتذكر المصادر أن الحبشة لعبت بحرابها فرحاً بقدوم رسول الله ﷺ، وخرج جوارٍ من بني النجار يضربن الدفوف ويغنين. ولم ينهَ عنه رسول الله ﷺ في حفلات الزواج للإشهار والإعلان، بل إنه عليه السلام سأل السيدة عائشة ما إذا كانت أرسلت إلى حفل زواج جارية يتيمة لها، معها من يغني[٣].

٤- ضوابط ونواهي في مفاصل الحياة اليومية لصلاح المجتمع:

وجاءت هذه الضوابط والنواهي على شكل توجيهات من رسول الله ﷺ، وعلى شكل أوامر نزل بها القرآن الكريم، تناولت كل الأمور السلبية والعادات السيئة التي كانت تؤدي إلى التباعد بين الناس، وتسبب الفرقة، وفي بعضها عدم احترام لخصوصية الفرد، بدءاً من أمور تخص حرمة المنزل، وأمور تخص ما يحيط به من جوار، إلى أمور أعم لتشمل كثير من الجوانب السلوكية في المجتمع.

والبداية من تغيير النظرة في تقويم الفرد، وعدم التفاخر بالنسب، أو المال، لأن أساس التفاخر في الإسلام التقوى، وفقاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[٤]، فلا أحد يعيّر أحد ولا ينتقصه أو يحط من شأنه، وعد ذلك رسول الله ﷺ من أمر الجاهلية ورواسبها[٥].

[١]- الطبري: جامع البيان، ج٢٠، ص٣٢٤.
[٢]- سورة الأحزاب، الآية ٥٩.
[٣]- العسقلاني: الإصابة، ج٨، ص١٦٥؛ الكتاني: التراتيب الإدارية، ج٢، ص٧٩.
[٤]- سورة الحجرات، الآية ١٣.
[٥]- البخاري: صحيح، ج١، ص١٥، رقم ٣٠.

وكذلك نهى الله عز وجل عن التنابز بالألقاب، والسخرية من بعضهم لما يورث ذلك من بغضاء وفرقة، بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[1].

وحض على الوفاء بالعهد وعده البر من العمل، وهو مكمّل ومتمّم لفرائض الإسلام﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[2].

وكذلك عدّ صلة الرحم سبباً في دخول الجنة، فعندما سأل الأعرابي رسول الله ﷺ بما يقربه إلى الجنة، فأجابه عليه الصلاة والسلام: " تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ"[3]. وسبباً في بسط الرزق: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ[4].

وأمر الله عز وجل بالإحسان إلى الجار في المسكن، كما أمر بالإحسان إلى الوالدين والبر بهما، بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[5]، وقد بيّن رسول الله ﷺ حق الجار بقوله: "ما زال يوصيني جبريل بالجار، حتى ظننت أنه سيورّثه"[6].

[1] - سورة الحجرات، الآية ١١.
[2] - سورة البقرة، الآية ١٧٧.
[3] - مسلم: صحيح، ج١، ص٤٢، رقم ١٣.
[4] - البخاري: صحيح، ج٣، ص٥٦، رقم ٢٠٦٧.
[5] - سورة النساء، الآية ٣٦.
[6] - البخاري: صحيح، ج٨، ص١٠، رقم ٦٠١٤.

ودعا الله عز وجل إلى إحلال الصلح بين الناس إن اختلفوا، وإن اختلفت طائفتان فمن واجب المسلمين الإصلاح بينهما، بقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[١]، وعدّ رسول الله قتال المسلم للمسلم كفر، وسَبُّه فسوق[٢].

بالإضافة إلى تشريعاتٍ تأديبية أمر بها الله عز وجلّ فيها حفظٌ للأدب والحشمة، وابتعادٌ عن الفتنة وسوء الأخلاق، بدءاً من الاستئذان قبل الدخول إلى بيوت الآخرين﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، مروراً بالأمر الرجال والنساء بغض البصر وخصّ النساء بالأمر بالحشمة في اللباس والحفاظ على العفاف، بقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ ﴾[٣].

ومن هذه توجيهات التأديبية أن النبي ﷺ نهى المسلمين عن الجلوس بالطرقات، إلاّ أن يعطوا الطريق حقها، فسألوه وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال ﷺ: "غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، وأمرٌ بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر"[٤].

ومما نزل الأمر الإلهي بالنهي عنه وتحريمه كان شرب **الخمر**، فبدأ بنهي المسلمين عن الصلاة وهم سُكارى بقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[٥]، ثم نزل الأمر بالتحريم ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[٦]، بعد أن بيّن الله عز وجل بأن الضرر من الخمر أكثر من نفعها ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾[٧].
كما حرّم أكل الميتة من اللحم وما ذُبح لغير الله، لما في الاثنين من ضرر، وأذى للجسم، وشرك بالله في

[١]-سورة الحجرات، الآية ١٠.
[٢]- البخاري: صحيح، ج٨، ص١٥، رقم ٦٠٤٤.
[٣]- سورة النور، الآيات ٢٧، ٣٠، ٣١، على التوالي.
[٤]- البخاري: صحيح، ج٣، ص١٣٢، رقم ٢٤٦٥.
[٥]- سورة النساء، الآية ٤٣.
[٦]- سورة المائدة، الآية ٩١.
[٧]- سورة البقرة، الآية ٢١٩.

الثانية، وكذلك ما قُتل بطرق مختلفة[1]، وفقاً لقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾[2].

وكثير من الأمور التي وردت في كتب الحديث التي يرد فيها توجيهات من رسول الله ﷺ في أصول التعامل، واحترام الآخر في المجتمع، ويعزز الصلة.

يمكن القول بعد المرور على هذه النقاط والمفاصل في مجتمع المدينة بعيد الهجرة، أن المدينة كمنطقة حضرية توسعت واتصل العمران بها، وتجاور الناس من مختلف القبائل مع بعضهم، فاحتاج هذا الأمر تنظيماً، وإرشاداً في كيفية العلاقة، من احترام، وعدم أذية.

كما أن التشريعات التي تخص الرقيق في هذه المرحلة كانت تهدف إلى إحلال مفهوم المعاملة الإنسانية بغض النظر عن الوضع الاجتماعي للإنسان الفرد ضمن المجتمع الكبير الذي يجمع الناس جميعهم، فلا فرق بينهم ولا تفضيل إلا بالتقوى. وفي هذه المرحلة لم يشكل الرقيق أو الموالي أي تأثير سلبي على المجتمع في المدينة، ولكنه لاحقاً سبب هذا الأثر بعد اتساع الفتوحات وتدفق هذا العنصر إلى المدينة، وما جلبه معه من عادات مختلفة.

وفيما يخص تشريعات الحدود كالقصاص، وتحريم الزنا، وشرب الخمر، وغيرها، هي أمور كانت ضرورية جداً لمنعها من جهة، وإحلال فكرة سلطة الدولة التي تتولى هذه المسؤوليات، مما يبعد المجتمع عن دائرة الثأر والاقتصاص المباشر مما يورث الأحقاد والضغائن والشرور، مما يعيد المدينة إلى الدائرة السابقة التي كانت تتخبط بها.

[1]- للتفصيل في ذلك يمكن العودة إلى الثعلبي: الكشف والبيان، ج٩، ص٤٩٢_ ٥١٠.

[2]- سورة المائدة، الآية ٣.

الفصل الخامس

نتائج الهجرة على النواحي والحياة الفكرية في المدينة المنورة.

أولاً – المسجد النبوي الشريف، المركز الفكري الأول في المدينة.

ثانياً – الاهتمام بالكتابة، وتدوين القرآن الكريم.

ثالثاً – رواد النشاط الفكري في هذه المرحلة.

رابعاً –تأثير الإسلام في الشعر والخطابة من فروع الأدب.

لا شك أن ما حمله الإسلام من أفكار ومبادئ وقيم وتوجيهات كان له أثره العميق في كل مجريات الحياة سياسية واقتصادية واجتماعية وقبل ذلك فكرية. كانت مجاورة الأوس والخزرج لليهود في المدينة المنورة سبباً في اطلاعهم على الديانة اليهودية، وكذلك ساهمت أمور التبادل التجاري في الاطلاع والتعرف على الديانة النصرانية وعقائد أخرى[1]، إلا أن هذه المجاورة وهذا الاطلاع لم يساهم في دخولهم واعتناقهم لأيّ من العقيدتين، فالنموذج الذي كان يقدم لم يكن نموذجاً متكاملاً، فضلاً عن الارتباطات والتبعية السياسية التي تتبع هذا الدخول والاعتناق، ولاسيما النصرانية، وهذا ما كان العرب في الحجاز عموماً يأنفون منه ويرفضونه. لم تكن الوثنية العربية عموماً منظمة أو مهيكلة بدرجة كافية، ولا مستندة إلى رؤية واسعة، ومتكاملة حول التصور العام للدين والإنسان، وكان كل من الأوس والخزرج، مدركين حاجتهم إلى عقيدة تملأ الفراغ الروحي الذي استشعروه، وتنظم شؤون حياتهم بعد أن أنهكتهم الحروب والصراعات وكادت تفنيهم، في الوقت الذي ظهرت فيه الدعوة إلى الإسلام، والتقى رسول الله ﷺ بأفراد من الأوس والخزرج، وبدأ دخولهم بالإسلام، وحصلت الهجرة، وتتابعت أمور الوحي بالنزول، فكانت كافية للإجابة عن أي تساؤل أو للرد عن أية شكوك كان العقل بطبيعته لا يجد تفسيراً مادياً ملموساً لها، أو كان يثيرها اليهود رغبةً في زعزعة إيمان الأنصار والمهاجرين، لكنّ الرسول ﷺ كان يدحض في كل مرة محاولاتهم، ويجيب مؤيداً بالوحي عن كل التساؤلات.

وهكذا فقد ملأ الإسلام هذا الفراغ الروحي، بل وأشعرهم بتفوقهم على كل من اليهود والنصارى، لاسيما بعدما أن شهدوا كثيراً من المحاورات والجدال، وبعدما اجتمع كل من اليهود والنصارى مع رسول الله ﷺ، ونزل الوحي عندما اشتد الجدال ما إذا كان النبي إبراهيم عليه السلام يهودياً أم نصرانياً، فنزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[2]. فرفعت تعاليم الإسلام المستوى العقلي الفكري للعرب عموماً إلى درجة كبرى، نقلتهم من

[1] - عقائد أخرى كالزندقة أي المزدكية التي ذكر أمر انتشارها بين عدد من رجال قريش ومنهم أبو سفيان بن حرب، ومن غير المستبعد أيضاً تعرف الأوس والخزرج لمثل هذه العقائد التي كانت سائدة شرقاً عموماً وذلك لما شهدتها الجزيرة العربية عموماً من تنافس على السلطة بين بيزنطة وفارس في بدايات القرن السادس الميلادي، وكان العمل على نشر مثل هذه العقائد والديانات وسيلة للوصول إلى تبعية المناطق لها، سواء بيزنطة أو فارس. ابن حبيب: المحبر، ص١٦١. سحاب: إيلاف قريش، ص١٥٩.

[2] - سورة آل عمران، الآية ٦٧.

عبادة أصنام وأوثان، إلى عبادة إله وراء المادة "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار" سلطانه واسع، وهذا الدين هو خير دين[١].

وبدأت في المدينة مرحلة جديدة لم تشهدها من قبل على الصعيد الفكري والعقلي، وقد اقترن النشاط الفكري عامة بالقرآن الكريم، حيث بدأ بأمور تدوين ما ينزل من وحي على النبي ﷺ، والتأكد من صحتها، ثم نشرها وتعليمها للمسلمين، إضافة إلى التطور السياسي الكبير الذي جعل المدينة حاضرة الدولة إلماماً بأمور الكتابة والقراءة، وحاجةً لوجود عدد، ممن يجيد الكتابة، يسد الحاجة لمتطلبات التدوين، والكتابة، ونشر، وتعليم أمور الدين، وتعليم قراءة القرآن، وتدوين آياته، وكتابة رسائل النبي ﷺ، وتعلم لغات أخرى لبروز الحاجة لذلك بعد التوسع في نشر الدعوة، فكانت هذه المرحلة مرحلة إعداد وتهيئة الأسس لإيجاد برنامج أو نظام إن صحّ التعبير، لإرساء قواعد وأصول في نقل المعارف الجديدة التي جاء بها الإسلام، وتعليمها، فبدأ الأمر من لحظة وصول النبي ﷺ والمهاجرين واستقرارهم فيها، واستمر حتى وفاته عليه الصلاة والسلام، وكانت أهم الخطوات في هذا المجال باتخاذه عليه السلام مسجده الشريف الذي أصبح المكان الأول لالتقاء النبي ﷺ بالمسلمين، وتبليغهم أمور الدعوة، وتحمل المسلمين بعده عليه السلام مهمة نقل أمور الدعوة وتعليم المسلمين الجدد أمور دينهم، والبداية مع تأسيس المركز الفكري الأول.

أولاً – المسجد النبوي الشريف، المركز الفكري الأول في المدينة:

يعد المسجد أول مدرسة في الإسلام، فلم تكن مهمته مقصورة على العبادات فقط، بل كانت أوسع من ذلك، سياسية، اجتماعية، وفكرية وهي أعظمها وأجلها، كان رسول الله ﷺ يبلغ فيه أصحابه آيات القرآن الكريم ويوضحها، يبين أحكامها ويطبقها[٢]. كان للمسجد دور كبير في الحياة الفكرية في المدينة منذ تأسيسه، فقد شهد حركة علمية واسعة، وكان رسول الله ﷺ يباشر التعليم فيه بنفسه، حيث يقوم بتفسير الآيات القرآنية وتبيين الأحكام والحكم، وذلك من مقتضيات رسالته التي تستلزم تعليم الناس وتوضيح المقاصد والأهداف الخاصة والعامة للدعوة الإسلامية[٣]، حيث أن القرآن الكريم تدرّج في

[١]- أمين: فجر الإسلام، ص٩٠.

[٢]- الوكيل، (محمد السيد): الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه، دار المجتمع، جدة، ط٢، ١٩٨٩م، ص١٤.

[٣]- الفراجي، عدنان علي: الحياة الفكرية في المدينة المنورة في القرنين الأول والثاني للهجرة، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ص٥١.

انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة، ومحاربة المنكرات التي كان الناس عليها قبل الإسلام، وبالتدريج ثبّت العقائد الصحيحة والعبادات والأحكام، وكان رسول الله ﷺ في ظل هذا التدرج هو من يبين للناس، ويفتي لهم ويفصل بين الخصوم ويقيم الحدود، ويطبق تعاليم القرآن[١].

وقد شجع رسول الله ﷺ على العلم بقوله: "فضل العلم خيرٌ من فضل العبادة"[٢]، كما جعله واجباً على كل مسلم[٣]، ومن ذلك قوله ﷺ : "من دخل مسجدي هذا ليتعلم خيراً أو يعلمه كان بمنزلة المجاهد في سبيل الله"[٤]. وفي الواقع كان المسجد النبوي في هذه المرحلة مكاناً مناسباً وموائماً لاجتماع المسلمين وتدارسهم للعلم، وكان عليه السلام يشجع على التعلم فيه ويبين منزلة طالب العلم، فقد رحّب رسول الله ﷺ بصفوان بن عسّال المرادي عندما جاءه طالباً للعلم بقوله: "مَرْحَباً بِطالِبِ العِلمِ، طَالبُ العلمِ لَتحُفّهُ الملائِكَةُ وتُظِلّهُ بأجنِحَتِها، ثُمّ يرَكبُ بَعْضُهُ بَعْضاً حتى يَبلغوا السَّماءَ الدُّنيا من حُبّهِمْ لِمَا يَطلُبُ، فما جِئتَ تطلب؟"[٥]. وقد بيّن عليه الصلاة والسلام أنّ من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة[٦]، وحضّ الرسول ﷺ على تعليم من لا يعلم بقوله: "ليُعلمُنّ قومٌ جيرانهم، وليفقهنّهم وليعظنهم وليأمرنهم، ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون، وحذر من عقوبة باكرة في الدنيا... "[٧]. لأن الغاية من العلم أن ينتفع به أصحابه وينفعوا به غيرهم، ولا فائدة من علم مكتوم أو فُقِدَ في صدور العلماء، لا ينال الناس منه شيئاً، لذلك أمر رسول الله ﷺ بنشر العلم وحرّم كتمانه.

---

[١]-الخطيب، (محمد عجاج): السنة قبل التدوين، بيروت، ١٩٧١م، ص٤٧.

[٢]- الهيثمي: مجمع الزوائد، ج١، ص١٢٠، رقم ٤٧٨. صحيح

[٣]- الهندي، (علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي، ت ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م): كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تح: بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، ١٩٨١م، ج١٠، ص١٥٩، الحديث رقم ٢٨٨٢٢.

[٤]- الهندي: كنز العمال، ج١٠، ص١٦٥، رقم ٢٨٨٥٦.

[٥]- الطبراني: المعجم الكبير، ج٨، ص٥٤، رقم ٧٣٤٧؛ ابن عبد البر، (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م): جامع بيان العلم وفضله، تح: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٩٤م، ج١، ص١٥٥، رقم ١٦٢.

[٦]- ابن حنبل: المسند،، ج١٢، ص٣٩٣، رقم ٧٤٢٧.

[٧]- الهندي: كنز العمال، ج٣، ص٦٨٤، الحديث رقم ٨٤٥٧؛ الكتاني: التراتيب، ج١، ص١٠٤ .

وكان يتم تلقي العلم في المسجد النبوي على نظام الحلقات، أي أنهم يجلسون على شكل دائرة حول رسول الله ﷺ، ومن يقوم بتعليمهم، حيث تشير الروايات إلى استدارة الحلقة زمن النبي ﷺ وفي مسجده، عن يعقوب الأنصاري كانت حلقة الرسول لتشتبك حتى تصير كالأسوار وأن مجلس أبي بكر منها فارغ ما يطمع فيه أحدٌ من الناس فإذا جاء أبو بكر جلس ذلك المجلس[١] . وورد في صحيح البخاري بابٌ في ذكر من رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها[٢]. ويقول أنس بن مالك: إنما كانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حلقاً حلقاً، يقرؤون القرآن، ويتعلمون الفرائض والسنن[٣].

كان لحلقات التفقيه في أمور الدين من زمن النبي ﷺ لأغراض تعليم المسلمين أهمية كبيرة، وأولاها النبي رعايته ومتابعته، فقد روي أنه ﷺ مرّ بمجلسين في مسجده، فقال: كلاهما خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، أما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم، ويُعلّمون الجاهل فهم أفضلُ، وإنّما بُعِثتُ مُعلِّماً"، ثم جلس فيهم [٤].

كان الرسول ﷺ يتخذ مجلساً عند أسطوانة في المسجد سميت بأسطوانة التوبة، ويخصص وقتاً لهذه الأمور أي طلب العلم والتدارس والإجابة عن التساؤلات [٥]، فيجلس في المسجد فيعلم الجاهل، ويفتي السائل، ويعبر الرؤيا ويبين الأحكام في مختلف الأمور والقضايا، ودلّ على ذلك أبو موسى الأشعري بقوله: "كان النبي ﷺ إذا صلّى الفجر انحرفنا إليه، فمنّا من يسأله عن القرآن، ومنا من يسأله عن الفرائض، ومنّا من يسأله عن الرؤيا[٦]. وعن حذيفة بن اليمان أن الناس كانوا يسألون النبي ﷺعن الخير، وأنه كان يسأله عن الشر[٧]، وقد أخبر ﷺ أن العلماء هم ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا درهماً

[١]- ابن عساكر :تاريخ دمشق، ج٢٦، ص٣٤٤؛ أبو جبلة: تاريخ التربية والتعليم في صدر الإسلام، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير بإشراف: عبد العزيز الدوري، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٧م، ص٩٠.

[٢]- صحيح البخاري، ج١، ص٢٤.

[٣]- الهيثمي: مجمع الزوائد، ج١، ص١٣٢، رقم ٥٥٤.

[٤]- الدارمي، (عبد الله بن عبد الرحمن، ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م): سنن الدارمي، تح: حسين الداراني، دار المغني للنشر، د.م، ٢٠٠٤م، ج١، ص٣٦٥، رقم ٣٦١. الكتاني: ٢/ ١٥٢.

[٥]- السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص١٨٠.

[٦]- الهيثمي: مجمع الزوائد، ج١، ص١٥٩، رقم ٧٢٤.

[٧]- ابن حنبل: مسند، ج٣٨، ص٣١٦، رقم ٢٣٢٨٢.

ولا ديناراً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر[١]، وعن رسول الله : العلم ميراثي وميراث الأنبياء من قبلي"[٢]. وكان في المسجد مجلس آخر عند أسطوانة أخرى، وهي أسطوانة القرعة، عرف هذا المجلس بمجلس المهاجرين كان رسول الله ﷺ يحدثهم في الشؤون العامة ويشاورهم. كما خصص للوفود مجلسٌ عند أسطوانة الوفود أو أسطوانة القلادة[٣]، يبلغهم الإسلام ويوصيهم بأن يحملوا ما تعلموا إلى من خلفهم ويفقهوهم في الدين، وذلك ما أوصى به وفد عبد القيس، بعد أن بلغهم وعلمهم، بقوله احفظوه وأخبروه من وراءكم[٤].

ذكرت المصادر أن عبد الله بن رواحة كان يقول لأصحاب رسول الله: تعالوا حتى نؤمن ساعة فيجلسون إليه، فيذكرهم العلم بالله، والتوحيد في الآخرة، وكان يخلف رسول الله بعد قيامه، فيجمع الناس ويذكرهم الله، ويفقههم فيما قال رسول الله. فربما خرج عليهم رسول الله وهم مجتمعون عنده، فيسكتون، فيقعد إليهم، ويأمرهم أن يأخذوا فيما كانوا فيه، ويقول ﷺ: " بهذا أُمرت" [٥].

كما أن عبادة بن الصامت علّم أهل الصفّة في المسجد النبوي، وكذلك أبو عبيدة بن الجراح[٦]، كما كلّف رسول الله ﷺ عدداً من الصحابة بتعليم وفود القبائل العربية الوافدة إلى المدينة، ومن كان يهاجر إلى المدينة مسلماً بتعليمه القرآن[٧]. فقد عَلّمَ أُبي بن كعب الأنصاري "وفد غامد" الذين قدموا على رسول الله ﷺ علمهم قرآناً[٨]. كان أمر تحمل الجيل الأول من الصحابة مهاجرين وأنصار لمهام تعليم المسلمين الجدد أمراً لا بد حاصل، وذلك لازدياد المهام وتعدد وتعقد أعباء الدولة والدعوة وانشغال النبي ﷺ، بالمستجدات السياسية، واستقبال العديد من وفود القبائل وقضايا أخرى.

---

[١]- أبو داود: سنن، ج٣، ص٣١٧، رقم ٣٦٤١.
[٢]- الهندي: كنز العمال، ج١٠، ص١٣٣، رقم٢٨٦٦٨.
[٣]- السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٤٩؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص١٨٥.
[٤]- العسقلاني: فتح الباري، ج١، ص١٣٤، ١٣٥.
[٥]- الكتاني: التراتيب الإدارية، ج١، ص١٥٣ .
[٦]- الكتاني: التراتيب الإدارية، ج١، ص١٠٣.
[٧]- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١٨، ص٥٩.
[٨]- ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٣٤٥.

وهنالك مجالس للشعر وتعود بداياتها إلى أيام النبي، إذ كان حسان بن ثابت ينشد الشعر في المسجد يقوم يُفاخر عن رسول الله ﷺ، والنبيﷺ وأصحابه جلوس يستمعون، ويروى عن عائشة أن النبيﷺ كان يضع لحسان المنبر في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي ﷺ[١].

ولا بد من التنويه والإشارة إلى أن الإسلام لم يفرق بين الذكر والأنثى إلا فيما تفرض الفطرة البشرية التفريق فيه بينهما، فكل ما فرض الله عز وجل على الرجال فرضه على النساء في إطار العلم والتعلم، وكل ما يحصل عليه الرجل من ثواب تحصل عليه المرأة من غير تفريق بينهما،﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٢].

وجعل تعليم المرأة أمور دينها وما تستقيم به حياتها فرضاً يجب عليها أن تتعلمه، حيث أن " طلب العلم فريضة على كل مسلم"[٣]. وقد كانت النساء يحضرن المسجد ويسألن رسول الله ﷺ، وكان الوضع على ما يبدو يسمح بحضورهن، وكان ﷺ يخرج إلى النساء فيعظهن ويعلمهن، لأن ترك النساء بغير تعليم يؤدي إلى جهلهنّ بما يجب عليهن من أمور دينهن، وحقوق أزواجهن وتربية أولادهن، وعن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ خرج إلى النساء ومعه بلال، فظن أنه لم يسمع فوعظهن وأمرهن بالصدقة[٤]. ولكن عندما كثر عدد الرجال وحصل اختلاط غير مرغوب، ولحرصهن على التعلم طلبن من النبي ﷺ أن يخصص لهن يوماً يعلمهن فيه، لغلبة الرجال وقلتهن، فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن" [٥]، وذكر بعضهم أنه عليه السلام حدد لهن بيت إحداهن فأتاهن وحدثهن[٦]. أي أن الرسول ﷺ لم يمتنع عن تدريسهن وتعليمهن مما يعني أن التعليم حق من حقوق المرأة في الإسلام.

كانت النساء تغتنم فرصة صلاة الجمعة بمسجد النبي ﷺ حتى تحفظ بعض سور وآيات القرآن الكريم، فكانت أم هشام بنت حارثة بن النعمان تقول: وما أخذت "ق. والقرآن المجيد"، إلاّ عن لسان

[١]- الترمذي: سنن، ج٥، ص١٣٨، رقم ٢٨٤٦.
[٢]- سورة النحل، الآية ٩٧.
[٣]- الشيباني: الكسب، ج١، ص٦٦؛ ابن ماجة: سنن، ج١، ص٨١، رقم ٢٢٤.
[٤]- البخاري: صحيح، ج١، ٣١، رقم ٩٨؛ مسلم: صحيح، ج٢، ص٦٠٢، رقم ٨٨٤.
[٥]- البخاري: صحيح، ج١، ص٣٢، الحديث رقم ١٠١.
[٦]- العسقلاني: فتح الباري، ج١، ص١٩٦.

رسول الله ﷺيقرؤها على الناس في كل جمعة في خطبهم[١]. وكان الرسول يحث المسلمين على أن يعلموا نساءهم ولا سيما سورة النور لما فيها من عظة للنساء وإرشاد. وتذكر المصادر امرأة اسمها أم ورقة، كان النبي يزورها وكانت قد جمعت القرآن[٢]. وفي قول أم المؤمنين عائشة " نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنعهنّ الحياء أن يتفقهنَ في الدّين"[٣]، ما يدلّ على حساسية المسائل التي كانت النساء تطرحها عند رسول الله ﷺ، حرصاً منهن على تعلّم ما خفي، ومعرفة دقائق الأمور، وفي هذا الأمر بالتحديد كان لأمهات المؤمنين فضل عظيم أيضاً في تبليغ الدين، ونشره بين نساء المسلمين، لا سيما عندما كانت بعضهن يخجلن من سؤاله عليه الصلاة والسلام فيجدن عند أزواجه ما يشفي غليلهن[٤].

وهكذا ارتبط التعليم ارتباطاً وثيقاً بالمسجد منذ اللحظة الأولى، ولاسيما أن المسجد أبوابه مفتوحة للجميع، وليس بمقدور أحد أن يصد الناس عنه، وانتقل هذا التأثير إلى بقية الأماكن، فأصبح المسجد مركزاً للتعليم منذ فجر الإسلام، ولا سيما المسجد النبوي وتبعته بقية المساجد كمسجد البصرة والكوفة، وعمرو في الفسطاط[٥].

ثانياً – الاهتمام بالكتابة، وتدوين القرآن الكريم:

لم تكن الكتابة شائعة منتشرة بشكل كبير بين العرب عموماً، فقد قيل أنه كان في مكة عندما بدأ الإسلام سبعة عشر رجلاً يعرفون الكتابة، منهم: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وكانت الكتابة في المدينة أقل، تعلّمها بعض اليهود، وعلّموها لبعض الصبيان فيها، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج قلة يكتبون وهم: سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وأبي بن كعب، ورافع بن مالك، وأسيد بن حضير، ومعن بن عدي البلوي، وبشير بن سعد وسعد بن الربيع، وأوس بن خولي وعبد الله بن أُبي بن سلول[٦]، وكان العرب

[١] - ابن سعد: الطبقات، ج٨، ص٤٤٢؛ العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٨، ص٤٨٨.
[٢] - ابن سعد: الطبقات، ج٨، ص٤٥٧.
[٣] - مسلم: صحيح، ج١، ص٢٦١، رقم ٣٣٢.
[٤] - الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٦٩.
[٥] - صقار: لمحات في نشوء الحركة العلمية في الحجاز، ودور المسجد في حياة المسلمين، ص٥٢، ٥٣.
[٦] - البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٥٣_ ٤٥٥.

يطلقون لقب "الكامل" على من جمع بين معرفة الكتابة والرمي والسباحة[1]، عُرف بذلك قبل الإسلام سويد بن الصامت، وحُضير الكتائب، كذلك سعد بن عبادة، ورافع بن مالك، وأسيد بن حضير، وعبد الله بن أُبي بن سلول ، وأوس بن خولي[2].

كان نشر الدين يستتبع الحاجة إلى القرّاء والكُتّاب، ومنذ المرحلة المكية بدأ الأمر بكتابة آيات القرآن الكريم، ففي حديث إسلام عمر بن الخطاب ما يشير إلى ذلك، فقد كان عمر معادياً للإسلام، أراد قتل النبي ﷺ، وفيما هو يبحث عنه عَلِمَ بأنّ ابن عمه سعيد بن زيد وزوجته، أخت عمر، فاطمة بنت الخطاب قد أسلما، فقصد بيت أخته ليتحقق من ما بلغه من إسلامها، فإذا خبّاب بن الأرت عندهما، يدرس عليه (طه) ويدرس عليها " إذا الشمس كورت "، وكان المشركون يدعون الدراسة الهينمة، فدخل عمر، فلما أبصرته أخته عرفت الشر في وجهه، فخبأت الصحيفة، ودخل خبّاب البيت واختفى، فقال عمر لأخته: ما هذه الهينمة في بيتك؟ قالت: ماعدا حديثاً نتحدث به بيننا، فعذلها وحلف ألاّ يخرج حتى تبين شأنها"، ووقع شجار بين عمر وأخته وزوجها، وبشجاعة وقفت أخته قائلة: "هل تسمع يا عمر: أرأيت كل شيء بلغك عني، مما يذكر من تركي آلهتك وكفري باللّات والعُزّى، فهو حقّ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، فائتمر أمرك واقضِ ما أنت قاضي"، وأمام هذه المواجهة هدأ وطلب قراءة الصفحة، وبعد ما أخذت عليه المواثيق، واغتسل دفعت "إليه الصحيفة، وكان عمر يقرأ الكتاب " وبعد القراءة أعلن عمر عن إسلامه، ثم ذهب إلى حيث رسول الله ﷺ مع أصحابه وأعلن عن إسلامه[3].

وفي هذا دليل أن ما كان يوحى قد دونه المسلمون منذ بدايات الدعوة، حيث كان رسول الله ﷺ يكلف من صحابته من هو على معرفة بالكتابة، فكان عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب في مقدمتهم، في تدوين آيات وسور القرآن الكريم في هذه المرحلة، وقد استمرت هذه المرحلة أكثر من عشر سنوات، ثم حصلت الهجرة، واستمر نزول الوحي، وازداد دخول الناس في الإسلام، وحصلت مستجدات سياسية، وأمور تطلبت الكتابة، لأغراضٍ متعددة سواء سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية،

[1] - ابن قتيبة الدينوري، (عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م): عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص١٨٤.

[2] - البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٥٤.

[3] -ابن إسحاق: السير ، ص١٨١ ــ ١٨٥. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٦، ص٢١٢.

وكان رسول الله ﷺ مدركاً لمتطلبات المرحلة، لذلك عمل بعد الهجرة على التشجيع على الكتابة، وتهيئة من يقوم بمهمة تعليم الكتابة.

فذكرت المصادر بأنه عهد إلى عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية وكان اسمه الحكم، بتعليم الناس الكتابة وكان مجيداً لها، ولكنه استشهد في بدر، وقيل يوم مؤتة[١]، كما كُلّف عبادة بن الصامت بتعليم ناس من أهل الصفّة الكتابة والقرآن [٢].

وفي خطوة لاحقة جعل رسول الله ﷺ فداء الأسرى بعد غزوة بدر ممن يكتب ولا مال له، أن يعلم الشخص الواحد عشرة من الأنصار، وذلك لأن الكتابة كانت أقل بينهم كما سلفت الإشارة إليه، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار[٣]. وقد اشترط النبي ﷺ يومها الإتقان، "فإذا حذقوا فهو فداؤه"، أي ليس مجرد معرفة أولية، بل الإتقان والمهارة فيها[٤].

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على أهمية الكتابة وما يتعلق بها، بقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾[٥]، كما ورد في كتابه العزيز قوله: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾[٦]، وقيل بأن النون هي الدواة، ويدل ذكره وقسم الله عزّ وجلّ به على أهميته[٧].

لابد من الإشارة إلى **الكتاتيب**، وهي موضع تعليم الصبيان، كانت الكتاتيب معروفة في زمن النبي ﷺ، فيذكر أن أم سلمة احتاجت من يساعدها في نفش الصوف، فأرسلت إلى معلم الكتاب،

---

[١]- ابن عبد البر: الاستيعاب، ج٣، ص٩٢٠؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص٢٦٣؛ العسقلاني: الإصابة، ج٢، ص٨٩.

[٢]- ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص١٥٨؛ أبو داود: سنن، ج٣، ص٢٦٤، رقم ٣٤١٦؛ الكتاني: التراتيب، ج١، ص٤٨.الهلابي، (عبد العزيز صالح): الحياة العلمية والأدبية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين، بحث مقدم في الندوة العالمية الثالثة (تاريخ الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين) في جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٩م، ج٢، ص٨.

[٣]- المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص١١٩.

[٤]- ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١، ص٤٣٤.

[٥]- سورة العلق، الآية ٣، ٤.

[٦]- سورة القلم، الآية ١.

[٧]- الطبري: جامع البيان، ج٢٣، ص٥٢٤.

تقول له: ابعث إلي غلماناً ينفشون صوفاً ولا تبعث إلي حراً[١]. ويتعلم الصبيان الكتابة في الكُتّاب، وهذا معروف منذ عصر قبل الإسلام، واستمر بعده، فقد أمر النبي أسرى بدر من قريش بتعليم الصبيان الكتابة، وكانت الكتاتيب وجدت زمن النبي وتعلم بدورها الكتابة[٢].

كما اهتمّ رسول الله ﷺ بتعلم اللغات الأخرى إلى جانب العربية، كاليهودية، والفارسية، والحبشية، والسريانية، حيث أنه طلب من زيد بن ثابت تعلم كتاب يهود، لأنه لم يكن يأمنهم من العبث بالكتب والإضافة فيها أو حذف، ولا يرغب بأن يقرأ هذه الكتب كل أحد[٣]، فتعلمها في مدراس بني ماسكة اليهود، والمدراس بيت الدراسة للتوراة عند اليهود، ويذكر أن زيد تعلم لغة يهود في مدة لا تزيد عن سبعة عشر يوماً[٤].

وأبدى النبي ﷺ اهتماماً بتعليم النساء الكتابة، وجسّد ذلك بالاهتمام بتعليم نسائه، إذ قال للشفاء بنت عبد الله العدوية، من رهط عمر بن الخطاب: " ألَا تُعلّمين حفصة، رقية النملة، كما علمتِها الكتابة"[٥]، وكانت الشفاء كاتبة قبل الإسلام[٦]. كما كانت أم كلثوم بنت عقبة تكتب، وكذلك كريمة بنت المقداد، وعائشة بنت سعد بن أبي وقاص، التي يذكر عنها أنها قالت: علمني أبي الكتاب" ، ولا بد أن هؤلاء النسوة قد أسهمنَ في تعليم بنات المسلمين القراءة والكتابة في المدينة، آنذاك. أما أم المؤمنين عائشة فكانت تقرأ ولا تكتب، وكذلك كانت أم سلمة زوج النبي ﷺ[٧].

---

[١]- البخاري: صحيح، ج٩، ص١٢. والغلمان أي الصبية دون البلوغ.

[٢]- أبو جبلة: تاريخ التربية والتعليم، ص٣٧ ــ ٤٤.

[٣]- الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٤٤؛ الطبري: تاريخ، ج٢، ص٥٦١.

[٤]-ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١٩، ص٣٠٥؛ أبو جبلة: تاريخ التربية والتعليم، ص٣٤.

[٥]- النملة هي على ما يبدو مرض جلدي، وُصف بأنه قروح، والرقية هي علاجه، تُحضر عود كركم، تضعه مكاناً نظيفاً وتقرأ عليه سبع مرات عبارات منها، اللهم اكشِف البأس رب الناس،، ثم تدلّكه على حجرٍ وتطليه على هذه القروح. الخبر كاملاً عند ابن البيع: المستدرك، ج٤، ص٦٣، الحديث رقم ٦٨٩٠. (صحيح).

[٦]- البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٥٤؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج٧، ص١٦٢؛ العسقلاني: الإصابة، ج٨، ص٢٠١؛ حراحشة: الحياة العلمية في نجد والحجاز، رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه بإشراف: محمد ضيف الله بطاينة، جامعة اليرموك، إربد، ٢٠٠٤م، ص٢٣٤.

[٧]- البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٥٥. ومحمد توفيق بليغ : المسجد والحياة في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، مج١١، ص٢٠١.

كان رسول الله ﷺ كان يعنى بتعليم القرآن وإذاعته ونشره، إذ كان يقرؤه على الناس على مكث كما أمره الله تعالى، وكان يرسل بعثات القرّاء إلى كل بلد يعلّمون أهلها كتاب الله، وإذا هاجر الرّجل يقول عبادة بن الصامت: "دفعه النبي إلى رجل منّا يعلّمه القرآن[١]. وعند تذكر أن عدد القرّاء الذين استشهدوا في حادثة بئر معونة، التي حصلت عقب غزوة أحد في السنة الرابعة للهجرة، من الأنصار كانوا سبعين قارئاً، يتدارسون القرآن ليلاً ويصلّون[٢]، ليعطي مؤشراً مهماً عن التزايد الحاصل في عدد القرّاء على الأقل من الأنصار في هذه المرحلة المبكرة من الهجرة.

وكانت المهمة الأساسية لكتّابه عليه السلام هي تدوين ما ينزل عليه من الوحي، وكان عليه الصلاة والسلام حريصاً كل الحرص على مراجعة ما يكتب والتأكد من صحته، وكان النبي ﷺ على درجة عالية من الدقة في هذا الأمر، والأمر الذي يرجح أن مواد القراءة والكتابة للكتّاب كانوا متوفرين مع النبي صلى الله عليه وسلم في مسجده، وفي مغازيه، وقضية صلح الحديبية شاهد لا ترد شهادته، وهو كان يكتب لمن يفد عليه من القبائل، كما أنه كتب كتاب الصدقات، والديات، والفرائض، والسنن لعمرو بن حزم وغيره، وفي حجة الوداع قام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه فقال: يا رسول الله اكتبوا لي. فقال ﷺ: "اكتبوا له"[٣]، وروى ابن عباس أنه قال: لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه قال: " ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده "[٤].

وقد ذكرت المصادر أسماء كتّابه عليه السلام، ووصل عددهم ما يزيد العشرين[٥] إلى ما يقارب الخمسين[٦]، من المهاجرين والأنصار، وأشارت المصادر إلى تخصص بعضهم ببعض الكتب، فكان أبرزهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان في كتابة الوحي، فإن غابا كتب أُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وكانا أوّل من كتب لرسول الله ﷺ في المدينة من الأنصار[٧]، وعبد الله بن الأرقم مع زيد بن

١- العسقلاني: الإصابة، ج١، ص٤٦.

٢- الواقدي: المغازي، مج ١، ص٣٤٧؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٢١٢؛ الطبري: تاريخ، ج٢، ص٥٤٦.

٣- ابن حنبل: مسند، ج١٢، ص١٨٣، رقم ٧٢٤٢.

٤- البخاري: صحيح، ج١،ص٣٤، رقم ١١٤.

٥- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤، ص٣٢٤ ــ ٣٤٩.

٦- العراقي، (عبد الرحيم بن الحسين، ت ٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م): نظم الدرر السنية الزكية، دار المنهاج، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٢٧.

٧- ابن عبد ربه: العقد، ج٤، ص٢٤٤.

ثابت في الكتابة إلى الملوك وفي كتب الإقطاع للناس[١]. ولأنه عليه السلام كانت تصله كتب بلغات مختلفة لم يرد أن يطلع عليها أحد، فقد طلب من زيد بن ثابت أن يتعلم لغاتها[٢]، وقيل أنه تعلم الفارسية من رسول كسرى، والرومية من حاجب الرسول، والحبشية من خادمه عليه الصلاة والسلام، وكذلك القبطية[٣].

كما كتب حذيفة بن اليمان في خرص أي قسمة ثمار الحجاز، وكل من المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير ما بين الناس من المداينات والمعاملات[٤]، وكان حنظلة بن الربيع ينوب عن أي كاتب إذا غاب[٥].

إن هذه الأمثلة عن تخصص وظيفة الكتّاب عند رسول الله ﷺ مؤشر ودليل واضح على الدقة في أمور الكتابة، ولا سيما في أمور الوحي، حيث كان ﷺ حريصاً على تدوين كل ما ينزل، فكان كلما أُنزل عليه شيء أمر بكتابته، ويقول في مفترقات الآيات :"ضعوا هذه في سورة كذا" [٦]، واستمر نزول آيات القرآن حتى نهاية العهد المدني، وكما تذكر المصادر بأنه جُمع أولاً في عهد أبي بكر، نتيجة استشهاد عدد كبير من حفظته في حروب الردة، إلاّ أنه يمكن القول بأن القرآن بشكل كامل كانت سوره وآياته مرتّبة على ما هي عليه الآن، قبل وفاة رسول الله ﷺ، حيث تذكر المصادر أن جبريل عليه السلام كان يستعرض القرآن كل سنة مرة على رسول الله ﷺ في شهر رمضان، عندما يكون معتكفاً في مسجده، وفي آخر سنة استعرضه عليه جبريل مرتين[٧]، وكان الرسول ﷺ بدوره عليه السلام يعرضه على صحابته من كتاب الوحي، وفي العرض الأخير الذي بيّن فيه ما نسخ من آيات وما بقي كان زيد بن ثابت هو من شهد هذا العرض، وكتبه له وقرأها عليه. وما يعزز هذا الأمر أن زيداً افتقد آيةً من سورة الأحزاب، كان قد سمعها من رسول الله ﷺ وعلم موضعها، فترك مكانها حتى وجدها، وكذلك في سورة التوبة، وجد آخرها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري فقط، ولم يجدها مع غيره، وهو من جعل رسول الله ﷺ

---

[١] - ويضيف ابن عبد ربه إليهما العلاء بن عقبة، العقد، ج٤، ص٢٤٤؛ الكتاني: التراتيب الإدارية، ج٢، ص١٥٤.

[٢] - ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٣٥٨.

[٣] - ابن عبد ربه: العقد، ج٤، ص٢٤٤؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، طلب منه تعلم كتاب يهود ج١، ص١٩٦.

[٤] - الكتاني: التراتيب الإدارية، ص١٥٦.

[٥] - ابن عبد ربه: العقد، ج٤، ص٢٤٤.

[٦] - الزركشي، (محمد بن عبد الله بن بهادر، ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م): البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٢٣٢.

[٧] - البخاري: صحيح، ج٦، ص١٨٦؛ الزركشي: البرهان، ج١، ص٢٣٢.

شهادته بشهادتين[١]، فقبلها زيد، وألحقها بمكانها من السورة [٢]. ولم يتم الجمع أيام النبي لأن نسخ الآيات كان يرد على بعضه، فتوقف نسخ الآيات بوفاة رسول الله ﷺ، ووُفّق لجمعه الخلفاء الراشدون، فأوّل من جمع السور في مصحف واحد هو الخليفة الراشدي أبو بكر الصدّيق، أي أصبح للمسلمين مصحف رسمي معتمد، مع وجود مصاحف لبعض الصحابة ممن أوصى رسول الله بأخذ القرآن عنهم، ومنهم أُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وقد تمت مقارنة ما هو مجموع عندهم مع ما كان متفرقاً في الرقاع والأكتاف، حتى لا يتم نسيان أي شيء منه، ولا يبق عند أحد أي شك أو ريب فيه وكان زيد لا يكتفي لمجرد كونه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً، مع العلم أن زيداً كان يحفظه كاملاً، ولكنه فعل ذلك مبالغةً في الاحتياط[٣].

وما حصل في عهد الخليفة عثمان هو توحيد القراءات وفق لهجة أو قراءة قريش، نتيجة الاختلافات التي ظهرت في قراءة المسلمين له، وخاصة بين أهل الشام والعراق، فاعتُمدت نسخة واحدة، تم نسخ عدة نسخ منه، وأُرسل إلى كل ولاية نسخة ومعها قارئ يتقنه، وأمر بإحراق كل النسخ غيرها[٤]. وهكذا هدى الله عز وجل المسلمين بعد وفاة نبيهم إلى هذا العمل الجليل الذي حفظ للمسلمين أساس دينهم وأصل عقيدتهم من الضياع، الأمر الذي لم يتوفر لا لليهودية ولا النصرانية[٥].

---

١ – وذلك أن أعرابياً كان قد باع رسول الله ﷺ فرساً، وأنكر ثمنها، فشهد خزيمة لرسول الله ﷺ رغم أنه لم يكن حاضراً، فسأله رسول الله: بم تشهد؟ فأجابه خزيمة: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين. الشيباني: الكسب، ص٤٢؛ ابن سعد: الطبقات، ج٤، ص٣٧٨؛ أبو نعيم: معرفة الصحابة، ج٢، ص٩١٤؛ العسقلاني: الإصابة، ج٢، ص٢٣٩.

٢ – البخاري: صحيح، ج٦، ص١٨٣، رقم ٤٩٨٨، بتصرف؛ الزركشي: البرهان، ج١، ص٢٣٤، و٢٣٧؛ السيوطي، (عبد الرحمن بن أبي بكر، ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م، ج١، ص٢٠٦.

٣ – السيوطي: الإتقان، ج١، ص٢٠٥.

٤ – الزركشي: البرهان، ج١، ص٢٣٥؛ السيوطي: الإتقان، ج١، ص٢٠٨.

٥ – تجدر الإشارة هنا إلى جهود قام بها المستشرقون وتبعهم بعض من الباحثين الذين جروا مجراهم إلى القول بأن القرآن كان بالأصل باللغة الآرامية، وأنه ليس كلام الله، وأن تدوينه لم يحصل إلا بعد مضي مدة طويلة ثلاثة قرون تقريباً، وغير ذلك من الادعاءات التي لا تمت إلى العلمية والموضوعية بصلة، ومؤخراً تم العثور على مخطوط لمصحف أُبي بن كعب، وكذلك تم الكشف في صنعاء عن أوراق من نسخ قرآنية بعضها يرقى إلى القرن الهجري الأول، كتبت بالخط الكوفي.

وتجدر الإشارة إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أحد كتبة الوحي بل من أوائلهم، كان يبدّل كلام الله، حيث يملي عليه الرسول ﷺ عزيزٌ حكيمٌ، فيكتب عليمٌ حكيمٌ، وارتد بعدها إلى مكة كافراً، وكان من الذين أهرق الرسول ﷺ دمهم عند فتح مكة، ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة[١].

لم يقتصر التدوين على آيات القرآن الكريم، فقد ورد في المصادر أخبار تفيد بوجود مدونات لأحاديث رسول الله ﷺ، حيث كان بعض الكتبة من الصحابة يقوم بتدوين ما كان يسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم إذا ما حضره في مجلسه، وقد صرّح أبو هريرة، بأنه ما وجد أحداً أكثر حديث منه عن الرسول ﷺ إلا عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب، وأبو هريرة لا يكتب[٢].وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله :" كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشرٌ يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بإصبعه إلى فيه وقال: "اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلاّ حقّ "[٣]. وروي عن رافع بن خديج أنه قال: يا رسول الله، إنما نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: "اكتبوا ولا حرج"[٤].وروي عن أنس بن مالك أنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: " قيّدوا العلم بالكتاب "[٥].

كما وجدت بالمقابل أحاديث عن كراهية كتابة العلم كقوله ﷺ : لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه[٦]، تظهر نهي رسول الله ﷺ عن تدوين أي شيء عنه سوى القرآن، الذي خضع أمر تدوينه لعنايته ﷺ وإشرافه وتدقيقه. وهنا يرجح باحث معاصرٌ بأن النهي ربما كان في أول الإسلام مخافة اختلاط الحديث بالقرآن، فلما كثر عدد المسلمين وعرفوا القرآن معرفة

---

[١]- ابن سعد: الطبقات، ج٧، ص٤٩٦؛ ابن قتيبة: المعارف، ص٣٠٠، ٣٠١؛ الطبري: تاريخ، ج٣، ص١٧٣؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ج٣، ص٩١٨؛ السهيلي: الروض الأنف، ج٧، ص٧١؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص٣٨٣؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٢، ص٧٥.

[٢]- البخاري: صحيح، ج١، ص٣٤، رقم ١١٣؛ العسقلاني: الإصابة، ج٤، ص١٦٦.

[٣]- ابن حنبل: مسند، ج١١، ص٥٧، رقم ٦٥١٠.

[٤]- الطبراني: المعجم الكبير، ج٤، ص٢٧٦، رقم ٤٤١٠.

[٥]- ابن عبد البر: بيان العلم، ج١، ص٣٠٦، الحديث رقم ٣٩٥، ورد ضمن باب الرخصة في كتابة العلم، ج١، ص٢٩٨_ ٣٣٥.

[٦]- ابن عبد البر: بيان العلم، ج١، ص٢٦٨، الحديث رقم ٣٣٥. ضمن باب كراهية كتابة العلم ص ٢٦٨_ ٢٩٧.

عميقة، وميّزوه عن الحديث زال أمر النهي، حيث كانت الخشية من اشتغالهم عن القرآن، أو اختلاط غير القرآن بالقرآن[1]، وهذا الأمر هو المرجح، حيث ذكرت المصادر أسماء مدونات في الحديث كالصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص، الذي توفي سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م، واشتهرت صحيفته بأنها أصدق ما روي عنه، وقد رآها مجاهد بن جبر الذي توفي ١٠٤هـ/ ٧٢٢م، عند عبد الله كاتبها، وقد وصلت هذه الصحيفة عن طريق مسند أحمد بن حنبل، أي أنها لم تصل كما وضعها كاتبها، إلاّ أن لها أهمية علمية عظيمة فهي وثيقة تاريخية، تثبت أن كتابة الحديث النبوي تمت بين يدي رسول الله ﷺ وبإذنه.

كذلك ورد ذكر صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري، توفي سنة ٧٨هـ/ م. أما ما وصل بشكله الذي كُتب عليه فهي الصحيفة الصحيحة ، وهي عبارة عن صحيفة جمعتْ أحاديث أبي هريرة، كتبها هُمام بن منبه من أبي هريرة مباشرةً، وقد وصلت كاملة في مسند أحمد بن حنبل، وكذلك تم العثور على نسختين من مخطوطها في دمشق وبرلين، الأمر الذي يعزز ما تمت الإشارة إليه من أن تدوين الحديث بدأ في مرحلة مبكرة من القرن الأول الهجري.

ثالثاً – رواد النشاط الفكري في هذه المرحلة:

كما سلف القول بأن هذه المرحلة كانت إعداد وتهيئة للمراحل اللاحقة، كان فيها النبي ﷺ هو المعلم الأول، والمرشد والمقوّم لكل ميل أو زلل، وقد رافقه وصحبه المسلمون الأوائل، مهاجرون وأنصار، وأخذوا عنه، وتعلموا منه، فوفّر هذا الإعداد الكوادر التي احتاجت إليها الدولة الناشئة لاحقاً بعد نجاح حركة الفتوحات، لإرساء قواعد تنظيم الدولة وفق أصول الشريعة، وخاصة وأن بعضهم قد مارس في حياة النبي ﷺ بأمر منه مهمة إقراء القرآن، و تعليم الكتابة، والفتوى، والاجتهاد في ما يستجد من أمور وقضايا، وغير ذلك من أمور تخص الدين وتلامس شؤون الحياة.

والجدير بالذكر أن هنالك أحاديث تؤكد أن النبي ﷺ قد أوصى المسلمين باتباع أصحابه من بعده والأخذ عنهم فيما يتعلق بأمور دينهم، بل إنه عيّنهم بأسمائهم، مما يدل على بروز طبقة العلماء في وقت مبكر جداً، ومن هذه الأقوال: "اقتدوا باللّذين من بعدي، من أصحابي أبي بكر وعمر، وتمسكوا

[1]- الخطيب: السنة قبل التدوين، ص٣٠٦، ٣٠٧.

بعهد ابن مسعود"(١). ومنها استقرئوا القرآن من أُبي وابن مسعود" (٢). وفي هذا الصدد يروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أُبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأتِ زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأتِ معاذ بن جبل ..."(٣). مما يعزز أمر إتقانهم وامتلاكهم زمام هذه العلوم، إلى جانب ما يكملها من علوم القرآن، لكن ذلك لم يحصل إلا بعد أن أخذ هؤلاء التلاميذ من نبيهم أصول دينهم، وأعدّهم إعداداً جيداً أصبحوا نتيجته رواداً مؤسسين للعلوم الإسلامية.

فبدأ النشاط التعليمي بتعليم القرآن الكريم وفرض الصلاة، من مرحلة مبكرة جداً، قبيل الهجرة، عندما طلب الأنصار من رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم من يعلمهم أمور دينهم، ويقرئهم القرآن، ويؤمهم بالصلاة، فبعث إليهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، وقام مصعب بمهمته خير قيام، فكان المعلم الأول في المدينة، وسُمي وقتها بالمقرئ.

وبعد الهجرة واستمرار نزول الوحي، وجدت فئة من المسلمين كانت ملازمة لرسول الله ﷺ، اختارها عليه السلام لتكون حاملة لأمور الدين، ولاسيما من خصهم بكتابة الوحي، وأمر تدارسه، وأوصى بأخذ القرآن عنهم، وقد أصبحوا فيما بعد هم المرجع في علوم الدين عامة، وإن ظهر تخصص في بعض علوم الدين عند بعضهم أكثر من البعض الآخر، وبالإجمال فإن الجيل الأول من المهاجرين والأنصار كانوا رواداً في النشاط الفكري وعملوا بجدٍ، وكان لهم السبق فيه، إلا أنه سيتم المرور بشكل سريع على أبرزهم من الأنصار الذين كان لهم أثرٌ واضح وجلي في المرحلة اللاحقة.

معاذ بن جبل (ت ١٨هـ /٦٣٧) (٤): أحد الأربعة الأنصار الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ(٥)، مارس الفتوى على عهد رسول الله ﷺ، وقال فيه: "أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل"، وقد تركه الرسول ﷺ في مكة بعد فتحها يفقّه أهلها ويقرئهم القرآن. وقد أخلّ خروجه من المدينة

---

[١]- الترمذي: سنن، ج٥، ص٦٧٢، رقم ٣٨٠٥؛ الكتاني: التراتيب، ج٢، ص١٥٧.

[٢]- الكتاني: التراتيب، ج٢، ص١٥٧.

[٣]- الذهبي ، (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م): تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص٢٠.

[٤]- ابن عبد البر: الاستيعاب، ج٣، ص١٤٠٥.

[٥]- ابن مالك: الموطأ، ج٦، ص١٠٠.

في الفقه وما كان يفتيهم، بعدما أرسله عمر بن الخطاب، هو وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت إلى الشام[١].

أوصى رسول الله ﷺ بأخذ القرآن من عدد من الصحابة كان أبرزهم: **أُبي بن كعب،** (ت٢٢هـ/ ٦٤٢م) [٢]، وقيل ٣٠هـ/ ٦٥٠م[٣]، وكان أول من كتب الوحي في المدينة من الأنصار، ومن مشاهير الصحابة في القراءة، سيّد القرّاء[٤]، إذ قرأ على النبي ﷺ القرآن العظيم، وقرأ عليه النبي بعض القرآن للإرشاد والتعليم، وأشار الرسول ﷺ إلى أهمية حفظه وجودته بقوله: "وأقرؤكم أُبي"[٥]. وقد روي عن النبي ﷺ قوله لأُبي:" إني أُمرت أن أقرأ عليك – وفي لفظ: أن أقرئك القرآن – قال: الله سماني لك ؟ قال: نعم، فذرفت عيناه"[٦]، وسلفت الإشارة إلى تدوينه القرآن ووصول نسخة من مصحفه.

أبو الدرداء، عويمر بن زيد، حكيم هذه الأمة، توفي حوالي ٣٢هـ/ ٦٥٢م[٧]، قرأ القرآن على عهد النبي ﷺ، وذكره بعضهم من الذين أوصى الرسول بأخذ القرآن عنهم[٨]، اشتهر بالفقه من أهل الصفّة، فكان يحدّث فيقول: "إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً "[٩]، وولي قضاء دمشق، وفي جامع دمشق أيام ولاية معاوية بن أبي سفيان كان يجمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة، عشرة، وعلى كل عشرة عرّيفاً ، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء يسأله عن ذلك "[١٠].

عبد الله بن مسعود، (ت ٣٢هـ / ٦٥٢م): أخذ علمه بالدرجة الأولى عن رسول الله ﷺ وكان كثير الصحبة والملازمة له، حتى كان " يتولى فراش النبي ﷺ ووساده وسواكه ونعله وطهوره" فهو

١- ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٣٤٧، ٣٤٨.

٢-العسقلاني: الإصابة، ج١، ص١٨١.

٣-أبو نعيم: معرفة الصحابة، ج١، ص٢١٤.

٤- الذهبي: سير أعلام، ج١، ص٣٩٠.

٥- اليافعي: مرآة الجنان، ج١/ ص ١٨.

٦- ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٣٤٠، ٣٤١؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص١٥٧.

٧- ابن عبد البر: الاستيعاب، ج٣، ص١٢٢٩؛ترجمته كاملة عند ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤٧، ص٩٣ وما بعد.

٨- السيوطي: الإتقان، ج٢، ص١٤٥.

٩- السيوطي: الإتقان، ص١٨٥.

١٠- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١، ص٣٢٨.

صاحب النعلين والوساد والمطهرة"[١]، وكان يقول: "حفظتُ من فيّ رسول الله ﷺبضعاً وسبعين سورة "[٢]. كان حَسَنَ الصوت[٣]، كان رسول الله ﷺ يشيد بقرائته ويوصي بأخذ القرآن منه قائلا : "من أحبَّ أن يقرأ القرآن غضّاً كما أنزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد"[٤]. كان يعد من كبار الصحابة وفقهائهم، وبلغ منزلة رفيعة في علوم شتى، أهمها ما تعلق بعلوم القرآن من التفسير وأسباب النزول، وفي الحديث والفقه، ووصف بأنه: "أقرب الناس سمتاً وهدياً برسول الله ﷺ[٥].كما كان فقيهاً من الطراز الأول[٦]. وفي خلافة عمر بن الخطاب، تولى بيت المال والقضاء في الكوفة[٧]، وهناك بعد مدة انتشر علمه بها، وأخذ عنه تلاميذ كثر، والأهم بأن مدرسة التفسير في الكوفة تعود بالأساس إلى تلامذته، ومنهم مسروق بن الأجدع، وعامر الشعبي، فضلاً عن أناس من البصرة والمدينة[٨].

عبادة بن الصامت، (ت ٣٤هـ / ٦٥٤م): كان يعلم أهل الصفّة الكتابة والقرآن، وقد استعمله رسول الله ﷺ على بعض الصدقات[٩]، وبعثه الخليفة عمر بن الخطاب إلى أهل الشام لأنهم احتاجوا من يعلمهم القرآن، ويفقههم، هو ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء، وأنكر أموراً عديدة على معاوية، فلم تكن العلاقة وطيدة بينهما[١٠]. ولي قضاء فلسطين[١١].

---

[١]- البخاري: صحيح، ج٥، ص٢٥، رقم ٣٧٤٢.

[٢]- الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٤٦٥؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢، ص٤١٥.

[٣] -ابن الجزري، شمس الدين محمد بن محمد،(ت ٨٣٣هـ): غاية النهاية في طبقات القراء، نشر برجستراسر، ١٩٣٢م، ١٩٣٢م، ج١ ، ص٤٥٨، ٤٥٩ .

[٤] - ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٣٤٢؛ الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧م): معرفة القراء الكبار على الطبقات، تح: بشار عواد ومعروف شعيب الأرناوؤط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٣م، ج١، ص٣٤؛ أبو نعيم: حلية الأولياء، ج١،ص١٢٤.

[٥]- ابن سعد: الطبقات، ج٣، ص١٥٤؛ البخاري: صحيح، ج٥، ص٢٨، رقم: ٣٧٦٢.

[٦] -الشيرازي، (أبو إسحاق إبراهيم بن علي، ت ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م): طبقات الفقهاء، تح: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٠م، ج١، ص٤٣، ٤٤.

[٧]- البستي، (محمد بن حبان، ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م): مشاهير علماء الأمصار، تح: مرزوق علي إبراهيم، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٩٩١م، ج١، ص٢٩.

[٨]- الفراجي: الحياة الفكرية، ص١٠٤ــ ١٠٦.

[٩]- أبو نعيم: معرفة الصحابة، ج٤، ص١٩١٩.

[١٠]- الذهبي: سير أعلام، ج٢، ص٦، ٧.

[١١]- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢٦، ص١٨٤.

زيد بن ثابت، (ت ٤٥هـ/ ٦٦٥م): كاتب النبي ﷺ وأمينه على الوحي، وأحد الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺمن الأنصار، كما جمعه في المصحف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم تولى رئاسة المجموعة التي كلّفها الخليفة عثمان بن عفان لكتابة المصحف ليتم توحيده في جميع الأمصار على حرف أو لغة لهجة قريش من لغات العرب، وما كان عمر بن الخطاب ولا عثمان بن عفان يقدّمان أحداً عليه في الفتوى، والفرائض، والقراءة[١].

أبو موسى الأشعري (ت ٥١هـ/ ٦٧٠م): عبد الله بن قيس، قدم على النبي ﷺ " عند فتح خيبر، وحفظ القرآن والعلم ، ولئن قصرت مدة صحبته فلقد كان من نجباء الصحابة وكان من أطيب الناس صوتاً، سمع النبي ﷺ قراءته فقال له: لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داوود"[٢]، وكان أبو موسى هو الذي فقّه أهل البصرة وأقرأهم، كان عامل الرسول ﷺ على زبيد وعدن وغيرها من اليمن وسواحلها، وبعد وفاة الرسول شهد فتوح الشام، واستعمله الخليفة عمر بن الخطاب على إمرة البصرة[٣].

ولابد من الإشارة إلى أشهر من لازم النبي ﷺ، وسمع أحاديثه، فأخبر عنه وروى أحاديث كان لها الدور الأبرز والأهم في حفظ كثير من أمور الدين، وبالتالي في نشوء علم الحديث والسنة لاحقاً، وكانت الرغبة في الأجر بتبليغ العلم عن رسول الله ﷺ، والخوف من الإثم في كتمانه، وفقاً لقوله ﷺ: "من كتم علماً ينتفع به، ألجم يوم القيامة بلجام من نار"[٤]، فبلغوا أحاديث رسول الله ﷺ كما سمعوها منه، ونقلوا عنه ﷺ أحاديث شملت كل ما يتعلق بالأمور الشرعية، فقد روى عبد الله بن مسعود ثمانمائة وثمانية وأربعين حديثاً [٥]، وروى أبو ذر الغفاري نحو مائتي وواحد وثمانين حديثاً [٦]، وأبو الدرداء عويمر ابن عامر نحو مئة وتسعة وسبعين حديثاً[٧]، وغيرهم كثر.

---

[١]- الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج١، ٢٧، ٢٨؛ العسقلاني، (أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، ج٣، ص٣٩٩.

[٢]- البخاري: صحيح، ج٦، ص١٩٥، رقم ٥٠٨٤؛ العسقلاني: الإصابة، ج٤، ص١٨٢.

[٣]- العسقلاني: الإصابة، ج٤، ص١٨٢.

[٤]- الشيباني: الكسب، ج١، ص٦٨؛ ابن سعد: الطبقات، ج٤، ص٣٣١.

[٥]-النووي، (أبو زكريا يحيى بن شرف، ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م): تهذيب الأسماء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج١ ، ص٢٨٨.

[٦]- النووي: تهذيب الأسماء، ج٢، ص٢٢٩.

[٧]- النووي: تهذيب الأسماء، ج٢، ص٢٢٨.

إلاّ أنّ أبا هريرة كان أكثرهم رواية عن رسول الله ﷺ فقد روى نحو خمسة آلاف حديث وثلاثمائة وسبعين حديثاً، المتفق عليه في الصحيحين منها ثلاثمائة وخمسة وعشرين حديثاً، وانفرد له البخاري أيضاً بثلاثة وتسعين، ومسلم بمئة وتسعين[١]، أي أنه كان من المكثرين في الحديث عن رسول الله ﷺ، وقد علّل هذه الكثرة بأنه كان دائم اللزوم لرسول الله ﷺ في غياب المهاجرين وانشغالهم بالتجارة في الأسواق، وكذلك انشغال الأنصار بعمل الأرض، وهو لا عمل له في تجارة ولا في أرض[٢]، وقد شهد له بهذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب: " أنت كنتَ ألزمنا لرسول الله وأحفظنا لحديثه"[٣]. حيث أنه قدم المدينة سنة سبع للهجرة أثناء غزوة خيبر، واتخذ المسجد مقاماً له، وانقطع لخدمة رسول الله[٤]. ولابد بأنه تمتع بقابلية ذهنية وقدرة على التذكر واستعداد للحفظ، وقد شهد له ناس من الصحابة بالحفظ وعدم النسيان، ومنهم عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله بن عمر، وطلحة بن عبيد الله، بالقول: "قد سمعنا كما سمع ولكنه حفظ ونسينا". كما رأى البعض أن في هذا الأمر جرأة لم يقدروا عليها كعبد الله بن عمر، الذي كان إذا سمع أبو هريرة يتكلم، قال: إنّا نعرف ما يقول، ولكنّا نجبن ويجترئ"[٥]. وذلك مخافة الكذب في هذا، وقد حذّر النبي من ذلك: "من كذب عليّ، فليتبوّأ مقعده من النار"[٦].

ويعد " علم الحديث" أوسع أنواع العلوم الدينية باباً، وأفسحها ميداناً، حيث تفرعت منه علوم كثيرة كالسيرة والتاريخ، والفقه والتشريع، وترجمة الرجال، وفضائل الأمم، وقد عقدت لكل هذه الفنون فصول خاصة في كتب الحديث الصحيحة، ثم تطورت حتى أصبحت علوماً مستقلة[٧].

ليس الحديث هنا إلا عن أمثلة وعيّنات لجيل من الصحابة من الأنصار كامل، قد أقبل على الإسلام ودراسة القرآن بكل عزيمة ونشاط، ورغبة في الأجر والثواب، ونقل معرفته وعلمه إلى اللاحقين

---

[١] - الذهبي ، سير أعلام، ج٢، ص٦٣٢.

[٢] - ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٣٦٢. المزي، (يوسف بن عبد الرحمن، أبو الحجاج، ت ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م): تهذيب الكمال، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٠م، ج٣٤، ص٣٧٧.

[٣] - الترمذي: سنن، ج٥، ص٦٨٤، رقم ٣٨٣٦.

[٤] - أبو نعيم: حلية الأولياء، ج١، ص٣٧٦.

[٥] - العسقلاني: الإصابة، ج٧، ٣٥٩، ٣٦٠.

[٦] - مسلم: صحيح، ج١، ص٣٣، رقم ١٠٧.

[٧] - الوكيل: الحركة العلمية، ص٥٧.

رغبة في خدمة الدين، ونشره ، فكانوا العلماء الذين على جهودهم أرسيت وتوضحت معالم حضارة مشرقة جاء بها الإسلام، وبلّغها رسوله عليه الصلاة والسلام.

بعد أن لحق النبي بالرفيق الأعلى بدأ الفقه يظهر بوضوح، ويأخذ بالظهور شيئاً فشيئاً، فقبل ذلك كان الصحابة يسألون النبي ﷺ عما يقع لهم من الحوادث، وحكم الله فيها، فيفتيهم الرسول تارة بآية، أو بآيات ينزل الوحي بها عليه، وتارة عندما لا ينزل الوحي، يفتيهم باجتهاده. وعندما لا يتيسر لهم سؤال الرسول ﷺ فيما يُشكل عليهم من حوادث، يسأل بعضهم بعضاً عله يعرف، فهم ليسوا سواء في العلم والفقه، فعلى سبيل المثال كان علم التيمم عند عمار ولم يعلمه عمر، وكان علم المسح عند علي وحذيفة ولم تعلمه عائشة، وابن عمر، وأبو هريرة[1].

رابعاً – تأثير الإسلام في الشعر والخطابة من فروع الأدب:

تجلى تأثير الإسلام، العقيدة الجديدة، على الشعر والخطابة بشكل جلي وواضح من الأدب في هذه المرحلة، فقد اشتهرت المدينة وعُرفت في مرحلة ما قبل الإسلام بغناها بالشعر والشعراء، فقد روي عن أنس بن مالك قوله: " قَدِمَ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في الأنصار بيت إلاّ وهو يقول الشعر"[2]. لا شك بأن أغراضه، وانفعالاته اختلفت وتغيرت نتيجة المؤثرات الإسلامية التي ظهرت.

عندما بعث الله عز وجل محمداً ﷺ بدعوته قومه إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، قابلوه بالسخرية والاستهزاء، وعدوا أن ما يقوله ما هو إلاّ أضغاث أحلام، ودلّ الله عزّ وجل على ذلك بقوله﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[3]. وأشار عز وجل بآية أخرى بأنه نزّه الرّسول ﷺ مما رموه به من الكهانة وقول الشعر، بقوله:﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[4]. وقد أنزل الله في الشعراء قوله: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ

[1] - العسقلاني: الإصابة، ج١، ص٥٤.

[2] - ابن عبد ربه: العقد، ج٦، ص١٣٤.

[3] - سورة الأنبياء، الآية ٥.

[4] - سورة الحاقة، الآية ٤٠_ ٤٣.

يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[١]. توضح الآيات الأخيرة موقف الإسلام من الشعر، وقد وجه هجومه على المنهج الذي سار عليه شعراء قريش في توجيه سهامهم ضد الرسول الكريم ﷺودعوته، وكذلك إلى الشعراء عموماً الذين يدعون لأنفسهم ولقومهم وممدوحيهم صفات ومناقب زيفاً وباطلاً، ويذكرون معايب لغيرهم ظلماً وبهتاناً، ويثيرون الأحقاد والفتن، وقال فيهم النبي: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً"[٢]. إلا أن هذا لا يعني أن الإسلام رفض الشعر بشكل كامل ونهائي، ومطلق، بل إن الإسلام شجع على الشعر الذي ينشر القيم والمبادئ الأخلاقية، ويدعو إلى الفضيلة[٣]، وكان الرسول ﷺ يقول: "إنّ منَ الشعر حكمة"[٤]، والمراد بهذا أن من الشعر كلاماً نافعاً يمنع الجهل والسفه وينهى عنهما فالحكمة من العلم[٥].أي أن رسول الله لم يتخذ موقفاً سلبياً من الشعر والشعراء ككل، إنما كان موقفه سلبياً اتجاه شعراء المشركين الذين تعرضوا له بالهجاء، والذين كانوا يضمنون أشعارهم مبالغاتٍ في المدح والهجاء تتنافى مع أخلاقيات وضوابط الإسلام[٦]، فالرسول عليه السلام يعرف أهمية الشعر في الحياة العربية، ويدرك دوره، لذا عمل على توجيهه إلى ما يخدم الدعوة وينصر الدين.

وظل الشعر معتمداً في المفاخرات الحربية وتسجيل الانتصارات وتعداد هزائم الأطراف المغلوبة، إلا أن المسلمين منهم اعتمدوه دون إغفال القرآن وبلاغته، واختلف اهتمام الشعراء من المسلمين في هذه المرحلة، حيث اختفى الغزل من أشعارهم، وتجاوز الأحاسيس القبلية فأصبح ذا بُعد أعمق يرتبط بالأفق الإلهي، بينما استمر الشعراء من المشركين بأشعارهم التي تتضمن أموراً منافية للخلق الإسلامي

---

[١]- سورة الشعراء، الآيات ٢٢٤_ ٢٢٧.

[٢]- البخاري: صحيح، ج٨، ص٣٦، رقم ٦١٥٤.

[٣]- الهلابي: الحياة العلمية والأدبية، ج٢، ص٢٠.

[٤]- البخاري: صحيح، ج٨، ص٣٤، رقم ٦١٤٥. أبو داود: سنن، ج٤، ص٣٠٣، رقم ٥٠١٠، صحيح. أبو نعيم: حلية الأولياء، ج٨، ص٣٠٩.

[٥]- الرازي: مختار الصحاح، مادة (حكم)، ج١، ص٧٨؛ العاني، سامي مكي: دراسات في الأدب الإسلامي، بغداد ، ١٩٧٥، ص١٨، ١٩.

[٦]- محمد، (رحيم محمد): مجالس الشعر والغناء، مجلة ميسان للدراسات الأكاديمية، جامعة البصرة، ٢٠٠٩م، العدد (١٥)، ص١٠٥.

كالفخر بقبائلهم، والتغني بالخمر، والتشبيب بسيدات البيوت الإسلامية، وهجاء الرسول ﷺ والمسلمين، وما إلى ذلك [١].

ودخل الشعر ميدان الصراع بين المسلمين والمشركين، كانت وسيلة فعالة من وسائل الإعلام استغلها المسلمون في التعريف بالإسلام[٢]، والتعبير عما في نفوسهم في مختلف المناسبات، وفي الرد على المشركين وهجائهم المسلمين[٣].

فقد عمد شعراء المشركين إلى هجاء رسول الله ﷺ وأصحابه من المهاجرين ومن آواهم في المدينة من الأنصار، كان أبرزهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن الزبعري، وضرار بن الخطاب الفهري، وأبو عزة الجمحي، وكذلك هبيرة بن أبي وهب المخزومي. كان حسان بن ثابت أبرز من تصدى للمشركين في هذا الصراع الشعري[٤]، وخاض الجولات العديدة في مواجهتهم في شتى المناسبات، وإلى جانبه كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة[٥]، وكانوا جميعهم من الأنصار، وكان لكل منهم منهج في الرد على المشركين، فكان حسان يذكر عيوبهم، مثالبهم وأيامهم، وكذلك كعب يتهددهم ويتوعدهم، أما عبد الله بن رواحة فكان يعيرهم بالكفر، فكان أشد القول قول حسان وكعب، وأهونه قول ابن رواحة، لكنهم بعد أن أسلموا وفقهوا، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة[٦].

كان النبي ﷺ يعلم مدى تأثير الشعر على قريش، حيث قال: " إن المجاهد مجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأنما ترمونهم به نضح النبل". وقوله " اهجوا قريشاً فإنه أشد عليهم من رشق النبل"[٧].

١- حركات، (إبراهيم): السياسة والمجتمع في العصر النبوي، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٨٩م، ص٣٠٩، ٣١٠؛ الفراجي: الحياة الفكرية، ص٢٥٢، ٢٥٣.

٢- حمزة، عبد اللطيف: الإعلام في صدر الإسلام، ص١٨٨.

٣- الوكيل: الحركة العلمية، ص٦٧.

٤ – لمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى ديوان حسان بن ثابت، تح وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦م.

٥ – يمكن العودة والاطلاع على ديوان عبد الله بن رواحة، تح: وليد قصاب، دار العلوم، الرياض، ط١، ١٩٨١م. وديوان كعب بن مالك، تح: سامي محمد مكي، دار القلم، دمشق – بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.

٦ – الذهبي: سير أعلام، ج٢، ص٥٢٥؛ ابن قدامة المقدسي: الاستبصار، ص٥٣.

٧ – الذهبي: سير أعلام، قسم السيرة، ص١٧١، ج٢، ص٥٢٥.

وبعد انسحاب المشركين عقب غزوة الأحزاب، قال النبي ﷺ : "إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ولكنكم تغزونهم، وتسمعون منهم أذى، ويهجونكم، فمن يحمي أعراض المسلمين؟ فقام عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وقال كل منهما: أنا لها، ولهما قال ﷺ: إنك لحسن الشعر، ولقد استمرت هذه الحرب الكلامية حتى فتح مكة، وبعدها، لم يعد لها ضرورة[1]، ولا سيما وأن أبرز الشعراء الذين كانوا يهجوهم المسلمون قد أسلموا وأبرزهم عبد الله بن الزبعري[2].

ولا بد من الإشارة إلى أن المدينة قد شهدت عند قدوم وفود العرب، بعد فتح مكة، وفادات شعراء بمفردهم أو مع قبائلهم، وأنشدوا الرسول شعراً معلنين إسلامهم، كانت أبرزهم وفادة الشاعر كعب بن زهير الذي أنشد رسول الله لاميته المشهورة، والتي مدح فيها رسول الله ، فخلع عليه بردته الشريفة، وقد توارثها الخلفاء بعد ذلك[3]. والنابغة الجعدي أيضاً الذي قال له الرسول ﷺ: أجدتَ لا فضّ الله فاك [4].

ولا بد من ذكر وفادة تميم التي ضمت شعراء وخطباء، قدمت المدينة، وأنشد شاعرهم الزبرقان ابن بدر شعراً يفخر بهم، فأجابه حسان بن ثابت بشعرٍ على الوزن نفسه والقافية ذاتها، بيّن فيها مفاخر الإسلام[5].

- وفيما يتعلق **بالخطابة**:

فقد غلب عليها الطابع الديني، فقد تضمن الإسلام تشريعات وشعائر تتضمن إقامة خطبة في كل أسبوع، وهي خطبة الجمعة، التي تتناول ما يهم أمور المسلمين في حياتهم وآخرتهم، ولما هاجر النبي كان خطيبها الأوحد فكان يتخذ من الخطابة وسيلة لنشر مبادئ الدين الإسلامي، وتأليف كلمة المسلمين في المدينة أنصاراً ومهاجرين، وكان عليه السلام يخطب بهم في العيدين كذلك، وعند الدعوة

[1] – الفراجي: الحياة الفكرية، ص٢٥٦.

[2] – ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٤١٨.

[3] – ابن قتيبة، (عبد الله بن مسلم الدينوري، ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م): الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٢م، ج١، ص١٥٣.

[4] – القرشي، (محمد بن أبي الخطاب، ت ١٧٠هـ/ ٧٨٦م): جمهرة أشعار العرب، تح: علي البجادي، دار نهضة مصر للطباعة، مصر، د.ت، ص٣٨.

[5] – السهيلي: الروض الأنف، ج٧، ص٣٨٧.

للجهاد، وفي الأمور الضرورية والطارئة، وفي ساحات القتال كان عليه السلام يخطب في أصحابه يحضهم على الصبر، والقتال حتى الشهادة، كما في بدر وأحد، والخندق، ومن خطبه المشهورة خطبته في فتح مكة، ويوم حُنين عندما خطب بالأنصار بعد أن عتبوا عليه لعدم خصهم بالعطاء الكثير، وغيرها من الخطب[1].

تميز الأسلوب النبوي كله بالإيجاز ووضوح القصد مع إدخال مصطلحات تلائم لغة المخاطب، بعيداً عن التكلف والسجع والمبالغة، كما هو الشأن في خطابات الرسول إلى بعض أمراء حمير، وهرقل[2].

عند قدوم وفد بني تميم، جعلوا خطيبهم "عطارد بن حاجب" يتحدث ويلقي خطبة كان الفخر فيها بالمال والقوة، فأرسل النبي ﷺ إلى "ثابت بن قيس" للرد عليهم، فألقى ثابت خطبة جعل محورها الأنصار، وأشعت منها مؤثرات القرآن كعبارات الإيمان، والجهاد، ونزول الكتاب، والفخر بالرسول والعقيدة الجديدة وباستجابتهم له، ففاقت خطبة الوفد وكانت أبلغ منها[3].

مما سبق يمكن القول بأن المدينة تولت زمام الزعامة الفكرية كما السياسية في الجزيرة العربية، وكانت النقاط التي تم الحديث عنها والإشارة إليها، ما هي إلا بدايات لانطلاقة فكرية جاءت نتيجة طبيعية لاستقرار الإسلام فيها. وقد أصبحت في المرحلة اللاحقة هي المنبع لكل علم، والمصدّر للعلماء، وتوضحت فيها المعالم الثقافية والعلمية بشكل أوضح، بل إن حض رسول الله ﷺعلى طلب العلم، وتشجيع المسلمين كافة إلى طلبه، وجعله في متناول الجميع، دون أن يخص به فئة عن أخرى، وكذلك باتخاذه المسجد النبوي المركز الأول في نشر العلم، وتعليم القرآن، كان له الدور البارز في إرساء عادة ضرورة التعلم ووجوبها عند المسلمين، ولا سيما عند الجيل الجديد الذي نشأ متشرباً هذا الأمر، بالإضافة إلى أمر تدوين القرآن الكريم، وحرصه عليه السلام على تعليم صحابته بأصول قراءته، قد عاد بالخير العظيم لاحقاً في الحفاظ على عماد وأساس الدعوة، وما لبثت ثمار هذا الإعداد والاهتمام بأمور العلم مجتمعاً قد عاد بالنفع والفائدة في شتى الميادين.

[1] -الفراجي: الحياة الفكرية، ٢٧١.

[2] - حركات: السياسة والمجتمع، ص٣٠٨.

[3] - يمكن العودة إلى ابن سعد: الطبقات، ج١١، ص٢٩٤.

- الخاتمة

بعد المرور والتوقف على هذه الجوانب والنواحي، أثناء الدراسة، يمكن القول بأن المدينة تخلصت من كافة الصعوبات والمشاكل التي كانت سبباً في ابتعادها عن شغل أي دور مهم قبل الإسلام، وجَعلَها تأتي في مرتبة ثانية بعد مكة، وبدأت تتهيأ لدور جديد لم يقتصر حيزه المكاني على الحجاز أو شبه الجزيرة العربية، بل تعداه إلى منطقة مترامية الأطراف، شملت أراضي الإمبراطورية الساسانية، وجل البيزنطية.

❖ كانت المدينة في المرحلة القديمة من تاريخها واحة نخيل في قلب الصحراء، وكان من الطبيعي أن تكون مركز جذب، وأن تتلقى موجات وافدة متلاحقة، على مدى طويل، وعلى الرغم من أن قيام المصادر بإرجاع نسب من سكنها إلى الأوس والخزرج، بالإضافة إلى بقايا العماليق فقط من القبائل العربية، إلا أنه لا يمكن التسليم بصفاء هذا النسب دون أية تغيرات أو تمازج مع غيره من القبائل، فالمرجح أن الأوس والخزرج كانوا الأبرز والأقوى، والمسيطرين على مناطق المدينة إلى جانب اليهود، وأن الوافدين عندما قدموا اصطدموا معهم، واستمرار الخلافات والحروب والاقتتالات يرجح هذا الأمر، فاستقر قسمٌ إلى جانبهم وحدثت علاقات حلف ومصاهرة، فغلب اسم القبيلة التي حالفوها على نسبهم، ويمكن القول بأن كثرة الأسماء التي تنسب إلى الأمهات دون الآباء، وولاءهم للعشيرة الذي ظهر أقوى من ولائهم للقبيلة الأم، ما هو إلا مؤشر على ذلك، فقد جرت خلافات بين بطونٍ من نفس القبيلة، كما جرى بين بني حارثة وبني عبد الأشهل قبل الإسلام، كما أن ظاهرة الأطم التي تفردت بها المدينة عما حولها، هي دليل على عدم الانسجام والوحدة في مجتمع المدينة ليس بين العرب واليهود فقط، بل بين العشائر جميعها مع بعض.

❖ شكلت دولة المدينة كياناً جديداً ومختلفاً عما حوله، وتجربة فريدة لم تعهد المنطقة مثلها حتى تلك الآونة، وكان محاطاً بقبائل متمسكة بأنظمتها وتحالفاتها القبلية، ولا سيما مع قريش التي كانت تتولى أمر الإيلاف، فكان موقف هذه القبائل متأثراً لدرجة كبيرة بموقفها، لذا عمل رسول الله ﷺ على الضغط على قريش والتضييق عليها لتغيير موقفها من الدعوة من خلال استهداف الطرق التجارية التي تسير عليها قوافل المكيين، وتعطيلها وإيقافها، وكان هذا الأمر الأكثر ضرراً بالنسبة لمكة، فمنه وبه استمدت قوتها ومكانتها، وفرضت سلطتها، وعقدت أحلافها مع القبائل، فبدأت هذه المكانة تهتز، وهيبتها

تتأرجح، الأمر الذي أدى إلى الصدام والمواجهة، في أكثر من لقاء، شاركت بعض القبائل فيه أحياناً. كانت جلّ المواجهات حتى فتح الحديبية مركزة على قريش وحلفائها.

❖ على الرغم من ظهور تفوق المدينة السياسي والعسكري بعد الحديبية على مكة، فقد كثرت اعتداءات القبائل على قوافل المسلمين شمالاً، فبدأ اتجاه الأعمال العسكرية شمالاً يأخذ النصيب الأكبر من مجمل المواجهات، حيث أن رسول الله ﷺ لم يتهاون في الرد على هذه الاعتداءات، وردع القبائل بإرسال البعوث والسرايا العديدة إلى هذه المنطقة. وعلى ما يبدو أن هذه القبائل استشعرت خطر الدولة الجديدة، واختلاف نظامها القبلي عنها، وبناءاً على ذلك فقد كانت القبائل الشديدة البداوة هي الأكثر عداوة كغطفان بفروعها.

❖ ويمكن القول بأن التوجه شمالاً كان نتيجة حتميةومؤكدة بالنسبة للمدينة، ساهم بذلك موقعها المتقدم باتجاه الشام، وحاجتها إلى المنتجات، كالزيت والدقيق على وجه الخصوص ومنتجات أخرى، وازدياد الحاجة بعد الإسلام لتلبية حاجات أعداد سكانها المتزايدة، وتوسع تجارتها، وسد الفراغ الذي حدث نتيجة توقف القوافل المكية. وكان لهذا القرب من الشمال لاحقاً أهمية كبيرة بعد انطلاق حركة الفتوحات.

❖ من الناحية الاجتماعية والاقتصادية فقد بدأت تغيرات مهمة جداً، فجل الأسباب التي كانت سبباً في الصراعات والمنازعات قد تبدلت وتغيرت. حيث ابتعد الناس عن ميدان الأطماع، فاختفت المنازعات ذات الخلفيات الاقتصادية التي كانت هي السائدة، والمسببة للاضطرابات فيها. وكان لخروج اليهود منها آثارٌ اقتصادية واجتماعية مهمة. فالمدينة أصبحت مركز الأمة، لم تعد ميداناً للحروب والنزاعات، وتحملت أعباءاً كثيرة، لأن هذه الأمة لم تشبه أي شيء عهدته المدينة، ولا أية منطقة في الجزيرة العربية من قبل، أمة جمعت العقيدة بين أفرادها، يعني أنها أمة متزايدة، قابلة لاستيعاب عناصر مختلفة من السكان، الأمر الذي لم تعهده نظم المنطقة من قبل، وخاصة المدينة، التي عانت من عدم الانسجام بين مكوناتها قبل الإسلام، ولقد نظمت الصحيفة التي أصدرها رسول الله ﷺ بين مكونات هذه الأمة، وبينت واجبات وحقوق أفرادها، كما أظهرت تقبلها عناصر مختلفة عنها كاليهود في المرحلة الأولى بشرط الالتزام بالحفاظ على أمن المدينة، وعدم الإخلال بالشروط الواجبة لذلك.

كان اليهود في المدينة متفوقون من الناحية الاقتصادية على الأنصار قبل الإسلام، فقد استقروا بأخصب الأراضي، واحتكروا السوق، فتركزت الأموال بأيديهم، فشكّل خروجهم منها توسعةً، وحلاً

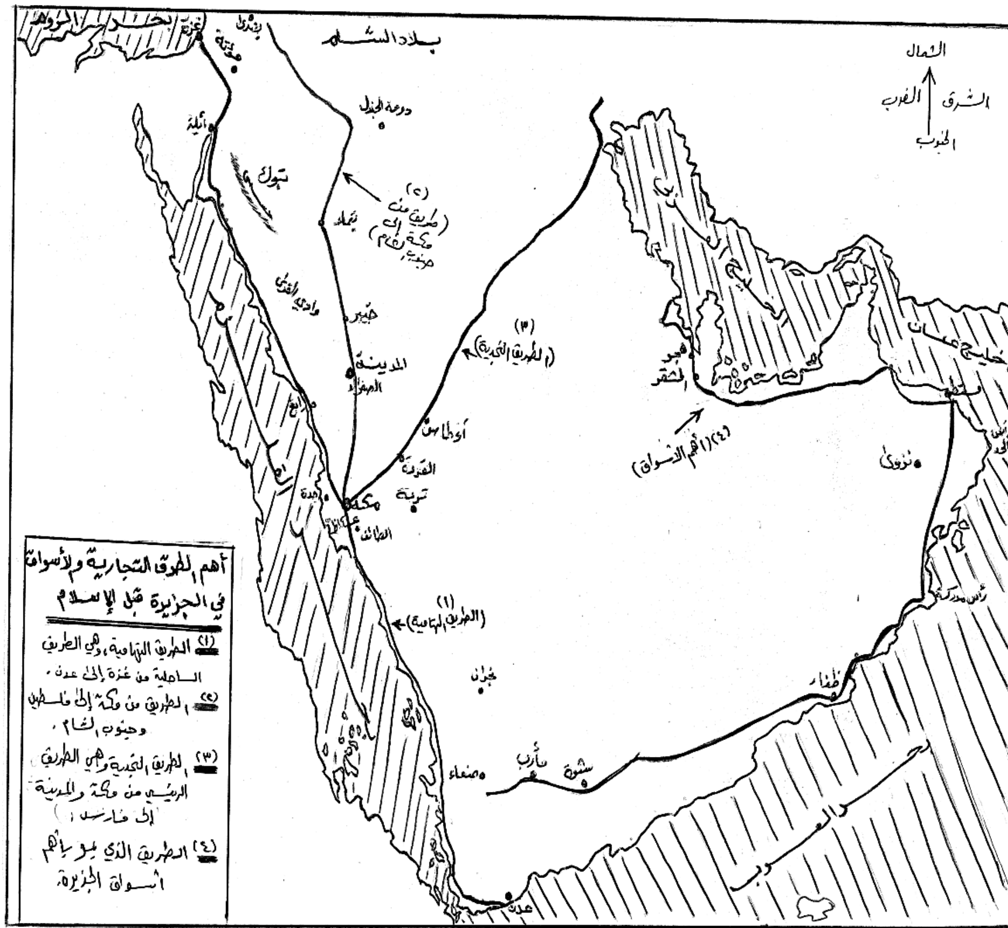
للكثير من الأمور والمشاكل والأعباء الاقتصادية والاجتماعية، حيث انتفى وجود العنصر الغريب من الأمة، وأصبحت أكثر تماذجاً، كما أصبحت أوضاعها الاقتصادية أكثر سعةً، وانتظم اقتصادها وفق المعايير الإسلامية التي حدّدها رسول الله ﷺ،وكان لها الأثر الكبير في متانة هذا الاقتصاد واستمراريته، وتلبيته للحاجات المستجدة، حيث كان العنصر الأهم فيه هو العمل على تحويله من اقتصاد عيني إلى نقدي، وهذا الأمر عاد بالفائدة، على الصعيد الداخلي، حيث بدأت التجارة تتخلص من وجوه الظلم والاستغلال التي كانت تحصل، مما زاد الثقة بالتاجر المسلم عموماً، وأثر مستقبلاً على الحركة الاقتصادية بالإجمال.

ولا يجب إغفال المعاملة الإنسانية التي أرساها رسول الله ﷺ في معاملة الرقيق، والتدرج الذي أتاحه الإسلام للوصول إلى حريتهم.

❖ هذا وبدأت تتبلور في المدينة أسس حركة فكرية ثقافية، ما لبثت أن انتقلت بها لتغدو المركز الفكري الأول، بما يتناسب مع أفكار وروح الدين الجديد، وأصبح المسجد النبوي الشريف مدرسةً انطلقت منها الإشعاعات الفكرية المبكرة، وبدأ الجيل الأول من الصحابة يتلقى من رسول الله ﷺ تعاليم دينهم، وبنفس الوقت ينقل ما تلقاه، ويعلّم من أراد الدخول في الإسلام. وكان للدقة التي بدأها رسول الله ﷺ فيما يخص تدوين آيات القرآن الكريم، أثره الواضح في انتشار الكتابة بين أبناء المدينة على وجه الخصوص، وبين المسلمين عموماً، الأمر الذي كان له أثرٌ مهم جداً في هذا الميدان. وعاد بالفائدة الأعظم على الإسلام في حفظ القرآن الكريم من أي ضياع.

كان العصر النبوي في المدينة عصر تأسيسٍ للدولة، ومرحلةَ إعدادٍ وتهيئةٍ للمدينة لتحمل أعباء المرحلة القادمة، وما لبثت أن تعددت وظائفها وتنوعت، فأصبحت عاصمة للدولة، ومركزاً سياسياً متقدماً، ومركزاً للدعوة، ومنبعاً للتشريعات والنظم الجديدة.

الملاحق



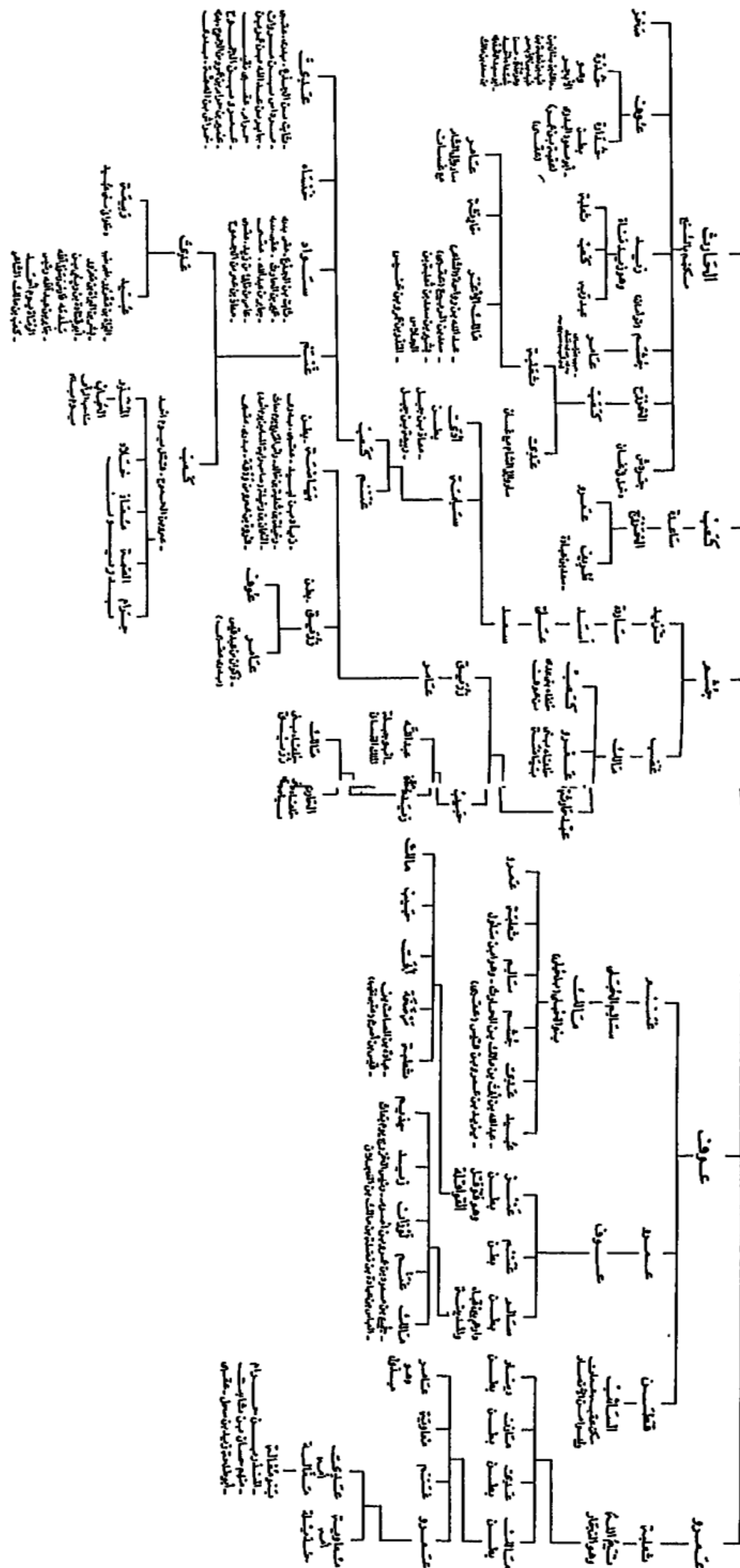
– مؤنس، (حسين): أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، ص٥٩.

أنساب الأوس

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي



– بدر، التاريخ الشامل، ج١، ٦٢.

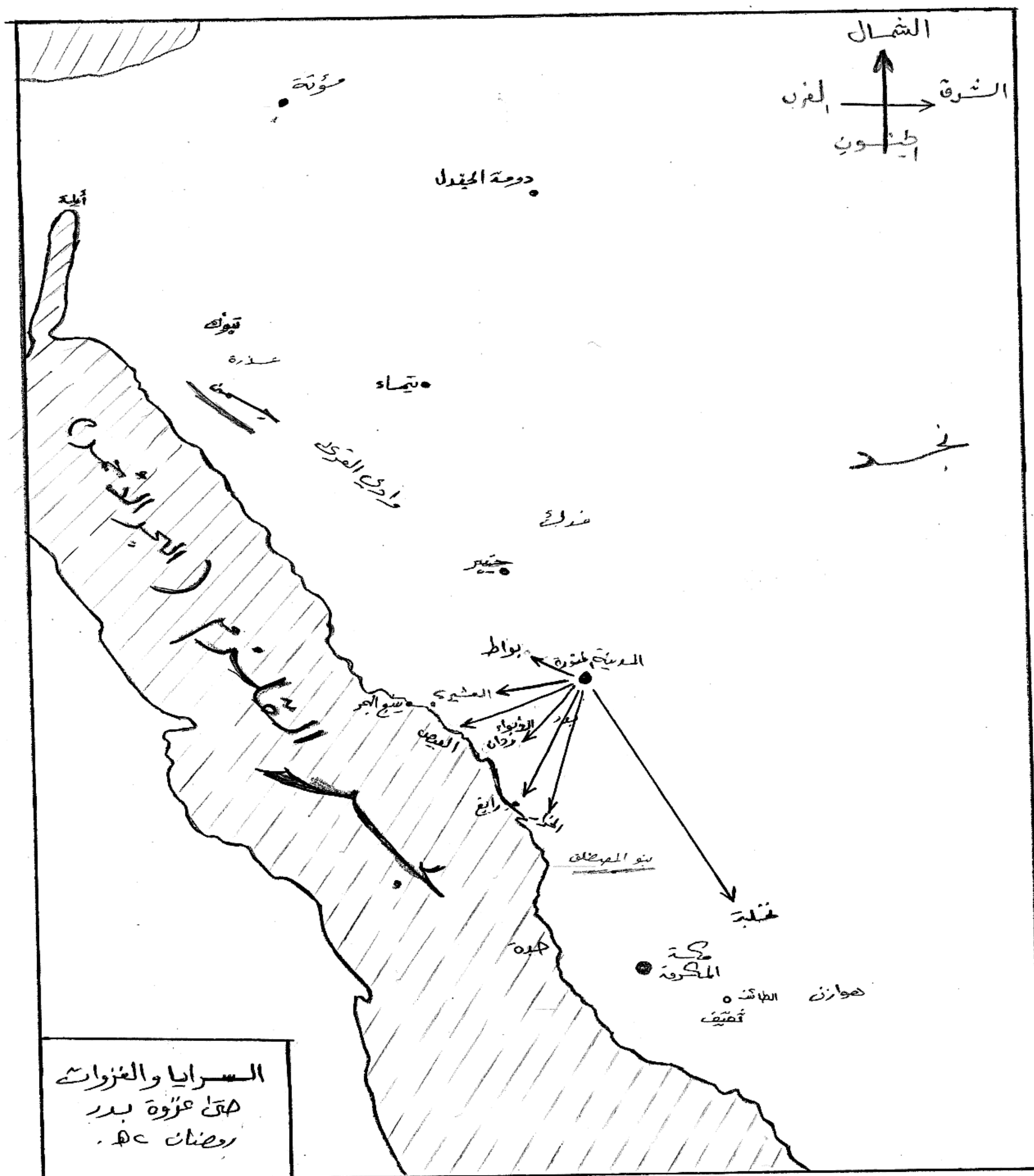


أنساب الخزرج

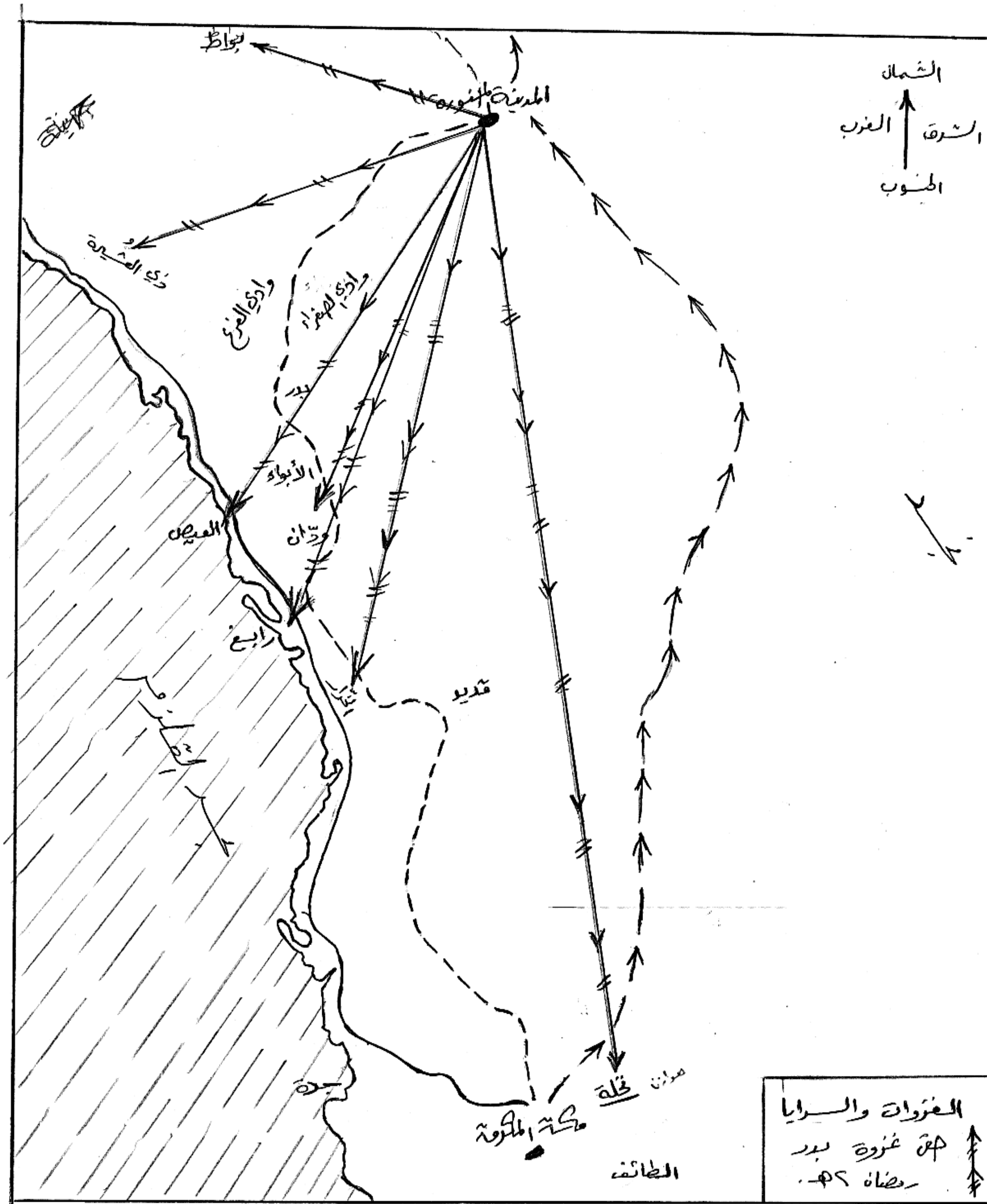
المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

– بدر، التاريخ الشامل، ج١، ٦٣.

- أبو خليل، (شوقي): أطلس السيرة النبوية، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م، ص٨٢.

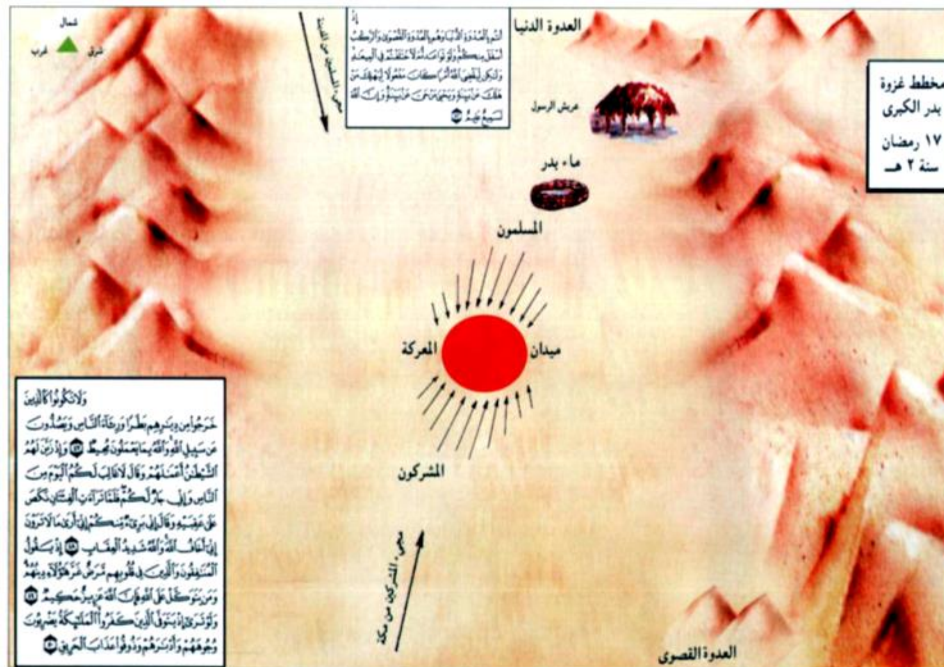


- أبو خليل: أطلس السيرة، ص٩٦ - ١٠٤.

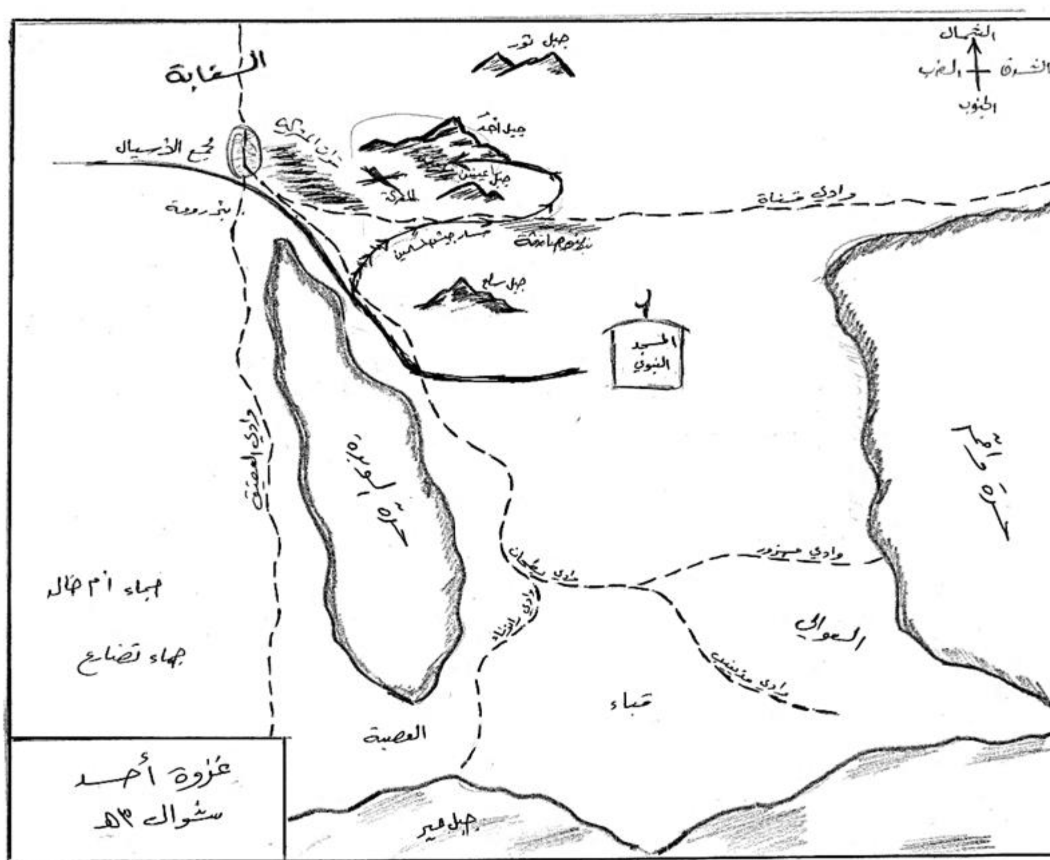


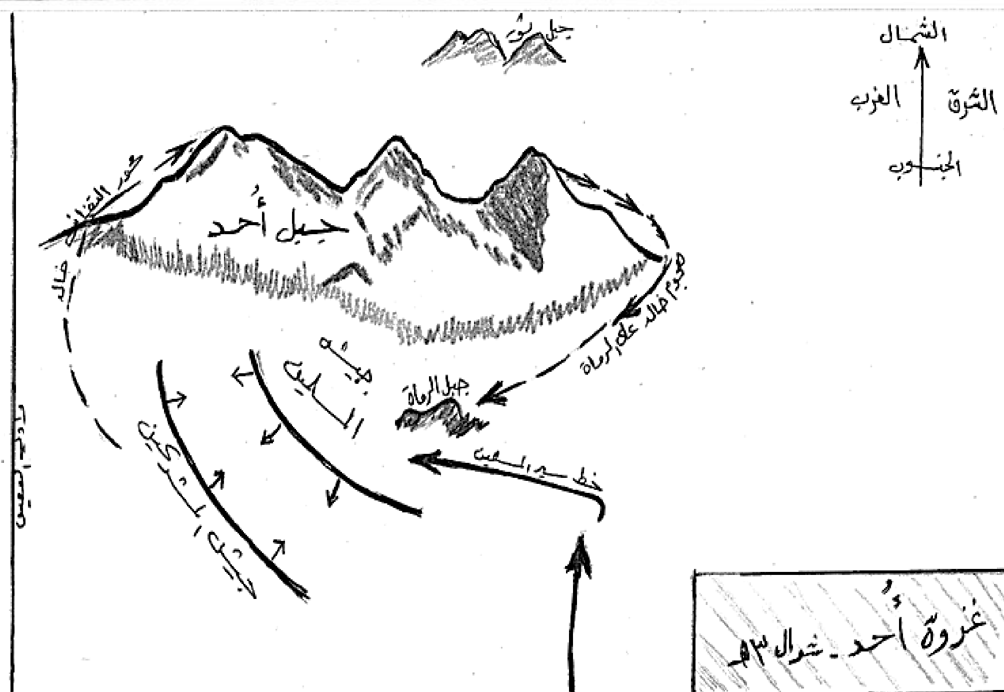
- المغلوث: (سامي عبد الله): الأطلس التاريخي لسيرة الرسول – ص – مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٤م، ص١٣٦.



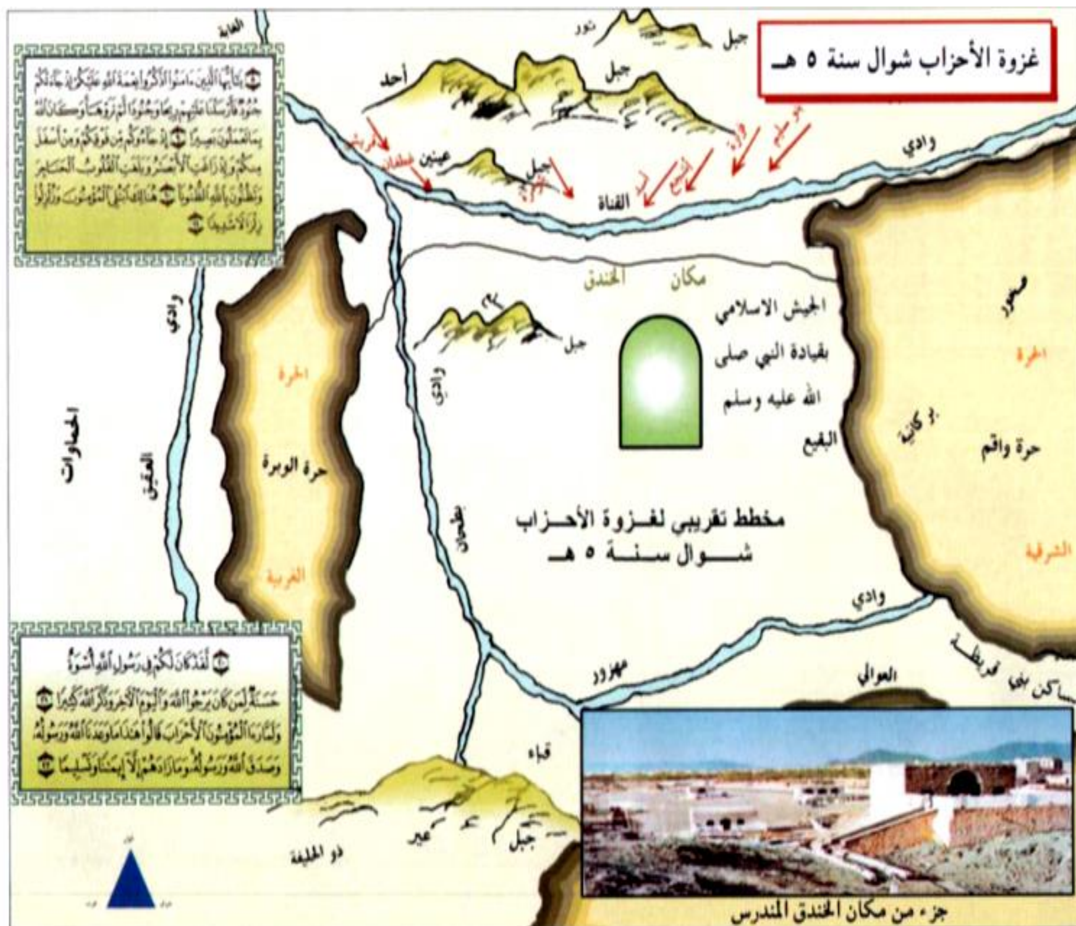


- المغلوث: الأطلس التاريخي، ١٥٨- ١٥٩.



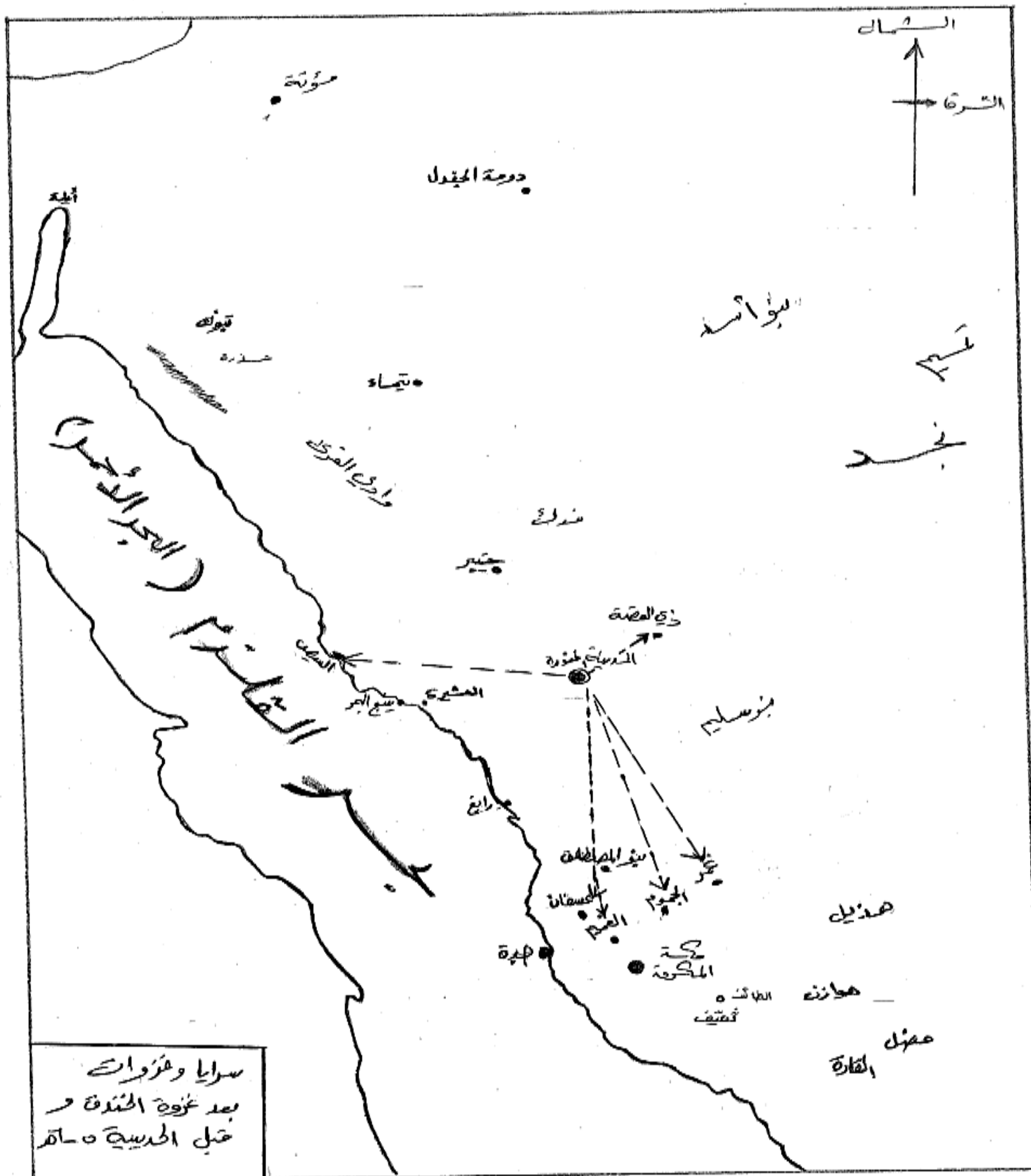


- المغلوث: الأطلس التاريخي، ١٦٥.

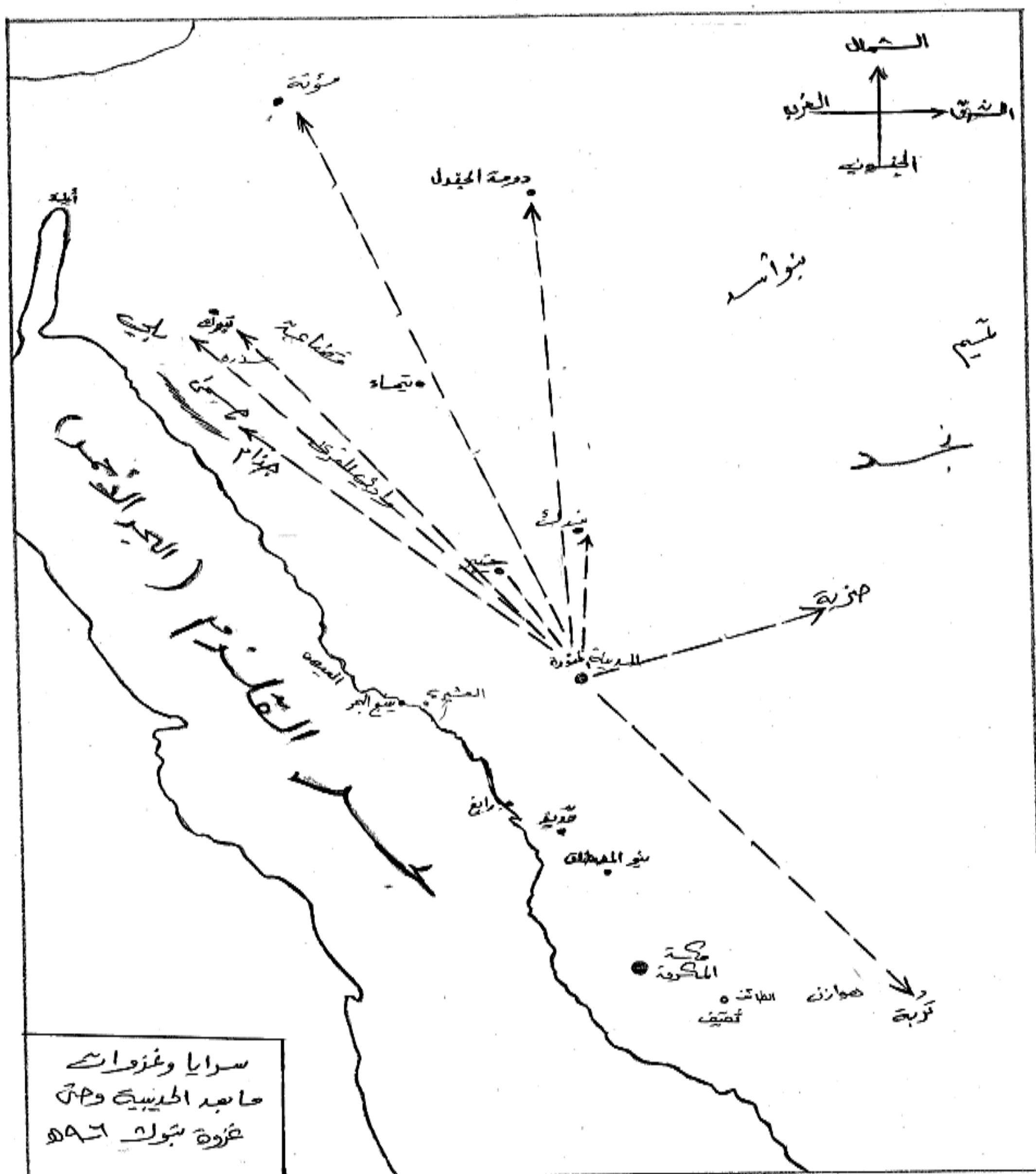


- المغلوث: الأطلس التاريخي، ١٧٥.

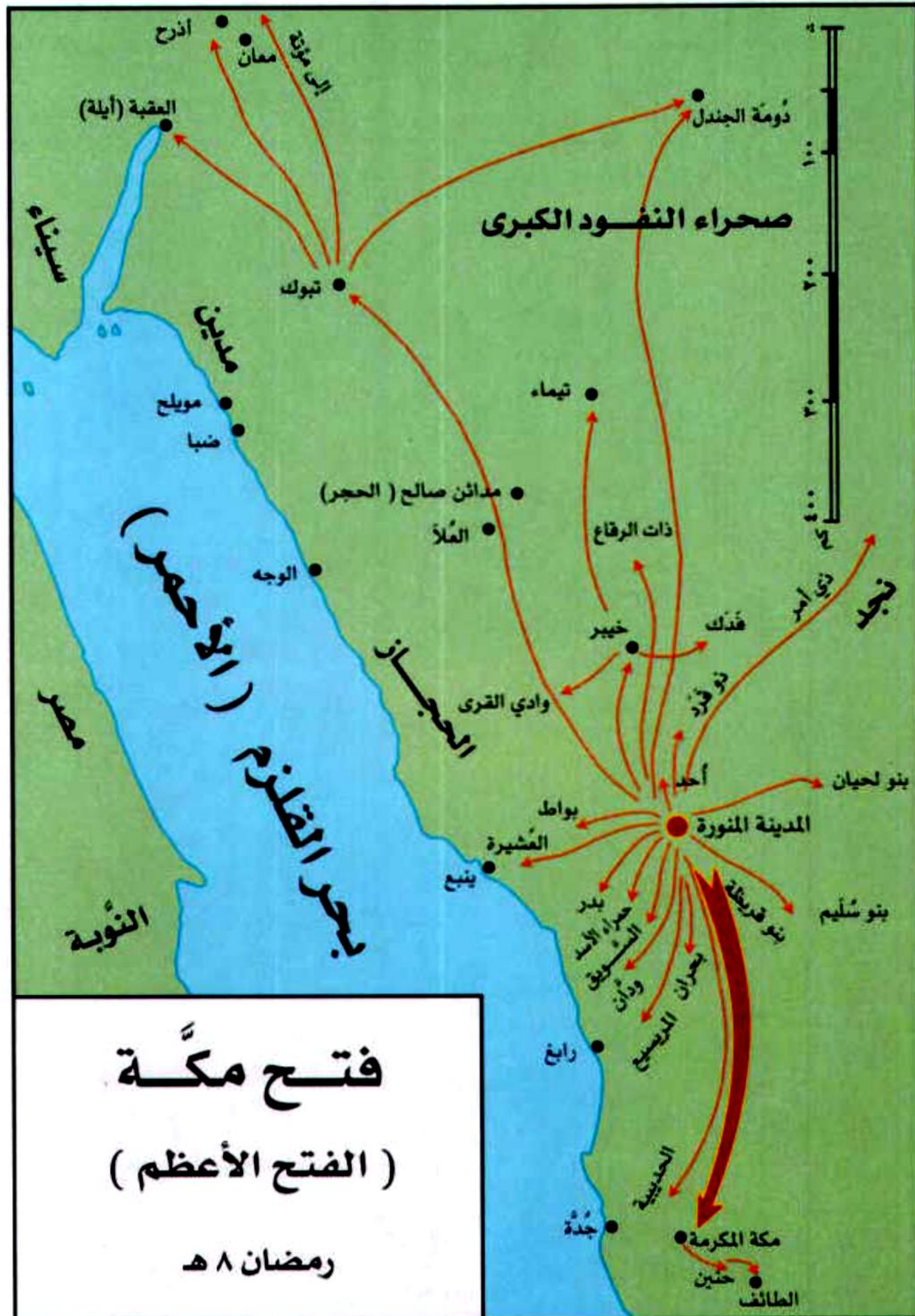
- أبو خليل: أطلس السيرة، ص١١٤، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٥.



– مؤنس: أطلس تاريخ، ص٥٦.



- أبو خليل: أطلس السيرة، ص١٨٠، ١٨٢، ١٩١، ١٩٤.



- أبو خليل: أطلس السيرة، ص١٩٧.

قائمة المصادر والمراجع

– القرآن الكريم.

أولاً– المصادر:

١- ابن الأثير الجزري، (أبو السعادات محمد بن محمد، تـ ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م): **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود الطناجي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

٢- ابن الأثير، (علي بن محمد الجزري، تـ ٦٣٠هـ/١٢٣٢م):**أسد الغابة**، تح: على محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،١٩٩٤م.

٣- ـــــــــــ: **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

٤- ابن آدم، (يحيى القرشي الولاء الكوفي، تـ ٢٠٣هـ/ ٨١٨م): **كتاب الخراج**، المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.

٥- الأزرقي، (محمد بن عبد الله، تـ٢٥٠هـ/ ٨٦٥م): **أخبار مكة**، تح: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، بيروت، د.ت

٦- ابن إسحاق، (محمد بن يسار، تـ١٥١هـ/ ٧٦٨م): **سيرة ابن إسحاق**، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.

٧- الاصطخري، (إبراهيم بن محمد الفارسي، تـ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): **المسالك والممالك**، الهيئة العامة لعصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٨- الأصفهاني، (أبو الفرج علي بن الحسين القرشي، تـ٣٥٦هـ/٩٦٦م): **الأغاني**، تح: إحسان عباس وإبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م.

٩- البخاري، (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، تـ٢٥٦هـ/٨٦٩م): **الجامع المسند الصحيح** من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم، تح: محمد الناصر، دار طوق النجاة، د.م، ٢٠٠١م.

١٠- البستي، (محمد بن حبان، تـ ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م): **السيرة النبوية**، دار الكتب الثقافية، بيروت، ط٣،١٩٩٦م.

١١- ـــــــــــ: **مشاهير علماء الأمصار**، تح: مرزوق علي إبراهيم، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٩٩١م.

١٢- ابن بكار، (الزبير، ت٢٥٦هـ/ ٨٦٩م): **المنتخب** من كتاب أزواج النبي ﷺ، تح: سكينة الشهابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
١٣- البكري، (عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي، ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م): **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.
١٤- البلاذري، (أحمد بن يحيى، تـ ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): **فتوح البلدان**،دارومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م.
١٥- ـــــــــــــ:**جمل من أنساب الأشراف**، تح: سهيل زكار، رياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
١٦- ابن البيع، (أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله، تـ ٤٠٥هـ/ ١٠١٥م): **المستدرك على الصحيحين**، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
١٧- البيهقي، (أحمد بن الحسين، تـ ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م): **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
١٨- الترمذي، (محمد بن عيسى، ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): **سنن الترمذي**، تح: أحمد شاكر ومحمد عبد الباقي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٧٥م.
١٩- ابن ثابت، (حسان الأنصاري، تـ ٥٤هـ/ ٦٧٤م): **ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**،تح:وليد عرفات،، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦م.
٢٠- الثعالبي، (عبد الملك بن محمد أبو منصور، تـ ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م): **ثمار القلوب في المضاف والمنصوب**، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
٢١- الثعلبي، (أحمد بن محمد بن إبراهيم، تـ ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م): **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**،تح: أبو محمد عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
٢٢- ابن الجزري، (شمس الدين محمد بن محمد، تـ ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م): **غاية النهاية في طبقات القراء**، نشر برجستراسر، ١٩٣٢م.
٢٣- ابن جعفر، (أبو الفرج البغدادي قدامة، ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م): **الخراج وصناعة الكتابة**، تح: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ط١، ١٩٨١م.
٢٤- ابن الجوزي، (عبد الرحمن بن علي بن محمد، ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م): **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،١٩٩٢م.

٢٥- ابن الحائك الهمذاني، (الحسن بن أحمد بن يعقوب، تـ ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م): **صفة جزيرة العرب،** تح: محمد علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٣م.

٢٦- ابن أبي حاتم، (عبد الرحمن بن محمد، تـ ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م): **الجرح والتعديل،** دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٥٢م.

٢٧- ابن حبيب، (محمد بن أمية بن عمر، تـ ٢٤٥هـ/٨٥٩م): **المنمق في أخبار قريش،** تح: خورشيد أحمد فارق،عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٢٨- ــــــــــــــ : **المحبر،** تح: إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.

٢٩- الحربي، (إبراهيم بن إسحق بن إبراهيم أبو إسحق، تـ ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م): **كتاب المناسك** وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تح: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٦٩م.

٣٠- ابن حزم، (علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، تـ ٤٥٦ هـ/١٠٦٣م): **جوامع السيرة،** تح: إحسان عباس، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

٣١- ــــــــــــــ: **جمهرة أنساب العرب،** تح: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

٣٢- ابن الحسين المنجم، (إسحاق، توفي في القرن ٤هـ/ ١٠م): **أكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان،** باعتناء فهمي سعيد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٣٣- الحلبي، (نور الدين علي بن إبراهيم بن برهان، تـ ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٥م): **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون** المعروفة **بالسيرة الحلبية،** مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٣٥م.

٣٤- الحموي، (ياقوت بن عبد الله، تـ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): **معجم البلدان،** دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

٣٥- الحميري، (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، تـ ٩٠٠هـ/١٤٩٤م): **الروض المعطار** في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

٣٦- ابن حنبل، (أحمد بن محمد، تـ٢٤١هـ/٨٥٥م): **مسند الإمام أحمد بن حنبل،** تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١،٢٠٠١م.

٣٧- ابن حوقل، (أبو القاسم النصيبي محمد بن علي الموصلي، تـ٣٦٧هـ/٩٧٧م): **صورة الأرض،** دار مكتبة الحياة، بيروت،١٩٩٢م.

٣٨- الخزاعي، (أبو الحسن علي بن محمد، تـ ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م): **تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية،** تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٤م.

٣٩- ابن خلدون، (عبد الرحمن بن محمد، تـ ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م): **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، المعروف بتاريخ ابن خلدون، ضبطه خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.

٤٠- أبوداود، (سليمان بن الأشعث، تـ ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م): **سنن أبي داود**، تح: محمد عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، د.ت.

٤١- الدارمي، (عبد الله بن عبد الرحمن، تـ ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م): **سنن الدارمي**، تح: حسين الداراني، دار المغني للنشر، د.م، ٢٠٠٠م.

٤٢- ابن دريد، (محمد بن الحسن الأزدي، تـ٣٢١هـ/ ٩٣٣م): **الاشتقاق**، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٤٣- **الدياربكري**، (حسين بن محمد بن الحسن، تـ ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م): **تاريخ الخميس** في أحوال أنفس النفيس، دار صادر، بيروت، د.ت.

٤٤- الذهبي، (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تـ ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م): **سير أعلام النبلاء**، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م.

٤٥- ـــــــــــــ :**تذكرة الحفاظ**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٤٦- ـــــــــــــ :**معرفة القراء الكبار على الطبقات**، تح: بشار عواد ومعروف شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٣م.

٤٧- ابن رجب الحنبلي:(عبد الرحمن بن أحمد، تـ ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م): **الاستخراج لأحكام الخراج**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٤٨- ابن رسته، (أبو علي أحمد بن عمر، تـ أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي): **الأعلاق النفيسة**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩٣م.

٤٩- ابن زبالة، (محمد بن الحسن، تـ ١٩٩هـ/ ٨١٤م): **أخبار المدينة**، جمعه صلاح عبد العزيز سلامة، مركز بحث ودراسات المدينة، المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٣م.

٥٠- الزبيدي، (محمد بن محمد الملقب بالمرتضى، تـ ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م): **تاج العروس من جواهر القاموس**، مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.م، د.ت.

٥١- ابن الزبير، (عروة، تـ ٩٤هـ/ ٧١٢م): **مغازي رسول الله ﷺ**، جمع وتحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مكتبة التربية العربي، الرياض، ط١، ١٩٨١م.

٥٢- الزركشي، (محمد بن عبد الله بن بهادر، تـ ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م): **البرهان في علوم القرآن**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٧م.

٥٣- الزمخشري، (محمود بن عمرو بن أحمد، تـ ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م): **الكشاف** عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م.

٥٤- ابن زنجويه، (أبو أحمد حميد بن مخلد الخراساني، تـ ٢٥١هـ/ ٨٦٥م): **الأموال**، تحقيق شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية، السعودية، ط١، ١٩٨٦م.

٥٥- الزهري، (محمد بن مسلم بن شهاب، ت ١٢٤هـ/ ٧٤١م): **المغازي النبوية**، تق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨١م.

٥٦- سبط ابن الجوزي، (يوسف قز أوغلي، ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م): **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

٥٧- السخاوي، (محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م): **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، عني بنشره أسعد طرابزوني الحسيني، د.م، ١٩٧٩م.

٥٨- ابن سعد، (أبو عبد الله محمد، تـ٢٣٠هـ/٨٤٤م): **الطبقات الكبرى**، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

٥٩- ابن سعيد الأندلسي، (علي بن موسى، تـ ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م): **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب**، تح: نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمّان، ١٩٨٢م.

٦٠- ابن سلاّم، (أبو عبيد القاسم الهروي البغدادي، تـ ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م): **الأموال**، تحقيق: خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت د.ت.

٦١- السمهودي، (علي بن عبد الله بن أحمد، تـ ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، تح: قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة، ط١، ٢٠٠١م.

٦٢- السهيلي، (عبد الرحمن بن عبد الله، تـ٥٨١هـ/ ١١٨٥م): **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية**، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٦٣- ابن سيد الناس، (محمد بن محمد اليعمري، ت ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م): **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل واسير**، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٦٤- السيوطي، (عبد الرحمن بن أبي بكر، ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): **الإتقان في علوم القرآن**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العالمة للكتاب، ١٩٧٤م.

٦٥- الشامي، (محمد بن يوسف الصالحي، ت ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م): **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، تح: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٦٦- ابن شبة، (أبو زيد عمر النميري البصر، ت٢٦٢هـ/ ٨٨٥م): **تاريخ المدينة المنورة**، تح: فهيم شلتوت، طبع على نفقة السيد حبيب محمود أحمد، جدة، ١٩٧٩م.

٦٧- الشيباني، (الإمام محمد بن الحسن بن فرقد، تـ ١٨٩هـ/ ٨٠٤م): **شرح كتاب السير الكبير**، إملاء: الإمام محمد بن أحمد السرخسي، تح: محمد الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٦٨- ــــــــــ: **الكسب**، تح: سهيل زكار، مكتبة عبد الهادي حرصوني، دمشق، ط١، ١٩٧٩م.

٦٩- ابن أبي شيبة، (أبو بكر عبد الله بن محمد، ت ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م): **كتاب المغازي**، تح: عبد العزيز إبراهيم العمري، دار إشبيليا للنشر، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.

٧٠- الشيرازي، (أبو إسحق إبراهيم بن علي، تـ ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م): **طبقات الفقهاء**، تح: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.

٧١- الطبراني، (سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم، تـ ٣٦٠هـ/ ٩٧١م): **المعجم الكبير**، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، د.ت.

٧٢- الطبري، (محمد بن جرير، ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م): **جامع البيان في تأويل القرآن**، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

٧٣- ــــــــــــ:**تاريخ الرسل والملوك**، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م.

٧٤- ابن طرخان، (سليمان البصري أبو المعتمر، التيمي، تـ ١٤٣هـ/ ٧٦٠م): **مخطوط السيرة الصحيحة**، المكتبة الخاصة للأستاذ الدكتور سهيل زكار.

٧٥- ابن عبد البر، (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، تـ ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م): **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تح: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ١٩٩٢ م.

٧٦- ــــــــــــ: **الدرر في اختصار المغازي والسير**، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م.

٧٧- ــــــــــــ: **جامع بيان العلم وفضله**، تح: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٩٤م.

٧٨- ابن عبد الحق، (عبد المؤمن البغدادي الحنبلي، تـ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م): **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.

٧٩- ابن عبد ربه، (أحمد بن محمد بن حبيب، تـ ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩م): **العقد الفريد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

٨٠- العراقي، (عبد الرحيم بن الحسين، ت ٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م): **نظم الدرر السنية الزكية**، دار المنهاج، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

٨١- ابن عساكر، (علي بن الحسن بن هبة الله، تـ ٥٧١هـ/ ١١٧٦م): **تاريخ دمشق**، تح: عمرو غرامة العمروي، دار الفكر، د.م، ١٩٩٥م.

٨٢- العسقلاني، (أحمد بن علي بن حجر، تـ ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): **الإصابة في تمييز الصحابة**، تح: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.

٨٣- ـــــــــــ:**فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٩م.

٨٤- ـــــــــ: **تهذيب التهذيب**، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.

٨٥- ابن عقبة، (موسى، تـ ١٤١هـ/ ٧٥٨م): **المغازي**، دراسة وتخريج: محمد باقشيش أبو مالك، مطبعة العارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٤م.

٨٦- الفاكهي، (محمد بن إسحاق، تـ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م): **أخبار مكة**، تح: عبد الملك دهيش، دار خضر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.

٨٧- أبو الفداء، (إسماعيل بن علي، تـ ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م): **المختصر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، د.ت.

٨٨- ابن الفقيه، (أحمد بن محمد بن إسحق المعروف ب، تـ ٥٠٩هـ/ ١١١٥م): **البلدان**، تح: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٨٩- الفيروز أبادي، (محمد بن يعقوب، تـ٨١٧هـ/ ١٤١٥م): **المغانم المطابة في معالم طابة**، تح: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ط١، ١٩٦٩م.

٩٠- ـــــــــــ: **القاموس المحيط**، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥م.

٩١- ابن قتيبة، (عبد الله بن مسلم الدينوري، تـ ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م): **المعارف**، تح: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.

٩٢- ـــــــــــ:**عيون الأخبار**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

٩٣- ـــــــــــ: **الشعر والشعراء**، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٩٤- ابن قدامة المقدسي، (موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، تـ٦٢٠هـ /١٢٢٣م): **الاستبصار في نسب الصحابة من الأمصار**، تح: علي نويهض، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١م.

٩٥- القرشي، (محمد بن أبي الخطاب، تـ ١٧٠هـ/ ٧٨٦م): **جمهرة أشعار العرب**، تح: علي محمد البجادي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، د.ت.

٩٦- القرطبي، (محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي، ت ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م): **الجامع لأحكام القرآن، ما يعرف بتفسير القرطبي**، تح: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.

٩٧- القلقشندي، (أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٩٨- ________: **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.

٩٩- ________:**نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

١٠٠- ابن القيم الجوزية، (محمد بن أبي بكر، ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م): **زاد المعاد في هدي خير العباد**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٧، ١٩٩٤م.

١٠١- ابن كثير، (إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م): **تفسير القرآن العظيم**، تح: سامي محمد سلامة، دار طيبة، د.م، ١٩٩٩م.

١٠٢- ________: **البداية والنهاية**، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر،الرياض، ط٢، ٢٠٠٣م.

١٠٣- ________: **السيرة النبوية**، تح: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٦م.

١٠٤- الكلاعي، (أبو الربيع سليمان بن موسى، ت ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م): **الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، تح: مصطفى عبد الواحد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة الهلال ببيروت، ١٩٦٨م.

١٠٥- ابن الكلبي، (هشام بن محمد السائب، ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م): **كتاب الأصنام**، تح: أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٠٦- ________: **نسب معد واليمن الكبير**، تحقيق ناجي حسن، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، د.م، ط١، ١٩٨٨م.

١٠٧- ابن ماجة، (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت ٢٧٣هـ/ ٨٨٧م): **سنن ابن ماجة**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، د.م، د.ن.

١٠٨- ابن مالك، (مالك بن أنس، ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م) : **الموطأ**، تح: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٤م.

١٠٩- الماوردي، (علي بن محمد بن حبيب، ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م): **الأحكام السلطانية**، دار الحديث، القاهرة، د.ت.

١١٠- المزي، (يوسف بن عبد الرحمن، أبو الحجاج، ت ٧٤٢هـ/ ١٣٤١): **تهذيب الكمال**، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

١١١- المسعودي، (علي بن الحسين بن علي، ت٣٤٦هـ/٩٥٧م): **التنبيه والإشراف**،تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د.ت.

١١٢- __________:**مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩م.

١١٣- المطري، (محمد بن أحمد، ت٧٤١هـ/ ١٣٤٠م): **التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة**، تح: سليمان الرحيلي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ٢٠٠٦م.

١١٤- المقدسي، (المطهر بن طاهر، تبعد ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م): **البدء والتاريخ**، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، د.ت.

١١٥- المقريزي، (تقي الدين أحمد بن علي، تـ ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م): **إمتاع الأسماع** بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تح: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

١١٦- ابن منظور، (جمال الدين محمد بن مكرم، تـ ٧١١هـ/١٣١١م): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

١١٧- الميداني، (أحمد بن محمد النيسابوري، تـ ٥١٨هـ/ ١١٢٤م): **مجمع الأمثال**، تح: محمد عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

١١٨- ابن النجار، (الحافظ محب الدين محمد بن محمود، تـ ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م): **الدرة الثمينة في تاريخ المدينة**، تح: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٥م.

١١٩- النسائي، (أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، تـ ٣٠٣هـ/ ٩١٥م): **المجتبى من السنن**، تح: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٩٨٦م.

١٢٠- أبو نعيم، (أحمد بن عبد الله، تـ ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م): **معرفة الصحابة**، تح: عادل يوسف العزاوي، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٩٩٨م.

١٢١- ________: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتب العربية، بيروت، د.ت.

١٢٢- النووي، (أبو زكريا يحيى بن شرف، تـ ٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م): **المجموع شرح المهذب**، دار الفكر، بيروت، د.ت.

١٢٣- _______: **تهذيب الأسماء**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٢٤- النويري، (أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م): **نهاية الأرب في فنون الأدب**،تح: محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٣م.

١٢٥- النيسابوري، (مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م): **المسند الصحيح**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٥٤م.

١٢٦- ابن هشام، (عبد الملك الحميري المعافري، ت ٢١٣هـ/٨٢٨م): **السيرة النبوية**، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

١٢٧- الهندي، (علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي، ت ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م): **كنز العمال في سنن الأقوال** والأفعال، تح: بكري حياني، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.

١٢٨- الهيثمي، (علي بن أبي بكر بن سليمان، ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م): **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تح: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٩٤م.

١٢٩- الواقدي، (محمد بن عمر، تـ ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م): **المغازي**، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٩٨٩م.

١٣٠- ابن الوزير المغربي، (الحسين بن علي الوزير المغربي، ت ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م): **الإيناس في علم الأنساب**، إعداد: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ط١، ١٩٨٠م.

١٣١- اليعقوبي، (أحمد بن إسحق بن جعفر، تـ بعد ٢٩٢هـ/ بعد ٩٠٥م): **البلدان**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٣٢- ـــــــــــ : **تاريخ اليعقوبي**، تح: عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

١٣٣- أبو يوسف القاضي، (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب، ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م): **الخراج**، تحقيق طه عبد الرءوف سعد-سعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د.ت.

٢- المراجع العربية:

١- إبراهيم، (عبد الرزاق): **الفكر العسكري ومبادئ الحرب في صدر الإسلام**، د.ن، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٢- إدريس، (عبد الله عبد العزيز): **مجتمع المدينة في عهد الرسول**ﷺ، جامعة الملك سعود، الرياض، ط٢، ١٩٩٢م.

٣- الأفغاني، (سعيد محمد): **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٩٦٠م.

٤- أمين، (أحمد): **فجر الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٣٣م.

٥- الأنصاري، (عبد القدوس): **آثار المدينة المنورة**، المكتبة السلفية بالمدينة، المدينة المنورة، ط٣، ١٩٧٣م.

٦- باشميل، (محمد أحمد): **فتح مكة**، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧٢م.

٧- بدر، (عبد الباسط): **التاريخ الشامل للمدينة المنورة، د.ن، المدينة المنورة، ط١، ١٩٩٣م.**

٨- بطاينة، (محمد ضيف الله): **الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى**، دار الكندي، الأردن – إربد، د.ت.

٩- ________ **الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام**، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٨م.

١٠- البلادي، (عاتق غيث): **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، دار مكة، مكة، ط١، ١٩٨٢م.

١١- بيضون، (إبراهيم): **الحجاز والدولة الإسلامية** –دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

١٢- ________: **من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول**، دار اقرأ، بيروت، ١٩٩٨م.

١٣- حتي، (فيليب وآخرون): **تاريخ العرب**، دار غندور، د.م، د.ت.

١٤- حركات، (إبراهيم): **السياسة والمجتمع في العصر النبوي**،دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٨٩م.

١٥- حسن، (حسين الحاج): **النظم الإسلامية**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

١٦- حميد الله، (محمد):**مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي**، والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط٦، ١٩٨٦م.

١٧- خطاب، (محمود شيث): **الرسول القائد**، دار الفكر، بيروت، بيروت، ٢٠٠١م.

١٨- الخطراوي، (محمد العيد): **المدينة في العصر الجاهلي**، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط١، ١٩٨٢م.

١٩- ______ : **شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٠م.

٢٠- الخطيب، (محمد عجاج): **السنة قبل التدوين**، دار الفكر العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧١م.

٢١- أبو خليل، (شوقي): **في التاريخ الإسلامي**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٦م.

٢٢- ______ : **أطلس السيرة النبوية**، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٣- خليل، (عماد الدين): **دراسة في السيرة**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٤، ١٩٩٦م.

٢٤- دراركة، (صالح مؤنس): **العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٩٢م.

٢٥- دروزة، (محمد عزة): **عصر النبي وبيئته قبل البعثة**، دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٤م.

٢٦- ______: **سيرة الرسول، صور مقتبسة من القرآن الكريم**، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٨٠م.

٢٧- رجب، (عمر الفاروق السيد): **المدينة المنورة اقتصاديات المكان. السكان. المورفولوجية**، دار الشروق، جدة، ط١، ١٩٧٩م.

٢٨- رمضان، (حميد السيد): **الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب والمسلمين**، دار الملاّح للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.

٢٩- زكار، (سهيل): **التأريخ عند العرب**، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٣٠- سالم، (عبد الرحمن سالم): **المسلمون والروم في عصر النبوة**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.

٣١- سالم،(عبد العزيز): **تاريخ الدولة العربية**، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، د.ت.

٣٢- ______: **تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٩م.

٣٣- السامرائي و محمد، (خليل إبراهيم و ثائر حامد): **المظاهر الحضرية للمدينة المنورة في عصر النبوة**، الموصل، مطبعة الزهراء الحديثة، ط١، ١٩٨٤م.

٣٤- سحّاب، (فكتور): **إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف**، كومبيو نشر والمركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٣٥- سلامة، (عواطف أديب): **قريش قبل الإسلام**، دار المريخ، الرياض، ١٩٩٤م.

٣٦- شامي، (يحيى): **الشرك الجاهلي**، وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

٣٧- شراب، (محمد بن محمد حسن): **المعالم الأثيرة في السنة والسيرة**، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠م.

٣٨- الشريف، (أحمد إبراهيم): **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.

٣٩- طالب، (محمد سعيد): الدولة العربية الإسلامية، **الدولة والدين، د.ن، دمشق، ط١، ١٩٩٧م.**

٤٠- الظاهري، (أبو تراب):**الأثر المقتفى لقصة هجرة المصطفى**، دار القبلة، د.م، ط١، ١٩٨٤م.

٤١- العاني، (سامي مكي): **دراسات في الأدب الإسلامي**، بغداد ، ١٩٧٥.

٤٢- العربي، (محمد ممدوح): **دولة الرسول في المدينة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م.

٤٣- عرموش، (أحمد راتب): **قيادة الرسول السياسية والعسكرية**، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.

٤٤- علي(جواد):**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، جامعة بغداد، بغداد، ط٢، ١٩٩٣م.

٤٥- العلي، (صالح أحمد): **الحجاز في صدر الإسلام**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

٤٦- ________: **دولة الرسول في المدينة**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٤٧- العمري، (أكرم ضياء): **السيرة النبوية الصحيحة**، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٦، ١٩٩٤م.

٤٨- ________: **المجتمع المدني في عهد النبوة**، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٣م.

٤٩- العياشي، (إبراهيم بن علي): **المدينة بين الماضي والحاضر**، المكتبة العلمية ل محمد النمنكاني، المدينة المنورة، ١٩٧٢م.

٥٠- غضبان، (ياسين): **مدينة يثرب قبل الإسلام**، دار البشير، عمان- الأردن، ط١، ١٩٨٣م.

٥١- الغنيم، (عبد الله يوسف): **أقاليم الجزيرة العربية**، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨١م.

٥٢- الفراجي، عدنان علي: **الحياة الفكرية في المدينة** المنورة في القرنين الأول والثاني للهجرة، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

٥٣- أبو الفضل، (أحمد): **دراسات في العصر الجاهلي**، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، د.م، ١٩٦٧م.

٥٤- قريبي، إبراهيم:**مرويات غزوة بني المصطلق**، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، د.ت.

٥٥- قصاب، (عبد اللطيف ياسين):**الجنس والمرأة عبر العصور**، د.ن، دمشق، ٢٠٠٩م.

٥٦- الكتاني، (محمد بن عبد الحي بن عبد الكبير، تـ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م): **التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية**، تحقيق عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، ط٢، د.ت.

٥٧- محمد، (علي جمعة): **المكاييل والموازين الشرعية**، القدس لإعلان والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م.

٥٨- المغلوث، (سامي عبد الله): **الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ** ، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٤م.

٥٩- مهران، (محمد بيومي): **تاريخ العرب القديم**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ت.

٦٠- مؤنس، (حسين): **أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.

٦١- الندوي، (محمد لقمان الأعظمي): **مجتمع المدينة في عهد الرسول**، دار الاعتصام، د.ت.

٦٢- هيكل، (محمد حسين):**حياة محمد**، دار المعارف، القاهرة، ط١٤، د.ت.

٦٣- الوكيل، (محمد السيد): **يثرب قبل الإسلام**، دار المجتمع، جدة، ط٢، ١٩٨٩م.

٦٤- ________: **المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى**، دار المجتمع، جدة، ط٢، ١٩٨٩م.

٦٥- ________: **الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه**، دار المجتمع، جدة، ط٢، ١٩٨٩م.

٦٦- ياسين، (نجمان):**التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في المدينة في القرن الأول الهجري**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤م.

٦٧- يعقوب الثالث، (بطريرك أنطاكية وسائر المشرق أغناطيوس): **الشهداء الحميريون** في الوثائق السريانية، دمشق، المجلة البطريركية، ١٩٦٦م.

٦٨- يوسيفيوس: **تاريخ يوسيفيوس اليهودي**، المكتبة العمومية، بيروت، د.ت.

٦٩- اليعقوبي، (مراد): **القبيلة ودولة المدينة**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، منشورة، جامعة تونس الأولى، تونس، ٢٠٠٢م.

٣- المراجع المعربة:

١- فلهوزن، (يوليوس):**تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية**، تر: محمد عبد الهادي أبو زيدة، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٨م.

٢- كوبيشّانوف، (يوري ميخايلوفتش):**الشمال الشرقي الإفريقي في العصور الوسيطة المُبكرة وعلاقاته بالجزيرة العربية**، تر: صلاح الدين هاشم، منشورات الجامعة الأردنية، عمّان، ١٩٨٨م.

٣- كيغي، (وولتر): **بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة**، تر: نقولا زيادة، دار قدمس، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م.

٤- هيُلند:، (رُبرت): **تاريخ العرب في جزيرة العرب**، تر: عدنان حسن، دار قدمس، دمشق، ط١، ٢٠١٠م.

٥- واط، (مونتغمري): **محمد في مكة**، تر: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٦- ـــــــــ: **الفكر السياسي الإسلامي**، تر: صبحي حديثي، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

٧- ـــــــــ: **محمد النبي ورجل الدولة**، تر: حمّود حمّود، دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٤م.

٨- ولفنسون، (إسرائيل):**تاريخ اليهود في بلاد العرب**، لجنة التأليف والترجمة، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٧م.

٩- ييغوليفسكيا، (نينا فكتورفنا):**العرب على حدود بيزنطة وإيران**، تر: صلاح الدين هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الخرطوم، ١٩٨٣م.

٤- **الرسائل العلمية:**

١- أبو جبلة، (عامر جاد الله):**تاريخ التربية والتعليم** في صدر الإسلام، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير بإشراف: عبد العزيز الدوري، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٧م.

٢- الحازمي، (عبير نايف): **مجتمع مدينة يثرب قبل الإسلام**، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير بإشراف: رحمة عواد السناني، جامعة طيبة، المدينة المنورة، ٢٠١٥م.

٣- حراحشة: الحياة العلمية في نجد والحجاز، رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه بإشراف: محمد ضيف الله بطاينة، جامعة اليرموك، إربد، ٢٠٠٤م.

٤- الشمري، (حصة بنت عبيد بن صويان): **تخطيط المدينة** المنورة في العهد النبوي والخلافة الراشدة، رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في جامعة الملك سعود بإشراف: خليل المعيقيل، ٢٠٠٤م.

٥- **الموسوعات والدوريات:**

١- عكام، (محمود): **الموسوعة الإسلامية الميسرة**، دار صحارى، دمشق، مج٤، ١٩٩٨م.

٢- الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، الرياض،١٩٨٩م.

- الشبول، (أحمد): علاقات الأمة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة، ج١.
- الصقار، (سامي حماس): لمحات في نشوء الحركة العلمية في الحجاز في صدر الإسلام، ودور المسجد في حياة المسلمين، ج٢.
- الهلابي، (عبد العزيز صالح): الحياة العلمية والأدبية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين، ج٢.

٣- حساني، (خالد جمو): الاحتلال الحبشي لليمن -الدوافع الحقيقة، **مجلة سر من رأى**، مج٩، العدد ٣٣، د.م، ٢٠١٣م، ص١١٩_ ١٢٦.

٤- خربوطلي، (شكران): الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة، **مجلة دراسات تاريخية**، دمشق، العددان ٥٥، ٥٦، ١٩٩٦م.

٥-خريسات: القطائع في صدر الإسلام،**مجلة دراسات تاريخية**، دمشق، العددان ٢٧، ٢٨، ١٩٨٧م.

٦- جاسم، (حنان عيسى): السياسية الرومانية اتجاه الجزيرة العربية، **مجلة آداب الفراهيدي**، بغداد، ٢٠١٣م، العدد ١٦.

٧- محمد توفيق بليغ : المسجد والحياة في المدينة الإسلامية، **مجلة عالم الفكر**، مج١١، بيروت، د.ت.

٨- محمد، (رحيم محمد): مجالس الشعر والغناء، **مجلة ميسان** للدراسات الأكاديمية، جامعة البصرة، ٢٠٠٩م، العدد (١٥).

٩- (فتحي عبد العزيز): الاستراتيجية والتكتيك بين المسلمين والروم، الصدام المبكر، **دورية كان التاريخية**، دورية الكترونية محكمة (www.historicalkan.co.nr)، العدد (٩)، ٢٠١٠م.

- المراجع الأجنبية:

- Margoliouth; The Relations between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam, London, 1924.

- Wellhausen, (Julius): Muhammad and The Jews of Medina, translated by: Wolfgang - H.Behn, Berlin, 1982.

-Theophanes: The Chronicle of Theophanes (A.D. 602- 813), Tran. By; Harry -
Turtledove, U.S.A. Pennsylvania press, 1982 A.D, P. 36.

- Maurice's Strategicon, Handbook of Byzantine Military Stratege, translated by: Goerge. T. Dennis. University of Pennsylvania Press, 1984.

- Watt, (Montgomery): Muhammd –At Medina, Oxford, 1956.

Abstract

This research is a new attempt to investigate the Islamic history; it sheds light on the transition in Yathrib from its being an oasis in the desert to its becoming the City of Islam and the centre of the State in this relatively short time. The dissertation is divided into five sections.

Section 1 is concerned with introducing Medina before Islam. This has included the reason behind its naming, its population,the wars that exhausted it and areference to its political, economic and religious situation before Al-Hijra. As for Section 2, it discusses the political transition in Medina. The discussion begins with the organisation of the local affairs of Medina and moves to the establishment of Al-Masjed An-Nabawi which had many functions and which acted as a community centre of Medina. Additionally, this section touches upon As-Sahifa whose role was like the constitution of that phase, regulatingthe relation with those opposing Islam, the Jews and hypocrites. Another issue of this section is the tendency towards extending the State outside Medina; firstly, the focus has been on the Muslims' attempts to target Quraysh and put it under pressure to make it change its attitude to Islam. Secondly, Saraya and Gazawat– *Expeditions*– towards the north of Medina have been talked about, and the basic remarks related to them have been mentioned. Section 3 is devoted to check the influence of Al-Hijra on the economic situation in Medina.This has included the hard economic circumstances for both Ansar and Muhajirun, the most important changes and regulations in the economic life after Al-Hijra and the new financial resources.

The effects of Al-Hijra on the social situation in Medina are dealt with in Section 4 which refers to the emergence of the *Umma* and to the changes taking place in the society of Medina. Section 5 casts light on how Al-Hijra affected the intellectual life in Medina by referring to Al-Masjed An-Nabawi as a first intellectual centre in Medina. Moreover, this section shows the interest in writing as the most important means of At-Tadween and it mentions some of the pioneers in this intellectual field.The influence of Islam on poetry and elocution has also been discussed.

The conclusion includes an overview of the most important results of this dissertation, the appendices and a list of the references on which the research has depended.

Syrian Arab Rebuplic

Damascus University

Faculty of Arts And Humanities

Department of History



Medina from Al- Maba'ath to GazwatTabuk

(Politically - Economically - Socially - Intellectually)

(610- 630 AD)

A Doctoral Thesis on the History of Arabs and Islam

Prepared By

Maha al-Bitar

Supervised By

Prof. D.r. Suhial Zakkar

2017